

القرآن الكريم

مِنَ الْمِنْظُورِ الْأَسْتَشْرَاقِي
دِرَاسَةٌ نَقْدِيَّةٌ تَحْلِيلِيَّةٌ

تَأَلَّفَ
الْأَسْتَاذُ الدُّكْتُورُ

مُحَمَّدٌ مُحَمَّدٌ أَبُو بَلِيلَةَ

أَسَاطِرُ عَاقِبَةِ الْأُمَمِ وَكَاتِبُ الرِّيَاضِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِالْمَدِينَةِ الْعِلْمِيَّةِ
كَلِمَةُ اللُّغَاتِ وَاللُّغَوِيَّةِ بِجَامِعَةِ الْأَزْهَرِ

القرآن الكريم

من المنظور الاستشراقي

دراسة نقدية تحليلية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الكتاب : القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي

دراسة نقدية تحليلية

المؤلف : د. محمد محمد أبو ليلة

رقم الطبعة : الأولى

تاريخ الإصدار : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

حقوق الطبع : محفوظة للنشر

الناشر : دار النشر للجامعات

رقم الإيداع : ٢٧٨٤ / ٢٠٠٢

الترقيم الدولي : ISBN : 977 - 316 - 078 - 5

الكوود : ٢ / ١٢٩



دار النشر للجامعات - مصر

ص. ب ١٣٠ محمد فريد ١١٥١٨ القاهرة، تليفاكس: ٤٥٠٢٨١٢

شكر وتقدير

إذا كان الله تبارك وتعالى قد اختصني بالقيام بهذه الدراسة والاضطلاع بعبئها وحدي، فإنه سبحانه وتعالى قد هيا بعض أهل العلم والإخلاص لمساندتي وتحفيزي على المُضيِّ فيه قُدُماً، وعلى تجاوزِ العقبات والصعوبات التي اعترضت طريقي أثناء البحث.

أخص من هؤلاء بالذكر فضيلة الإمام الأكبر الشيخ/ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر السابق رحمه الله تعالى رحمةً واسعة، حيث إنه هو الذي زكاني لدى المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة العربية (إيسيسكو ISESCO) للقيام بهذه الدراسة في تفنيد آراء المستشرقين، والرد على مزاعمهم ضد القرآن الكريم.

وما أراني أستطيع أن أوفي الدكتور/ علي القاسمي المشرف على مديرية الثقافة والاتصال بالمنظمة الإسلامية للعلوم والتربية، حقه من الشكر والعرفان على جميل صبره وحسن أدبه ونحن على طريق كتابة هذا البحث؛ كما يطيب لي أن أشكر خلفه الدكتور/ مصطفى أحمد علي الذي أرسل إلينا باسم المنظمة تقريرًا للكتاب نثبت هنا جملاً منه:

"السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد؛ فيطيب لي أن أشكركم باسم المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، على ما أسديتموه من خدمة جليلة في مجال الثقافة الإسلامية بكتابكم عن "القرآن الكريم" الذي قبلته المنظمة لإثراء قاعدة المعلومات الإسلامية التي تعدها في ظل نظام الإنترنت، وإن كان هذا العمل القيم الذي قمتم به يساهم إسهاماً كبيراً في الذود عن الإسلام وتصحيح ما يتعلق بالمعرفة به من التباسات وأخطاء، خاصة في المجتمعات الغربية. وإن كان لعملكم هذا قيمة

بالغة وسوف ينتج ثمرة صالحة ونفعاً جارياً في الحاضر والمستقبل، فإن أجره الحق يكون عند الله، فندعوه سبحانه وتعالى أن يضاعف لكم الثواب في الدنيا والآخرة." وشكرى بلا شك مضاعف للمنظمة الإسلامية للعلوم والتربية والثقافة؛ وللقائمين عليها، وعلى رأسهم أخى الفاضل المفكر والداعية الإسلامى الدكتور/ عبد العزيز التويجى رئيس عام المنظمة.

كما أشكر تلميذى الواعد/ محمد أحمد إبراهيم الذي اضطلع بمراجعة هذا الكتاب وتنسيقه وإخراجه في صورته الأخيرة.

ويطيب لى كذلك أن أشكر دار النشر للجامعات والقائمين عليها، وبخاصة السيد/ سليمان رفاعي وذلك لما بذلوه من جهد فى سبيل طباعة هذا الكتاب ونشره.

وأخيراً وليس آخراً أزجى أنخلص الشكر وأعمق التقدير لزوجتى الدكتورة/ نورشيف عبد الرحيم رفعت أستاذة العقيدة والفلسفة بكلية البنات الإسلامية بجامعة الأزهر؛ والتي كان لها أكبر الفضل فى إخراج هذا الكتاب إلى النور، وذلك لما أبدته من ملحوظات وبذلته من جهد فى تجميع بعض مادته، والإشراف على طباعته.

المؤلف

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قيماً؛ وجعله نوراً هادياً، وروحاً سارياً، ومعجزةً باقية، وحجة ملزمة، كما جعله عصمة ونجاة لمن تمسك به وعمل بمحكمه، وآمن بمتشابهه، وتخلق بأخلاقه، والصلاة والسلام على من كان خُلُقُه القرآن، محمد بن عبد الله الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله كيلاً، البشير النذير، والسراج المنير، والمثل الكامل، والداعي الصادق إلى الله تعالى، الذي حقق بالقرآن في المدة القصيرة ما لم يحققه بشرٌ في الأحقاب الطوال، بل على مدار التاريخ الإنساني كله.

القرآن الكريم هو كلام الله القلسم المعجز المنزل من لدنه تعالى، على قلب رسوله محمد ﷺ بلسان عربي مبين، المنقول عنه بالتواتر، والمكتوب في المصاحف، والمتعبد بتلاوته، المأمور بقراءته وتدبره والعمل به وبتحكيمة في الأمور كلها؛ والقرآن الكريم هو معجزة الرسول ﷺ الباقية على مرِّ العصور، وهو قاعدة الإسلام ومصدر التشريع، والأخلاق والسلوك عند المسلمين؛ وهو الأصل الذي ترجع إليه، وتقاس عليه جميع المعاملات الإسلامية، وهذا الكتاب هو أساس حضارة المسلمين وأصل علومهم ومعارفهم، وهو كتابٌ شامل لكل ما ينفع الناس في الأرض ويضمن لهم السعادة في الدارين.

القرآن هو دستور الخالق لإصلاح الخلق منذ نزل وإلى أن تقوم الساعة، لا كتاب بعده، ختم الله به الكتب، وأكمل به الدين، وأتم به النعمة على المسلمين؛ وهو يمثل قاعدة اللغة العربية وسنماها وتاجها وضولجائها، وهو خير داعٍ إليها ودالٍ عليها، وهو كاملٌ في لغته وفي علومه وفي آثاره النفسية والعقلية؛ وعلى أساسه تحددت معالم الشخصية المسلمة والهوية الإيمانية للمجتمع المسلم، وتميزت الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات.

لم ينزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ جملة واحدة في وقت واحد ولا في مكان واحد، وإنما نزل مفرقاً في مدد زمنية مختلفة؛ وانطلاقاً من القرآن الكريم نفسه فقد استقر علماء القرآن والمفسرون على أن للقرآن الكريم تنزلات ثلاثة:

الأول: صدوره عن الله في اللوح المحفوظ.

الثاني: نزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا - وقد نزل القرآن في كلا التَّنَزُّلَيْنِ جملة واحدة.

أما التَّنْزِيلُ الثالث: فهو نزول جبريل عليه السلام به منجماً آيات تلو آيات، على الرسول ﷺ بحسب المناسبات والأحوال؛ ومراعاة لتثبيت فؤاد النبي ﷺ بالقرآن، وتثبيت القرآن أيضاً في فؤاده ﷺ حفظاً وتمكيناً؛ ثم في أفئدة الصحابة استظهاراً وتطبيقاً؛ وقد استغرق نزول القرآن على النبي ثلاثاً وعشرين سنة.

أول آيات نزلت من القرآن: ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَهُ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ (العلق: ١ : ٥)؛ تلك الآيات التي تتكلم عن أول مراحل نزول القرآن (أقرأ) يعنى تَعَلَّمَ وَعَلَّمَ، أقرأ واستقري؛ كما تتكلم عن أول مراحل الخلق بالنسبة للإنسان المخاطب بالقرآن ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴾، وتتكلم كذلك عن تعليم الإنسان بالقلم كأن المداد هو مادة خلق العلم كالعلق الذي هو مادة الخلق؛ وفي هذه الآيات أيضاً نداء للمسلمين أن يلاحظوا ويجربوا ويستنتجوا. وقد ربط الله تعالى في هذه الآيات المتصلة بين طلب القراءة وبين عملية الخلق، الخلق الأول والخلق المتجدد. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد ربطت الآيات بين العلم الأصلي وبين العلم المتطور المثبت عنه، وربطت ذلك كله في النهاية برب العالمين، أكرم الأكرمين، الذي خلق وعَلَّمَ ورزق ودبّر قبل أن يُكَلِّفَ؛ وهذه من المناسبات القرآنية اللطيفة. وآخر سورة نزلت من القرآن الكريم هي سورة النصر نزلت بعد حجة الوداع في منى، وقد استنتج منها ابن عباس رضي الله عنهما، قرب وفاة النبي ﷺ.

والقرآن منه ما هو مكّي ومنه ما هو مدني، والفواصل الزمنية بينهما المحجرة النبوية. ومن القرآن ما نزل بليل وما نزل بنهار، وما نزل بالبيت وما نزل بالغار، ومنه ما نزل على الجبل وما نزل بالمسجد، ومنه ما نزل في الحِلِّ ومنه ما نزل في الترحال، ومنه ما نزل بحضرة بعض الصحابة ومنه غير ذلك؛ وقد استقر نزول القرآن على رسول الله ﷺ اثنين وعشرين سنة، وشهرين، واثنين وعشرين يوماً.

عدد سور القرآن ١١٤ سورة، وثلاثين جزءاً، وعدد آياته - على الأرجح - (٦٢٣٦) آية بحسب العد الكوفي؛ وعدد كلماته (٧٧٤٧٣) كلمة؛ وعدد حروفه بالرسم - يعنى كتابة - (٣٢٣٠٧١) حرفاً؛ وعدد حروفه باللفظ أو الصوت (٣٣٢٥٨٨)؛ والفرق بين المرسوم والملفوظ منه (٩٥١٧)، وهذا الفرق ناتج عن الحروف المشددة إذ أنها ترسم حرفاً واحداً وتلفظ حرفين.

وقد سَمَّى الله تعالى هذا الكتاب بالقرآن، وهو أخص أسمائه وأدناها عليه على الإطلاق، وبالفرقان، وبالضياء والنور، كما سماه الكتاب والحكمة، والذكر، والوحي، والروح ... إلخ؛ وكل اسم من هذه الأسماء يشير إلى صفة قرآنية خاصة تعبر عن جانب من جوانب القرآن الكثيرة والمتنوعة، وكما ذكر الله تعالى أسماء القرآن في القرآن عرفنا كذلك مصدر هذا الكتاب: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ ﴾ (الكهف: ١) ﴿ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ (النمل: ٦)، ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ (الزمر: ١-٢)؛ ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ ﴿ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ ﴿ (الرحمن: ١-٢)؛ وعرفنا كذلك الشهر الذي نزل فيه هذا الكتاب العزيز وذكره باسمه دون سائر الشهور فقال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة: ١٨٥)؛ وعرفنا الليلة التي أنزل فيها القرآن جملة: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر: ١)، ولذلك عظم الله تعالى شهر القرآن بالصيام والقيام والصدقة، كما عظم ليلة القدر باختصاصها بعظيم الفضل والقدر وبمزيد الأجر للعاملين فيها. وقد حدد الله تعالى لنا كذلك من الذي نزل بالقرآن على محمد ﷺ وكيفية هذا النزول فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ ﴿ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤)، ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ ﴿ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ (التكوير: ١٩: ٢١).

ومعنى قول الحق سبحانه: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أى إنه يعنى القرآن، نقل رسول أمين صادق، وهو جبريل تكلم بالقرآن لرسول الله ﷺ وعلمه إياه تلقينا ومشافهة، وليس معنى ذلك أن القرآن هو كلام جبريل أو كلام محمد ﷺ؛ بل هو كلام الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ (النجم: ١٠) وفي هذا إشارة إلى الوحي المباشر دون واسطة. وأخبرنا الله تعالى أيضاً عن طريقة نزول القرآن بقوله: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْتٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (الإسراء: ١٠٦)، ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ وَلَا يَأْتُوكَ بِمَثَلٍ إِلَّا

جَعَلْنَاكَ بِالْحَقِّ وَالْحَسَنِ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ (الفرقان: ٣٢ - ٣٣)؛ ففي هاتين الآيتين سمى الله تعالى القرآن "حقاً" وذكر معه التفسير، بمعنى أن القرآن مفسرٌ لمعنى الحياة؛ كما أن فيه إجابات على تساؤلات البشر على اتساعهم وتنوعهم وتجددهم وتعاقبهم جيلاً بعد جيل؛ وقد قلنا إن القرآن صالح لمخاطبة أهل البيئات المختلفة والعقليات المتنوعة ولجميع مستويات التمدن، والتحضر في كل عصر وفي كل مصر.

كذلك يبين الله تعالى طريقة تلقّي محمد ﷺ للقرآن، وتكفل الله سبحانه وتعالى بحفظه في صدر الرسول ﷺ أولاً وبتوقيفه على طريقة قراءته: ﴿لَا تُحَرِّك بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ (١) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٢) ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٣) ﴿ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (٤) (القيامة: ١٦ : ١٩)؛ ويقول تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (٥) (الحجر: ٩)، ويقول تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٦) (طه: ١١٤)، هذه الآيات الكريمة تعني في عمومها أن الله تعالى يقول لمحمد ﷺ نحن متكفلون بجمعه في صدرك بقدرتينا، لا بفعل الذاكرة والمذاكرة من قبلك، ونحن متكفلون كذلك بإقراءك القرآن كما هو عند الله تعالى، وهذه القراءة ملزمة لك، ولكل من يتلقى القرآن منك، أو من حفظه من أمّتك وهكذا دواليك؛ فإنه ينبغي عليه في تعلم القرآن وحفظه أن يأخذه تلقيناً؛ "ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا" بعد تثبيت القرآن في الصدور فإن علينا تفسيره وبيانه لك ولقومك، وكما حفظنا القرآن أثناء نزوله عليك حتى استقر في صدرك، وحفظته الأمة عنك، فإننا متكفلون كذلك بحفظه إلى قيام الساعة.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال لنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "إن رسول الله ﷺ يأمركم أن تقرأوا القرآن كما علمتم". وعن عبد الله بن مسعود قال: "اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كَفَيْتُمْ" وقال زيد بن ثابت: "القراءة سنة فاقروا كما تجدونه." (١)

وتكلم القرآن عن طبيعته الإعجازية التي تفوق قدرات البشر البيانية والبلاغية، فرادى كانوا أم مجتمعين، إذ يقول تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢)

(١) ابن مجاهد. كتاب السبعة في القراءات. تحقيق الدكتور شوقي ضيف - القاهرة - دار المعارف ط ٣ - ١٩٨٨م/

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴿البقرة: ٢٣ - ٢٤﴾، ويقول عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفْتَرَنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٤﴾ فَإِلَهُ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ (هود: ١٣ - ١٤)، ويقول تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨)، ويقول تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ ۚ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٣ - ٣٤)؛ وفي هذه الآيات دليل، بل أدلة على إعجاز القرآن الكريم، وعلى أنه مُنْزَلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَعَالَى.

كما حدّد الله عز وجل لنا كذلك طبيعة القرآن الكريم ولغته، فقرر أنه سبحانه وتعالى أنزله بلسان عربي مبين، وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأنه كتاب قيم غير ذى عوج ولا تناقض؛ وأنه كما وصفته الجن بحق قرآنًا عجبًا، يهدى إلى الرُّشد؛ وأحبرنا تبارك وتعالى أنه "يسرّ" القرآن أي "سهّله" للحفظ والفهم، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢)، وقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾﴾ (مریم: ٩٧)، ويقول: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ (الدخان: ٥٨) وقد أمر الله تعالى محمداً ﷺ أن يقرأ القرآن:

﴿وَأَوْحِي إِلَى هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةً أُخْرَى ۚ قُلْ لَا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الأنعام: ١٩)؛ ﴿إِنَّمَا أَمِرتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ ۚ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ ۚ وَأُمِرتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٢٠﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ ۚ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ ۚ وَمَنْ ضَلَّٰ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿٢١﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (النمل: ٩١ : ٩٣).

﴿إِنَّ الَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِهَٰذِهِ وَمَنْ

هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ (القصص : ٨٥)، ومعنى "فَرَضَ عَلَيْكَ" أى فرض عليك تلاوته وإبلاغه للناس.

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ (الشورى : ٧)

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ خَفَا وَعِيدِ ﴾ (ق : ٤٥)

﴿ أَوْزِدْ عَلَيْهِ وَرَزِلْ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ (الزمل : ٤)، أى اقرأه على تمهل، فإنه أكثر عوناً على فهم القرآن وتدبره، وهكذا كان يقرؤه ﷺ.

عن عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقرأ السورة فيُرْتِّلُها حتى تكون أطول من أطول منها.

وفى صحيح البخارى عن أنس أنه سُئِلَ عن قراءة رسول الله ﷺ فقال كان مدّاً، ثم قرأ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ بِمَدٍّ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ بِمَدٍّ ﴿ الرَّحْمَنِ ﴾ بِمَدٍّ ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ بِمَدٍّ ﴿ الرَّحِيمِ ﴾ بِمَدٍّ أخرجه البخارى.

وعن أم سلمة رضى الله عنها أنها سئلت عن قراءة رسول الله ﷺ فقالت: "كَانَ يُقَطِّعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً..." الحديث. وهذا مصداق قوله تعالى أيضاً: ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ (الإسراء : ١٠٦).

فهذا هو رسول الله ﷺ قد أُمِرَ بقراءة القرآن، فقرأه آناء الليل وأطراف النهار؛ وكان القرآن الكريم هو شغله ﷺ قولاً وعملاً، وقد عُنِيَ صحابة رسول الله ﷺ بقراءة القرآن الكريم وتدبره منذ أن نزلت الآيات الأولى وحتى الآيات الأخيرة فيه، لا سيما وقد شملهم الأمر الإلهى فى قوله تعالى: ﴿ وَرَزَّلْنَا الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ ﴿ وَقَوْلِهِ: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ ﴾؛ وحيث جاءهم الأمر وتوجه إليهم وإلى عموم المسلمين الخطاب الربانى بأن يقرءوا القرآن ويتدبروه، إذ يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ (النساء : ٨٢)، ويقول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ٣)، ويقول: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٤٤)، ويقول: ﴿ فَأَقْرَأُوا مَا تيسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (الزمل : ٢٠).

وأمرنا الله تعالى بالتأدب مع القرآن حين يُتلى علينا، أن نخشع له ونرقق عند سماعه يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤)

والله سبحانه وتعالى يشهد قراءتنا ويجازينا عليها خيراً، يقول تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)، ويقول تبارك وتعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون) (النحل: ٩٨ - ٩٩)

الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند الشروع في قراءة القرآن إنما جاء لطهارة القلب من وساوس الشيطان وإفراغ العقل والبال لكلام الله تعالى، وجمع القلب بالكلية لقراءة القرآن حتى يصل نوره المبين إلى القلب، وإلى الروح فيحييهما ويجلوهما؛ فالشيطان إذا حضر القراءة حصد الخير المترتب عليها، وصرف الثواب المرجو منها.

وإذا ما قرأ الإنسان القرآن بجوانحه وجوارحه وبقليه وعقله فانه يدخل في المعية الإلهية ويحجب آمناً في حرم القرآن الكريم، ويصل إلى الحق من طريق الحق، ويهتدى إلى الصراط المستقيم: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩) ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بَالًا خَرَّةً حِجَابًا مُسْتَوْرًا﴾ (الإسراء: ٤٥)

والقرآن شفاء من كل داء جسماني أو روحاني، والقرآن مُخلص من كل مُكدر ومنعص، يقول تعالى: ﴿وَنَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ (التوبة: ١٤)، ويقول: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨) وكما أن القرآن ذكر فإنه مذكّر، يقول تعالى: ﴿طه﴾ (ما أنزلنا عليك القرآن لِتَشْقَى) (طه: ١-٢)، ﴿لِنُنْشِئَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ (الفرقان: ٣٢).

يقول أبو منصور الأزهري محمد بن أحمد: "جاء في التفسير أن كتب أهل الأديان مثل

التسوية والإنجيل والزبور، إنما يتلوها أهلها نظراً ولا يحفظونها كأن يسردها أحدهم عن ظهر قلبه سرّداً، ولأنهم لا يكادون يحفظونها من أولها إلى آخرها كما أنزل الله حفظاً، كما تحفظ هذه الأمة القرآن، ومن عجيب تيسير الله القرآن إجراؤه للذكر والمذاكرة بإقداره لمن لم ينزل بلسانه، ومن لا يفهم معانيه أن يحفظه، كما يحفظه من نزل بلسانه من العرب وأمكنه أن يفهم تأويله، وأن يحفظه الأمي الذي لا يكتب ولا يتلو الكتب، والقارئ الرّيّض، والصغير والكبير والعرب والفصيح والألكن^(١).

ذكر الله تعالى أن القرآن هو نعمة الله على البشر، وأن فيه الهدى والنور واليقين والسعادة والفوز في الدارين؛ وأن الله ما فرّط فيه من شيء ولا ترك أمراً فيه صلاح الإنسان إلا أنزله فيه، وأن القرآن كتاب جامع لكل أصول العلوم بصنوفها المختلفة، بل إن القرآن نفسه كتاب علم؛ وعلى قاعدته أُسِّست المعرفة الإسلامية، وبه قامت دولة الإسلام وسيست الأمة الإسلامية ودبرت شئونها. وعلم القرآن ليس علماً تجريبياً أو نظرياً يراد به التهويم أو التهويل أو عزل الناس عن الحياة، وإنما هو علمٌ مقرونٌ بالعمل لا ينفك عن الإيمان الراسخ والأخلاق السامية والقيم العالية والأهداف النبيلة البتّة، وكما ذكر الله تعالى فضل القرآن، كذلك نوه النبي ﷺ بالقيمة الأسمى لهذا الكتاب العظيم؛ عن عثمان بن عفان عن النبي ﷺ قال: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ" انفرد بإخراجه البخاري. وروى عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه يقال لقارئ القرآن: "اقْرَأْ وَارْقُ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَازَلْتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا" أخرجه أبو داود^(٢)؛ وروى عقبة بن عامر عن النبي ﷺ - أنه قال: "لَا يُعَذِّبُ اللَّهُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ". وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: "إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ حَمَلَةَ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَتُهُ" أخرجه الديلمي عن عقبة بن عامر. وروت عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ أنه قال: "مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَحَفَظَهُ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ، وَشَفَعَهُ فِي عَشْرَةٍ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلِّ قَدْ اسْتَوْجَبَ النَّارَ" رواه ابن ماجه في المقدمة.

ومن خطبة للنبي ﷺ: "إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، أَحْمَدُهُ وَأَسْتَعِينُهُ، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ أَنْفُسِنَا، وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا؛ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ؛ إِنْ أَحْسَنَ الْحَدِيثَ كِتَابُ اللَّهِ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَيَّنَّهُ فِي قَلْبِهِ،

(١) معاني القراءات ج ١ ص ٩١ - ٩٢ عدلنا كلمة "يحفظونها"، وشطبنا كلمة "منهم" في النص ليستقيم المعنى.

(٢) حديث رقم ١٤٦٤ ج ٤ ص ٧٣؛ والترمذي في السنن (٢٥٠/٤)

وأدخله في الإسلام بعد الكفر، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس، إنه أصدق الحديث وأبلغه. أحبوا من أحب الله، وأحبوا الله من كل قلوبكم، ولا تملأوا كلام الله وذكره، ولا تقسوا عليه قلوبكم، اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. اتقوا الله حق تقاته، وصدقوا صالح ما تعلمون بأفواهكم، وتحابوا بروح الله بينكم" ^(١). وقال ﷺ: "سَتَكُونُ فِتْنٌ" قيل: "وَمَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا؟" قَالَ: "كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأٌ مَا قَبْلَكُمْ وَخَيْرٌ مَا بَعْدَكُمْ وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ" ^(٢). وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: "من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين". قال البيهقي: يعنى أصول العلم. ووصف الإمام على كرم الله وجهه القرآن بأنه: "نورٌ لا تُطفأ مصابيحُه" ^(٣). عن الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي يقول: "من قرأ القرآن عظمت قيمته؛ ومن تفقه نبل قدره؛ ومن كتَب الحديث قَوِيَتْ حجته؛ ومن تعلم اللغة رق طبعه؛ ومن تعلم الحساب جزل رأيه؛ ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه" ^(٤). وقال الإمام الشافعي ﷺ أيضاً: "جميع ما تقوله الأمة شرح للسنة، وجميع السنة شرح للقرآن". وأخرج أبو نعيم وغيره، عن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قال: قيل لموسى عليه السلام: "يا موسى إنما مثل كتاب أحمد في الكتب المنزلة، بمنزلة وعاء فيه لبن، كلما مَخَضْتَه أعطاكَ زبدًا" ^(٥)؛ وهذا وصفٌ عظيمٌ للقرآن العظيم؛ فهو كتابٌ لا تنتهي عجائبه، ولا تنفذ ذخائره.

القرآن هو معجزة الإسلام ودستوره الشامل ومنهجه الكامل، والني ﷺ هو مُبْلَغُ هذا الكتاب الكريم ومبينه للناس قولاً وعملاً، والداعي إليه جميع البشر بإذن ربه إلى الصراط المستقيم، صراط الله الذي له ملك السماوات والأرض؛ القرآن هو الذي أبقي على اللغة العربية، وجعلها لغة عالمية ولغة حية، باقية إلى اليوم وإلى قيام الساعة إن شاء الله تعالى.

القرآن هو سفير هذه اللغة إلى الآفاق، إلى الجزر النائية والبلاد القاصية والقارات المترامية؛ هو جامعة القلوب، ورابطة الأخوة بين المسلمين، وهو عصمتهم من الانحراف والانحراف، وهو حَكَمُهم وقاضيتهم وناصحهم وزاجرهم وشفيعهم، ونورهم الذي يسعى

(١) كنز العمال ١٦/١٢٤، ١٢٥.

(٢) أخرجه الدارمي في كتاب فضائل القرآن

(٣) نهج البلاغة تحقيق بشرح الإمام محمد عبده دار المعرفة ١٧٧/٢.

(٤) ابن الجوزي - جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (٥١٠ - ٥٩٧هـ) التبصرة: تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، وعمره أحمد عطوة (الإسكندرية - دار ابن خلدون ج ٢ - ص ٢١٢).

(٥) السيوطي معترك الأقران ١٣/١ - ١٩.

بين أيديهم وبأيامهم في الدنيا والآخرة، والنبي ﷺ هو مثلُ المسلمين الأعلى، وقدوثهم المثلى في جميع شئون الدنيا والدين، وإذا كان القرآن هو معجزته القولية، فأخلاقه ﷺ هي معجزته العملية. ولن تضل هذه الأمة أو تذلل أو تزول ما دام هذا القرآن فيها يتلى، وعلى سلوكها وعملها يهيمن، وفي كل شئون حياتها يُطبَّق ويُحكَّم.

هذه هي أول دراسة نقدية شاملة على حد علمنا لآراء المستشرقين وبحوثهم حول القرآن الكريم، وبالتحديد كما جاءت في دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة القرآن، وما يتصل به من موضوعات.

إن دراسة ما جاء بهذه الموسوعة عن القرآن الكريم يعنى دراسة خلاصة ما انتهت إليه البحوث والمحاولات الاستشراقية في مجال الدراسات القرآنية بشكل عام.

وإذا كان للمستشرقين جهودهم التي لا تنكر في خدمة البحث العلمي والاهتمام بالعلوم الإسلامية والعناية بالتراث الإسلامي، وإذا كان لبعضهم فضل التنويه المنصف بقيم الإسلام والحضارة الإسلامية، فإن لهم أيضاً أخطاءً وأغاليط، وخروجاً أحياناً كثيرة عن المنهج العلمي، ينبغي إظهارها والرد عليها وبخاصة فيما يتصل بالقرآن الكريم، والنبي ﷺ.

وإذا كان الرد على المستشرقين ومن لَفَّ لفيقهم، يعتبر واجبا على المسلمين في كل وقت، فإنه في هذا العصر بالذات يعتبر من أوجب الواجبات عليهم، فقد أصبحت الكلمة والصورة في وقتنا الحاضر أبلغ خطراً من الأسلحة والجيوش الحرارية، وغدت أساليب الدعاية المدروسة أشد تأثيراً على الإنسان نفسه من الخطب والمواعظ المسطحة والعبارات المجنحة، يستوى في ذلك الخاصة والعامة من الناس.

والقرآن كتابٌ عالمي، سواء أكان في لغته الأصلية، اللغة العربية، أم في الترجمات المختلفة التي ظهر فيها، أم في الدراسات التي كتبت وتكتب عنه، والتي تتفاوت قوة وضعفاً، وإنصافاً وإجحافاً، وسطحية وعمقا، وخطأً وصواباً؛ ومن الملاحظ أن ترجمات معاني القرآن المبكرة وكذلك الدراسات التي قامت عليها، والدراسات الإسلامية في الغرب بوجه عام قام بها علماء وباحثون غير مسلمين، وأغلبهم إن لم يكن كلهم، من رجال الدين اليهودي أو المسيحي، وأما دخول المسلمين في هذا الميدان فقد جاء متأخراً؛ وحتى ما يُقدمه المسلمون، سواء أكان في مجال الترجمة أم في مجال الدراسات والبحوث باللغات غير الإسلامية في معظمه، ينقصه الكثير من الصقل والحرارة الأدبية والدقة في التعبير.

إن تقديم الإسلام للغرب في حاجة إلى تعاون العلماء الأكفاء وتضافر الجهود المخلصة في سبيل تقديمه في صورته الحقيقية، وتولى الرد على المستشرقين ونقاد الإسلام من الغربيين بالمنهج نفسه الذي يفهمونه، وبالأسلوب الذي يرتضونه، وهذا ما حاولناه في هذه الدراسة، التي نرجو أن ننشرها باللغة الإنجليزية فيما بعد لتضاف إلى أعمال أخرى لنا قدمناها بهذه اللغة في الرد على خصوم الإسلام ونقاد القرآن.

اعتمدنا في دراستنا هذه على دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنجليزية الصادرة عن دار بريل للنشر بليدن في ١٩١٣ - ١٩٣٨ م، والطبعة الجديدة الصادرة عن الدار نفسها بالاشتراك مع دار لوزاك للنشر بلندن عام ١٩٦٠ م.

يستغرق مدخل القرآن في دائرة المعارف الإسلامية اثنين وثلاثين صفحة بحجم الموسوعة؛ تشتمل كل صفحة منها على عمودين كبيرين تتراوح عدد أسطر العمود الواحد ما بين ٧٢-٧٤ سطرا.

والمقال بقلم المستشرقين "أ.ت. ويلش" (A.T. WELSH)، و"ج.د. بيرسون" (J.D. PERSON)

وقبل أن نشرع في هذه الدراسة ينبغي أن نبين المنهج الذي اعتمدنا عليه في كتابتها.

الخطة والمنهج

المنهج الذى اتبعناه فى هذا الكتاب يتلخص فى عرض كلام الكاتب أو نُقُوله وشواهده التى اعتمد عليها فى دراسته أولاً؛ ثم إبراز أهم النقاط التى نخالفه و نعارضه فيها مشفوعة بالرد عليها وذلك عن طريقين:

الأول: يأتى فى شكل تعقيب على دعوى الكاتب.

الثانى: فى شكل مداخلة، وذلك عندما نضطر إلى قطع سياق حديثه، لتوضيح كلامه أو إظهار ما أجمله أو عمى به على القارئ؛ ولهذا قد يبدو للقارئ أحياناً بعد المسافات بين النقاط موضوع الدراسة، إلا أنه مع ذلك سوف يلاحظ بوضوح، فى الوقت نفسه، العلاقة العضوية الحية بين الموضوعات المختلفة التى نعالجها.

ومن خطتنا فى هذا الكتاب أيضاً أننا قد نقدم للنقطة التى نتناولها بكلام مختصر نبين فيه وجهة نظر الإسلام قبل أن نعرض لآراء الكاتب. فى هذه الدراسة نشير إلى كاتب المقال أحياناً باسمه وأحياناً أخرى بعبارة "زعم الكاتب"، أو "ادعى المستشرق" أو "قال المعارض". وإذا كانت الإشارة إلى مؤلف آخر ورد ذكره فى النص فإننا نذكره باسمه تحديداً، حتى نميز بينه وبين كاتب المقال بالموسوعة.

ومما هو جدير بالذكر أيضاً أن أنبه على أننى - ككاتب مسلم - قد استعملت عبارات التسنيز لله سبحانه وتعالى، عند ذكر لفظ الجلالة، وكذلك صليت وسلمت على رسول الله ﷺ عند ذكر اسمه الشريف تيمناً وتبركاً، وأضعاً ذلك بين قوسين فى حالة ما إذا كان الكلام نقلاً عن المستشرقين، وذلك تنبيهاً على أن ما بين القوسين من كلام ليس هو من كلامنا، ولا من صلب النص المترجم.

أما إذا ورد ذكر الاسمين الشريفين فى ثنايا كلامى فقد استغنيت عن القوسين وأمضيت الكلام نسقاً واحداً متصلاً.

يشتمل مقال القرآن بالموسوعة الإسلامية على الموضوعات الرئيسة الآتية:

١ - القرآن (الأصل والمترادفات)

1) ETYMOLOGY AND SYNONYMS

(أ) الاشتقاق والاستعمال القرآنى

◆ DERIVATION AND KURANIC USAGE

(ب) المترادفات في القرآن

◆ SYNONYMS IN THE KUR'ĀN

٢- محمد ﷺ والقرآن

2) MUHAMMAD (PEACE BE UPON HIM) AND THE KUR'ĀN

٣- تاريخ القرآن بعد عام ٦٣٢م

3) HISTORY OF THE KURAN AFTER 632

ويدور حول:

(أ) جمع القرآن

◆ THE COLLECTION OF THE KUR'ĀN

(ب) القراءات المتنوعة ومصاحف الصحابة

◆ VARIANT READINGS AND COMPANION CODICES

(ج) كتابة المصحف الإمام واعتماد القراءات

◆ ESTABLISHMENT OF THE CANONICAL TEXT AND READINGS

٤- بنية القرآن

4) STRUCTURE OF THE KUR'ĀN

ويتناول النقاط الآتية :

(أ) السور وأسمائها

◆ THE SURAS AND THEIR NAMES

(ب) الآيات

◆ THE VERSES

(ج) البسملة

◆ THE BASMALA

(د) الحروف المقطعة أو الغامضة

◆ THE MYSTERIOUS LETTERS

٥- الحوادث والمناسبات التاريخية في القرآن

5) CHRONOLOGY OF THE TEXT

ويشمل :

أ- الإشارات التاريخية في القرآن

◆ HISTORICAL REFERENCES IN THE KUR'ĀN

ب- التأريخ الإسلامى المعتمد للقرآن

♦ TRADITIONAL MUSLIM DATING

ج- التأريخ الغربى الحديث للقرآن

♦ MODERN WESTERN DATING

6) LANGUAGE AND STYLE

٦- اللغة والأسلوب

تحت هذا العنوان تعالج الموضوعات الآتية :

أ- لغة القرآن

♦ LANGUAGE OF THE KUR'ĀN

ب- المفردات غير العربية فى القرآن

♦ FOREIGN VOCABULARIES

ج- الأسجاع والفواصل المتكررة فى القرآن

♦ RHYMES AND REFRAINS

د- الشكل التخطيطى والاعتبارات المتعددة (للأسجاع والفواصل القرآنية)

♦ SCHEMATIC FORMS AND MULTIPLE ACCOUNTS

٧- الأشكال الأدبية والموضوعات الرئيسة

7) LITERARY FORMS AND MAJOR THEMES

ويندرج تحته:

أ- أقسام القرآن وما يتصل بها من أشكال أخرى

♦ OATHS AND RELATED FORMS

ب- آيات النظر فى الأنفس وفى الآفاق

♦ SIGN PASSAGE

ج- آيات الأمر بصيغة " قل "

♦ SAY PASSAGES

د- الأمثال " فى القرآن "

♦ NARRATIVES

هـ- آيات الأحكام

♦ REGULATIONS

و- آيات العبادات والشعائر

♦ LITURGICAL FORMS

ز- موضوعات قرآنية أخرى

♦ OTHER KURANIC SUBJECTS

تناول الكاتب في هذا القسم بعض سمات السور المكية والسور المدنية مثل أوصاف الجنة والنار والحساب والعقاب وصفات الله وغير ذلك.

٨ - القرآن في حياة المسلمين وفكرهم

8) THE KUR'ĀN IN MUSLIM LIFE AND THOUGHT

هذه الموضوعات الثمانية وما اشتملت عليه من تفرعات كتبها أ. ت. ويلش، وقد ذيلها بقائمة من المصادر المهمة.

٩ - ترجمة القرآن 9) TRANSLATION OF THE KUR'ĀN

ويبحث فيه:

أ- رأى علماء السلف في ترجمة القرآن

◆ THE ORTHODOX DOCTRINE OF THE TRANSLATION OF THE KUR'ĀN

ب- الترجمات واللغات التي ترجم إليها القرآن

◆ TRANSLATIONS OF THE KUR'ĀN INTO SPECIFIC LANGUAGES

وهذا الموضوع الأخير تولى كتابته المستشرق ج. د. بيرسون، وهو آخر موضوع فرعى في الموسوعة تحت مادة القرآن، وهو أيضاً مذيّل بقائمة من المصادر المهمة. وسوف نتناول بالعرض والتحليل والنقد هذه الموضوعات التي ذكرناها منتهجين النسق نفسه في ترتيبها على ما هو عليه في الموسوعة؛ وللتيسير على القارئ جعلنا العناوين الرئيسية التي وضعها ويلش أبواباً وفصولاً، وحاولنا أن تقرب بينها من حيث حجم الباب والفصل، ما أمكننا إلى ذلك سبيلاً؛ سائلين المولى عز وجل التيسير والتوفيق بمنه وفضله.

الأستاذ الدكتور/ محمد محمد أبو ليلة

أستاذ مقارنة الأديان وأستاذ الدراسات الإسلامية باللغة الإنجليزية

ورئيس قسم اللغة الإنجليزية

كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر

الباب الأول

القرآن

الأصل والمترادفات

الفصل الأول ... الاشتقاق والاستعمال القرآني

الفصل الثاني ... المترادفات في القرآن

الفصل الأول

الاشتقاق والاستعمال القرآنى

لاحظ الكاتب أن أقدم استخدام مؤيد بالشواهد للفظـة "القرآن" قد أورده القرآن نفسه، حيث ظهر فيه حوالى السبعين مرة متضمناً معانى شتى.

يقول: أ. ت. ويلش: "إن معظم علماء الغرب قد قبلوا وجهة النظر التى طورها ف. اسكواللى، وآخرون، والتى تذهب إلى أن لفظ "القرآن" مأخوذ من الكلمة السريانية قريانا (Keryana) التى تعنى درساً فى قراءة الكتاب المقدس كما هو مستعمل فى الطقوس والشعائر النصرانية"؛ يؤيد الكاتب هذا الزعم بالإحالة إلى مخطوط سريانى قديم يرجع إلى القرن السادس الميلادى والموجود ضمن مخطوطات المتحف البريطانى بلندن، إلخافى رقم ١٤، ٤٣٢، وهو تحت عنوان (Keryana d-yom ba awata lection for the day of supplications) التى ترجمتها "فصول مقتبسة من الكتاب المقدس لقراءتها بغرض الدعاء أو الابتهاال أثناء تأدية الطقوس النصرانية". ثم يتناول الكاتب رأى علماء اللغة المسلمين فى معنى لفظـة "قرآن" مقررأ أن جمهور علمائهم يُنصُّون ببساطة على أن اللفظة مشتقة من الفعل "قرأ" وأن كلتا وجهتي النظر، الغربية والإسلامية، الخاصتين بتحديد المعنى اللغوى للفظـة "قرآن" لها بعض الشواهد التى تؤيدها فى القرآن نفسه؛ ثم يضيف المستشرق إلى ذلك قوله: "إن الفعل "قرأ" لا يظهر فى القرآن بهذه الكثرة نفسها التى يظهر بها الفعل "تلى" الذى يدل أيضاً على القراءة؛ وتورد المخطوطات الكوفية القديمة لفظـة "القران" بهذا الرسم هكذا بدون همزة، وهى بهذا الشكل مشتقة من "قرن" لا من "قرأ"، وهى بهذا المعنى تكون مأخوذة من "ضم الشيء إلى الشيء" أى جمع بينهما، مما حدّا ببعض الصحابة كقتادة وأبى عبيدة إلى القول بأن لفظـة "قرآن" مأخوذة من "قرن". بمعنى ضم وجمع، لأن "قرأ"، بمعنى "تلى".

يذكر الكاتب وجهة نظرٍ أخرى كمقابل لتلك التى ذكرها فيقول إن حذف الهمزة يعتبر من سمات لهجة أهل مكة والمصاحف الكوفية القديمة، وإن لفظ "القرآن" له علاقة وشيجة بالفعل "قرأ" فى الاستعمال القرآنى، وينتهى الكاتب إلى القول بأن أصح الأقوال فى تقرير هذه المسألة تكمن فى أن لفظ "القرآن" كان قد استحدث أصلاً فى القرآن نفسه لتأدية مفهوم الكلمة السريانية "قريانا"، ولكنه أى لفظ "القرآن" قد أسند إلى صيغة

مصدر عربي يعنى "قرآن"، على وزن "فعلان" المشتق من الفعل "قرأ"، ليكون منسجماً مع التراكيب القرآنية وجارياً على قواعد اللغة العربية.

وقبل أن نعرض التفسير الإسلامى الصحيح لكلمة "القرآن"، التى هى عنوان كتاب الله تعالى وأخص أسمائه وأشهرها، لا بد أن نبين الأخطاء التى تضمنها كلام الكاتب، والغرض الذى يهدف إلى تأسيسه فى ذهن القارئ.

يزعم ويلش أولاً أن لفظة "القرآن" لا تعنى غير القرآن نفسه فى كل المواضع التى ذكرت فيها أياً كانت القرينة؛ وسوف نوضح خطأ الكاتب فى هذا الزعم، وخطأ استنتاجه كذلك. أما ما ذهب إليه اسكواللى - وأيده فيه معظم المستشرقين - من أن لفظة "قرآن" مأخوذة أصلاً من الكلمة السريانية "قريانا"، فزعم جاف لا دليل عليه من قريب ولا من بعيد، وهذا التفسير الغريب لم يخطر ببال أحد من أئمة علماء اللغة العربية، ولا ببال هؤلاء الذين عُنُوا بجمع مفردات القرآن وتفسيرها.

فالتبث الذى يقدمه لنا السيوطى للألفاظ المعربة فى القرآن فى كتابه "الإتقان فى علوم القرآن" ^(١) يخلو تماماً من هذه اللفظة؛ وقد راجعنا أيضاً كل ما أتيح لنا من مصادر فى هذا الباب، فلم نجد لها أيضاً أثراً ولا ظلاً؛ وهذا دليل دامغ على أن كلمة "قرآن" عربية الأرومة والمحسد، وأن اللغة العربية لم تكن لتضيق بلفظة اتخذها الله تعالى عنواناً لكلامه القديم، واسماً لكتابه المعجز؛ وبالتالي فإن افتراض الكاتب واعتراضه لا مسوغ لهما.

إن الفعل "قرأ" بمشتقاته المتنوعة يعد من أبرز الأفعال والمشتقات فى اللغة العربية، ولكن الكاتب يتجاهل هذه الحقيقة، ويزعم مع جمهور المستشرقين أن عنوان كتاب المسلمين منتحل من لغة أخرى، وينبغى أن يكون واضحاً أن وجود كلمة "قريانا" السريانية بمعناها المشار إليه آنفاً لا يعنى انتقالها إلى القرآن ألبتة، وإلا لَلَزِمَ أن يُعرِّفنا المستشرقون متى، وكيف وصلت هذه الكلمة إلى القرآن؟ آخذين فى الاعتبار أن كلمة "قريانا" السريانية تطلق - كما أشار الكاتب نفسه - على مجموعة نصوص مقدسة استُلت من كتاب أو كتب معروفة، وذلك لاستخدامها كأدعية وابتهالات دينية ضمن الطقوس الكنسية؛ مع أن كلمة "قرآن" تطلق على "القرآن" كله "حقيقة"، وعلى بعضه "بجازاً"، كالماء يُطلق على البعض كما يطلق

(١) حلال الدين عبد الرحمن السيوطى - الإتقان فى علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - مطبعة المشهد الحسينى ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.

على الكل. والقرآن ليس أدعية؛ وإنما هو كتاب جامعٌ يحتوى على أصول العلوم، وقواعد الإيمان، والأخلاق، والمعاملات، والتشريعات، وعلى السير والقصص، والمواعظ والأمثال، والأدعية والابتهالات، والنبوءات، وعلوم الآخرة من بعث وحساب وثواب وعقاب وجنة ونار؛ فالقرآن هو المصدر الذى يرجع إليه المسلمون فى كل ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم.

سمى القرآن بهذا الاسم، لأنه كتابٌ يُقرأ ويتميز على الكتب الأخرى، لكثرة ما يُقرأ، قرأه الله تعالى وعلمه رسول الله ﷺ: ﴿الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾﴾ (الرحمن: ١) وقرأه جبريل عليه السلام على محمد ﷺ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿١﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ﴿٢﴾﴾ (النجم: ٤-٥)؛ وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿٢﴾﴾ (القيامة: ١٨-١٩) ومعنى "قُرْآنُهُ" فى الآية أى قراءته، ومعنى "بَيَانُهُ" أى تفسيره وإظهاره، كما مرت الإشارة إليه.

وقرأ النبي ﷺ القرآن آيةً آيةً: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥)، ﴿وَرَبَّلَ الْقُرْآنَ نَزِيلًا ﴿١﴾﴾ (الزمل: ٤)، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٧﴾﴾ (مريم: ٩٧)، ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿١﴾﴾ (النمل: ٦)؛ وقوله تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١﴾﴾ (الإسراء: ١٠٦).

وقرأ صحابة رسول الله ﷺ القرآن وعُتُوا به عنايةً كبيرة، فقد حفظوه وضبطوه وتعلّموه وعلمّوه وجمعوه فى الصدور والسطور، وطبقوه فى كل مجالات حياتهم المختلفة، يستوى فى ذلك رجالهم ونساؤهم، وكهولهم وصبيانهم، عربهم وعجمهم.

وعندما اتسعت رقعة الإسلام اتسع حفاظه، ومعلموه، ومتعلموه أيضاً، وانتشرت بكثرة دور تحفيظ القرآن، فى البقاع الإسلامية كلها على ترامى أطرافها واختلاف أجوائها وبيئاتها ومدنيتها، وتعدد أجناسها. ومن معجزات القرآن أنه كان يُقرأ فى لغته الأصلية فى بلاد لم يكن لها عهد باللغة العربية.

لا يوجد كتابٌ في العالم قد عُني به أهله أكثر من القرآن؛ بل إن هناك كتباً مقدسة تطبع بالملايين، وترجم إلى لغات العالمين ولهجاتهم؛ بل ويدفع بها إلى الناس دون مقابل، في أفخم الطباعات وأجمل الإخراج، ومع هذا فإنها لا تجد من يقرأها، وليس يقرأ منها غالباً إلا في مناسبة دينية أو لدراسة علمية بحثية، ولا يفوتنا أن نلفت النظر هنا إلى أن بعض هذه الكتب المقدسة قد فقدت بالكلية؛ ومنها ما بقي بعضه ودخله التحريف والتبديل.

وننتقل الآن إلى نقطة أخرى مهمة أثارها الكاتب في سياق حديثه عن لفظة "قرآن"؛ إذ يزعم أن المفهوم الإسلامي والمفهوم الاستشراقي لكلمة "قرآن" كلاهما له بعض الشواهد القرآنية التي تؤيده، ولسنا ندرى كيف سَوَّى المعارض بين المفهومين على الرغم من الاختلاف الواضح بينهما، هذا من جهة؛ ومن جهة أخرى أين هو هذا الدليل القرآني الذي يؤيد زعمه بأن لفظة "قرآن" سريانية الأصل؟ إن كلمة "قريانا" التي جاء بها الكاتب، والتي تختلف في شكلها وجرسها عن الكلمة العربية "قرآن" لا وجود لها في كتاب الله تعالى، وبالتالي فإن القاعدة التي بنى عليها المستشرقون تفسيرهم خارجة أصلاً عن نطاق النص، وليس لها به أدنى تعلق، وكون كلمة "قرآن" تُقرأ بدون همز أو نبر إعمالاً للسان القرشي، أو للتخفيف - كما سنذكره بعدُ بشيء من التفصيل - لا يعنى أنها منقولة من السريانية - كما زعم الكاتب، إذ أن خلوها من الهمزة، والذي يجعلها قريبة في النطق، إلى حد ما، من كلمة "قريانا"، لا يؤيد دعوى المستشرق في سريانيتها؛ بل إن نطقها مهموزة وغير مهموزة فيه إشارة إلى كونها جارية على أصول العربية، خاضعة للهجات العرب.

ذكر ويلش أن الفعل "قرأ" ورد ذكره في القرآن سبع عشرة مرة؛ كما أن كلمة "تلى" بمعنى "قرأ" قد استعملت في القرآن أكثر من الفعل "قرأ"، وهذا صحيح من حيث المبدأ؛ ولكننا لا نوافقه في النتيجة التي يحاول تقريرها ويشرب إليها، وهي أن كلمة "قرآن" مستعارة من اللغة السريانية، وذلك بحجة أن الفعل "تلى" يوجد في القرآن أكثر من الفعل "قرأ"؛ وفي الحقيقة فإن الكلمتين "تلى"، و"قرأ" تستعملان كمترادفين في القرآن، وإن كان هناك فرق دقيق بينهما لا يحصل إلا بمعرفة عميقة بأسرار اللغة وحس أهلها؛ ولكي نوضح ذلك نقول إن الفعل "تلى" يعني "قرأ بتتابع"، و"قرأ من نص أو كتاب"، وهي تفيد أيضاً القراءة بصوت مسموع على الغير، يقول تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ (الأنعام: ١٥١)، ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُمْ بِيَمِينِكُمْ ۖ إِذَا

لَا زَنَابَ الْمُبْتَطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴿العنكبوت: ٤٨﴾، ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْتُكُمْ بِهِ﴾ ﴿يونس: ١٦﴾، ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ ﴿البقرة: ٢٥٢﴾، ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ ﴿النمل: ٩١-٩٢﴾، ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا﴾ ﴿الأعراف: ١٧٥﴾، ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ ﴿الكهف: ٢٧﴾، والمصدر "تلاوة" مستخدم أيضاً في القرآن، يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴿البقرة: ١٢١﴾.

بعد هذا نُذَكِّرُ القارئ بما سبق أن قلناه من أن كلمة "قرآن" عربية، صلبية وأرومة، وليست مستعارة من السريانية، كما يزعم الكاتب، وأنها لم تستحدث ألبتة، وإنما نزلت فيما نزل من القرآن، وأن القرآن معروف باسمه هذا، من بداية التنزيل، وقلنا إن كلمة "قرآن" تطلق على كلام الله كله أو بعضه، فالآية الواحدة قرآن، والسورة الواحدة قرآن، ومجموع السور قرآن؛ وأن العبارة القرآنية "هَذَا الْقُرْآنُ" كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣)، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، لا تتضمن الإشارة ألبتة إلى "قرآن" آخر غير هذا القرآن، الذي هو بين دفتي المصحف، المنقول إلينا بالتواتر، والمبثوث في الآفاق والمعروف لجميع المسلمين. وينبغي أن يكون واضحاً تمام الوضوح أن عبارة "هَذَا الْقُرْآنُ"، التي تعلق بها الكاتب، لم يستعملها القرآن إلا في الإشارة إلى كلام الله المنزّل على محمد ﷺ، بخاصة، يقول تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ (يوسف: ٣)، ويقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٧).

ومما يلحق بكلام ويلش، ما زعمه المستشرقان بل ووات في مقدمتهما حول قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (يوسف: ٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ

جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَعَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ (فصلت: ٤٤).

يقول المستشرقان بل ووات إن تعبير "قُرْءَانًا عَرَبِيًّا" يتضمن الإشارة إلى وجود قرآن غير عربي، وهذا تفسير غريب وتوجيه بعيد لعبارة القرآن، ولا يوجد مسلم يمكن أن يقول بوجود قرآن غير عربي ألبتة؛ وأين هو يا ترى هذا القرآن غير العربي؟ وفي أى لغة يكون؟ والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْءَانِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، فمثلية القرآن كمثلية منزله تعالى مُمتنعة في الواقع وفي التصور الصحيح.

والآيات التي تتحدث عن عربية القرآن إنما تعني الإلزام والإعلان؛ إلزام للعرب بأنه جاء بلغتهم وخطابهم بلسانهم وهم يفهمون مراده، فوجب عليهم إذن تصديقه، وأما الإعلان ففي تقرير المولى بأنه أرسله بلسان عربي مبين، بلغ الكمال في لغته وفي لغات العالمين، وأن القرآن لا يوجد مثله، لا في العربية ولا في غيرها من اللغات، وما كان لمحمد ﷺ ولا غيره إذن أن يفترى هذا القرآن من دون الله، لأنه لا يمكن أن يُفترى أصلاً.

وُلقي الآن مزيداً من الضوء على كلمة "قرآن" في أصلها اللغوي، اختلف العلماء في مفهوم الاسم، هل هو اسم علم خاص بكلام الله تعالى وغير مشتق من شيء أصلاً، أم أنه اسم مشتق من "القرى" تقول: "قريت الماء في الحوض" أى جمعته، وعليه يكون القرآن بمعنى المجموع.

يقول الراغب الأصفهاني (ت: ٤٢٥هـ / ١٠٣٣م): "وليس يقال ذلك لكل جمع، فلا يقال: قرأت القوم أى جمعتهم". والزركشى لا يمنع ذلك في أصل اللغة، وإن كان ممتنعاً في العُرف والاستعمال؛ لذلك توسع المروى في تعريف الكلمة فقال: "كل شيء جمعته، فقد قرأته".

ويبين لنا أبو عبيدة السبب في إطلاق اسم "القرآن" على كلام الله تعالى بخاصة فيقول: "سمى القرآن بهذا اللفظ إما لأنه جمع السور بعضها إلى بعض، وإما لأن القرآن

جمع معاً بين دفتيه أصناف العلوم كلها كما قال تعالى: ﴿مَا قَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^١
(الأنعام: ٣٨).

وقال عليه الصلاة والسلام: "ستكون فتن"؛ قيل: وما المخرج منها؟ قال: "كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم". (أخرجه الترمذی)

وأخرج أبو سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: "من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين". قال البيهقي "يعني أن القرآن يحتوي على أصول العلم".
وقد عدَّ السيوطي وغيره أن من أكبر دلائل إعجاز القرآن إحاطته بالعلوم الجمة، وجمعه للمعارف التامة، واحتواءه على علوم لم يجمعها كتاب من قبله، ولا أحاط بعلمها أحد^(١).

ويقول الراغب الأصفهاني في القرآن بمعنى الجمع، إنه جامع لثمرة كتب الله تعالى التي أنزلها على الأنبياء السابقين؛ وذكر بعض العلماء من المتأخرين أن مادة "قرأ" و"قرآن" ليست بمعنى "جمع" استناداً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾^(٢) فغاير بين الجمع والقرآن؛ وعليه تكون مادة "قرأ القرآن" بمعنى أظهره وبيّنه، والقارئ يُظهر القرآن ويُخرجه بحسب قواعد قراءته؛ وعلى الرغم من وجاهة هذا التوجيه للآية، فإن الجمع بين عبارتي "جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ" في الآية له معنى خاص، وقرينة خاصة، لا تتسع لما رآه هذا الفريق من العلماء، فكلمة "جَمْعُهُ" هنا، تفيد جمع القرآن بمعنى تثبيته في صدر النبي ﷺ بطريقة إلهية بحتة، فيحفظه من أول مرة، لا بالتكرار والاستظهار، كما هي العادة في الحفظ بالنسبة لعامة البشر، وكلمة "قُرْآنُهُ" تعني قراءته، كما مرّ بنا.

يذهب الإمام الشافعي رحمه الله (١٥٠ - ٢٠٤ هـ / ٧٦٧ - ٨١٩ م) إلى أن "القرآن" اسم علم على كتاب الله تعالى كالنوراة والإنجيل وأنه هو ليس مهموزاً، وكان الشافعي يهمز "قراءته"، ولا يهمز "القرآن"، وكون "القرآن" اسم علم على كتاب الله تعالى، لا يمنع أن يكون له أصل في اللغة، وكونه ليس مهموزاً، لا يعني أن الأصل فيه أنه كذلك، أي غير مهموز.

(١) معترك الأقران ج ١ ص ٢٢.

قال الزجاج: "إن ترك الهمزة في القرآن ليس أصلاً وإنما هو للتخفيف، نقلت حركة الهمزة إلى الحرف الساكن قبلها".^(١)

وذهب بعض العلماء ومنهم الإمام الأشعري إلى أن "القرآن" مشتق من "قرنت الشيء بالشيء إذا ضممت إليه"، سمي بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه، وبهذا المعنى سمي الجمع بين الحج والعمرة "قرناً"، والتفريق بينهما "إفراداً"، وهذا القول فيه تكلف ومجافاة لمفردات اللغة ومراميها. ونشك في صحة إسناد مثل هذا القول إلى الإمام الأشعري، وبينما يوافق القرطبي الإمام الشافعي في أن القرآن غير مهموز، وهو الرأي الذي ضعفناه، يقدم القرطبي تفسيراً آخر للفظ، فيقول: "إنه مأخوذ من القرائن، وذلك لأن آياته يصدق بعضها بعضاً ويدل بعضها على بعض"^(٢).

هذا وصف "صائب لطبيعة القرآن، ينفي العوج والتناقض عنه، ولكنه لا يصلح أبداً أن يكون هو معنى "القرآن" في اللغة، وقد ضعف ابن عطية (ت: ٥٤١هـ/ ١١٤٦م) أيضاً هذا الرأي"^(٣). بعد أن بينا بالأدلة الكثيرة اتفاق علماء المسلمين على أن لفظة "القرآن" عربية صرفة، وأن اختلاف العلماء حول أصلها ومفهومها اللغوي إنما هو اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، وأنها مشتقة من الفعل "قرأ"، وأن الاسم المصدري "قرآن" يقرأ أحياناً بدون همز للتخفيف. نذكر الآن المفهوم الشرعي المجمع عليه للقرآن الكريم.

يعرف ابن خلدون (٧٣٢-٨٠٨هـ/ ١٣٣٢-١٤٠٦م) القرآن بأنه: "كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف. وهو متواتر بين الأمة"^(٤).

وعرفه آخرون بأنه: "الكلام المعجز المنزل على النبي ﷺ المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته"^(٥)، وهذا التعريف قد جمع خصائص القرآن من الوحي، والتنزيل، والتواتر، والتعبد بتلاوته. وكل هذا يؤكد إلهية المصدر الإلهي للقرآن، وكذلك

(١) الزركشي. البرهان ج ١ ص ٢٧٦ وما بعدها، وانظر الخطيب البغدادي. تاريخ بغداد، ج ٢ ص ٦٢ القاهرة ١٣٤٩هـ.

(٢) الزركشي البرهان ج ١ ص ٢٧٧ - ٢٧٩.

(٣) المقدمة ج ٣ ص ١٠٢٨.

(٤) المقدمة ج ٣ ص ١٠٢٨.

(٥) الزرقاني - مناهل العرفان ج ١ ص ١٨ وما بعدها.

العناية الشديدة التي أولاها الرسول ﷺ والمسلمون له، جيلاً بعد جيل.

ويعرف أبو بكر الباقلاقي (ت: ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م) القرآن بقوله: "ذكر العلماء أن الأصل في هذا (أى نبوة محمد ﷺ) هو أن تعلم أن القرآن الذى هو متلوّ محفوظٌ مرسوم في المصاحف، هو الذى جاء به النبى ﷺ، وأنه هو الذى تلاه على من في عصره ثلاثاً وعشرين سنة؛ والطريق إلى معرفة ذلك، هو النقل المتواتر الذى يقع عنده العلم الضرورى به. وذلك أنه قام به في الموقف وكتب به إلى البلاد، وتحمله عنه إليها من تابعه؛ وأورده على غيره ممن لم يتابعه، حتى ظهر فيهم الظهور الذى لا يشبهه على أحد"^(١).

ويعرف علماء الكلام القرآن بأنه: "الصفة القديمة المتعلقة بالكلمات الحكيمية من أول الفاتحة إلى آخر سورة العلق"^(٢).

ويقول ابن حزم (ت: ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م): "يتبين بالبراهين والمعجزات أن القرآن هو عهد الله إلينا، والذى ألزمننا الإقرار به، والعمل بما فيه، وصح بنقل الكافة الذى لا مجال للشك فيه، أن هذا القرآن هو المكتوب في المصاحف، المشهور في الآفاق كلها"^(٣). ويقول في تعريفه أيضاً: "القرآن وكلام الله كلاهما معنى واحد، واللفظان مختلفان، والقرآن هو كلام الله ﷻ على الحقيقة، بلا مجاز"^(٤). ونقل ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م) عن كتاب الفصول في الأصول لأبى الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي، قول الشيخ أبى حامد الإسفراييني "مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار، أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من الله تعالى، والنبى سمعه من جبريل عليه السلام، والصحابة سمعوه من النبى ﷺ، وهو الذى نتلوه بألستنا وفيما بين الدفتين، وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً، وكل حرف منه كالباء والتاء، كله كلام الله غير مخلوق"^(٥). وسوف يكون لنا كلام آخر في هذا الموضوع في

(١) إعجاز القرآن ص ٣٩.

(٢) إعجاز القرآن ص ٣٩. وابن حزم. الفصل ج ٣ ص ١٦-١٧، والزرقي. مناهل العرفان. ج ١ ص ١٨ وما بعدها.

(٣) ابن حزم. الفصل ج ٢ ص ٧ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) رسائل وفتاوى. تحقيق محمد رشيد رضا ومحمد البلتاجي، ج ٣ ص ١٦٢ وما بعدها. القاهرة. وهبة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م. وانظر الإمام البخارى. خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف. تحقيق على سامى النشار وعمار الطالبي الإسكندرية ص ١١٨ وما بعدها، المعارف ١٩٧١م.

قرينة الرد على أصحاب دعوى خلق القرآن.

نتناول الآن مع ويلش مواضع لفظة "قرآن" وقرائنها في القرآن الكريم، وذلك لتحديد التاريخ الذى ذكرت فيه هذه اللفظة، وتحديد معناها أو معانيها الدقيقة في سياق القرائن القرآنية.

ورد لفظ "القرآن" هكذا معرّفاً بالألف واللام خمسين مرة في خمس وثلاثين سورة منها ثلاثاً وعشرين مكية واثنتا عشرة مدنية. كما جاء ذكرها بدون أداة التعريف ثمان عشرة مرة في ثمان عشرة سورة ثلاث منها مدنية والباقية مكية وذلك على النحو التالى: "بقرآن"، "قرآن"، "وقرآن"، "لقرآن"، "قرآنا"، "قرآنه".

من هذا الثبت يتبين لنا أن لفظ "القرآن" قد ذكر بصيغته المختلفة في ثمان وثلاثين سورة مكية، وخمس عشرة مدنية، أى أن ورود لفظ "القرآن" في السور المكية، جاء أكثر منه في السور المدنية، وأن بعض هذه السور والآيات المكية تُعد من أوائل ما نزل على رسول الله ﷺ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَعَجَّلَ بِهِ ۖ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۖ﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاسْتَمِعْ ۚ قُرْآنَهُ ۖ﴾ ﴿(القيامة: ١٦-١٨)﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۖ﴾ ﴿(الانشقاق: ٢١)﴾، وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۖ﴾ ﴿(البروج: ٢١-٢٢)﴾، وقوله تعالى: ﴿سَنُقَرِّكَ فَلَا تَنْسَى ۖ﴾ ﴿(الأعلى: ٦-٧)﴾ وهي مكية، وفيها إشارة إلى إقرائه ﷺ القرآن؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۖ﴾ ﴿(القدر: ١)﴾، وهي مكية أيضاً، والضمير في "أَنْزَلْنَاهُ" عائد على القرآن؛ وهذا محل إجماع بين علماء المسلمين.

إذا اتضح ذلك، نقول إن زعم المستشرق بأن تسمية "القرآن" إنما جاءت متأخرة في القرآن بعد أن أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يجهر بصلاته استناداً إلى قوله تعالى: ﴿يَتْلُهَا الْمُزَّمِّلُ ۖ﴾ ﴿فَمِمَّ أَتَىٰ لَآ قَلِيلًا ۖ﴾ ﴿نُصْفَهُ ۖ أَوْ أَنْقُصَ مِنْهُ قَلِيلًا ۖ﴾ ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ ۖ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ طَرْتِيلًا ۖ﴾ ﴿(الزمل: ١-٤)﴾، لا مُسَوِّغَ لَهُ أَلْبَتَّةَ؛ إذ لا علاقة بين الأمر بالصلاة وقراءة القرآن فيها على نحو ما وبقدر ما، وبين نزول "القرآن" نفسه وتسميته بهذا الاسم. حتى لو سلمنا للمستشرق جدلاً بأن القرآن قد سُمي باسمه هذا في الوقت نفسه، الذى أمر فيه

النبي ﷺ بالصلاة، أى بعد توالى الوحي عليه بمدة، فإن هذا لا يصلح أن يكون دليلاً، لا من بعيد ولا من قريب، على أن كلمة "قرآن" سريانية الأصل، وأن محمداً ﷺ قد استعارها ليسمى بها كتاب الله تعالى. وقد ذكرنا من قبل أن القرآن معروف باسمه هذا منذ بداية التنزيل.

إن لفظة "قرآن" ليست من عمل محمد ﷺ، وإنما هي - ككل كلمة في القرآن - وحي من الله تعالى، والقرآن كلام الله، وهو ليس مخلوقاً، ولا هو من عمل مخلوق.

وللقرآن أسماء أخرى، تَبَّعَهَا الحَرَّانِي فأوصلها إلى تسعة وتسعين اسماً. وقال القاضى أبو المعالى عزيزى بن عبد الملك: "إن الله تعالى سَمَّى "القرآن" بخمسة وخمسين اسماً؛ على سبيل المثال: ﴿يَبَّانُ﴾ (آل عمران: ١٣٨)، ﴿نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤)، ﴿كَلِمَ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٦)، ﴿وَرَحْمَةً﴾ (يونس: ٥٧)، ﴿بِالْوَحْيِ﴾ (الأنبياء: ٤٥)، ﴿ذِكْرٌ﴾ (الأنبياء: ٥٠)، ﴿بَلَاغًا﴾ (الأنبياء: ١٠٦)، ﴿الْفَرْقَانِ﴾ (الفرقان: ١)، ﴿هُدًى﴾ (لقمان: ٣)، ﴿رُوحًا﴾ (الشورى: ٥٢)، ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ (الدخان: ٢).

ويذكر القاضى شهاب الدين إبراهيم بن عبد الله المظفرى (ت: ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م) فى تاريخه أن الصحابة سموا "القرآن" "مصحفاً"، بعد أن جمعوه فى الصحف فى خلافة أبى بكر.

ونغضى الآن فى دراسة موضوع "القرآن" كلفظ قرآن، فنلقى مزيداً من الضوء على الآيات، التى بنى عليها المستشرق ويلش رأيه، بالنسبة للفعل "اقرأ"، الذى اشتق منه القرآن، والذى سبق أن قلنا إنه كان أول ما نزل من الوحي. يخبرنا الكرماني فى شرح حديث "بدء الوحي" برواية البخارى، أن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ (العلق: ١)، تفيد العموم، ولا تخص قراءة شيء بعينه؛ ولذلك تعجب النبى ﷺ، وعارض جبريل ثلاث مرات سائلاً، أو مقررأ، ما أنا بقارئ؟! يعنى ماذا تريدنى أن أقرأ، وما أنا بقارئ؛ أى أنه لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يسلك سبيل التعلم ألبتة، فجاءت عبارة: "يَأْمُرُكَ" لتفيد أن اسم الله، ربه ومربيه، هي أداته فى القراءة والتعلم، وأن ما سيقروه هو من عند الله تعالى. وبهذا دخلت القراءة فى القرآن، وحددت نوع المقروء (يعنى القرآن) وحددت كذلك من هو المُعَلِّم للقراءة، وهو الله، الرب الذى يربى وينشئ، ويؤتى من لدنه العلم لمن شاء أن

اتخذ الكرماني من عبارة "بِأَسْمِ رَبِّكَ" دليلاً على أن البسملة من القرآن؛ ولكننا نرى أن هذا الاستدلال بعيد؛ فالبسملة بصيغتها المعروفة، غير مصرح بها في ابتداء آيات سورة العلق التي نزل بها جبريل على رسول الله ﷺ في الغار، ولا في أحاديث بدء الوحي كذلك؛ ثم إن عبارة "بِأَسْمِ رَبِّكَ" تختلف عن عبارة "بِأَسْمِ اللَّهِ"، التي تختص محمداً ﷺ بالخطاب التربوي التعليمي؛ ثم إن الآيات متصلة لم يتخللها شيء من خارجها، ولو أن النبي ﷺ قرأ البسملة مفتتحاً لها قراءته لهذه الآيات، لكان قد بلغها للسيدة خديجة، ثم للصحابه من بعدها، وهو ما لم يحدث ولم يصلنا فيه علم.

نقل القرآن عن كفار مكة قولهم: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتُبْطِلُ بِهِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ (يونس: ١٥-١٦) نزلت هذه الآيات في قريش عندما طلبوا منه قرآناً يوافق هواهم في الحلال والحرام، والعقيدة والعبادة، والمعاملات، والسلوك، وإذن اتخذوه ﷺ خليلاً ووافقه وواصلوه؛ إلا أن رد الرسول ﷺ جاء حاسماً ومفحماً: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَائِي نَفْسِي﴾ يعني أن الله تعالى هو منزل الكتاب، وصاحب الخطاب، والمتصرف في الوحي والرسالات، وإنما أنا مُتَلَقٍ ومُبلِّغ، فإذا شاء الله تبديل القرآن استحابة لكم، بدَّله، فهو سبحانه وتعالى مطلق المشيئة. ليس في هذا الكلام أى إشارة إلى إمكان تبديل القرآن، وهذه الآية لا تعني أكثر من طريقة في الخطاب، ومنهج في الحجاج، وهو من باب قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ (الأنبياء: ٢٢)، إذ ليس فيه دليل ولا تقرير على إمكان وجود إلهين للكون، وإنما على العكس، فيه تأكيد استحالة وقوع ذلك، عن طريق رد المخاطب إلى النظر في النظام الكوني المعجز الدال على الوحدانية والقدرة والحكمة؛ ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ﴿١٧﴾

(الزخرف: ٨١)، ليس فيه جواز الشريك والولد لله تعالى؛ وإنما فيه ردّ على الْمُحَوِّزِينَ لذلك، الذين جاوزوا الحق، فقالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا؛ ولو كان لله شريك، لجاءت به الرسل، وأبلغت عنه الأنبياء، ونطقت به الكتب، وَلَذَكَرَ اللَّهُ ذَلِكَ صِرَاحَةً فِي الْقُرْآنِ، لأنه يكون إذن من أخص المسائل الاعتقادية، ولكن الأنبياء قد دَعَوْا جميعاً إلى الإله الواحد الْمُنَزَّه عن الشريك والولد، وإلى إفراذه عَزَّ وَجَلَّ وحدَه بالعبادة والحكم والسلطان. وبعبارات أخرى لو كان هناك إله آخر غير الله لأعلن عن نفسه، ولجاءتنا عنه الرسل والكتب، ولوجدنا في الكون من ينازع الله تبارك وتعالى، كما يقول عز وجل وهو مما يدور في السياق نفسه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآتَيْنَهُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ (سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا) ﴿٤٣-٤٢﴾ (الإسراء: ٤٣-٤٢).

أكد الله تعالى أن القرآن هو كلامه، وأن محمداً ليس إلا مبلّغاً عنه، ولا يَتَأَتَّى له ﷺ، ولا لأي بشرٍ أن يأتي بمثل هذا القرآن، ولو لم ينزل الله تعالى هذا الكتاب العزيز على محمد ﷺ ما كان للعرب أن يسمعه، فقد كان الرسول يعيش بينهم أربعين سنة، هي سن الشبوية، وثورة العقل، وقوة التطلع والطموح إلى الزعامة؛ لكن محمداً ﷺ لم يدع شيئاً من ذلك، ولا عرف به ألبتة، فلم يكتب شعراً حتى يُدَوَّن اسمه في مصاف الشعراء الذين تبوءوا قمة الزعامة والنباهة في أقوامهم. ولم تُعرف لرسول الله ﷺ كذلك خطبة، أو حكاية، أو أقصوصة، أو نحو ذلك مما يمكن أن يُتخذ دليلاً على أنه قد بَلَغَ بالقرآن إلى قمة تطوره الأدبي وإلى تمام نضجه الإبداعي شأنه في ذلك شأن سائر الأدباء والشعراء.

إن الله تعالى يؤكد أيضاً استحالة الإتيان بمثل القرآن من طريق البشر، في مثل هذه الآيات إذ يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢٧) ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٧-٣٨)، ويقول: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (يوسف: ١١١)؛ أي أن القرآن ليس حديثاً أو كلاماً مما هو في مقدور البشر؛ ويقول كذلك: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ

مُفْتَرِيتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ (هود: ١٣)، تحدّاهم الله بالإتيان بمثل سورة منه؛ أو عشر سور؛ أو بالإتيان بمثله كله، إن أمكنهم ذلك؛ مراعيًا قدراتهم المتنوعة، ومتوسعاً معهم في الخطاب، دفعاً للمعاذير، واضطراًّ لهم إلى التسليم بصحة التنزيل، وذلك أن المفتري أسهل، ووضع الباطل والمختلق على الاختيار أقرب؛ واللفظ إذا تبع المعنى الصحيح كان أصعب؛ ولهذا قيل: فلان يكتب كما يقال، وفلان يكتب كما يريد؛ وللأول فضل على الثاني، وبينهما شأو بعيد.

لم يستجب أحدٌ من أعداء الرسول ﷺ وأعداء القرآن قاعدة رسالته، للتحدي، ولو بمجرد المحاولة والشروع في معاناة القول؛ لقد اكتفوا بالتشنيع والتنقيص كقول الله حكاية عنهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ (الفرقان: ٤)، وقولهم: ﴿أَسْطِطِرُّ الْآوَلِينَ أَكْتَتَبُهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُحْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥)، وقولهم: ﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ (القمر: ٢)، وقولهم: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ﴾ (إن هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ) (الممدثر: ٢٤ - ٢٥)، وهم في هذا لم يخرجوا عن دائرة المعاندين من كفار العرب، ومن أقوام الأنبياء السابقين الذين قالوا لأنبيائهم: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ (البقرة: ٨٨)، وقالوا: ﴿قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ (فصلت: ٥)، وقولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت: ٢٦)، وكما فعل قوم نوح مع نوح عليه السلام: ﴿جَعَلُوا أَصْنَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَعْشَوْا نِيَّائِهِمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا﴾ (نوح: ٧).

وأما عن موقف الكفار من طريقة نزول القرآن واعتراضهم عليها، فيقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ (النحل: ١٠٥) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ (الفرقان: ٣٢ - ٣٣) ففى هذا دليل على أن كفار قريش كانوا يعرفون القرآن باسمه هذا منذ البداية، وأنهم قالوا لو كان القرآن حقاً من عند الله لنزل على محمد جملة واحدة، كالكُتب السابقة التي سمعوا عنها، قال بهذا ابن عباس.

ويمكن لنا أيضاً أن نقول إنهم أرادوا بطلبهم هذا، مجرد العناد والمكابرة والتشويش

على الرسول ﷺ، أو إنهم اعتقدوا في أنفسهم أن القرآن لو نزل جملة واحدة، لاستطاعوا أن يواجهوه مرة واحدة، وأن يجتمعوا له، ويتصروا من ثم على رسول الله ﷺ؛ أما أن يتجدد التنزيل ويتواكب عليهم بالدعوة والرد والمعارضة، ويتجدد لذلك الإيمان في قلوب أتباع محمد بتجدد نزوله، ويكسبه مؤيدين دائماً، فهذا ما لا يستطيعون صدّه ولا ردّه. كذلك يمكن أن يقال ربما فكر الكفار في أنه لو نزل القرآن جملة في كتاب أو ألواح، لأمكنهم أن يتضافروا على اغتصابها وحرقها، كما حدث لبعض كتب الأنبياء السابقين.

ويرد الله تعالى على اعتراض الكافرين على طريقة نزول القرآن بقوله بأنه إنما أنزله منجماً، الآيات بعد الآيات، ليثبت به قلب محمد ﷺ، في وجه الأزمات والمعارضات والمضايقات، وأيضاً ليثبت به تلك الآيات في قلبه حفظاً، إذا لو أعطاه الله القرآن جملة، لصعب عليه حفظه، وشغل جميع وقته في قراءته واستظهاره، وشغلته العناية بضبط القرآن واستظهاره عن بناء الدولة، وتشكيل الأمة، ورعاية مصالح المسلمين، واحتاج النبي ﷺ في تحصيل ذلك إلى معونة غيره، ممن يعرف القراءة والكتابة، وهذا يفتح باب الشبهة ويوسع للكفار ويمهد لهم الطريق إلى القدح في القرآن، والطعن في النبي ﷺ، ولأن النبي ﷺ كان أمياً، فناسب كذلك أن ينزل عليه القرآن منطوقاً، لا مكتوباً، وأن ينزل عليه منجماً، ومرتباً حسب التوازل والحوادث، وأيضاً بحسب طاقة النبي ﷺ، فإنه كان يعاني من التنزيل شدة، ولا يمكن أن يقال إنه كان بمقدور الله أن ينقش القرآن في قلب محمد ﷺ، وذاكرته؛ فهذا بخلاف ما رتب الله عليه طبائع الأشياء؛ وإلا ففي قدرة الله أن يدخل الجنة بلا تكليف، وأن يثبتي الذرية بلا تزويج، وأن يغذي بلا طعام، ويروي بلا شراب، ويشفي بلا دواء، وينضج بلا نار ... الخ. وحتى لو نقش الله القرآن في قلب محمد ﷺ ما انقطع بذلك لجأج المشركين، بل ربما ازدادوا عتواً ونفورا، وكبراً وصدوداً.

أشار ويلش فيما أشار إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ (٢١٠)، وفهم أن

الله تعالى هو القارئ للقرآن بنص هذه الآية. والصحيح أن القارئ هو جبريل عليه السلام، ولكن الله أسند القراءة إلى نفسه، لتكون بمثابة الدليل على صدق جبريل فيما نقله عن الله؛ فالقرآن كلام الله المسموع أولاً من جبريل؛ ثم من محمد؛ ثم من الصحابة؛ ثم من جاء

بعدهم من المؤمنين إلى يومنا هذا؛ وحتى قيام الساعة. وهذا تأكيد لحفظ الله للقرآن، فאלله قد ائتمن عليه ملاكاً لا تعتوره الآفات البشرية من الوهم، والخطأ، والنسيان؛ ونبيا صادقاً كريماً، ثابت القلب، صافي الذهن متجرداً من شواغل الدنيا وصوارفها، محتسباً وقته كله لله تعالى.

موقف آخر من مواقف الكفار ضد القرآن تحكيه هذه الآيات: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ (سبأ: ٣١) قالوا ذلك عن القرآن؛ والقرآن لم يكتمل نزوله بعد؛ إذ القرآن يطلق على الجزء، كما يطلق على الكل، وذلك كما أشرنا إليه آنفاً.

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦)، دعوة إلى عدم توقير القرآن، وتخفيف للعامة على تعييبه وتحقير شأنه، ابتغاء الغلبة؛ وهذا الموقف في حد ذاته، يحكى ضعف الكفار وعجزهم عن معارضة القرآن، إذ لو أمكنهم ذلك، لجمعوا له قواهم، وجندوا من أجله طاقاتهم الأدبية والفكرية، وشجعوا أهل العلم بينهم على معارضته وتحديه، ولم يلجؤا إلى هذه الوسيلة السلبية العنيفة وهي صرف الناس عن الاستماع إليه، والتشويش عليه.

روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما: كان النبي ﷺ بمكة إذا صلى جهر بالقراءة، فكان المشركون يطردون عنه الناس، وقالوا: ﴿ لَا تَسْمَعُوا هَذَا الْقُرْآنَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦)؛ وإذا أخفى قراءته لم يسمع ذلك من يشتهى أن يسمعه فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافُهَا وَأَتَّبِعْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (الإسراء: ١١٠)^(١). في هذا الحديث دلالة على معرفة قريش بالقرآن مبكراً. وهناك أخبار كثيرة تفيد أن القرآن كان معروفاً هكذا باسمه، من بداية الوحي بين المسلمين والكفار على حد سواء.

ورد ذكر الفعل "قرأ" الذى اشتق منه القرآن، بصيغ مختلفة، سبع عشرة مرة في الذكر الحكيم؛ اثنتا عشرة منها جاءت في قرينة قراءة القرآن بخاصة، على سبيل المثال:

(١) البخارى "خلق أفعال العباد بعقائد السلف" ص ١٧٣.

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨) المخاطب هو رسول الله ﷺ، والمأمور أمته، أمروا بالاستعاذة من الشيطان الرجيم عند قراءة القرآن، حتى لا يفسد عليهم قراءتهم بالإلقاء في روعهم، ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (١٠٠) وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً^١ وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً^٢ ﴿ (الإسراء: ٤٥ - ٤٦) القارئ للقرآن هنا، هو محمد ﷺ بعد أن سمعه من جبريل عليه السلام وحفظه.

يقول تعالى: ﴿ سَنَقْرَأُكَ فَلَا تَنسَى ﴾ (١) ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦ - ٧) الخطاب لحمد ﷺ، وعده ربه بأنه سيقروء القرآن بلسان جبريل عليه السلام، ويُحفظه إياه فلا ينساه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (٢) ﴿ (القيامة: ١٧)، وقال سبحانه: ﴿ إِنَّا نَخْنُزْلُنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (٣) ﴿ (الحجر: ٩). وأما الاستثناء في قوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٧)، فقد يكون الإنشاء لبعض آيات القرآن من الله بغرض النسخ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (البقرة: ١٠٦)، والنسخ والإنشاء من عمل الله تعالى وتقديره، والقرآن كلام الله عز وجل وتنزيله، وهو صاحب الأمر والنهي. وسوف نتناول هذه النقطة، في قرينة الحديث عن النسخ والمنسوخ، في موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. وكما أمر الله نبيه بقراءة القرآن بلفظ (اقرأ)، أمره بقراءته كذلك بلفظ (رتل)، قال تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (٤) ﴿ (المزمل: ٤).

قلنا إن الترتيل معناه القراءة للغير، أو على الغير، بطريقة فيها تنابع وأناة. وقد أسند الله تعالى القراءة إلى نفسه بالفعل "رتل" كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴾ (٥) ﴿ (الفرقان: ٣٢)، أسند الله الترتيل إليه بضمير "نا" للتعظيم والمقصود رتلناه لك بلسان جبريل عليه السلام.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ (٦) ﴿ (النحل: ١٠٢)، فهذه الآية واضحة في أن جبريل، جاء بالقرآن من عند الله، لا من عند نفسه.

وردت كلمة (اقرأوا) بتوجيه الأمر للمسلمين بقراءة القرآن، في قوله تعالى: ﴿ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ (المزمل: ٢٠) أى في صلاتكم، وقد عبّر الله هنا بقراءة القرآن عن الصلاة لتلازمهما.

ونود أن نوضح بعد هذا العرض للآيات الخاصة بقراءة القرآن ومناقشتها، أنه على أى نحو ورد الأمر بالقراءة، وأياً كان المتحدث بالقرآن، الله تعالى، أو جبريل عليه السلام، أو محمد ﷺ، فإن القرآن كله كلام الله تعالى، لا شريك له فيه، كما لا شريك له في ملكه.

وهناك أيضاً آياتٌ جاء فيها الفعل "قرأ" بهذه الصيغة، أو بصيغة أخرى مصحوباً بلفظة "كتاب" بمعنى "مكتوب" كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۖ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خُلَلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ ۚ ﴾ (الإسراء: ٩٠ : ٩٣).

من هذه الآيات نتبين أن القوم كانوا أهل جدال وعناد، ولم يكونوا طلاب حقائق بالمرّة. ولكن ينبغي أن نلاحظ أيضاً أن الذين سألوا الرسول ﷺ، ليسوا هم كل الكفار، وإنما جماعة منهم فقط، وهم عتبة وشيبة ابني ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البحتري، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أمية، وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل؛ وهؤلاء هم رعوس الكفر آنذاك، وكلام هؤلاء المحادّلين يخلو من الفكر والنظر، وهو وليد المكابرة والمهاذرة، فهم قد جزموا سلفاً بعدم الإيمان، إذ قالوا له: "لن نؤمن لك" أى لن نصدقك فيما تقول، ولم يقولوا "لن نؤمن بك"؛ لأن الإيمان به يقتضى اتباعه لا مجرد تصديقه، فالفرضية عنادية. وصراعهم مع محمد ﷺ، كان من أجل الرياسة والزعامة فحسب؛ لقد تعنتوا بمطالبتهم أن يفجر لهم عين ماء جارية في الأرض الجدداء؛ أن تكون له حدائق غنّاء وزروع فيحاء، تنساب فيها مياه الأنهار عذبةً فراتاً؛ أن يسقط عليهم السماء من فوقهم فلقاً فلقاً وقطعاً قطعاً كما أخبرهم بحسب زعمهم؛ أن يكون له بيت فخم من ذهب، شأن أهل الرياسات في الدنيا؛ أن يصعد إلى

السماء على سَلَّمَ أمام أعينهم فيُحْضِر لكل واحد منهم كتاباً باسمه، يقول الله له فيه بخاصة آمن بمحمد واتبعه.

هذا هو المعنى المقصود في الآية، وليس ما زعمه ويلش من أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ كتاباً مقدساً كالنوراة والإنجيل، فالعرب لم يعرفوا تفصيلاً كيف أعطى الله موسى النوراة، وعيسى الإنجيل، حتى يطالبوا محمداً بإحضار كتاب على هذا النحو؛ وثانياً: فإنه ليس من المعهود في الوحي، أن يصعد النبي إلى السماء على سَلَّمَ، لكي يتلقى الكتاب بيمينه من الله تعالى. إنَّ شأن المكابر أنه يحاول أن يُخرج الرسالة عن طبيعتها، ويحول بين النبي وبين الناس.

ولكى يُقَوَّى المستشرق ويلش زعمه في تحديد طبيعة الكتاب الذي طلبه المشركون من محمد ﷺ أشار إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أُنزِلْنَا إِلَيْكَ فَسَلِّ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ (يونس: ٩٤)، يريد بذلك أن يقول إن النبي ﷺ، والعرب كذلك كانوا يعرفون كتب اليهود والنصارى، الذين هم أهل الكتاب؛ وهو أمر بعيد التصور والاحتمال. ولكي تتضح المسألة أكثر، نتكلم في معنى هذه الآية هنا باختصار، إذ كثيراً ما يرفعها الكتابيون القدماء، والمحدثون منهم دائماً في وجه المسلمين للدفاع اعتقادهم في تحريف اليهود والنصارى لكتبهم.

ونعرض الآن ما يقوله علماء المسلمين فيها:

قال بعضهم: لا يجوز الشك على رسول الله ﷺ أَلَبَّتْ. وفسر الحسن "إن" بمعنى "ما" النافية؛ وبالتالي تكون الآية، في نفي الشك، لا في إثباته، ونرى أن هذا التوجيه بعيد، ولا يستغرق مجال، ما في الآية، من الأمر بسؤال أهل الكتاب، وحثه ﷺ ألا يكون من الممترين، أى الشاكين^(١).

ويقدم القاضى عبد الجبار (ت: ٤١٥ هـ - ١٠٢٤ م) رأياً آخر في المسألة فيقول: "المراد بعبارة "فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ" أى من شكّ بالفعل في ذلك، أى في صحة القرآن على وجه الزجر؛ أو أنه تعالى قال ذلك لأهل الكتاب، الذين يجوز أن يسألهم

(١) ابن عطية - المحرر الوجيز . ج ٧ ص ٢١٧-٢١٩، وأيضاً . ابن تيمية - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح - ج ١ ص ٣٤١ وما بعدها. السعودية، مطابع المجد.

غيرهم عما في الكتب من تصديق محمد ﷺ^(١)، وهذا التوجيه الأخير فيه تكلف وبعد عن مرامى الخطاب في الآية الكريمة.

ويرى ابن عطية أن الصواب في المسألة أن يقال إن الآية تخاطب النبي ﷺ مباشرة. وتتوجه بالخطاب من خلاله، إلى كل من يشك أو يعارض، وهو توجيه حسن؛ وله شواهد تظاهره. وقال قوم آخرون هو على منوال قولك "إن كنت ابني فبرئني" وأنت لا تشك أنه ابنك، وإنما تستحنه على البر بك.

وعلق أبو حيان على الآية بقوله إن "إن الشرطية" تقتضى تعليق شيء على شيء، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه، بل قد يكون ذلك من باب المستحيل عقلياً كقوليه تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ (الزخرف: ٨١)؛ ومستحيل أن يكون لله ولد، وكذلك فإنه من المستحيل أن يشك محمد فيما أوحى إليه، ويقدم ابن عطية على ذلك مثلاً آخر من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ﴿ (المائدة: ١١٦)، والله يعلم أن عيسى لم يقل ذلك، وهو برئ منه. ولذلك روى أن رسول الله ﷺ قال: لما نزلت عليه هذه الآية "أنا لا أشك ولا أسأل"^(٢).

ويمكن أن يكون الشك المشار إليه في الآية، وتوجيه الرسول ﷺ لسؤال أهل الكتاب، خاصاً بمسائل معينة، أو حوادث مشتركة بين القرآن وبين الكتب السابقة؛ كأن يكون النبي ﷺ قد استكثر ما فعله اليهود بأنبيائهم، أو أخفوه هم والنصارى من كتبهم، أو اختلفوا فيه فيما بينهم، فأراد الله تعالى أن يثبت قلب نبيه ﷺ بهذه الآية، التي أمر فيها أن يسألهم عن هذه الأمور الخاصة، ليرى من واقعهم، صدق ما قاله الله له في القرآن، ولذلك جاء بعده: "لقد جاءك الحق من ربك"؛ ولم يرد أن النبي ﷺ سأل أحداً من أهل الكتاب مما يدل على عدم وجود الشك في نفسه، أو وقوعه منه بالفعل. ومهما يكن الأمر، فإن في هذه الآية مدلولاً علمياً وتربوياً عظيم الأثر؛ فإنها تأمر بإزاحة الشك، والوصول إلى اليقين بالسؤال والاستفسار، أو تأكيد اليقين بسؤال أهل العلم

(١) تنزيه القرآن عن المطاعن، ص ١٧٩.

(٢) أخرجه عبد الرزاق وابن جرير، وروى من طرق أخرى باختلاف يسير في العبارة. المحرر الوجيز، ج ٧ ص ٢١٩.

والعارفين، على وجه التقرير والإلزام، وتنتهى أن يكون الاختلاف فى الدين أو المعتقد حائلاً دون طلب المعرفة، وعلى ذلك فالآية تحمل رصيذاً نفسياً هائلاً فى التقريب بين البشر، والتواصل معهم؛ دون أن يكون لها مدلول عقدي كما فهم المستشرقون.

إضافة إلى ما سبق ذكره، يشير ويلش إلى آيتى الإسراء: ﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ٧٨ ﴾ (٧٨-٧٩)، ثم يقول: "إن هاتين الآيتين تُمدِّنا بمعلومة مهمة، إذ توضح لنا العلاقة بين الصلاة والقرآن، فى الوقت الذى تُعيِّن واستقر كلُّ منهما".

ونحن إذ نوافق ويلش على أن فى الآية إشارة إلى العلاقة بين لفظ "القرآن" ومشروعية الصلاة، نخالفه تماماً فى الربط التاريخى بينهما؛ فالقرآن كان معروفاً باسمه منذ بداية الوحي، وقبل فرض الصلاة على المسلمين فى ليلة الإسراء والمعراج، كما أثبتنا من قبل.

ومن المفيد أن نعرف أن معنى "قُرْآنَ الْفَجْرِ" أى القرآن الذى يقرأ فى صلاة الفجر أو بعد الصلاة، ومعنى "مَشْهُودًا" أى تحضره ملائكة الليل والنهار، كما جاء فى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه^(١).

ويستمر المستشرق ويلش فى استعراض الآيات التى تحتوى على لفظة "القرآن" فيشير تحديداً إلى قوله تعالى: ﴿ طه ١٠١ مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ١٠٢ ﴾ (طه: ١-٢) وقوله تعالى: ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ ١٠٣ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ١٠٤ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ١٠٥ ﴾ (طه: ١٠٤)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ١٠٦ ﴾ (الأحقاف: ٢٩)، وإلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ١٠٧ ﴾ (الجن: ١) وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ١٠٨ ﴾ (الإنسان: ٢٣)، ويعلق عليها بقوله: "فى مجموعة كبيرة من

(١) انظر مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٣٩١.

القرائن المختلفة، والتي يرجع تاريخها بحسب موضوعاتها، إلى الفترة الأخيرة من العهد المكي، والسنوات الأولى من العهد المدني".

جاء ذكر "الْقُرْآن" مقترناً بأداة التعريف وهو في هذه المواضع كلها يحتوى على معنى مركب وهذا المعنى المركب بدوره يشتمل على عدة عناصر أنزلها الله على محمد ﷺ، فالآية (١٠٦) من سورة الإسراء^(١)، تقضى بنزول القرآن منجماً ليتمكن الناس من حفظه وتدبره؛ وآية الفرقان (٣٢)^(٢) تؤكد المعنى نفسه؛ فالقرآن نزل منجماً لتثبيت قلب محمد بتجدد النزول، ودوام الوصول أيضاً، فإن نزول القرآن منجماً يساعد على تثبيت القرآن في قلبه ﷺ حفظاً وفقها وعملاً ومنهجاً.

ويشير ويلش إلى قوله تعالى: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: ٨٢)، ثم يستنتج منها خطأ أن القرآن الذى عند الله، هو غير القرآن الذى عند محمد، والذى ادعى محمد أنه نزل عليه؛ وهذا جهل بأسرار اللغة، ومراعى العبارات، وجهل بالقرائن المصاحبة للتعبير القرآنى؛ وذلك لأن حرف الجر "من" الذى تعلق به الكاتب، ووقع فى الخطأ بسببه، يصح أن يكون لابتداء الغاية؛ كما يصح أن يكون لبيان الجنس، كما قاله الأخفش وأبو البقاء العكبرى، وإن كان أبو حيان يذهب فى تفسير الآية إلى أن "من" التى لبيان الجنس، لا تتقدم على المبهم الذى تبيينه، وإنما تكون متأخرة عنه^(٣).

وأنكر البعض أن تكون "من" فى الآية السابقة للتبويض، ولكن ليس للسبب الذى تخيله المستشرق، وإنما لسبب آخر، وهو أن هذا التعبير "مِنَ الْقُرْآنِ" قد يوهم بأن البعض الآخر من القرآن لا شفاء فيه. وقد أثار الملاحظة بالفعل مثل هذا الاعتراض على الآية، حيث قالوا: أليس يوجب ذلك أن بعض القرآن شفاء ورحمة، دون البعض الآخر؟

وقد ردَّ عليهم القاضى عبد الجبار فى ذلك بقوله: "إن الله ينزل من آيات القرآن

(١) ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنُزِّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾

(٢) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾

(٣) تنزيه القرآن عن الطاعن ص ٢٣٢.

ما يدعو إلى التمسك بالإيمان، الذى هو الشفاء من كل داء، ولا يجب ذلك فى كل القرآن؛ وقول الله تبارك وتعالى أن بعضه شفاء، لا يعنى أن البعض الآخر لا يدل على أن سائرته بخلافه" (١).

هذا بالنسبة للمؤمنين والمهيئين للإيمان، يشفيهم القرآن من مرض الكفر والكبر والعناد وسائر الأمراض النفسية والاجتماعية؛ أما بالنسبة لغير المؤمنين، من المعاندين، فهو وقر فى الآذان، وهو عليهم عمى، وخرج فى صدورهم، واختلاط وخلل فى عقولهم، ومرض فى قلوبهم، وختم عليها.

يقول الله تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَنُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّذًا ۝ ﴾ (مريم: ٩٧)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ ءَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ۚ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَاذَانِهِمْ وَقُرْءَانٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ۝ ﴾ (فصلت: ٤٤).

فى هاتين الآيتين وصف للقرآن كله بأنه شفاء وهدى للمؤمنين المتقين، وأن فيهما أيضاً رداً على المستشرق، الذى يريد أن يضع تفسيرات غريبة للقرآن، لا يقرها عقل سليم ولا نقل صحيح.

إن نزول القرآن منجماً من اللوح المحفوظ لا يعنى البتة أن هناك "قرآناً أكبر" و"قرآناً أصغر" أو "قرآناً عند الله" و"قرآناً عند محمد" كما توهم الكاتب؛ بل هناك "قرآن" واحد، هو الذى أنزله الله على محمد، وهو مكتوب فى المصاحف المحفوظة فى الأمصار الإسلامية، وفى صدور الحفاظ من أمته ﷺ، لا فرق بين القرآن مقروءاً، أو مسموعاً، أو مكتوباً، والقرآن هو الذى فى اللوح المحفوظ، وهو هو الذى نزل به جبريل، لا تحريف فيه ولا تبديل.

يحاول ويلش أن يعمق فكرته الخيالية فى وجود قرآنين، فيشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَن تُلَاقُوا الْقُرْءَانَ ۚ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ

(١) المصدر نفسه.

الْمُنْذِرِينَ ﴿٩٢﴾ (النمل: ٩٢)؛ يقول بأن هذه الآية، إشارة إلى القرآن الذى كان بحوزة محمد، أمر أن يقرأه على الناس، بعد أن تلاه الله عليه، كما قال: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ٥٨)؛ ويقول تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَّبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (القصص: ٣). وهذا الزعم بعيدٌ كل البعد عن منطوق الآية ومفهومها معاً.

يعرض المستشرق بعد ذلك للجانب الطقسى أو التعبدى للقرآن، كما يسميه، فيقول إن هناك أكثر من دليل على وجود هذا النوع فى القرآن، على سبيل المثال، قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأعراف: ٢٠٤) أمروا بالإنصات عند سماع القرآن من الإمام فى الصلاة وفى غير الصلاة، تأديباً مع القرآن، وتأملاً، وتدبراً لمعانيه، سواء كان القارئ هو رسول الله ﷺ أم غيره.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ﴾ (الانشقاق: ٢١) قال ذلك تعجباً من صلابة قلوب الكافرين، فهم لا يسجدون إعظاماً لكلام الله، لا يسجدون عند سماعه، لا بحبائهم، ولا بقلوبهم كبرا من عند أنفسهم؛ يقول ويلش: "إن أشد المعانى التى يحتملها لفظ (القرآن) قرباً من لفظ القرآن الذى هو عنوان كتاب المسلمين المقدس، يتجلى فى قوله تعالى: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ (التوبة: ١١١)".

ويضيف إلى ذلك قوله: "إن هذا البناء الذى تقدمه السورة ينبى عن نظم القرآن فى سلك واحد مع الكتب المقدسة المتقدمة عليه نزولاً، أو هو يفيد وضع القرآن فى خط متوازٍ مع التوراة والإنجيل، هذا على الرغم من أن القرآن لم يكن قد اكتمل نزوله بعد، ولم يكن قد وُضع فى صورته النهائية كذلك إلا بعد وفاة محمد ﷺ".

إن مقصد الكاتب هنا غير كريم، وإن حاول تغليفه بالعبارات الفضفاضة غير محددة المعانى، إنه يزعم بأن القرآن لم يكن معروفاً بهذا الاسم قبل هذه الآية، تلك النقطة التى رددناها فى نحره من قبل. ولكن يبدو أنه مُصِرٌّ عليها، متشبث بها؛ إنه يزعم بأن محمداً إنما

سَمِيَ القرآن بهذا الاسم، ليضعه على قدم وساق، مع التوراة والإنجيل؛ وأن ذلك إنما حدث بسبب تأثر محمد ﷺ بالكتابين؛ وهذا ضرب من الكاتب في عماية، ودليل على تمسكه المستميت بالأصولية الاستشراقية، التي تزعم بأن محمداً انتحل القرآن من كتب اليهود والنصارى، وهو أمر يرفضه المسلمون جملة وتفصيلاً؛ بل ويكذبه التاريخ والمنهج العلمي السليم.

وَكَوْنُ القرآن والتوراة والإنجيل تُذكر في سياق واحد في هذه السورة المدنية، لا يعنى بحال أن محمداً ﷺ تعتمد بذلك إعلاء قيمة القرآن؛ فالقرآن كلام الله القديم، وقد أخبر الله في كلامه العزيز أن القرآن الكريم يسمو على كل ما حملته، أو انتحته اللغات البشرية من علوم وآداب ونظم وبلاغة؛ ثم إن قرينة الآية مخالفة تماماً لما حاول المستشرق أن يؤسسه من دعوى؛ إذ أن الآية الكريمة تتحدث عن الجهاد، وعن وعد الله للمجاهدين؛ وليس في الآية تنويع بالقرآن؛ وإنما فيها تنويه بالوعد الإلهي للمجاهدين بالجنة؛ والعجب كل العجب، أنه يزعم أن لفظ "القرآن" في هذه الآية، قد اقترب من معنى لفظ "قرآن" الذى هو عنوان كتاب الله، هكذا لمجرد أنه ذكر في سياق واحد مع التوراة والإنجيل؛ إن الكاتب يتكلم عن مجرد أمان وأطانيون وتخيلات عن كتاب جاء بالحق، وبالحق نزل.

إن الكاتب محكوم في هذا الزعم بقلب فكرى جامد، وفرضية تخمينية هزيلة، وهى أن التوراة والإنجيل، هما وحدهما الكتابان المقدسان، وأن القرآن إنما هو تقليد لهما، أو اقتباس منهما؛ وسوف نرى عند تناولنا لموضوع ترجمة معانى القرآن، أن المترجمين الغربيين، بصفة عامة، قد انطلقوا من قاعدة هشة واحدة، وهى أن القرآن من وضع محمد ﷺ، وأنه كتاب محرف، ومتناقض، وليس وحياً من عند الله، إلى درجة أن إبراهيم جيحر اليهودى الألماني، قد زعم أن محمداً ﷺ قد اطلع على التوراة، وكتب الأنبياء، وعلى التلمود، والمشناة في اللغات المختلفة العبرية والآرامية كذلك، هذا على الرغم مما سبق أن قررناه أن النبي ﷺ كان أمياً. وأن هذه الكتب لم تكن قد تُرجمت بعد إلى العربية. وعلى فرض أن محمداً كان قارئاً وهو ما لم يثبت ألبتة، فإن الكاتب يتجاهل الشواهد القرآنية

الكثيرة، التي قدمنا أمثلة كافية منها للتدليل على أن القرآن كان معروفاً منذ نزوله بهذا الاسم للمسلمين ولمشركي مكة جميعاً؛ بل إنه كان معروفاً أيضاً للجن؛ فهم قد سمعوه وتأثروا به أبلغ التأثر، ووصفوه بقولهم: ﴿قُرْآنًا عَجَبًا ۖ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ (الجن: ١-٢) وبقولهم كذلك: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الأحقاف: ٣٠)، ثم آمنوا به وصدقوه؛ بل ودعوا قومهم إلى الإيمان به وإلى تصديق الرسول ﷺ فقالوا: ﴿يَنْقُومَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعِجِرٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الأحقاف: ٣١-٣٢)

وفي نهاية الفصل لا يفوتنا أن ننبه على المغمز الاستشراقي في كلام ويلش، الذي دسَّه في ثنايا كلامه، يقول: "إن القرآن لم يكتب في صورته النهائية، إلا بعد وفاة محمد ﷺ، وإن كنا سنناقش هذه الدعوى في موضع آخر من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى، إلا أننا ننبه باختصار، أن القرآن الكريم قد كُتب على الورق، وسعف النخيل، واللخاف، والرقاع، وغيرها، في حياة محمد ﷺ؛ سجله كُتاب مخصوصون، عُرفوا بكتّاب الوحي؛ كما كتبه بعضُ الصحابة ممن يجيد القراءة والكتابة لأنفسهم. وكان القرآن كله مجموعاً، ومحفوظاً، في حجرة نوم النبي ﷺ؛ كذلك كان القرآن محفوظاً في صدور المسلمين، رجالهم، ونسائهم، وأطفالهم؛ وما بالكَ بكتّاب لا تتم الصلاة إلا به، ولا يُدار الحُكم إلا بمقتضاه، ولا تتم الأنكحة، والجنائز إلا بتلاوته.

الفصل الثاني

المترادفات في القرآن

يقول ويلش إن لفظ "القرآن" والمصدر الذي اشتق منه القرآن - كتاب المسلمين المقدس - لا يمكن أن يُفهم فهماً كاملاً إلا إذا أخذنا في الاعتبار مدلولات بعض ألفاظ أخرى لها تعلق كبير بهذا اللفظ، وبخاصة الألفاظ مثل "آية"، "كتاب"، "سورة"، "ذكر"، "مثاني"، "حكمة"، ونحوها. إذ أن لكل لفظ، من هذه الألفاظ، معناه المتميز أصلاً في القرآن؛ ولكن في بعض المواضع تأتي هذه المفردات في قرائن تقترب في معانيها من مفهوم "القرآن" كمصطلح؛ كما سيتضح فيما يلي:

مفهوم لفظة "آية" في القرآن

بدأ الكاتب كلامه بمحاولة إرجاع لفظة "آية" إلى اللغة العبرية والسريانية، وكان هاتين اللغتين هما أصل العربية، وأصل اللغة القرآنية؛ وإنه لغريب حقاً، أن يبحث الكاتب أولاً عن الكلمة في غير لغتها، مما يجعله يبدو، وكأنه يجزم بوجود أصل معروف للغة العرب، ومن ثم لمفردات القرآن، لا يعرفه أحد إلا هو وبعض المستشرقين، وهذا في حد ذاته ليس بالمنهج العلمي.

ويضيف ويلش قائلاً: إن المعنى الأصلي لكلمة "آية" العربية، وأوث (ÔTH) العبرية، وآثا (ÂTHÂ). السريانية واحد. وتعني هاتان الكلمتان علامة، ودلالة على بعض الأشياء الغيبية، كالحق أو الحقيقة. ولكن اشتقاق الكلمة غير معروف على وجه اليقين، وأنه من الطبيعي جداً أن تكون لفظة "آية" مأخوذة من (أ-و-هـ) (A-W-H)، والتي تتوافق مع الكلمة العبرية آوه. لكن فعل هذا الأصل لا وجود له في اللغة العربية، كما هو واضح في ذهن الكاتب، وبالتالي فإنه من الصعب ادعاء أن كلمة "آية" القرآنية مأخوذة من أي من هاتين اللغتين.

ذكر المستشرق نفسه أن لفظة "آية" وردت في القرآن بصيغة المفرد والجمع حوالى ٤٠٠ مرة، ومعظمها يدور حول الآيات الكونية، التي تُثبت وجود الله ووحدانيته، وقيامه بحاجات العباد، واستحقاقه وحده بالشكر والثناء.

وبمراجعة المواضع التي ذكرت فيها لفظة "آية" وجدنا أنها ذكرت في القرآن الكريم ٣٨٢ مرة، بالتحديد في ٦٠ سورة، تبدأ بسورة البقرة، وتنتهي بالبلد؛ وتنوع هذه السور بين المكي والمدني.

ولتمام الفائدة نلفت إلى أن لفظة "آية" وردت هكذا مفردة ٨٤ مرة، وبالجمع "آيات" ١٤٨ مرة، ووردت بصيغة "آيتك" مرتين، و"آياتك" ٣ مرات، وبالمثنى "آيتين" مرة واحدة، و"آياتنا" ٩٢ مرة، و"آياته" يعود الضمير إلى الله ٣٧ مرة، و"آياها" يعود الضمير إلى السماء مرة واحدة، ولفظ "آياتي" ١٤ مرة. وبالنظر في هذه الآيات نلاحظ أنها متعددة الدلالة فهي بمعنى "الآية من القرآن" وبمعنى "المعجزة التي هي بمثابة الدليل على صدق النبي وصحة دعوته"، وهي بمعنى "الآية الكونية أو الظاهرة الطبيعية المعجزة في تكوينها، وإحكام صنعتها، وفي اتساقها مع الغرض الذي خلقت من أجله"؛ و"الآية" بمعنى "العظة والاعتبار" كما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُمْ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبِّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ (سبأ: ١٥)، فيها إشارة ودعوة إلى الاعتبار، والتأمل في فضل الله وقدرته، وإلى تقييد النعمة بالشكر والثناء، والاستعانة بها على طاعة الله عز وجل.

وتكون "الآية" بمعنى "العلامة على وقوع شيء مخصوص" كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ (مريم: ١٠). وهي بهذا المعنى تتضمن إشارة أيضاً إلى "معجزة"؛ وتأتي "الآية" كذلك بمعنى "الذكرى" كما في قوله تعالى في قصة نوح والطوفان: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿١٥﴾﴾ (القمر: ١٥)، أى أننا أثبتنا قصة نوح، وقومه في القرآن، ليتأملها الناس، ويتذكروا ما جرى للعصاة، وكيف نَجَّى الله المؤمنين فيعتبروا ويتعظوا. وقد تكون "الآية" في هذا الموضع إشارة إلى السفينة تركها الله آية، أى أبقاها حتى أدركها أول أمة محمد ﷺ، كما ورد عن قتادة؛ وفي قوله تعالى عن فرعون: ﴿ءَالْقَيْنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنْ كُنتَ مِنَ النَّاسِ عَنِ آيَاتِنَا لَغَفْلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (يونس: ٩١-٩٢)، قال ذلك لما صرخ فرعون قائلاً: ﴿ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي

ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أخرجه الله تعالى أنه سُنَّجِيه ببدنه فقط، ليكون بدنه آية مستمرة، يراها الناس للاتعاظ والاعتبار.

و"الآية" تطلق أيضاً ويراد بها الشيء التام في صناعه، وتركيبه، ومناسبته للغرض الذي خلق من أجله، وقيامه بهذا الغرض على أكمل وجه، وأتم غاية. وكما لاحظ ويلش فإن الأغلب الأعم من هذه الآيات التي أشرنا إليها وحددنا مواضعها، تتحدث عن الآيات الكونية، التي نصبها الله تعالى دلائل على وجوده سبحانه وتعالى، وعلى قدرته، وتدبيره، وعنايته، وحكمته، ونفاذ أمره، ومضاء مشيئته. في هذه الآيات القرآنية دعا الله تعالى الناس إلى النظر في الآيات الكونية، والتفكر في عجائبها، للتوصل بحاكم العقل والفكر إلى الله الذي جاءت عنه الكتب، ودلت عليه الأنبياء، ودعت إلى الإيمان به، والقيام بشرعه، وحذرت من عصيان أوامره ومخالفة منهجه، فإن من زل عن منهج الله ضل واختل؛ ومن رحمة الله تعالى أن جعل الوحي والعقل ظهريين متصادقين متعاونين، لا ضدين متعارضين متنازعين. ونلاحظ كذلك أن كثيراً من هذه الآيات تواترت وتضافرت على تثبيت نبوة محمد ﷺ، وتأييد دعواه، وربط رسالته ومعجزاته برسالات الأنبياء السابقين ومعجزاتهم.

يزعم ويلش، إلى جانب ذلك، أن الآيات التي تتحدث عن المعجزات والخوارق، قد تَغَيَّرَ معناها في أواخر العهد المكي، بل ربما حدث ذلك في مطلع العهد المدني، فأصبح لفظ "آية" من ثمَّ يعني "طائفة من القرآن" بعد أن كان يعني "المعجزة" قبل ذلك؛ ومن وجهة نظر هذا المستشرق، فإن لفظ "آية" بمعناه الجديد إنما حدث (يعني من جانب محمد)، كردِّ فعلٍ معاكس لمطالب المشركين المتزايدة والمتكررة للنبي ﷺ بأن يأتي لهم بمعجزات وخوارق تؤيد دعواه.

يقول ويلش إنه منذ هذه اللحظة تحول معنى لفظ "آية"، فصار يطلق على "الجزء المعروف من القرآن" بعد أن كان يطلق على المعجزة والخارق فقط؛ هذا ضرب من الاعتساف، والإرجاف، والخيال، والخبال، وهو زعم ليس عليه دليل، لا من داخل النص القرآني، ولا من خارجه، لا بطريقة مباشرة، ولا بطريقة غير مباشرة؛ إن ويلش ينسج هنا على منوال التنصير، ضارباً بالمنهج العلمي عرض الحائط. إنه يطعن في معجزات محمد ﷺ

وينكرها، وهو مع ذلك يحاول عبثاً، أن ينتزع من القرآن بعض الشواهد، التي يتخيل أنها تؤيد دعواه، وتموه على قُرَّائه، وتغلف مقصده الحقيقي من وراء هذا الزعم اللدود.

إنه بهذا يشكك في القرآن، وينكر معجزات النبي محمد ﷺ، والأنبياء من قبله؛ أضف إلى ذلك، تسليم المستشرق الجازم، بصحة موقف الكفار من محمد ﷺ، والقرآن؛ مع أن القرآن هو مصدر الحديث عن هذا كله؛ ولكن ويلش يستعمل الدليل الواحد لتأييد الشيء ونقيضه، إنه لم يعتبر طبيعة أسلوب الكفار في طلب المعجزة، وتفنيد القرآن لهم، ورده عليهم؛ كل ما شغله، هو إنكار أن يكون النبي ﷺ قد صنع معجزة كعيسى وموسى من قبله، هذا هو موقف المنصرين والمستشرقين الجاحد من نبوته ﷺ؛ إنهم يزعمون أن محمداً ﷺ لم يكن نبياً، ولا صانع معجزات، هذا مع تواتر النقل بأن كثيراً من المعجزات، قد وقعت للنبي ﷺ في مكة، وفي المدينة، بطلب من الكفار، وبدون طلب والشواهد على ذلك كثيرة في الكتاب والسنة، ولكن المقام لا يتسع لأكثر من الإشارة والإحالة.

إن لفظة "آية" لم يتحول عن معناه إلى معنى آخر، كما يزعم ويلش، وبخاصة للسبب الذي رآه، بل ظل هو هو في أصل اللغة، وفي استعمال علماء القرآن، يُعبر به عن الجزء من القرآن، وعن المعجزة؛ وقد فات الكاتب - ولا نلومه في ذلك - أن لفظي "معجزة"، و"خارق" لم يستعملهما القرآن ألبتة، وإنما استعمل مادتهما فقط، وذلك لأن لفظة "آية" فيما تُقَدَّر أدل على ثبوت المعجزة، وعلى عمومها، وتناهيها في الإعجاز، وعلى استمرار أثرها في النفوس من لفظة "معجزة" وأيضاً لاشتغال لفظة "آية" على معنى الاستمرار، وطلب التأمل العقلي، بخلاف لفظ "معجزة".

إن معجزات محمد ﷺ لم تنقطع ألبتة، لا في حياته، ولا بعد مماته؛ فبقاء القرآن، وسلامته، وكذلك بقاء سنته، وأمثه، من معجزاته الدائمة ﷺ.

يدعى ويلش بالإضافة إلى ما سبق "أن علماء المسلمين المتأخرين، قد فسروا كلمة "آية" بمعنى "الجزء من القرآن"، هذا مع أن حجم "الآية" غير محدد، والقرآن نفسه لم يقدم أى إشارة في هذا الصدد؛ ولسنا نرى أي علاقة بين تحديد حجم "الآية"، ومعناها في القرآن؛ وعلى أن "الآية" بمعنى "الطائفة من القرآن"، قد وردت في الكتاب العزيز مقترنة بالوحي، والتنزيل، والتلاوة، مما يؤكد قدم اللفظة، وصدق معناها الذي وضعت له؛

قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٢). وقال ﷺ: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۖ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٨)، وقال تعالى: ﴿ يَمْعَشِرَ الْإِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ هَٰذِهِ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ (الأنعام: ١٣٠)، وقال تعالى: ﴿ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ ﴾ (١٣١) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۖ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِءَايَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥٦-١٥٧)؛ وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا يَنبَغِ عَلَيْهِمْ أَنْ يُسَبِّحُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ﴾ (يونس: ١٥)، وجاء عن ابن مسعود وإبراهيم، عن النبي ﷺ مرسلًا: "من حلف بسورة من القرآن فعليه بكل آية منها كفارة...." (١).

أما عن طلب المشركين المعجزة من رسول الله ﷺ، فقد أخبرنا القرآن أنهم كانوا يطلبونها، لا بغرض الإيمان؛ بل للمكابرة والعناد؛ قال قوم موسى لموسى: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَخْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (الأعراف: ١٣٢)، قال تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۖ وَءَاتَيْنَا ثُمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۖ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخَوِيفًا ﴾ (الإسراء: ٥٩). ويقول تعالى: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا ءَايَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ (القمر: ٢)، شكك اليهود حتى في الغرض من الآية أو المعجزة، إذ جاءهم موسى، فجعلوا الغرض منها السحر، لا مجرد الهداية وتقديم الدليل، يقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُّوسَىٰ بِءَايَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾ (القصص: ٣٦)، ويقول تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّيْتَرٌ ﴾ (النمل: ١٣) عجزوا عن التفريق بين السحر

(١) الإمام البخارى-- خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف ص ١٩٦.

والمعجزة، وبين الرسول وعمل الساحر؛ ويقول عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ (الأعراف: ١٤٦)، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ (البقرة: ١١٨)، هذه الآية تُفصح عن امتداد الخط الكفرى، وتشابه دعاوى الكافرين فى كل عصر وفى كل مِصر، وأيضاً عن منهج الله تعالى فى تربية كل جيل بما يناسبه، وإلزام كل صنف من البشر بما يقطع حجته ويزيل عذره.

ونتساءل بعد هذا كله، هل تغنى المعجزات عن سفه أهل العمه والعمى، والخنم، والطمس، والصمم، والرآن؟ إن أكثر الناس مشاهدةً للمعجزات كانوا هم أكثرهم جحوداً وغباوة، وهم الذين قالوا من قبل: ﴿أَرَأَيْتُمْ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (النساء: ١٥٣)، وهم الذين علقوا بإيمانهم على رؤية الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَنُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (البقرة: ٥٥) ولنتأمل هذا الربط بين سؤال أهل الكتاب من العرب لحمد ﷺ وسؤال اليهود لموسى عليه السلام: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَأَيْتَ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَىٰ سُلْطَنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾ (النساء: ١٥٣)؛ ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَهُمُ الْمَلَكِيَّةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّوْرَ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ جَاهِلُونَ ﴿١١١﴾﴾ (الأنعام: ١١١).

إن المعجزات لا تأتى إلا بإذن الله ولا يتأتى الإيمان بالنبي إلا بمشينة الله تعالى كذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ (الرعد: ٣٨)، المعجزة أو الآية مصدرها الله تعالى ودليلها للنبي ﷺ؛ وفى هذه القرينة، نشير إلى أنه قد جاء فى الأناجيل ما يفيد امتناع المسيح عليه السلام البتة من صنع المعجزة، أو إظهارها عند وقوعها فى بعض الحالات؛ فعلى سبيل المثال نجد فى إنجيل مرقس (٦: ٥) (ولم يقدر (أى المسيح عليه السلام) أن يصنع هناك ولا قوة واحدة وتعجب من عدم إيمانهم)، وفيه أيضاً

(٨: ١١، ١٢) : (فخرج الفريسيون وابتدعوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه فتنهده بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجليل آية. الحق أقول لكم لن يعطى هذا الجليل آية)، يعنى بهذا المعاندين منهم، وإلا فهو قد صنع معجزات كثيرة شأنه فى ذلك شأن الأنبياء السابقين، والمعجزة من شواهد النبوة. وحتى فى اللحظات الأخيرة من حياة المسيح عليه السلام، على ما فى (إنجيل لوقا ٣٣: ٨ - ٩) سأله هيرودس مراراً أن يصنع له آية يراها بنفسه فلم يجبه بشيء. ولما شفى أعمى بيت صيداً: (أرسله إلى بيته قائلاً لا تدخل القرية ولا تقل لأحد فى القرية) (مرقس ٨: ٢٦)، فهو هنا يخفى بعض معجزاته، ويطلب ممن أجراها لهم، إخفاءها؛ ولكن ماذا تقول لمن يكيل بكيلى ويفضل أن يرى بإحدى العينين؟ وإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه فى إطلاق لفظ "آية" على "الطائفة من القرآن"، نشير إلى طريقة نزول القرآن؛ إذ فيها ذاتها، دليل واضح يؤكد هذا المعنى، فقد نزل الوحي على رسول الله منجماً، أى فى شكل مجموعة من الآيات، بحسب الحوادث والنوازل؛ وكان الصحابة يحفظونه كذلك، مقسماً إلى آيات. والقرآن نفسه مصرح بذلك، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ (البقرة: ٩٩)، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ (آل عمران: ٧)، ويقول تعالى: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (آل عمران: ٥٨)، ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ (الحج: ١٦)، ويقول تعالى: ﴿وَأَذْكُرْتَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ (الأحزاب: ٣٤)، ويقول تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجن: ٦) وهذه الآية مكية، ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ (الأحقاف: ٧)، وهى أيضاً مكية.

أما وقد استبان خطأ المستشرق ويلش فى زعمه حول معنى لفظة "آية"، نعرض الآن لمفهوم اللفظ عند علماء المسلمين.

يطلق لفظ "آية" فى اللغة على معان ثلاثة:

أولاً: يطلق هذا اللفظ ويراد به "الجماعة" بمعنى جماعة، أو مجموعة الحروف، قال أبو عمرو الشيباني "خرج القوم بأيّتهم" أى بجماعتهم وجملتهم.

قال أبو بكر: سميت "الآية" من القرآن "آية" لأنها علامة لانقطاع كلام من كلام؛ وقال ابن حمزة "الآية" من القرآن، كأنها العلامة، التى يفضى منها إلى غيرها، كأنها الطريق المنصوبة للهداية، كما قال الشاعر: [إذا مضى علم منها بدا علم].

وفي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه فى الجمع بين الأختين بملك اليمين (أحلتها آية، وحرمتها آية)، قال ابن الأثير: الآية المحلة، قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ (النساء: ٣، ٢٤، ٣٦)، والآية المحرمة قوله: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفُ﴾ (النساء: ٢٣).

ونقول إن "الآية" سميت بهذا أيضاً، لا لكونها علامة على الحلال والحرام وأمانة بين الله وعباده فحسب، بل إنما سميت كذلك، إشارة على إعجاز كلام الله تعالى. فكلام الله، آيات وعجائب فى لغات بنى الإنسان، بارزة، ومميزة، ثابتة بحرفها ونصها، متجددة بمعانيها ومراميها؛ والقرآن كله آية باقية على الأزمان، ليس له فيما عرفه الإنسان من آداب أو بلاغات مثال.

و"الآية" أيضاً بهذا المعنى تفيد "العبرة" - كما أشرنا إليه سلفاً - ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلِّسَّالِينَ﴾ أى عظات وعبر؛ كيف انتصرت البراءة والصدق على الحقد والكذب؛ كيف عزّ المتوكلون، وذل الماكرون المحتالون، كيف قال الإخوة الأعداء: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ أى تخلصوا منه، ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، وكيف صاح خادم السيارة: ﴿يَبْشُرْئِ هَذَا غُلَامٌ﴾، وكيف قال عزيز مصر: ﴿أَكْرِمِي مَوْلَاهُ﴾، وكيف قالت له زوج العزيز: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وكيف قال الملك: ﴿أَتُؤْنِنِي يَوْمَ أُسْتَخْلَصُ لِنَفْسِي﴾، وقال له بعد أن كلمه: ﴿إِنَّكَ آلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أُمِينٌ﴾ وكيف غلبت الطاعة غلبة الشهوة، وتحول حبّ الأبدان إلى حبّ الدِّيان، وكيف خرج يوسف من البئر المظلم، وبيع بالثمن البخس، مع الزهد فيه، ووصل إلى سدة العرش، وإدارة شئون الأرزاق، فى بلد ليس له فيه نصير إلا رب العالمين!

ثانياً: تكون "الآية"، بمعنى "العلامة"، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون: ٥٠)، جعلناهما "آية" لأن مريم حملت، دون أن يمسهها بشر ولم تك بغياً، وعيسى وُلد من غير مَنِيٍّ رجل، ولم يكن هذا في وَلَدٍ الْبَتَّةَ. والآية في خلق عيسى على هذا النحو، ليكون دالاً على قدرة الله تعالى، وتصريفه وتنويعه في الخلق، لا ليكون برهاناً على ألوهية عيسى أو ربوبية أمه؛ لأن الميلاد، والموت، والتحول، والانتقال من حال إلى حال، ومن طور إلى طور، ومن وقت إلى وقت، والتغذى، والتداوى، والانفعال، والأمل، واليأس، كلها أمارات على الحدوث، ودلائل على الخلق والضعف؛ فعيسى وأمّه بشرين من خلق الله، بأمارة الصفات البشرية، التي جرت عليهما؛ يقولون "افعله بآية كذا" أى بعلامة كذا أو أمارته؛ وهى من الأسماء المضافة إلى الأفعال، كقول الشاعر:

بآية تقدمون الخيل شعنا كأن على سنانها مدا

عرفنا من هذا أن "الآية" تطلق ويراد منها "الوحدة" أو "الجزء من السورة" وسميت "آية" لأنها علامة، وأماراة على صدق من أتى بها، وعلى عجز المتحدى بها، وعلى تميزها؛ كما أن فيها دليلاً، على سلامة القرآن من التحريف، والتبديل، والزيادة، والنقصان، وأن لفظة "آية" أيضاً تطلق على "المعجزة" و"العبرة" و"المثل"، كما أوضحناه من قبل. وينبغي أن يكون واضحاً في أذهاننا، أن السورة من القرآن، تتألف من عدد معين من الآيات، وأن عدد الآيات، وحدودها، معروف من طريق الشرع، لا من طريق الاجتهاد، ولا مجال للرأى، ولا للقياس في ذلك؛ قاله على بن أحمد الواحدى (ت: ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٥ م) ومحمود بن عمر الزمخشري (ت: ٥٣٨ هـ/ ١١٤٣ م) وناصر الدين بن المنير (ت: ٣٦٣ هـ/ ١٢٦٤ م). وقال القاضى أبو بكر بن العربى المعافى الأندلسى (ت: ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩ م)، جاء عن النبى ﷺ، أن الفاتحة سبع آيات، وسورة الملئك ثلاثون آية، وصح أنه قرأ العشر آيات الأخيرة من سورة آل عمران، وأضاف أن تقدير الآي، من المفصل في القرآن الكريم، ومن الآيات طويل وقصير، وصدق الله تعالى إذ يقول: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (فصلت: ٣)؛ فتفصيل الآيات بمقاديرها، هو من عمل الله تعالى، لا من عمل محمد ﷺ، أو غيره، ومعنى "فُصِّلَ"، أى حدد وبين أحد

الشيئين من الآخر، حتى لا يكون بينهما فاصل أو فرجة؛ ومنه قيل "المفصل والمفاصل".^(١) وهذا يتضح وبدون أدنى شك أن كلمة "آية"، قرآنية، وهي مستعملة في القرآن، بالمعاني التي ذكرناها؛ وأنه خلافاً لما ادعاه المستشرق ويلش، ليس لمتقدمي علماء المسلمين، ولا لتأخيرهم، دخل، في تحديد معناها، أو تحويلها من معنى إلى معنى آخر.

مفهوم لفظة "كتاب" في القرآن

يتناول الكاتب هنا لفظة "كتاب" في القرآن الكريم؛ التي ذكرت فيه ٢٥٥ مرة بالمفرد (الكتاب، كتاباً، كتابك، كتابكم، كتابنا، كتابه، كتابها، كتابهم، كتابي، كتابيه)، و٦ مرات بالجمع (كُتِبَ، كُتِبَ)؛ وهو يرى أن هذا اللفظ يعد من أصعب الألفاظ القرآنية، من حيث التفسير، وأنه نادراً ما يستعمل للإشارة إلى نوع من الكتابة اليومية؛ على سبيل المثال، فقد أطلق على الرسالة الموجهة من الملك سليمان عليه السلام، إلى بلقيس ملكة سبأ، كما في قوله تعالى: ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَيْتُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴾ (٢٨-٢٩) "الكتاب" في هذا الموضع. بمعنى المكتوب أيّاً كان حجمه، وكتاب سليمان هو رسالة ملكية، كتب بها إلى ملكة اليمن وأرسلها مع أحد جنوده المسخرة لخدمته من مملكة الطير وهو الهدهد الذي حملها وسافر بها من الشام إلى اليمن، حيث ألقي بها بين يدي بلقيس من كوة صغيرة في حجرة عرشها، ونص الرسالة: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٣٠) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَى وَتُؤْنَى مُسْلِمِينَ (٣١)؛ هذه رسالة قصيرة وجامعة، خف على الهدهد حملها ونقلها. وقد أطلق لفظ "كتاب" و"كتب" أيضاً، على الرسائل التي بعث بها النبي ﷺ، إلى الملوك والرؤساء يدعوهم فيها إلى الإسلام.^(٢)

ووردت لفظة "كتاب" في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ (النور: ٣٣)، هذا أمر من الله للسادة أن يكتبوا عبيدهم إذا طلبوا منهم الكتابة لتحرير أنفسهم من العبودية بالطرق والشروط المدونة في كتب الفقه؛ فلفظ "الكتاب" هنا يعني "المكاتبة"، أو "تسجيل عقد الحرية بين السيد والعبد"؛

(١) انظر الراغب الأصفهاني. مفردات ألفاظ القرآن الكريم ص ٦٣٨.

(٢) ابن هشام - أبو محمد بن عبد الملك - السيرة النبوية بيروت - دار الجيل، ج٤ ص ١٨٧ وما بعدها.

واستعملت الكلمة أيضاً في الإشارة إلى "سجل أعمال الإنسان في الدنيا التي سيحاسب عليها يوم القيامة"، يقول تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ (١٣-١٤)، "الكتاب" هنا بمعنى "الصحيفة الخاصة بكل إنسان تكتب فيها أعماله وأقواله قليلها وكثيرها وتحفظ له حتى يعطاها يوم القيامة منشورة- أى مفتوحة- يقرؤها بنفسه حتى وإن كان أمياً بحضرة جميع الناس من كل الأمم والأجيال حتى تلزمه الحجة فلا يتذرع بالنسيان لطول الزمان، وتعاقب الحداث، وتبدل الأحوال والهيئات، ومعالجة السكرات والممات، وطول الثواء في عالم البرزخ، وهول البعث والنشور والمطلع والحساب، يقول تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۖ وَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩).

"الْكِتَابُ" المشار إليه في الآية اسم جنس يطلق ويراد به "كتب الناس التي أحصاها الحفظة عليهم واحداً واحداً؛ ويمكن أن تكون الإشارة كذلك إلى كتاب واحد تَضَمَّنَ صحائف أعمال البشر كما يُفهم من قوله تعالى: ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ (المجادلة: ٦)، وقوله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ (٥١-٥٢) (طه: ٥١-٥٢) ﴿وَلَا يَنْسَى﴾ (طه: ٥١-٥٢).

في هذا الخطاب القرآني إشارة إلى "كتاب" جامع لأعمال الخلق هو بمثابة الأم أو المصدر لكل هذه الصحف.

يؤكد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ ۚ وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: ١٢)، وفيه إشارة إلى اللوح المحفوظ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَ بِالنَّبِيِّنَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٦٩).

ونلاحظ أن الله تعالى قدَّم الصغيرة في الأعمال على الكبيرة لأن الكلام في دقة الإحصاء وهو أنسب للقرينة، ومن اللافت في "آية الكهف" أن المجرمين لم يُرَكِّزُوا على

شدة العذاب بل رَكَّزُوا على دقة الحساب؛ تعجبوا من علم الله تعالى وشدة مراقبته لهم؛ وعبارة: ﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾ ٥٨ ثوحى بحضور كل ما عملوا في أذهانهم وذواكرهم على الرغم من آفات الحياة وعوارضها، وسكرات الموت وطول العهد ومشاهدة أهوال يوم القيامة.

يطلق "الكتاب" أيضاً على "ما كَتَبَ اللهُ أزلاً من الحوادث المستقبلية"، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْفَيْصَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: ٥٨)، وكلمة "مَسْطُورًا" بعد ذكر "الكتاب" تأكيد على دقة علم الله تعالى وشموله، وعلى أن قلم القدرة قد جرى فعلاً بكل أنواع المقدورات؛ وما هو جارٍ في معناه على هذا النحو قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْغَيْبِ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ زَرْقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ إِلَّا الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (الأنعام: ٥٩)؛ فالله على الرغم من علمه، وعلى الرغم من أنه لا تجرى عليه عوارض النسيان ولا يعتريه سهو أو وهم أو تخليط أو ضلالة قد سجل كل شيء في كتاب واضح وناطق مفصح.

وقد تكرر هذا المعنى في مواضع أخرى من القرآن؛ على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (هود: ٦)، و"الكتاب" في هذه الآيات هو سجل الله تعالى الحاوي لكل ما خلق الله مما كان وما هو كائن وما سوف يكون إلى قيام الساعة؛ هذا "الكتاب" موجود بالفعل، وهو مع الله تبارك وتعالى، على هذا إجماع المفسرين وأغلب جمهرة المستشرقين كما ذكر ويلش.

يؤكد جويدنجرن (GWIDENGERN) هذا المعنى في كتابه
(MUHAMMAD THE APOSTLE OF GOD AT HIS ACENSION
1955) محمد ﷺ ومعراجه" (١٥ - ٢٢)؛ ويرى آرثر جيفرى (P. A.

(JEFFERY) في مقاله "THE QURAN AS SCRIPTURE"^(١)، (القرآن ككتاب مقدس)، أنها إشارة إلى كتاب الإحصاء للشرق الأدنى القديم، كتاب القرارات، أو الأوامر، أو هي بمعنى السجل.

وبعد أن استعرض المستشرق ويلش لوجهتي النظر هاتين يقول بأنه "لا توجد أسانيد من القرآن نفسه لتأييد أى منهما"، ويرعم أيضاً أن ثمة مشكلات عويصة، تعترض أى تفسير حرفي لتلك الآيات التي ورد فيها ذكر كلمة "الكتاب"، إذ أنه يمكن أن تُحمل اللفظة في المواضع المختلفة في القرآن على أنها إشارات مجازية إلى علم الله وأحكامه؛ ويستمر الكاتب قائلاً: "إنه من الممكن تقديم تفسير آخر للكلمة قريب من هذا التفسير المذكور، وهو أن كلمة "كتاب"، يمكن أن تكون إشارة إلى الكتاب الإلهي الأم، الذي هو مصدر القرآن كما يتجلى من هذه الآيات: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَبِهَاتٌ﴾ (آل عمران : ٧)؛ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (الرعد : ٣٩)، ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (٢٠) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌ حَكِيمٌ﴾ (الزخرف : ٣ - ٤)، ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾ (٢١) فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ (٢٢) لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ (الواقعة : ٧٧ : ٧٩)، ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ (٢٣) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ (البروج : ٢١ - ٢٢).

بعد أن استعرض الكاتب هذه الآيات بالنص أو بالإشارة، علق عليها بقوله: "إنها غامضة وليس فيها ولا في غيرها من آيات القرآن أى إشارة واضحة إلى هذا الكتاب، يعنى القرآن أو الأصل والمثال الإلهي لكتاب المسلمين المقدس"؛ ويرعم المعارض كذلك أن لفظ "الكتاب" لم يتضمن هذا المعنى ابتداءً، أو أنه استمر كذلك حتى جاء المفسرون المتأخرون وحملوه عليه؛ ثم يقول: "وفي الأغلب الأعم استعملت لفظة "كتاب" في القرآن، بمعنى الوحي الذي أنزله الله على محمد ﷺ، وعلى الأنبياء السابقين الذين بُعثوا في أمم عاشت قبل الإسلام، ثم عاصرت هذه الأمم الإسلام فيما بعد كاليهود والنصارى الذين أطلق عليهم القرآن عبارة "أهل الكتاب".

بهذا نلاحظ أن الكاتب قد اقتحم منطقة حساسة من عالم القرآن، دون خريطة أو معلومات صحيحة ودقيقة، تُبين له المعالم وتوضح له الغامض؛ ودون دليل يهديه للمقدمات الصحيحة والنتائج الصائبة، التي يمكن أن تترتب عليها. لقد ضل ويلش هنا في شعاب المسائل ومرامي القرائن القرآنية؛ ولكي نبرز الخطأ الذي وقع فيه لا بد أن نعود مرة أخرى إلى الآيات التي ذكرها أو أشار إليها في سياق مناقشته للفظ "كتاب" في القرآن.

بالنسبة لقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (الواقعة: ٧٧: ٧٩)، فالكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ، ومعنى "مكنون" أى محفوظ عند الله لا تصل إليه يد فتعذب به؛ وقد وصف الله تعالى القرآن بأنه مكنون لتعظيمه وإعلاء قيمته وأهميته كما في قوله تعالى: ﴿ كَأَمْثَلِ اللَّوْثِ الْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ ﴾ (الواقعة: ٢٣)، قيل عني بالكتاب المكنون الكتاب المحفوظ؛ وقيل هو قلوب المؤمنين.^(١)

في آيات سورة الواقعة السابقة، ردُّ على كفار مكة، الذين زعموا أن هذا القرآن من تنزلات الشياطين؛ فأخبر الله تعالى أن القرآن في كتاب مكنون، شأنه شأن سائر الغيوب، التي استأثر الله بعلمها، ولا تُنزل إلا بأمره، وأنه لا يمسه إلا المطهرون؛ أما الشياطين فإنهم عنه معزولون، لا يصلون إليه، ولا يقتربون منه، فضلاً عن أن يأتوا بمثله؛ يقول تعالى: ﴿ وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٠﴾ وَمَا يَلْبِغِي هُمْ وَمَا يَسْتَضِيعُوكَ ﴿٢١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الشعراء: ٢١٠: ٢١٢)، فالقرآن لا يمسه إلا المطهرون - أى الملائكة - وفي مقدمتهم جبريل عليه السلام، الذي نزل به؛ وفي الأرض فإنه ينبغي أن لا يمس القرآن من البشر إلا طاهر القلب، وطاهر العقل، وطاهر القصد والنية.

روى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، في الكتاب الذي أمر النبي ﷺ بكتابه لعمر بن حزم "لا يمس القرآن إلا طاهر"، وفي هذه القرينة، ننبه على تناقض الكفار في أوصافهم للقرآن؛ فهم تارة يقولون إنه من إملاء الشياطين، وتارة أخرى يقولون

(١) الراغب الأصفهاني . مفردات ألفاظ القرآن . ص ٧٢٧.

إنه أساطير الأولين اكتتبها محمد ﷺ فهي تُملَى عليه بكرة وأصيلاً، ومرة ثالثة يدَّعون أن محمداً أخذه من رجل باليمامة يقال له الرحمن، ورابعة يدَّعون أنه تلقاه من أعجمي كان يعمل حدّاداً بمكة، ومرة يقولون عن محمد ﷺ إنه ساحر، وأخرى إنه مسحور؛ وعلى الرغم من كل هذه الدعاوى، لم يستطع واحد منهم أن يُظهر المصدر البشري الذي يدعيه للقرآن، أو يدل بصدق على المعلّم الذي أخذه منه محمد ﷺ، وقد كان خصوم محمد ﷺ يملكون المال والجاه والسلطان، كما كانت لهم الغلبة في مضمار البلاغة والبيان؛ ولكنهم اعتبروا مجرد الدعوى دليلاً؛ وهذه هي آفة المكابرين الجاهلين في كل عصر وفي كل مصر.

ونتساءل لماذا اختصت الشياطين محمداً بالقرآن؛ بالرغم من أنها لم تكن لها سبيل إليه، لا قبل النبوة ولا بعدها؛ وكيف يُملَى الشيطانُ كلاماً كالقرآن، وهو الذي تُصب عليه اللعنات فيه؛ ومنه يتعلّم الناس مكائده، وحيله، وطرق مغالته وصدّه، وعصيان أمره؛ كيف والاستعاذة من الشيطان الرجيم واجبة قبل الشروع في قراءة القرآن الكريم؛ وأن من شعائر الحج في الإسلام، رجم الشيطان؛ وأن في كل شعيرة من شعائر الإسلام، تحقيراً له وإذلالاً؛ وكان النبي ﷺ يستعيذ بكلمات الله التامة من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة^(١).

ومن المفيد أن نشير في هذا الصدد إلى الافتراض، أو الزعم، الذي قدّمه معارضوا القرآن، على عصر ابن كمونة اليهودي، الذي عاش في القرن السابع الهجري يقول أهل الإفك، وهكذا افترض ابن كمونة: "لم لا يجوز أن يكون القرآن أنزل على نبي آخر دعا محمداً أولاً إلى دينه، وإلى هذا الكتاب، فأخذه منه محمد، وقتله، فلا جرّم لم يظهر اسم ذلك النبي، وبقي الكتاب في يد محمد؟"، يرد ابن كمونة على هذا الاحتمال، المستحيل عقلاً ونقلاً، بقوله: "إن كل عاقل لو رجع إلى نفسه وأنصف، علّم أن هذا لم يقع؛ ثم إن في القرآن عدة مواضع تدل على أنه ﷺ هو المختص به دون غيره، يعرف ذلك مَنْ تأمّل ما جاء فيه من حكاية أحوال النبي ﷺ في وقته، ومع أزواجه، ومع المنافقين والكفار"^(٢). هذا صحيح؛ ونضيف أن محمداً ﷺ لم يأت بالقرآن جملة واحدة، ولا قدّمه إلى الناس، مجموعاً في كتاب؛ وإنما تلقاه مشافهة من جبريل عليه السلام، وفي مراحل زمنية متباعدة، أو متقاربة، وفي أماكن مختلفة، ونسأل أصحاب هذا الزعم، أي نبي هذا الذي يأتي، ولا يعرفه إلا شخص واحد هو محمد ﷺ؟! وأي شخص هذا الذي يصلح أن يكون نبياً، ويؤمن على كتاب من عند الله،

(١) البخاري . خلق أفعال العباد بعقائد السلف ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٢) ابن كمونة . تنقيح الأنجاث في الملل الثلاثة . نشرة برلمان ط جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧ ص ٧٠ - ٧٢ .

ولا يستطيع أن يحميه؟ أى عاجز هذا؟ ثم لماذا اختص هذا النبي المزعوم محمداً دون بقية العرب، وأعيانهم، ووجوههم؟

هل يعتقد عاقل أن ديناً كالإسلام، يقوم على الخطف، والاعتصاب، والقتل؛ وهو الدين الذى يُحَرِّم كل ذلك وَيَضَعُ لمرتكبيه أَقْطَعَ الحدود وأقساها؛ ناهيك بأن هذه الغارة المتخيلة، تتنافى مع أخلاق محمد ﷺ وشخصيته. ولكن يبدو أن أعداء الإسلام، يهون عليهم ترك عقولهم عندما يتعاملون مع هذا الدين القويم.

يعرض علينا ابن كمونة - اليهودى الذى أسلم وحسن إسلامه - عجيبة أخرى من ثرّهات القوم، إذ ينقل عن بعضهم قوله: إنه من المحتمل "أن محمداً طالع فى كُتُب من تَقَدَّمه، أو سمعها، فانتخب أجودها، وضم البعض إلى البعض؛ أو أنه كان يترصد كلمات الناس، ويستقرها؛ فما وجده من كلمة رائقة، أو نكتة فائقة، نقّحه، وجمعه، ورتبه قرآناً؛ واستشهد صاحب هذا الزعم، بما جرى من عبد الله بن أبى سرح^(١)، أخذ كُتَاب الوحي، عندما كان النبي ﷺ يملئ عليه آيات من سورة (المؤمنون: ١١: ١٤)، والى يتحدث الله فيها عن مراحل خلق الإنسان، حتى إذا ما انتهى رسول الله ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ لهج ابن سرح على الفوز بهذه العبارة "فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ" فقال ﷺ: "اكتب فهكذا أنزلت"؛ فارتد الرجل وجمع به هواه، فظن أنه يُوحى إليه كمحمد ﷺ^(٢).

هذا الخبر صحيح لا شك فيه؛ ولكن أصح منه، أن القرآن يتلاقى مع الفطرة، وبخاصة عندما يتكلم القرآن عن الله تعالى، وعن عمله فى الخلق والإبداع؛ وأصح منه كذلك، أن ابن أبى سرح لو كان يستطيع آنذاك، أن يتلقى وحياً أو يكتب كلاماً مثل كلام الله تعالى؛ فلماذا لم يستمر فى تلقى الوحي، وكتابة ما يُوحى إليه؟ لماذا وقف عند هذه الجملة ولم يتعدها؛ وكان المجال أمامه أفسح من الصحراء التى يعيش فيها؟ لماذا انقطع خبره عند هذه الدعوى؟ ولم يعرف عنه أحدٌ إلا هذه الجملة وهذه الحكاية، التى أثبتتها كتب الحديث؟ والى

(١) عبد الله بن أبى سرح بن سعد بن الحارث العامري القرشي، أسلم وهاجر، وكانت له صحبة، وكتب للنبي ﷺ؛ ثم ارتد وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، ووُلِّيَ فى خلافة عثمان، وبعد مقتله رضى الله عنه، اعتزل الناس والتزم العباد، ودعا الله أن يتوفاه بعد الصلاة، فمات بعد تسليمه من صلاة الصبح. ذكره السهيلي.

(٢) انظر تنقيح الأبحاث فى الملل الثلاث.. ص ٧٠ - ٧٢.

لو لم يسجلها المُحدِّثون ما سمع بها ولا به أحد؛ وأين أعداء محمد ﷺ منه؟ لماذا لم ينتفعوا به؛
ويعارضوا بكلامه كلام الله تعالى، الذى بلغه محمد ﷺ.

ونرى أنه من المفيد أن نشير هنا إلى الحديث الذى رواه عكرمة أن عبد الله بن أبي
سرح كان يكتب لرسول الله ﷺ، ثم ارتد مشركاً، وصار إلى قريش فقال لهم: "إني كنت
أُحرفُ محمداً حيث أريد، كان يُملئ عَليَّ "عزيز حكيم"، فأقول: أو "عليم حكيم"؟
فيقول نعم كلُّ صواب. وفي حديث آخر برواية السدى فيقول له النبي ﷺ: "اكتب كذا"
فيقول "أأكتب كذا؟" فيقول: "اكتب كيف شئت"، ويقول اكتب "علماً حكيماً" فيقول
أكتب "سميعاً بصيراً"؟ فيقول له: "اكتب كيف شئت". وفي الصحيح عن أنس رضى الله عنه
أن نصرانياً (يقال إنه رجل من بني النجار) كان يكتب للنبي ﷺ بعد ما أسلم، ثم ارتد،
وكان يقول: "ما يدرى محمد إلا ما كتبت له".

بعد أن أشار إلى هذين الحديثين قال القاضى عياض الأندلسي: " فاعلم، تَبَتَّنَا اللهُ
وإياك على الحق، ولا جعل للشيطان وتليسه الحق بالباطل إلينا سبيلاً، أن مثل هذه الحكاية
أولاً لا تُوقع في قلب مؤمن ربيعاً. إذ هي حكاية عمن ارتد وكفر بالله، ونحن (أى علماء
الحديث) لا نقبل خبر المسلم المتهم، فكيف بكافر افتري هو ومثله على الله ورسوله ما هو
أعظم من هذا.."، ويضيف القاضى عياض "ولم يرد عن أحد من المسلمين، ولا ذَكَرَ أحدٌ
من الصحابة أنه شاهد ما قاله (أى ابن أبي سرح أو هذا النصراني) وافتراه على نبي الله ﷺ،
يقول تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِقَايَتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَاذِبُونَ ﴾ (النحل: ١٠٥) ^(١).

ويقول القاضى عياض إن الصحيح في ذلك هو حديث عبد الله بن عزيز بن ربيع
(التابعي) عن أنس؛ وليس في هذا الحديث عن أنس قولُ شئ من ذلك من قِبَل نفسه، إلا من
حكايته عن النصراني؛ ولو كانت - أى الحكاية - صحيحة لما كان فيها قرح، ولا توهيم للنبي
ﷺ فيما أوحى إليه، ولا جواز للنسيان، والغلط عليه والتحريف فيما بلغه، ولا طعن في نظم
القرآن وأنه من عند الله؛ إذ ليس فيه - لو صح - أكثر من أن الكاتب قال له: "عليم
حكيم"، أو كتبه فقال له النبي ﷺ: "كذلك هو". فسبقه لسانه أو قلمه لكلمة أو كلمتين مما

(١) انظر. الشفا بتعريف حقوق المصطفى. تحقيق محمد أمين على وآخرين. ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧، عمان. مؤسسة علوم

القرآن، ودار الفحاء ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م

نُزِّلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَبْلَ إِظْهَارِ الرُّسُولِ لَهَا. إِذْ كَانَ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا أَمْلَاهُ الرَّسُولُ يَدُلُّ عَلَيْهَا، وَيَقْتَضِي وَقُوعَهَا بِقُوَّةِ قُدْرَةِ الْكَاتِبِ عَلَى الْكَلَامِ، وَمَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَجُودَةِ حَسِّهِ وَفُطْنَتِهِ، كَمَا يَتَّفَقُ ذَلِكَ لِلْعَارِفِ إِذَا سَمِعَ الْبَيْتَ مِنَ الشَّعْرِ أَنْ يَسْبِقَ إِلَى قَافِيَتِهِ أَوْ مَبْتَدَأِ الْكَلَامِ الْحَسَنِ إِلَى مَا يَتِمُّ بِهِ، وَلَا يَتَّفَقُ ذَلِكَ فِي جُمْلَةِ الْكَلَامِ، كَمَا لَا يَتَّفَقُ ذَلِكَ فِي آيَةٍ وَلَا سُورَةٍ.

وَيُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ هَذَا الْإِتْفَاقُ، لَوْ صَحَّ وَقُوعُهُ أَصْلًا، عَلَى أَنَّهُ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ الْقُرْآنَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَالَّتِي تَأْخُذُ حَكْمَ الْقُرْآنِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهَا وَحْيًا^(١).

وَنُغْضِي فِي اسْتِعْرَاضِ الْآيَاتِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا. وَيَلِشُّ فِي مَنَاقَشَتِهِ لِلْفُظِّ "كِتَابٌ"، يَقُولُ تَعَالَى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿٢﴾﴾ (البروج: ٢١-٢٢) اللوح المحفوظ هو الكتاب المكنون، المذكور في الآية الأخرى، أشار هنا إلى المادة التي كتب عليها القرآن، وهي "اللوحة"، وجمعها "ألواح"، و"الكتاب" مصدر "كتب يكتب كتابة" وأصل "الكتابة" الجمع سُمِّيَتْ كَذَلِكَ، لَجْمْعِهَا الْحُرُوفُ؛ فَاشْتَقَّ "الكتاب" مِنْهُ، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ أَصْنَافًا مِنَ الْقَصَصِ، وَالْآيَاتِ، وَالْأَحْكَامِ، وَالْمَوَاعِظِ، وَالْأَمْثَالِ، وَالْأَخْبَارِ، وَالْعُلُومِ، وَالْمَعَارِفِ؛ وَيُسَمَّى الْمَكْتُوبُ "كِتَابًا" عَلَى سَبِيلِ الْإِجَازِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ (الواقعة: ٧٨)، و"الكتاب" إِذْنًا بِمَعْنَى "المَكْتُوبِ" سِوَاءَ كَتَبَ عَلَى وَرَقٍ، أَمْ أَبَاطَى، أَمْ لَخَافٍ، أَمْ عَلَى لَوْحٍ، أَمْ حَجَرٍ؛ وَقَدْ عَبَّرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْكَلَامِ الْمَكْتُوبِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ، مَرَّةً بِالْمُفْرَدِ "كِتَابًا"، وَمَرَّةً بِالْجَمْعِ "كُتُبًا"، وَمَرَّةً بِـ "الْصُحُفِ" وَمَرَّةً بِـ "اللُّوْحِ" أَوْ "الْأَلْوَحِ". يَقُولُ تَعَالَى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مُوعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴿١﴾﴾ (الأعراف: ١٤٥) والمَكْتُوبُ لَهُ هُوَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ هَذَا مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى يُسَمَّى الْوَحْيَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى أَيْضًا بِـ "الْكِتَابِ"، و"التَّوْرَةِ"، و"الْفُرْقَانِ"؛ و"اللُّوْحِ" مَادَّةً كَالْوَرَقَةِ، لَا يُسَمَّى "كِتَابًا" إِلَّا إِذَا كَتَبَ عَلَيْهِ بِالْفِعْلِ؛ وَقَدْ اسْتَعْمَلَ "الْقُرْآنَ" هَذَا الْاسْمَ، بِالْمَعْنَى الْأَصْلِيَّ لَهُ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرًا ﴿٢﴾﴾ (القمر: ١٣-١٤) وَالْمَحْمُولُ هُوَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْدُّسُرُ الْمَسَامِيرُ وَالْجُورِي لِلْسَفِينَةِ.

تَنْطَوِي تَحْتَ هَذِهِ الطَّائِفَةِ مِنَ الْآيَاتِ آيَةُ الزَّخْرَفِ أَيْضًا: ﴿وَلِنُفُثِهِ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا

لَعَلِّي حَكِيمٌ ﴿٤﴾ (الزحرف: ٤)، والتي تشير هي الأخرى إلى الكتاب الأم والإمام الذي أخذ منه جبريل عليه السلام، ونزل به على النبي ﷺ على التراخي كما ذكرنا من قبل.

ونأتى الآن إلى قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَتٌ﴾ (آل عمران: ٧) هذه الآية قد أصابت المستشرق بشجى فى حلقة، واعترضت بحجى نفسه؛ إذ أنه لم يفهم عبارة "أم الكتاب" هنا، و"أم الكتاب" فى الآيات الأخرى؛ ومن ثم فقد وهم وخلط فى توجيه العبارة.

ولتوضيح هذه المسألة نقول إن "أم الكتاب" فى قوله تعالى: ﴿وَأِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ﴾ ﴿٥﴾ تعنى أصل القرآن الذى جاء المقروء على منواله، وانتسخ منه الكتاب المجيد؛ أما العبارة الواردة فى سورة (آل عمران: ٧): ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فتتص على أن من القرآن مُحْكَمٌ ومتشابه، وأن الآيات المحكمة - يعنى الواضحة الثابتة المفهوم والحكم - إنما هى الأصل، أو الأم التى يرجع إليها عند الاختلاف، ويُرد إليها النص عند الالتباس، كما يقال "مكة أم القرى"؛ وذلك لما روى "أن الدنيا دُحِيتُ من تحتها" و"أم الرأس لمجتمع الشعر"، إذ هو أحظر مكان؛ و"الجرة" يقال لها "أم النجوم".

قال الخليل بن أحمد: "وكل شىء يضم إليه سائر ما يليه، يسمى أُمًّا"، و"الفاتحة" "أم الكتاب وأم القرآن" لاشتغالها على أصوله؛ وكل آيات المحكم هن أم القرآن؛ أراد الله تعالى أن يقول للمشككين فى وحيه، أن محكم هذا الكتاب، وواضحه، هو الأصل، وهو المعيار؛ وأن آيات المحكم هى الأكثر، وأن المتشابه الذى يحتمل التأويل، وقد يثير الاختلاف، هو الأقل؛ والقرآن الكريم، وهو الكتاب المقروء، كهذا الكون المنظور، فيه الثابت المحكم، والمتغير المتقن؛ محكم القرآن ليس فيه فتور أو خلل، ومتشابهه ليس فيه عوج أو زلل، المحكم يُثَبَّت القلب، والمتشابه يثير العقل، ويستحثه على النظر، وإعمال الفكر، فيقوى الإيمان كما تقوى به الأذهان، وتنتج العلوم، وتجول الخواطر، وتصول القرائح، وبذلك يجد أهل التسليم فى القرآن متماهم وقراءهم (غذاءهم)، كما يجد المتفلسفة والمتأملة مبتغاهم ومرقامهم. أما عبارة "أم الكتاب" الواردة فى قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ﴿٦﴾ (الرعد: ٣٩)، فهى خاصة بديوان الخلق والتقدير، والحكم والتدبير، والقضاء والقدر؛ فـ"أم الكتاب" تعنى أم المكتوب فى سابق علم الله تعالى وأصل تقديره.

بعد هذا العرض للآيات الخاصة بلفظة "كتاب"، وعبارة "أم الكتاب" في القرآن، والتعليق عليها؛ يتضح لنا أن القرآن استعملها في قرائن مختلفة، وفي التعبير عن معان متنوعة، تُحددها القرائن، ومواقع الخطاب القرآني، ليس بينها أدنى لبس أو خلط، ويتضح كذلك أن لفظ "كتاب"، يطلق أكثر ما يطلق في القرآن، على كتاب الله تعالى، الذي يتعبد المسلمون بتلاوته ويتبركون بحمله، وينزلون على حكمه.

مفهوم لفظة "السورة" في القرآن

"السورة" كلمة قرآنية، ورد ذكرها تسع مرات بالمفرد، ومرة واحدة بالجمع في القرآن الكريم؛ هذا ما لاحظته ويلش؛ ونزيد عليه أن مجموع السور التي تتضمن لفظة "سورة" ست؛ هي "البقرة"، و"التوبة"، و"يونس"، و"النور"، و"محمد"، و"هود"، كلها مدنية، إلا سورة "هود" فإنها مكية.

يزعم المستشرق أن لفظة "سورة"، مأخوذة من الكلمة السريانية (SURTA, SURTHA)، بمعنى "كتاب مقدس" أو "قراءة من نص مقدس"؛ وتدعيماً لهذا الحكم، الذي لا أساس له؛ يعطى ويلش تعريفاً مركباً، وغريباً لمعنى كلمة "سورة" في القرآن، فيقول إن معنى "السورة" في القرآن، هو الوحدة أو الجزء من الوحي، الذي يمكن أن يُترجم بالكتاب المقدس (SCRIPTURE)، أو الوحي (REVELATION).

وهذا التعريف غير صحيح؛ فـ "السورة" كـ "الآية" جزء من الوحي، ولا يشار إليها بذاتها على أنها الوحي، ولا يسميها المسلمون بمفردها القرآن، أو الكتاب المقدس؛ فالقرآن يحتوى على مائة وأربع عشرة سورة، تمثل في مجموعها القرآن، والقرآن نفسه يسمى وحياً، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ (الأنبياء: ٤٥) وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم: ٤). ولا يمكن بحال أن نسمى "السورة" بمفردها من القرآن "كتاباً" أو "وحياً"، وربما وهَم الكاتب في معنى كلمة "أنزل" أو "ينزل"، التي جاءت في مواضع كثيرة مقترنة بـ "القرآن"، وفي بعضها جاءت مقرونة بلفظة "السورة" ففهم خطأ أن السورة يمكن أن تسمى لذلك "كتاباً" و"وحياً" كـ "القرآن" تماماً؛ إذ يقول الله تعالى: ﴿تَحَذِّرُ الْمُتَفِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزَعُوا إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَحَذِّرُونَ﴾ (التوبة: ٦٤)، وما يلفت النظر أن لفظ "سورة" ذكر في سورة التوبة أربع مرات (في الآيات ٦٤، ٨٦، ١٢٤، ١٢٧)، وتداول اللفظة في هذه المواضع الأربعة

حول المنافقين؛ وذلك لشدة بأسهم، وخطرهم على المجتمع، فهم كانوا يخشون نزول السورة من القرآن؛ لأنها تفيض أمرهم، وتكشف سرهم، فكان السورة في شدتها وتأثيرها على المنافقين، قرآناً كاملاً. ومما يلاحظ أيضاً أن آيات وصف المنافقين، أكثر من الآيات التي يصف الله فيها الكفار والمؤمنين.

ومن الآيات التي ذكرت فيها "السورة" مع عبارة "التنزيل" قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (محمد: ٢٠)؛ وقول الله: "لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ" لا يعنى البتة أن "السورة" في معناها كـ "الكتاب"، وأنه يمكن أن تكون السورة بذاتها كتاباً مقدساً (SCRIPTURE).

يقول الكاتب إن لفظة "سورة" قد استعملت في القرآن في قرائن مختلفة؛ فهي تطلق أحياناً ويراد بها "الآية"، وتطلق أحياناً أخرى ويراد بها "القرآن"، كما تطلق كذلك على "الكتاب"؛ ويستشهد ويلش على صحة كلامه، بما جاء في القرآن بشأن تحدى الخصوم من الكفار أن يأتوا بمثله، أو بشيء منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: ٢٣)؛ وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (يونس: ٣٨)؛ وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِينَ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣).

وننبه هنا وفي هذا السياق على نقطة مهمة وهي أن لفظة "أنزل" استعملت مع "السورة"، وأيضاً مع "الآيات"، وفي قرينة واحدة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النور: ١).

فالقرآن قد استعمل لفظ "أنزلنا" مع كل من "السورة"، و"الآيات" التي تشكل في مجموعها السورة، ولا يُعقل القول بأن الآيات المشار إليها بلفظ "أنزلنا" في قرينة السورة، يمكن أن تسمى بمفردها "كتاباً مقدساً" بحجة أن الله قد نص على إنزالها؛ والنقطة التي تخفى على الكاتب هنا، هي أن لفظة "أنزل" وما يجري مجراها، إنما استعملت للتنبيه على معنى خاص، أو حكم خاص، جاءت به "السورة" أو "الآية"، وأراد الله تعالى تأكيده على هذا النحو.

ومن المفيد أن نذكر في هذه القرينة كذلك أن الضمير في "أنزلناها" و"أنزلناه"، راجع إلى "القرآن"، أو إلى "السورة"، ومعناه في الموضعين أنزلنا حامله، أو حاملها؛ لأن القرآن لم ينزل بنفسه؛ بل نزل به جبريل عليه السلام.

يتخذ الكاتب من آيات التحدى بالقرآن المذكورة، دليلاً يؤكد به زعمه، بأن "السورة" تطلق على القرآن كله، كما تطلق على بعضه؛ وهو بهذا يكون قد أوجده في الوهم علاقة بين كلمة "سورة" العربية، ومقابلها بالسريانية "سورتا"، والعلاقة هي أن كلا من الكلمتين، يطلق على "الكتاب المقدس" كله أو بعضه؛ واجتهاد الكاتب هنا، في غير محله؛ والصلة بين نتيجته ومقدماته، مبتورة مقطوعة؛ فعبارة القرآن: (فأتوا بسورة مثله)، و(فأتوا بعشر سور مثله)، يعود الضمير على القرآن في كل، لا يعنى أثبتة أن السورة، والعشر سور، والقرآن، كله بمعنى واحد، كما يحاول هو أن يفرضه؛ والصحيح أن الله تعالى قد تدرج مع العرب في التحدى؛ فقد تحداهم في البداية بكل القرآن: ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الإسراء: ٨٨)، تلك الآية التي أهمل ويلش الإشارة إليها، في هذا الصدد؛ لأنها لا توافق مدعاه تفيد بوضوح أن التحدى هنا بكل القرآن، لا بسورة، أو عشر سور منه فقط؛ وهذا في حد ذاته، إشارة واضحة إلى أن القرآن في مجموعه معجز، وفوق قُوى البشر العقلية وقدراتهم الإبداعية، كما أنه معجز في سوره وآياته.

انتقل الله تعالى من تحدى العرب، أن يأتوا بمثل القرآن، إلى تحديهم بالسورة، والعشر سور منه، حتى لا يقولون: قرآن جاء به محمد في ثلاث وعشرين عاماً، يطالبنا أن نأتى به في الوقت القصير؛ وبلغاؤنا وعباقرتنا، يقلقون ويضطربون، يهيمون ويطوفون، ويُطاف بهم، من أجل قصيدة تنشد، أو خطبة تلقى؛ ناهيك بما في القرآن من علوم، ومعارف، ولطائف، وطرائف، وغرائب، وعجائب، تعجز البشر لذلك؛ قال الله لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ﴾، أو ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، أى من جنسه؛ وقد فات الكاتب أن يلاحظ عود الضمير على "القرآن" كله، لا على "سورة"، أو "العشر سور"؛ إذ أثبت الله في كلا الموضعين كلمة "مثله"، أى القرآن؛ ولم يقل مثلها، يعنى "السورة" أو "العشر سور". ومن التنزل في التحدى، أن الله لم يحدد لهم حجم السورة، أو السور، التي طلب إليهم أن يأتوا بمثلها بل ترك لهم الاختيار، أن يختاروا ما يظنون أنه في إمكانهم محاكاته.

ومن وَهَم الكاتب أيضاً أنه ربط بين الآيات التي تحدى الله فيها العرب أن يأتوا بمثل القرآن أو بعض سورة، وبين قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (القصص: ٤٩)؛ بل آية القصص ليس فيها تحدى للقائلين، بأن يأتوا بمثل القرآن؛ وإنما فيها رد عليهم في دعوى أن محمداً ﷺ، لم يؤت مثل ما أوتى موسى، عليه السلام، من قبل، من الكتب والمعجزات؛ فرد الله تعالى عليهم، بأن أسلافهم قد كفروا بما أوتى موسى وأتموه بالسحر، مرددين قولهم نفسه لمحمد ﷺ، متخذين الموقف ذاته معه. ثم أمر الله نبيه ﷺ، أن يقول لهم: ائتوا بكتاب من عند الله هو أكثر هداية من القرآن والتوراة فأتبعه معكم؛ إن كانوا صادقين في دعواهم، وقادرين على تحقيق هذا الأمر؛ ولكنهم بلا أدنى شك، لا يمكنهم ذلك؛ لأن الإتيان بكتاب من عند الله، يتطلب النبوة والرسالة والمعجزة؛ وصدق الله إذ يقول: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

إن الذين أجرموا في حق الأنبياء يشترطون على الله أن يعطيهم ما أعطاه للأنبياء، وهم لم يعملوا بعمل الأنبياء، لا السابقين، ولا المعاصرين لهم؛ ولو عملوا بعملهم واتبعوا طريقتهم لفازوا بالخير الذى معهم وحظوا بالسعادة في الدنيا، وبالجنة في الدار الآخرة، ولكنهم أنفوا أن يتبعوا الأنبياء، وطالبوا بالمساواة معهم كبراً وبطراً فأصابهم الصغار وهو الذل والعار في الدنيا، والعذاب الشديد والأبيد في الآخرة.

يضيف ويلش أنه لا توجد أى إشارة في القرآن أجمع بتحديد حجم السورة، بالنسبة للوحى ككل، وفي الأغلب الأعم، فإن هذه السور، التي تشير إليها الآيات السابقة كانت أجزاء، أو أبعاضاً فقط، من السورة الحالية؛ وهذه قفزة غير مأمونة من الكاتب، ونسأل من الذى يقرر- يا ترى- أن سوراً ما من القرآن، كانت تعتبر أجزاء من السورة الحالية، ثم فصلت عنها، وأصبحت سوراً بذواتها؟ وليت شرى أين تلك الأجزاء، أو الآيات الأخرى؟ هل هي لا تزال باقية في المصحف، أم أنها سقطت منه؟

لنجيب على هذه الأسئلة ينبغي أن نتوقف قليلاً، لحين مناقشة آراء الكاتب في الناسخ

والمنسوخ.

بعضى المؤلف فى استعراض الألفاظ القرآنية؛ فيقول "إن الاستخدامات القرآنية لكلمة "قرآن"، "آية"، "كتاب"، "سورة" كلها تتفق أو تتقارب عند النقاط التالية:

أولاً- الألفاظ "قرآن" و"آية" و"سورة" كل منها يستعمل أحياناً، للتعبير عن الجزء الأساسى للوحى، وتشمل غالباً مجموعة من الآيات، كما فى قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ (يونس: ٦١)، وقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦).

وكتعليق على الآية الأولى، موضع الاستشهاد، نقول إن معنى "وما تكون فى شأن" أى من شئون الحياة، أو الدين؛ "وما تتلوا منه" الضمير يعود إما على شأن، ويكون "منه" بمعنى فيه أو بسبب، أى وما تتلوا من قرآن فى هذا الشأن، وبسببه وكانت حياته ﷺ كلها قرآنية، والقرآن حاكم، وموجه لكل شئون المسلمين الدينية والدنيوية؛ وإما أن يعود الضمير فى "منه"، على القرآن، أى وما تتلوا من القرآن؛ وقد عرفنا أن القرآن، كالماء يطلق على الكل، وعلى الجزء؛ وهذه الآية دليل قاطع على ذلك، ولا متعلق للمستشرق بها ولا بآية البقرة (١٠٦).

أما لفظة "كتاب" فربما تعطى المعنى السابق نفسه، كما فى آية (٤٩) من سورة يونس، التى أشرنا إليها، وأوضحنا معناها؛ وليس فيها أن "الكتاب" و"السورة" و"الآية" بمعنى واحد؛ وليس فى الآية كذلك ما يفيد تداخل المعانى بين هذه الألفاظ، لا من قريب ولا من بعيد؛ بل لكل لفظ منها، معناه المحدد والواضح.

ثانياً- الألفاظ "قرآن" كما فى سورة (سبأ: ٣١)^(١)، و"كتاب" كما فى (البقرة: ٨٩)^(٢)، و(الأنعام: ٩٢)^(٣)، و(١٥٤)^(٤)، و(الأعراف: ٢)^(٥) تستعمل أحياناً بمعنى "الكتاب المقدس"؛ وكذلك "سورة" تستعمل أحياناً بالمعنى نفسه؛ والحقيقة أن كلمة "كتاب"

(١) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُؤْمِنَ بِهِدَ الْقُرْآنَ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

(٢) ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(٣) ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

(٤) ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾

(٥) ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾

قد استعملت في جميع المواضع، التي أشار إليها المستشرق، للتعبير عن "القرآن"، إلا في موضع واحد (الأنعام: ١٥٦)^(١)؛ فإنه أي الكتاب بمعنى "كتاب موسى أو عيسى عليهما السلام"؛ مع أنه في الآية السابقة عليها قد ورد لفظ "كتاب" إشارة إلى "القرآن" ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (الأنعام: ١٥٥).

أما عن لفظة "سورة"، التي يقرر المستشرق أنها تأتي أحياناً، بمعنى "الكتاب المقدس"؛ فقد سبق أن ناقشناه فيها، وبينا المعنى الصحيح لللفظة، كما في سورة النور التي استشهد بها، ولا داعي للتكرار.

ثالثاً- في بعض المواضع، تستعمل لفظي "السورة" و"الكتاب" في القرآن، بمعنى الوحي بصفة عامة، وأحياناً قد تشير إلى جزء، أو أجزاء مخصوصة منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (الإسراء: ٨٢)، وقد تناولناها بالمناقشة فيما سبق، ولا داعي لذكرها هنا.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (فاطر: ٣١)، هذه الآية تعني أن الذي أنزله الله على محمد، هو من باب الخاص والعام، أي أن الذي نزل من القرآن، هو من ضمن الكتاب الأم، الذي يضم القرآن كله، والذي هو عند الله.

رابعاً- وعلى أية حال، فإنه من المعتاد وجود تمييز بين هذه الألفاظ؛ فلفظ "كتاب" يراد به "كتاب الله"، عندما يشار به إلى الوحي بصفة عامة؛ هذا بينما يطلق لفظ "قرآن" على الوحي، والكلام الذي أنزله الله على محمد خاصة، على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (يونس: ٣٧)، المعنى "وما كان لأحد أن يفترى أو يزور مثل هذا القرآن، لأنه كلام الله؛ وهو وحده القادر على إنشاء نظمه، وإبداع معانيه، وإحكام تأثيره على النفوس"؛ وبالتالي فأصل دعوى الإتيان بمثل هذا القرآن، باطلة من الأساس. ولو أمكن لمحمد كبشر أن يؤلف القرآن، لأمكن لغيره ممن هو في طبقته من أهل الصنعة، أن يأتي بمثله. وقد مر بنا أن الله تعالى تحدى البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا، ومحمد ﷺ من عموم البشر،

(١) «أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ»

وداخل في عموم التحدى. وهذا التحدى ثابت للبشر إلى قيام الساعة. وعبرة "هذا القرآن" في الآية، لا تقتصر في الإشارة على بعض القرآن؛ وهو الجزء الذى كان محمد ﷺ قد تلقاه عن الله، وإنما تشير أيضاً إلى القرآن كله؛ وقد نوهنا فيما سبق أن لفظة "قرآن"، تطلق على الكل وعلى الجزء، وهو مما غاب عن الكاتب إدراكه.

ومن الجدير بالإشارة إليه هنا، أن معنى قوله تعالى: (وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ) هو القرآن نفسه، فصلّ أولاً تنجيماً وتنزيلاً؛ ثم إقراءً وتثبيتاً؛ وأخيراً تفسيراً وتبييناً، وعملاً وتطبيقاً؛ وينبغى ملاحظة قول الله تعالى: (وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ)، إذ إنه لم يقل "وتفصيل القرآن"، وهو الأوضح، وذلك تجنباً لتكرار كلمة "قرآن" في مثل هذه المساحة الضيقة، حفاظاً على جمال الأسلوب؛ وأيضاً فإن استخدام كلمة "كتاب"، بدلاً من "القرآن" أنسب للسياق، إذ أن عبارة (تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ) تشير إلى كتب الله السابقة، فناسب أن يأتي بعده بعبارة "وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ" ولكن أنى للكاتب أن يصل إلى درجة الفقه في كلام الله تعالى، وإلى معرفة معانيه التامة وأسراره الجمّة.

يشير ويلش في نهاية حديثه عن كلمة "كتاب" في القرآن، إلى هذه الآية: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٠١﴾ (يوسف: ٢-١)؛ ليس في الآية خصوص وعموم، وإنما فيها تلوين وتنويع في الخطاب القرآني، فأيات الكتاب المبين هي مجموع القرآن، وعددها (٦٢٣٦ آية بالعدد الكوفي).

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ لا يعنى بحال أنه كان يوجد قرآن أعجمي؛ وإنما معناه أن الله تعالى أنزله بهذه اللغة، وهي أفصح اللغات، وأظهرها، وأوسعها، وأغزرها، وأغدقها، وأروقها، نزل القرآن وهو أشرف الكتب وأكملها، على أشرف رسول، وهو محمد ﷺ، بسفارة أشرف الملائكة وتلقينه، جبريل عليه السلام، وأنزله في أشرف البقاع مكة والمدينة؛ وابتدأ نزوله في أشرف ليلة هي ليلة القدر والتقدير؛ وأنزله ابتداء في أشرف شهر هو شهر رمضان الكريم، الذى أفردته الله تعالى دون سائر الشهور بذكر اسمه صراحة في القرآن.

ألفاظ خاصة أخرى، استعملها القرآن في التعبير عن الوحي

أشار ويلش بعد ذلك، إلى مجموعة أخرى من أسماء القرآن الخاصة مثل:

١- "ذِكْر"، "تذكرة"، "ذكرى"، وثلاثتها مشتق من الفعل "ذَكَرَ"

٢- مثاني

٣- حكمة

ثم تحدث بعد ذلك عن هذه الأسماء الثلاثة، باختصار؛ ولكننا سنعرض لها بشيء من التفصيل، لتوضيح أهمية هذه الأسماء القرآنية ومناسبتها.

أولاً: الذكر

وردت كلمة "ذكر" بمادتها المتنوعة، في مواضع كثيرة من القرآن، وهي في مجموعها تتكلم عن القرآن، إما بلفظ "ذكر"، أو "تذكرة"، أو "ذكرى"؛ هكذا تخصيصاً وتنصيماً كما سنبينه بالأمثلة، وإما بلفظ مشتق من الفعل "ذكر" مشفوعاً، أو مصاحباً للفظ القرآن، على سبيل المثال قوله تعالى: **وَإِذَا ذُكِّرْتُمْ بَلَّغُوا فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ عَلَىٰ أَذْنَبِهِمْ** **نُفُورًا** ﴿١١﴾ (الإسراء: ٤٦). ومعناها أنك يا محمد عندما تذكر الله - وهو رب القرآن - في تلاوتك، تشمئز قلوب الكفار غيراً على آهتهم المزعومة، والقرآن كله دعوة إلى التوحيد، وتشنيع على الكفر والملاحدة. ومثله قوله تعالى: ﴿ **وَإِذَا ذُكِّرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ** ﴾ (الزمر: ٤٥).

وقول الله لنساء النبي ﷺ: ﴿ **وَأَذْكُرَنَّ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ** ﴾ (الأحزاب: ٣٤)، وآيات الله هي القرآن، والحكمة هي السنة المبينة له قولاً وعملاً. وهي إحدى جناحي التشريع؛ ومنكرها، منكر للقرآن، خارج عن حظيرة الإيمان. وقوله تعالى: ﴿ **صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ﴾ ﴿١﴾، يقسم الله تعالى بالقرآن ذي الشرف العظيم، والشأن الخطير الجليل في نفسه، لأنه كلام الله الذي يعلو ولا يُعلَى عليه، وهو كذلك في نفس تاليه، وسامعه، وفي نفس من يعمل به، ويلتزم بأحكامه. وسمى "القرآن" بـ"الذكر" كذلك، لأنه يشتمل على ما يُذَكَّرُ الغافل، وينبه اللاهي بالله تعالى ويحفزه للعمل الصالح في دينه ودنياه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٢١) نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ (٢٢) (يوسف: ٢-٣). فالرسول ﷺ كان غافلاً عن تاريخ الأمم، والرسول، والملوك، وما جرى لهم؛ بمعنى أنه كان يجهل كل ذلك ولم تكن له دراية به حتى عرفه الله تعالى بذلك كله، وجعله ممن يذكره أى القرآن فلا ينساه، ويعيده فلا ينقص منه ولا يزيد فيه: ﴿ سَنَقِرُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾ (٢٣) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (الأعلى: ٦-٧)؛ ومن المفيد جداً أن ننبه على السر في اختيار الله لكلمة "غافل" في نفي المعرفة عن محمد، فنقول إن لفظة "غافل" تقابلها كلمتي "ذاكر"، "وناس"؛ ومن حكمة الله تعالى، ودقة القرآن أنه استعمل كلمة "غافل" دون "ناس"، وذلك لأن الكلمة الأولى تفيد بوضوح عدم علم محمد بما كان في الكتب السابقة بالمرّة، وهو ما كان عليه النبي ﷺ بالفعل؛ وأما الكلمة الثانية "ناس"، فتفيد علماً سابقاً على النسيان؛ وهذا الوصف لا يصدق على محمد ﷺ بحال.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ (ق: ٤٥)؛ والعبارة هنا بمعنى الغفلة والنسيان معاً؛ جاء الفعل "اذكّر" مقترناً بـ "الكتاب" الذي هو "القرآن" في خمسة مواضع من الكتاب العزيز، في سورة مريم (١٦، ٤١، ٥١، ٥٤، ٥٦)، كذلك ورد بصيغة الأمر للجماعة، مصحوباً بلفظي "الكتاب"، و"الحكمة"، كما في سورة الأحزاب، وقد مر بنا. وجاءت الآية في سياق الحديث عن خلقيات الحياة الزوجية، وما ينبغي أن تتحلى به المرأة المسلمة من مؤهلات وفضائل.

كذلك جاءت الآية في سياق الحديث عن تحريف كتب الله السابقة على القرآن: ﴿ تَحْرِفُونَ الْقَوْلَ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ (المائدة: ١٣). المشار إليهم هنا، هم اليهود والنصارى، حرفوا بعض كتب الأنبياء، ونسوا بعضها، فحاجت كتبهم مملوءة بالأغاليط، والأوهام، والتناقضات الكثيرة؛ لكثرة التبديل الذي أصابها، والتحريف بالزيادة والنقصان الذي اعتوّرها، على تعاقب الأجيال والزمان، وصاروا لذلك فرقاً متناحرة، وأحزاباً متلاعنة، وطوائف متناكرة لا تجتمع أبداً.

في آيات كثيرة يدعو الله تعالى عباده إلى الذكر، وذكر الله، والخوف منه، والرجاء فيه؛ وذلك لأن الله تعالى يرفع مكانة الذكر والذاكرين والذاكرات، إلى

أعلى الدرجات، لأن من ذَكَرَ الله تعالى، استحضر عظمته، ومن استحضر عظمته،
خاف وأشفق، ومن خاف وأشفق، أدلج فبلغ المنزل؛ كل شيء مترتب على ذكر
الله تعالى، ولا يذكر الله ولا يستحضر عظمته، إلا من له قلب متعلق بالله ويعرف الله
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق : ٣٧)،
﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ (غافر: ١٣).

إن القلب الفظ إذا ذكر الله، لان واستقام على أمره ونهيه؛ ومن لم يهتد بذكر
الله ضل وقسى قلبه، وإن مَهَر في أنواع العلوم البعيدة عن الدين، والمعرضة عن رب
العالمين، وإن بُعِدَ صِيتُهُ، وعَلَا صَوْتُهُ في الحياة الدنيا ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ
مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ (طه: ١٢٤)، و"الضنك" ضيق العيش
وضيق العقل، وحرَج الصدر، وأى ضنك أشد من أن يعيش الإنسان خارج دائرة
الإيمان وحيز التوحيد، وعالم النور ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ
أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: ١٩).

وجاء "الذكر" في قرينة "القرآن" في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ
لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (الإسراء: ٤١) أى ضمناً هذا القرآن، العظات
والأوامر والنواهي والحجج والبيانات والعلوم والمعارف، لعلهم يتذكرون، فيعملون
بها، وينزجرون.

ورد لفظ "الذكر" في القرآن، في اثنين وخمسين موضعاً؛ عشرون منها عن
القرآن (آل عمران: ٥٨، يوسف: ١٠٤، الحجر: ٦-٩، النحل: ٤٤، الأنبياء: ٢-
١٠-٥٠، الشعراء: ٥، يس: ١١، ٦٩، ص: ٨-٤٩-٨٧، فصلت: ٤١،
الزخرف: ٥، القمر: ٢٥، القلم: ٥١-٥٢، التكويد: ٢٧)، والباقي جاء بمعنى
"العلم والتذكر والاتعاظ".

ومن الجدير بالذكر أن نقول إن القرآن سمي "ذكراً" لأنه كتاب يذكر دائماً، كتاب ظاهر ومشهور، وحافظ ومحفوظ، فلا يبدل ولا يحرف، ولا يُطمس ولا يخفى على أحد ذكره، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩).

والقرآن الآن هو هو، كما كان بالأمس أشهر كتاب، مقروءاً، ومكتوباً، ومدرّساً، ومطبّقاً؛ إنه الكتاب الوحيد الذي تسمعه بالصوت الحى في كل قارات الدنيا؛ وهو الكتاب الوحيد، الأوسع انتشاراً وقراءة؛ صرف الله قلوب الملايين بحبه وتعاليمه؛ فهو يُقرأ بلسانه العربى، الذى نزل به في جميع الأصقاع والبقاع، وبألسنة أهل اللغات المختلفة. وإذا قارنا بين "القرآن" وبين "كتاب النصرى المقدس" مثلاً، وجدنا أن هذا الكتاب الأخير يطبع بالملايين، وفي أفخم الطباعات، ويترجم إلى جميع اللغات واللهجات، أكثر بكثير من القرآن؛ ولكنه كما وصفه أحد الكتاب المسيحيين (الكتاب الذى يطبع بالملايين، ولا يقرؤه إلا أقل القليل)؛ وصدق الله إذ يقول عن القرآن: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ (الأنبياء: ٥٠)، ﴿ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير: ٢٧)، ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴾ (القيامة: ١٧).

"الذكر" كـ "القرآن" يطلق على الكل، والجزء؛ أما إطلاقه على الكل، فظاهر من الآيات الكثيرة التى أشرنا إليها؛ وإما إطلاقه على الجزء، ففى قوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنبياء: ٢)، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَنِ مُّحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُّعْرِضِينَ ﴾ (الشعراء: ٥).

ثانياً: المثنى

"المثنى" من الألفاظ^(١) القرآنية التى جذبت انتباه المستشرق ويلش، وقد ورد هذا اللفظ فى موضعين فقط من القرآن (الحجر: ٨٧، والزمر: ٢٣).

يقول المستشرق إن مفسرى القرآن قد تحيروا كثيراً فى تحديد معنى "مثنى"؛ وهذا فى نظره كان له مردوده على الدراسات الاستشراقية، فقد انبرى المستشرقون المهتمون بالدراسات القرآنية لتقديم عدة معانى أخرى مختلفة للكلمة.

(١) يكثر المستشرق من استعمال لفظة "مصطلح" للإشارة إلى الألفاظ القرآنية؛ ولكننا نستعمل "لفظ"، و "لفظة" و "كلمة" بدلا من "مصطلح" لأن المصطلح من وضع البشر؛ والقرآن كلام الله تعالى الخالص الذى لا وضع للبشر فيه البتة.

ولننظر أولاً فيما قاله علماء المسلمين في معنى اللفظ، ثم نعود فنذكر آراء المستشرقين فيه ثم نناقشها. نعم لقد اختلف علماء المسلمين فيما بينهم، في تحديد المراد بالكلمة؛ ولكنهم لم يتحيروا في فهمها، كما راق للكاتب أن يعبر عن هذا الاختلاف.

قال جمع من كبار الصحابة، منهم ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وجماعة من كبار التابعين، كمجاهد، وابن جبير، إن السبع المثاني في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧)، هي السبع الطول (البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنعام، الأعراف، الأنفال والتوبة).

نلاحظ أن القائلين بهذا التوجيه قد اعتبروا "الأنفال" و"التوبة" سورة واحدة، ربما على تقدير أنه لم يفصل بينهما بالبسملة، شأن السور الأخرى، مع أنهما سورتان مستقلتان؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنهم لم يُبينوا بصورة قطعية الحكمة في اختصاص هذه السور بهذا الفضل دون سائر السور.

وقول ابن عباس، إن صح الخبر عنه، أن فيها الأمثال، والخبر، والعبر، وأنه لم يُعطاهن أحد إلا النبي ﷺ، ليس قاطعاً ولا شافياً؛ فإن هذه الأوصاف تنطبق على سور أخرى كثيرة في القرآن؛ بل على القرآن كله.

هذا من وجه، ومن وجه آخر فإن السور الطوال يمكن أن تكون أكثر من سبعة، وإذا أخذنا سورة "الأنفال" على أنها سورة مستقلة، لكانت سورة "يونس" و"هود" و"يوسف" أطول منها بكثير؛ ولذلك عدَّ ابن جبير سورة "يونس" بدلاً من "الأنفال" و"براءة"، وربما كان غرضه إزاحة مثل هذا اللبس. وننبه على أن هذه السبع الطوال، كانت من آخر ما نزل من القرآن؛ وقد لاحظ أبو العالية ذلك، عندما قال السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة (أي سورة الحجر)، وما نزل من السبع الطوال شيء. وورد عن ابن عباس، وكثير من الصحابة، كعمر بن الخطاب، وعلى بن أبي طالب، ما يؤيد قول أبي العالية، يعني أن المراد بالسبع المثاني، ليس هو السبع الطوال؛ وإنما آيات الحمد، أي سورة "الفاتحة" التي عدَّها ابن عباس سبعة بالبسملة، وعدَّها غيره سبعة بدونها.

وهذا التوجيه هو الصحيح لأنه مؤيد بالحديث، الذي رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما، ومالك فى الموطأ، عن أبى سعيد بن العلى، وفيه أن رسول الله ﷺ، قال لأبى بن كعب: ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ متى أكملت فاتحة الكتاب؟، فقال: (هى، وهى السبع المثانى، والقرآن العظيم الذى أوتيت).

قال فى فتح القدير أخرج البخارى من حديث أبى هريرة بلفظ قال رسول الله ﷺ: "أم القرآن هى السبع المثانى والقرآن العظيم"؛ وأخرج الترمذى من حديث أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "الحمد لله أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثانى" ^(١).

قيل فى تعليل تسمية "الفاتحة" بـ "المثانى"، إنها سميت كذلك، لكونها تُتلى فى كل ركعة، يقرأها الإمام والمأموم فى صلاة الجماعة، كما أنها تُتلى فى كل صلاة، أى تقرأ مثنى باعتبار الركعتين، اللتين يفصل بينهما التشهد، وهى كذلك بالنسبة لصلاة الفجر؛ أما فى صلاة المغرب، فإنها تُتلى فى الركعتين الأوليتين، ثم تقرأ مفردة فى الركعة الأخيرة.

وقيل سميت كذلك، لأنه يُتلى بها على الله تعالى؛ ولكن ابن عطية يستبعد ذلك من جهة التصريف، غير أن ابن حيان، والصواب فى جانبه، يستدرك على ابن عطية، ويقول إن "مثانى" جمع "مثنى" بضم الميم على "مُفْعَل" من الفعل الرباعى "أثنى" أى مقرر بالثناء على الله تعالى؛ وعلى هذا فسورة "الفاتحة" هى سورة الثناء على الله؛ والحقيقة أنها كذلك. وسورة "الفاتحة" اختصارٌ معجزٌ للقرآن كله، وهى على قصرها، تتضمن من المعانى ما تعجز عن تسطيره الأقلام، وتنفذ معه الأحبار والأوراق؛ وهى أم القرآن، وقد يسر الله حفظها على الناس، فحفظها الطفل، والمرأة، والكبير والصغير، والأمى والمتعلم، والعربى وغير العربى؛ ومن معانى "مثانى" أيضاً، أن أحكام القرآن تتكرر فيه غير مرة بأساليب متنوعة، ومعانٍ متضاعفة، حتى أن من يقرأ شيئاً منها فى موضع، كفاه. وتتضمن كلمة "مثانى" كذلك معنى لطيفاً هو أن القرآن تُتلى قراءته وتضاعف، لأن قراءته أول مرة، تحببه إلى النفس، وترغب إليها معاودته، وقارئ القرآن لا يَمَلُّه، ولا يتعجل الفراغ منه؛ وهذه فى حد ذاتها من معجزات القرآن؛ فالقرآن "مثانى" بهذا المعنى.

(١) انظر أيضاً - ابن عطية - المحرر الوجيز - ج ١ ص ٩٦ - ٩٧.

وفي ثانيا كلمة "مثنى" ما يفيد أن القرآن مثنوى، أو زوجى؛ من حيث عدد سوره (مائة وأربع عشرة سورة)؛ وهو "مثنى" أيضاً، لأنه يحض على الدنيا والدين، والدين والدولة، والروح والجسد، والعلم والعمل، وعلى الإيمان الظاهر والباطن، وعلى الحقيقة والشرعية، والعقائد والعبادات وعلى احتوائه على علوم الأولين والآخرين. فمعنى "مثنى" على توجيهنا هذا، ثنائى، وثنائية القرآن لا تقبل الفصل أو العذل.

أما عن كلمة "مثنى" من المنظور الغربى، فقد تعددت آراء المستشرقين فيها، إذ يعتقد البعض أنها مأخوذة من اللفظة العبرية ميشنا (MISHNAH) (التعاليم الشفهية اليهودية أو موضوعات مُعدة للتعليم)، ونصوص الميشنا، غير مقدسة؛ وإنما هى نصوصٌ تشريعية، تتضمن القوانين، والتقاليد، والمأثورات، والشعائر، والتعاليم السلوكية، والأحداث التاريخية لليهود، أو هى مأخوذة فى زعمهم من الكلمة السريانية الآرامية، مثنيثا (MATHNITHA).

ولسنا ندرى ما هى العلاقة بين هذه الألفاظ الثلاثة (مثنى، وميشنا، ومثنيتا)، ولماذا هذا التحميل البعيد على العبارات، وفرض علاقات وهمية بين الكلمات، لمجرد ما قد يكون بينها من تشابه يسير فى النطق؟!؛ والقرآن كلام الله، وليس كلام كُتّاب الوحي، ولا الصحابة، ولا فقهاء الأمة، ولا هو من نتاج المدارس الفكرية المختلفة التى تشكلت فى الأحقاب، والمدد الطويلة، كما هو الحال بالنسبة للميشنا.

وقد أصاب بلّ ووات إذ رفضا هذا التفسير الغريب لكلمة "مثنى"؛ حيث يرى أن كلمة "مثنى" (الآرامية أو السريانية) إذا أطلقت على المعنى الذى تحمله أى من الكلمتين، فإنه لا يمكن أن تُفسّر لنا معنى القرآن، المقترن ذكره بالسبع المثنى فى الآية السابقة؛ ولا يمكن كذلك أن تفسر لنا هذه الكلمة وصف "المثنى" بأنها: ﴿مَثْنَى تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣)، ذلك الوصف الذى لا توحى به الكلمة العبرية، أو الآرامية اليهودية؛ ويضيف وات قائلاً: "الشيء الوحيد الذى يمكن لأصحاب هذا التفسير أن يقدموه، هو تفسير العدد سبعة فى الآية: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثْنَى وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾، هذا على زعم أن كلمة ميشنا يراد بها أيضاً ما تعنيه الآية".

مما لفت نظرنا هنا أن ويلش بينما يقرر أن مفسري المسلمين قد تخيروا في تحديد معنى كلمة "مثنى" يقرر هو من جانبه وباطمئنان صحة التفسير الغربي للكلمة؛ بل ويجعله هو الأصل، كما سنعرضه بشيء من التفصيل فيما يلي من الكلام، مع أن التفسير الإسلامى لكلمة "مثنى" مدعم بالأحاديث النبوية. وعلى الرغم من هذا، فإن المستشرق يرى أن التفسير الغربى لم يسلم من التأثير بنظيره الإسلامى، إذ أنه يبنى قاعدته على معنى "الثنية أو التكرار"، الذى تتضمنه أيضاً كلمة "مثنى" المأخوذة من ثنى (THANNA)^(١)؛ ولهذا فقد اعتبر ويلش أن أحسان ترجمة للكلمة، هى ترجمة المستشرقين بل ووات، ونصها (Repetitions)، وقبل أن نبين خطر هذه الترجمة، نود أن نذكر أن كلمة مثنى ترجمها أربرى (The oft-repeated)، وترجمها محمد أسد هكذا the oft repeated (verses)؛ إلا أن المترجم الأخير قد وضع كلمة (verses) آيات بين قوسين، تنبهاً على أن المراد بالسبع المثنى، هو آيات سورة "الفاتحة" وأكد المترجم ذلك بتعليق فى الهامش، إذ ذكر أن هذا التفسير، يرجع إلى النبى ﷺ، وقد سمي الله السورة أيضاً بـ "أم القرآن" أو "أم الكتاب" وأضاف أن سورة "الفاتحة" تتضمن الخلقيات والإلهيات الإسلامية.

ترجمت الكلمة أيضاً بـ (pairs) زوجى أو أزواج؛ ونرى أن من الأفضل ترجمتها بعبارة: (the often read verses)؛ ونبين الآن خطورة ترجمة ووات وبلاشير للكلمة، وما يجرى مجراها. إن ترجمة "مثنى" بالكلمة الإنجليزية "repetitions" تعطى انطباعاً للقارئ الغربى ذى الثقافة المعادية للإسلام والقرآن، بأن القرآن يكرر نفسه، وأنه كتاب مُملٌ، ليس فيه جمال، ولا فكرة، ولا نظام، أو نسق؛ وكل هذه المعانى الخاطئة مترسحة للأسف فى العقلية الغربية بوجه عام عن القرآن؛ وخطر آخر تتضمنه هذه الترجمة وهو أن القرآن لم يقدم جديداً، وأن ما يحتوى عليه القرآن، منتحل من كتب اليهود والنصارى، وأنه بالتالى يكرر ما فى هذه الكتب، ولا يعدو أن يكون نسخة محرفة منها. وهذا من ثوابت الفكر الغربى، والموقف الغربى من القرآن الكريم، ولم لا، وبل ووات يستتجان من قوله

(١) (كتب بالموسوعة خطأ (THANA) أى لوى الشيء؛ والصواب THANNA أى جعل الشيء الواحد اثنين أو أعاد الشيء بنفسه وكرره).

تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ أنه كان هناك قرآن غير عربي، أخذ محمد منه، ونسخ على منواله، بقصد أن ينشئ للعرب كتاباً جديداً ومستقلاً عن كتب اليهود والنصارى، ويحتوى على تعاليم خاصة بالعرب، كتلك التعاليم الخاصة التى كانت لليهود والنصارى. هذا هو دائماً اتجاه سهم البوصلة فى الدراسات الغربية عن القرآن والإسلام بصفة عامة؛ وسوف تمر بنا أمثلة أخرى لدعوى المستشرقين بأن محمداً قد انتحل القرآن من كتب اليهود، والنصارى، والشعر العربى، وغير ذلك من المصادر.

نعود الآن فنصل كلامنا عن التفسير الاستشراقى العجيب لكلمة "مثنى"؛ لقد تمحضت محاولات الدارسين الغربيين للقرآن عن نظرية عجيبة فى تفسير هذه الكلمة؛ هذه النظرية اهتبلها بل ووات وكثير من المستشرقين وتوقفوا عندها طويلاً وكأنها الحقيقة ظهرت لهم بعد جهد ولأى. تقول النظرية أن المراد بالسبع المثنى هى قصص العقوبات والى نثبتها بترتيب بل ووات، مجردة من تعليقاتها عليها للاختصار؛ هذا ما لم تكن التعليقات ضرورية لتوضيح النص، فإننا نُثبِتُها عندئذ كما هي:

- | | | |
|------------------|-------------------|---------------------|
| (أ) قصة عاد | (ب) قصة ثمود | (ج) قصة أصحاب الحجر |
| (د) أهل مدين | (هـ) أصحاب الأيكة | (و) أصحاب الرّس |
| (ز) قوم ثُبّع | (ح) أهل سبأ | (ط) قوم نوح |
| (ي) قوم إبراهيم: | | |

يصور القرآن إبراهيم على أنه كان حنيفاً مسلماً، وأنه جاهد فى سبيل دينه، وهجر أباه وأهل وطنه، انتصاراً للوحدانية وقد ذكرت آيات كثيرة فى القرآن أن قومه قد ألبوا عليه الجماهير، وحرصوا عليه الحاكم وطالبوا بتعذيبه حرقاً بالنار، إلا أن الله قد نجاه منها بمعجزة، ونصره على قومه؛ ويصور القرآن إبراهيم على أنه كان أمة قانتاً لله حنيفاً، ولم يكُ من المشركين، وأنه خليل لله تعالى، وأنه جمع إلى معرفة الله بالوحى، معرفته تعالى بالعقل والتفكير، والنظر والتدبر فى المخلوقات.

(ك) قوم لوط:

أورد القرآن ذكر نبي الله لوط عليه السلام وبلاءه مع قومه وعقاب الله لهم على شذوذهم، وخروجهم عن منهج الله، بالممارسات الجنسية الشاذة، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين. يقول بل ووات بأن القرآن لم يورد قصة إبراهيم ولوطاً معاً، ولم يربط

بينهما في موضع واحد منها، مستنتجين من ذلك، أنه كانت توجد هناك قصة محلية من هذا النوع، وهى تلك التى اعتمد عليها محمد، وأفاد منها في وضع القصة القرآنية حول إبراهيم ولوط. وفي آيات أخرى من القرآن يذكر لوط على أنه كان ممن آمن بإبراهيم، واتبعه، وهاجر معه في سبيل الله؛ ويذكر القرآن عقوبة الله لقوم لوط ولزوجته، بالمطر الغرير المهلك، وبمحارة السحيل، عقوبة لهم على ممارسة الشذوذ الجنسي، الذى لم يكن له وجود قبلهم، كما جاء في القرآن الكريم.

وهذه العقوبة، في حد ذاتها، تبين مدى خطورة الشذوذ الجنسي، والانحلال، على الأفراد، والمجتمعات؛ ومدى مقت الله للشعوب المنحلة الخارجة على منهج الله، المنتهكة لحدوده وقيمه.

(ل) المؤتفكة: مدائن صالح التى قلبها الله على قومه.

(م) فرعون وقومه (ن) هامان وقارون

يعلق ويلش على هذه القائمة بقوله إننا إذا اخترنا بعض هذه القصص، فسوف يتبين لنا أن المجموعة من (A&H) (أ، و) شاملة لحكايات أو ماثورات عربية قديمة، أضيفت إليها في الوقت نفسه بعض التفاصيل المستقاة من مصادر أخرى. وهذه القصة موجودة بالكتاب المقدس غير أنه لا يوجد ذكر للمدائن في هذا الكتاب؛ أما القصص المشار إليها في مجموعة (D&E) (د، هـ)، فهى قصص عربية، وليست مأخوذة من كتب العهد القديم، وقصة الفيل، وأصحاب الأخدود، تضم من وجهة نظر ويلش، وبل، ووات خيوطاً متناثرة مأخوذة من مصادر قديمة سابقة على القرآن، قد جُمعت هنا، لتصنع منها قصة قرآنية محددة، وهذا يعنى أن هذه الآيات، وكذلك الطريقة التى استخدمت فيها القصص، تشتمل على سبع قصص رئيسة؛ وهذه القصص في الحقيقة تضمنتها القائمة التالية:

١ - وهى نوح ، ٢ - عباد ، ٣ - ثمود ، ٤ - قوم إبراهيم ،

٥ - قوم لوط ، ٦ - أهل مدين ، ٧ - قوم موسى .

يزعم ويلش أن قصص العقوبات السبعة - بحسب عده - إنما تمثل عنصراً أو

جزءاً منفصلاً بذاته في القرآن، ويُقَوَّى هذا الزعم عند الكاتب ما يلاحظ في القرآن من ظهور هذه القصص معاً بشكل عام؛ وظهورها في القرآن في مجموعات؛ ولكن لا بد أن نلاحظ أن أبنية هذه المجموعات القصصية متنوعة فيما بينها، وأما القصص التي يزعم الكاتب أنها منتحلة من الكتاب المقدس، فيقول إنها مشفوعة ببعض التفصيلات التي كَتَبَهَا مُحَمَّدٌ لَتتوافق مع خبراته، وخبرات أصحابه.

لم يستطع هؤلاء الكُتَّاب إثبات هذا الأصل المزعوم الذي يغمزون به على القرآن، والواقع أنهم لمَّا لاحظوا أن القرآن لا يوافق الكتب السابقة في كثير من القصص، اخترعوا القول بوجود مصدر، أو مصادر أخرى استقى منها محمد معلوماته، إلى جانب ما انتحلته من كتب العهد القديم والجديد؛ وهذه دعوى لا دليل عليها، وهي لا تخرج عن دعوى مشركى مكة، الذين قالوا عن القرآن بأنه أساطير الأولين، اكتتبها محمد فهي تُملَى عليه بكرةً وأصيلاً.

إن مثل هذا الزعم لا يتسق أبداً مع حقيقة القرآن، أما زعم المستشرقين الجامد بأن القرآن من صنْع محمد ﷺ فزعمٌ مجافٍ للحقيقة؛ ومن عادة المستشرقين أنهم كلما اعترضتهم مسألة تُكذِّبُ دعواهم، حاولوا إيجاد التفسيرات الباطلة لها. ولسنا ندري كيف حصر المستشرقون قصص القرآن في سبعٍ فقط، مع أنها تتجاوز هذا العدد في الحقيقة؟! والمستشرقون بالطبع على استعداد لإيجاد المخرج من هذا المأزق أيضاً؛ إنهم يتعللون بأن القصص الأخرى ترجع كلها إلى هذه القصص السبع الرئيسة، وتنتهى إليها؛ وبهذا نجدهم يعللون إطلاق السبع المثاني، على قصص العقوبات السبع الكبار في القرآن؛ يقول بلُ وَوَاتٌ إن بعض الباحثين الغربيين كهوروفتر (HOROVITZ)، ترددوا في الأخذ بوجهة النظر هذه؛ وذلك لأن القرآن (الحجر: ٨٧)^(١) قد فرق بين "المثاني" و"القرآن"؛ ثم يقولان في ردِّهما على هذا الاستدراك، يعنى أن آيات السبع المثاني التي تحكى ما حلَّ بالأمم السابقة من عذاب الله، كان لها وجود مستقل ومنفصل عن القرآن^(٢)، ثم أدمجت فيه فيما

(١) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧)

(٢) انظر : مقدمة بلُ وَوَاتٌ عن القرآن ص ١٣٤.

بعْد؛ هذا الاجتهاد لا محل له من الصواب، بل هو الخطأ بعينه؛ وهو مفروض جملة وتفصيلاً، فمحمد ﷺ، لم يكن قصاصاً، ولا شأن له بصناعة القصة، ولم ينزل القرآن عليه ﷺ، على هذا النحو، الذى يمكن أن يؤيد مثل هذا الافتراء، الذى يحاول أصحابه أن يجعلوا القرآن عضين؛ إن القرآن كالجسد الحى تتصل أعضاؤه وأجزاؤه فى انسجام تام وجمال عبقرى متناهى؛ كيف والقرآن يضم القصص، والأمثال، والمواعظ، والأحكام، والآداب، والعقائد، والشرائع، والعبادات، والأخلاق، وينظمها جميعاً فى سلك واحد متين، وربط محكم رصين؛ ويعرضها فى بناء يبلغ الغاية فى الإتقان والإحكام؛ ثم إن هذه القصص القرآنية لها وظيفة خاصة تؤديها فى إطار من التدبير الربانى والنظام الإلهى، وقد أنزلها الله تعالى على بلاغة القرآن، فليست هى فى آياتها مخالفة لآيات الأحكام، أو الأخلاق، والمعاملات والعبادات؛ بل إنها تجرى على النسق نفسه، وتحتوى على ذات الألق والعبق الذى ينتشر من بين ثناياها كما ينتشر من بين سائر ثنايا الكلم القرآنى بصفة عامة؛ ثم إن الكاتبين لم يبيننا لنا، ولن يستطيعا إلى ذلك سبيلاً أَلْبَتَّ، من أين جاء محمد ﷺ بهذه القصص؟ وكيف أنها كانت مستقلة عن القرآن؟ ومتى دخلت على القرآن ومتى أدمجت فيه؟ إن المستشرقين للأسف يُقطَّعان الكلام إرباً، ويعبثان بنسيج القرائن القرآنية، ويمزقان العلاقات اللفظية والمعنوية الحميمة فى القرآن كل مُمزَّق، حتى يصلوا إلى ما استَبَقَ إلى تصورهِ وصمَّمَا على إثباته. إنهم لم يقرأوا الآية على وجهها ولم يفهموا المقصود الصحيح منها.

إن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (٢٧) يعنى أن الله تعالى هو الذى أنزلها على محمد ﷺ، وهو الذى أنزل عليه القرآن أيضاً؛ وليست الواو الواقعة بين "الْمَثَانِي" و"الْقُرْآنَ"، تفيد المغايرة فى النوع؛ وإنما تنص على الفضل فى الرتبة فقط وعلى الخصوصية. ومثاله أن أقول لآخر "أعطيتك السبع لآئى والعقد العظيم"، فليس معناه أن "السبع لآئى" غير "العقد العظيم" وإنما هو جزء منه نبهت عليه لفضلٍ أو ميزة رأيتها فيها، فى السبع لآئى مع الاحتفاظ بالثناء على مجموع ما فى

العقد. ولكل آية في القرآن فضلٌ خاص يذكر في إطار الفضل العام الذى يشتمل عليه. إن القرآن كالجسد الواحد، تتصل أعضاؤه، وترتبط أجزاؤه بعضها ببعض، فى انسجام تام، وجمال يسمو على كل جمال. وقد ذكرنا أن القرآن يحتوى على القصص والأمثال، والمواعظ، والأحكام، والآداب، والأخلاق، والعقائد، والشرائع. كل ذلك، وغيره، أورده القرآن فى سياق وثيق، وربط دقيق، وبناء محكم متقن. ثم إن هذه القصص التى يزعم المستشرق أنها ململمة من هنا وهناك، ومقحمة فى القرآن، لها وظيفة خاصة، تؤديها فى إطار النظام القرآنى العام، والتصميم الإلهى المحكم لهذا الكتاب المعجز. وليس يفوت القارئ الواعى، والدارس المنصف للقرآن الكريم، أن هذه الآيات تجرى على الدرجة نفسها من بلاغة القرآن، وأنها تحمل الصبغة الإلهية ذاتها التى يتميز بها كلام الله من بدايته إلى نهايته.

وإذن فتفسير المستشرقين لقول الله تعالى: "سَبْعًا مِّنَ أَلَمَانِي" على أنها تعنى المماثلة فيما بينها، مرفوض؛ وقد أوضحنا أن هذه المماثلة، موجودة بين آيات القرآن كلها، سواء من حيث المصدر، أم من حيث النص أم من حيث البناء اللغوى والأسلوب والبيان كذلك؛ فكل ما فى القرآن قرآنٌ، وكل ما يطلق عليه هذا الاسم هو كلام الله رب العالمين، لا اختلاف فيه؛ لأنه من عند الله، وليس من تأليف البشر، الذين تحكمهم عند الكتابة، الظروف والأحوال النفسية والجسدية والمؤثرات الاجتماعية والثقافية والبيئية التى يعيشون فيها ويتجاوبون معها بدرجات متفاوتة.

وقبل أن نغادر هذه النقطة، نود أن نلفت النظر إلى أمرٍ مهم، وهو أن المستشرقين ركزوا قصص القرآن فى سبع فقط كما أشرنا إليه، وهى تلك التى أسموها بقصص العقوبات، لأمرٍ فى أنفسهم؛ وأهملوا قصصاً أخرى كثيرة فى القرآن، لها الأهمية نفسها من حيث منظومة التربية القرآنية والمنهج القرآنى. فعلى سبيل المثال "قصة أصحاب الكهف"، و"قصة إبراهيم"، و"قصة يوسف"، وقصة "موسى والخضر"، و"قارون"، و"قصة سليمان والهدد"، وغيرها، تلك القصص تتنوع فى أسلوها ومغزاها الخلقى والقيمى.

ثالثاً: الحكمة

"الحكمة" لفظة قرآنية أخرى، سمى الله بها كتابه الكريم لما تضمنه من حكم، ولأنه

في ذاته مُحْكَم، لا اختلاف فيه يُخل بنظامه ولا تناقض يعثره فيذهب بجماله وجلاله.
ورد ذكر اللفظة في عدة مواضع في القرآن الكريم، على سبيل المثال لا
الحصر، قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾
(آل عمران: ١٦٤)، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ
تَكُن تَعْلَمُ﴾ (النساء: ١١٣)، وقوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة: ٢).

جاء ذكر "القرآن" مقروناً بـ "الحكمة" في عدة مواضع من الكتاب العزيز.
و"الحكمة" هي السنة، و"القرآن" أيضاً هو الحكمة العليا، التي تتولد منه جميع صنوف
الحكم، وحكمة السنة هي نفسها وليدة الحكمة القرآنية التي أنزلها الله تعالى على
محمد ﷺ.

و"الحكمة" معناها وضع الشيء في موضعه، وفي وقته، ومناسبته؛ والمستعرض
لآيات "الحكمة" في القرآن، يجد أن الله تعالى أنزلها على الأنبياء فيما أنزل عليهم من
وحي، وما من حكمة في الوجود إلا عن أصل إلهي انبعثت، ومن فم نبي خرجت،
والأنبياء هم الذين تعلموا الحكمة من الله وعلموها الناس.

ونلفت النظر بعد هذا إلى نقطة مهمة، وهي أن هناك أسماء أخرى كثيرة للقرآن،
على سبيل المثال "التنزيل"، و"الفرقان"، و"الروح"؛ نكتفي بالتنبيه عليها باختصار،
وذلك لضيق المقام، وأيضاً لأن الكاتب نفسه لم يعرض لها بالدراسة أو التعليق. ومعنى
"تنزيل" أى نزول القرآن بواسطة جبريل عليه السلام منجماً، وذلك من حيث
الزمان، والمكان، والحوادث. وأما لفظة "الفرقان" فهي ترادف القرآن؛ ولكنها تزيد
باعتبار الوصف، والجهل والعلم، والإيمان والكفر، والفضيلة والرذيلة. وأما "الروح" في
حق القرآن، فهي بمثابة الروح من الجسد، الجسد الإنساني، والجسد الكوني وأن القرآن
يسرى كالروح في خفة ولطف إلى القلب والعقل، ويتشبع بهما فيحييهما.

الباب الثاني

محمد ﷺ والقرآن

الفصل الأول ... القرآن بين الوحي والتجربة البشرية

الفصل الثاني ... القرآن ودعوى الانتحال من كتب اليهود والنصارى

الفصل الأول

القرآن بين الوحي والتجربة البشرية

هذا موضوع مهم من موضوعات البحث والعقيدة معاً. يقول المعارض: "إن كتاب المسلمين المقدس، والخبرة النبوية لمحمد ﷺ جد متصلين، إلى درجة أنه لا يمكن فهم أحدهما فهماً كاملاً دون فهم الآخر؛ إن العقيدة السُّنَّية أو الأصولية تقطع بأن الله هو المتحدث بالقرآن كله، وأن محمداً ﷺ هو المستقبل له، وجبريل هو الواسطة بين الله ومحمد في نقل الوحي؛ وذلك بغض النظر عن من يكون هو هذا الشخص الذى يجرى الكلام على لسانه، أو الذى يتوجه الخطاب إليه فى القرآن".

هذا الكلام على صغر حجمه يحتوى على مغزىين خطيرين أو بلغة أكثر تحفظاً، على إيهام وتشبيه:

أولاً: لأن عبارة الكاتب "العقيدة السنية تجاه القرآن" توحى بأن هناك مذاهب أخرى، تعتقد فى القرآن غير هذا المعنى، كما هو الحال بالنسبة للعقيدة المسيحية تجاه المسيح؛ حيث اتسعت خلافاتهم، واحتدمت حول مفهوم طبيعة عيسى عليه السلام، إلى درجة يستحيل معها التلاقى والاتفاق. إن المسلمين، على العكس، يُجمعون على أن القرآن هو كلام الله رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب خير المرسلين؛ وأنه هو هو، الذى أنزله الله، لا زيادة فيه ولا نقصان يعتريه، ولن يصيبه تبديل أو تحريف إلى يوم القيامة.

أما المغزى الثانى فى كلام المستشرق ويلش، فهو قوله بأن "القرآن والتجربة النبوية لمحمد جد متصلين"؛ وأنه لا يمكن الفصل بينهما؛ هذا كلام صائب فى جملة وظاهره، ولكن لابد أن نكون حذرين فى تناوله؛ وذلك لأن محصلة العقيدة الاستشراقية، فى النهاية، تجزم بأن القرآن من كلام محمد؛ وأنه، أى القرآن، إنما يمثل ثمرة معاناة محمد النفسية، ويعكس الصراع والتطور النفسى له. وهذه الدعاوى وأمثالها قد رد عليها القرآن نفسه، وفندها بعض علماء المسلمين، وبينوا قوافتها، مما يغينا عن استعراضها هنا.

يقول الكاتب إن نظرة تحليلية فى القرآن، تفيد أن الموقف أعقد كثيراً مما يتصور المسلمون الذين يحاولون تبسيط المسألة؛ إننا لا نصادف فى الآيات أو الأجزاء التى يبدو

منها أنها أقدم نزولاً في القرآن، أى من حيث كونها إشارة إلى شخص معين يتحدث بالقرآن، أو إلى مصدر واحد، يمكن أن يرد إليه القرآن كله! ففى بعض آيات منه، كآيات "سورة الشمس" و"سورة القارعة" على سبيل المثال لا يحد أى إشارة تفيد بأن هذا الكلام صادر عن إله؛ وفي مواضع أخرى من القرآن مثل "سورة التكويد" (١٥: ٢١) و"الانشقاق" (١٦: ١٩) و"سورة الليل" (١٤: ٢١)، يلوح أن محمداً هو الذى يتحدث بالقرآن. وفي أوائل الآيات المنزلة، والتى ذكر فيها رب محمد، لم يصرح بلفظ الجلالة نصاً، وإنما أشير إليه بضمير الغائب، عادة بصيغة "ري" و"ربكم"، فعلى سبيل المثال:

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ (الذاريات: ٢٣)، ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴾ (الطور: ٧)، ﴿ يَتَأْتِيَا الْمُدْتِرِّ ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ﴿ (المذثر: ١: ٣). يستمر الكاتب في عرضه للآيات وتعليقه عليها فيقول إن في القرآن أيضاً آيات مكية نزلت مبكرة، تفيد أن محمداً كان يتلقى الوحي من الله مباشرة، ودون واسطة؛ واستشهد على ذلك بقوله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيَا الْمَزْمَلُ ﴿ قُمْ أَلَيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ نَصَفَهُ ﴿ أَوْ أَنْقَضَ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿ أَوْ زِدَ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿ (المزمل: ١: ٥)، ﴿ سَنُقَرِّئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴿ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ﴿ (الأعلى: ٦ - ٧).

وهناك أيضاً آيات مكية متأخرة في النزول، وآيات نزلت في أول العهد المدني، تحكى أن الله يقرأ (الآيات، والقرآن، والكتاب)، على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: ٢٥٢) وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ١٠٨). وقوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (القدر: ١)، وفي تلك الفترة نفسها نطالع في القرآن سلسلة من الآيات الأخرى التى لها من السلطان، ما جعلها تضع الله في مقام يسمو فيه بنفسه، عن رتبة الوحي المباشر إلى الأنبياء؛ بل إنه يرسل إليهم وحيه بواسطة الملائكة. هذا المعنى قد تأسس في نظر المستشرق من طريقين:

الأول: كون الرسالة تبلغ عن طريق وسطاء (Intermediaries).

والثاني: كون الرسالة متصلة بطريقة ما بالكتاب.

وكلا المفهومين ظاهر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِلَاذِنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾ (الشورى: ٥١-٥٢)؛ مهمة هذه الروح - هكذا فهمها الكاتب - أنها تعمل كوسيط في نقل الوحي؛ وهذا المعنى يتضح أكثر في قول الله: ﴿وَأَنَّهُ لَنَتَنَزِّلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢) ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (النحل: ١٠٢) ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (النحل: ١٠٢) ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٢-١٩٥)؛ وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ١٠٢).
 إن الآيات المدنية التي نزلت في أول العهد المدني وفي وقت مبكر منه، يظهر فيها - ولأول مرة - جبريل كوسيط عن الله، في نقل القرآن إلى النبي محمد؛ كما في قوله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ٩٧).

يرغم الكاتب أنه بناءً على اشتمال هذه الآية على عدد من المسائل المضمنة في الأحاديث، حدد المفسرون معنى الروح المذكور في الآيات السابقة، والتي هي أسبق نزولا، على أنها هي جبريل عليه السلام؛ ثم أعطى المفسرون لجبريل دور الوسيط في نقل الوحي، ومن أجل هذا بؤووه مكانة عالية، منذ ابتدأت نبوة محمد ﷺ؛ هذا على الرغم من أن جبريل - وذلك عكس الاعتقاد العام للمسلمين - لم تتحدد طبيعته البتة في القرآن كواحد من الملائكة؛ أضف إلى ذلك أن الملائكة لم تظهر في القرآن على أنهم وسطاء في نقل الوحي. والآية التي يستشهد بها الكاتب على هذا، هي ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (النحل: ٢). وهذه هي أقرب آية في القرآن لتأكيد فرضية الكاتب من وجهة نظره؛ فالملائكة، إذن، ليسوا من حملة الوحي؛ بل إنهم يتكلمون في القرآن، كما يتكلم محمد، وإبراهيم، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مریم: ٦٤)، الحقيقة أن الأمر بسيط، ولكن الكاتب هو الذى يريد أن يُعقده من خلال فرضياته وتحميناته.

وقبل أن نتولى الرد على هذه المزاعم المتبورة، نود أن نضع خطته ومادته في شكلٍ أشبه بالقائمة. إنه تتبّع، بقدر ما من التوسع، آيات القرآن؛ فوجدها كالتالي:

١. آيات تخلوا تماماً من ذكر أى مصدر للقرآن؛ مع أنها فيما يبدو متقدمة النزول.
٢. آيات تخلوا كلية كذلك، حتى من مجرد الإشارة إلى أن كلام القرآن صادر عن الله.
٣. آيات أخرى يُلوح منها أن محمداً هو الذى يتحدث بالقرآن.
٤. آيات مكية ذكرت رب محمد، ولكن بضمير الغائب.
٥. آيات تفيد أن محمداً كان يتلقى الوحي مباشرة عن الله.
٦. آيات من أواخر ما نزل بمكة، وأوائل ما نزل بالمدينة، تقطع بأن الله نفسه هو الذى يقرأ (الآيات)، و(القرآن)، و(الكتاب).

٧. فى الوقت نفسه توجد آيات تنص على أن الله لا يوحى إلى بشر دون وسيط، وكتعليق سريع على هذه النقطة نلفت النظر إلى أن الكاتب قد فسر عبارة "رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا" بالملاك؛ وهذا خطأ؛ إذ المقصود بالروح هنا هو القرآن بخاصة؛ و"الروح" من أسماء "القرآن" نفسه؛ ثم إن الأوصاف التى لحقت بكلمة "روح" فى الآية توضح ذلك المعنى. ويقول ويلش إن الآية ٩٧ من سورة البقرة تصور جبريل لأول مرة كوسيط للوحي، وأنه بناءً على هذا، قد فسر علماء المسلمين "الروح" على أنها جبريل الذى صنفوه ضمن الملائكة.

٨. توجد آيات قرآنية تفيد أن الملائكة ليسوا من حملة الوحي (مريم: ١٧، ٦٤) وهذا

يعزز القول بأن جبريل لم يكن له دور على الإطلاق فى نقل الوحي إلى النبي ﷺ.

بعد أن استعرضنا شواهد الكاتب القرآنية، وفهمه لها، واستنتاجه الخاطئ منها،

نناقشه الآن فيما ذهب إليه، وبني عليه من آراء:

أولاً: إن ملاحظته فيما يخص طبيعة الآيات، وموضوعاتها، صحيح بشكل عام، إذ أن هناك سوراً تخلوا من ذكر مصدر الوحي، وهو الله تعالى؛ وسوراً أخرى أسندت القرآن إلى الرسول ﷺ، أو إلى جبريل عليه السلام، كما توجد بعض الآيات التى تنص على أن الملائكة تكلمت بكلام ما فى القرآن، شأن الشخصيات الأخرى التى حكى الله تعالى فى القرآن كلامهم، هذا صحيح فى جملته؛ ولكن خطأ الكاتب هنا، يكمن فى التفسير، فهو يُحمّل

النصوص بما هو غريب عنها ومجلوب إليها، ويستنطقها بغير لغتها، ويدفع بها دفعاً إلى نتائج جد غريبة؛ فالقرآن ينقل كلام الملائكة من القرآن كما ينقل كلام الشخصيات الأخرى التي حكى الله تعالى كلامهم في القرآن؛ ولذلك نجد المستشرق مثلاً يتخذ من الآيات التي لم تذكر مصدر الوحي - من وجهة نظره هو - دليلاً على عدم إلهية تلك الآيات؛ وبلا شك فإنه إذا اهتزت الثقة في بعض آيات القرآن، انسحب ذلك على القرآن كله؛ وهذا هو الغرض الذي يسعى إليه الكاتب بكل وضوح، مع أن القرآن، باعتباره وحياً من عند الله، كلٌّ لا يتجزأ، أنزله الله تعالى مفزاً هكذا، لِيُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦). وكان يكفي للفهم والتدليل، لو أنصف الكاتب، أن يعرف أن الله تعالى، قد ذكر أنه هو مصدر القرآن ومُنزِلُهُ، وأن محمداً ﷺ كان مجرد قارئ له؛ وأنه منذ البداية، كان مبلغاً للقرآن فحسب بنص هذه الآية، وآيات أخرى كثيرة، على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَتْلُهَا الرُّسُلُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: ٦٧)، وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ (العنكبوت: ٤٥)، وقوله تعالى: ﴿وَزَلَّ الْقُرْءَانُ أُنْزِلًا﴾ (المزمل: ٤)، وقد عرف المسلمون ذلك، وسلموا به واعتقدوه وآمنوا بأن كل ما بين دفتي المصحف هو كلام الله تعالى، وأنه ليس من مطلب العقول المنصفة أن يكرر المؤلف لكتاب مثلاً، والله المثل الأعلى، في كل جزء، وباب، وفقرة منه، أنه هو مؤلف هذا الكتاب لا غيره. ناهيك أن للقرآن نسقاً فريداً، وطبيعة خاصة، وروحاً إلهية ملازمة، تدل على أنه آية آية، وسورة سورة من عند الله تعالى؛ أضف إلى ذلك أن السورة التي استدلل بها الكاتب الغربي على عدم ورود ذكر مصدر القرآن في القرآن، كلها تتحدث باللغة نفسها وبالطريقة ذاتها عن الله تعالى، وعن موضوعات كثيرة في سور أخرى من القرآن، ذكر فيها أن الله تعالى هو مصدر القرآن. ونتساءل هنا، هل في سورة الشمس كمثال أي دليل يخرجها عن كونها قرآناً؟ وهل شكك أحد في ذلك أبداً!!

أما عن قول الكاتب بأن القرآن قد أسند الكلام إلى محمد، أو إلى جبريل، عليهما السلام، في بعض الإشارات القرآنية؛ فهذا ليس معناه أن جبريل أو محمداً هو واضع القرآن؛ لأن هذا معارض بالدليل الأعلى للقرآن نفسه. فالقرآن كله شاهد على كونه كلام الله، وأنه

هو منزله، سبحانه وتعالى، هذه حقيقة الحقائق. ومعنى قول الله تعالى - الذى استشهد به الكاتب:- ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ (التكوير: ١٩)، إن هذا القرآن لتبليغ رسول "وهو جبريل" كريم، وقد أسند الله القول إلى جبريل، لأنه تلقى القرآن سماعاً من الله، وبلغه تلقيناً ومشافهة لرسول الله ﷺ، فكأنه لبلاغه إياه بمثابة قوله؛ فهو المظهر له حتى أنه لولاه لما عرف أحد القرآن، فصحت ثمة إضافته إليه، وقد ينسب كلام الغير إلى من تحمله أو نقله. كمن تحمل رسالة من رسول، أو سفير؛ وذلك كثير الوقوع فى العادة^(١). وما يدل على أن القرآن ليس من وضع غير الله، قوله تعالى بعده: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضِيقٍ﴾ (التكوير: ٢٤)، الضمير "هو" يعود على جبريل، والغيب هو القرآن، الذى كان غيباً قبل أن يُعرفه الله به، ويُحمّله إياه؛ ومعنى "بضنين" أى بممسك له وكاتم إياه، ثم إن كلمة رسول ذاتها، توحى بأن دور "جبريل" عليه السلام، كان دور السفير المكلف لا المبدع المؤلف، وأن الله أرسله بهذه الرسالة الخاتمة لا غير، فليس له إذن فضلٌ إلا فضل النقل والتلقين. أضف إلى ذلك دلالة مواقع الإشارة فى الآيات التى بعدها: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (٢٤) يعنى أن القرآن ليس من قول الشيطان الرجيم، أى المُبْعَد عن رحمة الله، المطرود من حضرة قدسه الأعلى؛ ومعنى كلام الله تعالى كما فى هذه الآية أن الشيطان لا يقدر على حمل القرآن، ولا يستطيع تبليغه؛ فإن القرآن قاصم لظهور الشياطين. وإذا كان الله عبر هنا بلفظة "قول" التى قد يسهل على الجافى غير المنصف تحريفها عن معناها، فإن الله تعالى عبر عن ذلك بلفظة "تنزل" فى موضع آخر، والقرآن كالماس يُجَلَّى بعضه بعضاً، يقول تعالى: ﴿وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ (٢٤) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢٥) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ (٢٦) (الشعراء: ٢١٠: ٢١٢)، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ تَذَهُبُونَ﴾ (التكوير: ٢٦) يعنى أن جميع الطرق مسدودة أمامكم، إلا طريق التسليم بأن القرآن هو كلام الله بلغه ملاك كريم أمين غير متهم إلى رسول عظيم معصوم. وفى هذه القرينة نبيه على لطيفة قرآنية تتجلى فى قول الله تعالى: "بِقَوْلِ شَيْطَانٍ" ولم يقل "بكلام شيطان" إذ أن هناك فرقاً بين الكلام والقول، فقد أجمع المسلمون على أن

(١) انظر: القاضى عبد الجبار وتنزيه القرآن عن المطاعن ٤٥٢.

يقولوا "القرآن كلام الله"، ولا يقال "القرآن قول الله". يقول ابن جني (ت: ٣٩٢هـ) في الخصائص في تعليل ذلك: "وذلك أن هذا موضع متحجر لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبّر لذلك عنه - أى القرآن - بالكلام الذى لا يكون إلا أصواتاً تامة مفيدة، وعبر به عن القول الذى لا يكون إلا أصواتاً غير مفيدة، وآراء معتقدة"، ويقول: "واعلم أن قلت" فى كلام العرب إنما وقعت على أن تحكى بما، وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاماً لا قولاً، ففرق بين الكلام والقول كما ترى"^(١)

أما الآيات التى فهم منها الكاتب خطأ أن محمداً ﷺ هو المتحدث فيها، وأن القرآن بالتالى من اختراعه وتلفيقه؛ فليست تعنى أن محمداً ﷺ كتب القرآن من عند نفسه، ولا أن هذه الآيات مقحمة على القرآن ألبتة؛ إذ عندما يقول الله - على سبيل المثال: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ ١ لا يَضْلِيهَا إِلَّا الْأَشْقَى ٢ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ٣﴾ (الليل: ١٤: ١٦)، لا يعنى ذلك أن محمداً هو قائل هذا الكلام، بل الكلام كلام الله تعالى، أجراه على لسان النبي ﷺ، كما أجرى غيره فى القرآن على لسان الأنبياء والملائكة والصالحين، بل وعلى ألسنة الكافرين المعاندين؛ وهذا أسلوب قرآنى وأسلوب فى الحديث أيضاً يعرفه البشر.

تكلم السيوطى فى الإتيان عن هذه المسألة فقال: "إن من القرآن ما ورد على لسان غير الله كالنبي ﷺ وجبريل والملائكة غير مصرح بإضافته إليهم، ولا إلى المحكى عنهم، ومنه قوله ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (الأنعام: ١٠٤)، فإنه ورد على لسان النبي ﷺ بين هذا قوله فى آخر الآية: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِخَفِيظٍ﴾، وفى الآية التى تلى هذه الآية وما بعدها، نص على أن القرآن وحي من الله، أنزله على محمد، وفى قول الله: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ (مریم: ٦٤) وورد على لسان جبريل وقوله: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ ١ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ٢ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ٣﴾ (الصافات: ١٦٤: ١٦٦) كلام أجراه الله على لسان الملائكة، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٤ كلام أجراه على لسان العباد مع أنه يمكن تقدير القول هنا، على هذا النحو، أى يقولون إياك نعبد"^(٢).

(١) الخصائص ج ١ ص ١٩-٢٠.

(٢) الإتيان ج ١ ص ١٠١.

وللقاضى عبد الجبار المعتزلى أيضاً توجيه قيم لهذه الآية، إنه يؤكد، مع جماعة المفسرين، أن طلب العبادة والاستعانة لا يكون من الله لنفسه، ولكن معناه قولوا: ﴿إِيَّاكَ نُعْبُدُ﴾؛ وخلو الصورة من الأمر فيه تقرب من الله تعالى لعباده وتقريب لهم^(١). والآيات التى أشارت إلى الله بضمير الغائب مثل (ربك، وربكم، وربهم) ليس فيها ما يخرجها عن كونها قرآناً. وهذا من أساليب القرآن المعجزة، يُلَوِّنُ الله فيها الخطاب ويُنوع فى الأساليب بحيث تنجذب إليه النفوس، فلا تَمَلُّه، وتَهْفُوا نحوه القلوب فلا تنصرف عنه.

ونلاحظ هنا أن الكاتب يقيس القرآن على منوال النقد الغربى، ويحكم فيه المعايير النقدية التى طُبِّقت على كتب العهدين القدم والجديد فى العصر الحديث، متجاهلاً الظروف والأوضاع المختلفة لكل من الكتائين؛ فالقرآن مثلاً هو كلام الله، تلقاه محمد ﷺ من جبريل عليه السلام عن رب العالمين وحفظه. وكتب فى حياته، وحفظته الأمة صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً، عرباً وغير عرب؛ ودانت به وأحاطته بكل رعاية وعناية؛ وأوسعته حفظاً ودراية؛ عكس التوراة، وكتب الأنبياء، والأنجيل التى ضاعت أصولها، وفقدت أعيانها؛ ثم كتب بعد ذلك ما استنقذ منها أو قريب منه، بأيدٍ مختلفة، وفى أزمنة مختلفة، وفى أماكن متفرقة؛ وهذه الكتب، بوصفها الحالى، يمكن أن تخضع بسهولة، لمقياس النقد الحديث؛ بل إنه ينبغى عرضها على تلك الموازين النقدية؛ هذا صحيحٌ بالنسبة لهذه الكتب؛ ولكنه غير صحيح بالمرءة بالنسبة للقرآن الذى حفظته الأمة، وتأسست به الملة، وقامت على قواعده الدولة، وحفظه العربى والعجمى فى لغته الأم "العربية". وبالنسبة لتعليق الكاتب على الآيات التى تخبر بأن الله لم يكلم رسله مباشرة، يدل على أنه لم يفهم معناها؛ إذ أن كلمة "روح" فى الآية، تعنى القرآن، كما أشرنا إليه من قبل؛ وقد عبر الله عن "القرآن" بـ"الروح" لأنه يصل إلى الأرواح، ويتخلل القلوب، وأيضاً فإن فيه مناسبة للقرينة، إذ الكلام عن لطيف الاتصال بين الله تعالى وملائكته ورسله، عن طريق الوحي، أو الخطاب الربانى؛ فناسب أن يعبر عن "القرآن" بـ"الروح" مراعاة للسياق اللفظى، والقرآن نفسه لا يدع لأحد مجالاً للشك فى أنه كلام الله سبحانه وتعالى، وأنه نزل على محمد ﷺ بسفارة جبريل عليه السلام، والأحاديث كثيرة فى تأكيد هذا المعنى وفى طريقة تلقى محمد ﷺ للقرآن وكيفيته، كلام كثيرٌ للعلماء لا يتسع المقام لذكره هنا تفصيلاً؛ ولكننا نكتفى هنا بتقديم بعض الأمثلة.

(١) القاضى عبد الجبار. تنزيه القرآن عن المطاعن ص ٩.

قال الطيبي "لعل نزول القرآن على النبي ﷺ، أن يتلقفه الملك من الله تعالى تلقفاً روحانياً أو يحفظه من اللوح المحفوظ، فينزل به إلى الرسول ويلقيه إليه" (١).

وقال البيهقي في معنى قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي "إنا أسمعناه الملك وأفهمناه إياه وأنزلناه بما سمع"؛ وكان جبريل عليه السلام يأتي إلى الرسول ﷺ بالقرآن أحياناً، في مثل صلصلة الجرس لخفق أجنحته، ليكون أدعى إلى تهيبته ﷺ. بما يلقي إليه؛ أو أن ينفخ الملك في رَوْعِهِ؛ أو أن يأتيه ملك الروح، في صورة الرجل فيكلمه في اليقظة أو في المنام، فيعي عنه الرسول ما قال؛ أو أن يكلمه الله في اليقظة من وراء حجاب، أو بالكيفية التي يعلمها الله تعالى.

وهذا يتبين أنه لا تعارض ولا اختلاف بين الآيات التي تتحدث عن الطريقة التي يوحى بها الله إلى الأنبياء ويكلمهم من خلالها، وبين الآية التي تُنَزِّه الله تعالى عن المخاطبة بكيفية أو تَحْجِيزٍ (٢). وعرفنا من أنواع التنزيل ومقامات الوحي أن الله يُلقِي إلى الملك بالكلام؛ ثم يلقيه الملك إلى الرسول ﷺ. وقد يكلم الله الأنبياء من وراء حجاب، أو عن طريق التَّفَثُّ في الروح، أو الفؤاد؛ وهذا يتبين ضعف رأى الكاتب، وتهاافت ما توصل إليه من نتائج؛ بل لقد أثبتنا بالبراهين القاطعة، عكس ما قال إن الملائكة شهدت الوحي وأن جبريل بلغه عن الله منذ نزل، بنص قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؛ وفي القرآن شواهد كثيرة على ذلك منها، على سبيل المثال لا الحصر، قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْمَلَكِ﴾ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرِ ﴿٤﴾ (القدر: ٤)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (الحج: ٧٥)، فالملائكة رسل إلى أنبياء الله وأنبياء الله رسل إلى الناس.

(١) السيوطي: الإتيان ج ١ ص ١٦٦.

(٢) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٢٠-٢٢١، والإتيان ج ١ ص ١٢٩-١٣٠، والبخاري- خلق أفعال العباد بعقائد السلف- ص ١٨٧.

الفصل الثاني

القرآن

ودعوى الانتحال من كتب اليهود والنصارى

قضية أخرى خطيرة يفجرها الكاتب؛ وهي دعوى أن محمدا ﷺ انتحل من كتب الأولين. وهذه دعوى قديمة قد أرجف بها المستشرقون وأوجفوا عليها بخيلهم ورجلهم^(١)؛ ولكن الجديد إلى حد ما، في كلام الكاتب، أنه يحاول انتزاع أدلة من القرآن نفسه، يؤيد بها زعمه بأن محمداً قد زوّر القرآن ولفقه من مصادر يهودية، ونصرانية، وعربية جاهلية وغير ذلك؛ لهذا السبب فإنه يفسر الآيات القرآنية تفسيراً غريباً وعجيباً ومريباً في الوقت نفسه. ومما يدل على سوء قصده، تلك العبارة الافتتاحية التي قدم بها لهذا الموضوع (The Kur'an also speaks of Muhammad's human informants) وترجمتها "إن القرآن أيضاً يتكلم عن معلمى محمد أو ملقنيه من البشر"، هكذا بهذه الصورة التقريرية الخادعة. وكان هذا الأمر، من الحقائق المسلمة، يعنى أن القرآن كله أو بعضه من تعليم بشر. ينطلق الكاتب من هذه الجملة التمهيدية التمهيدية ليقول إن القرآن يتكلم عن الذين لقنوا محمدا القرآن من البشر أولاً، في قرائن تتضمن اتهامات وُجّهت لمحمد من قبل خصومه، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ﴿﴾ (الفرقان: ٤ : ٥)، يعلق الكاتب على هذه الآية بما يثير العجب، وبما لم يرد البتة ببال أحد، قائلاً: "لم ينكر القرآن أن قوماً آخرين قد أعانوا محمداً على كتابة

(١) Joseph Schacht, An Introduction to Islamic Law; Oxford 1964, 10 ff

ولننظر ما يقوله شاخت في الباب الثالث، وهو بعنوان "محمد والقرآن": "إن محمداً قد ظهر في مكة كمصلح ديني، وأنه احتج بشدة على كفار مكة من أهل مكة؛ واعتبروه كمجرد كاهن، أو عراف آخر، وأنه بسبب قوة شخصيته قد دعى إلى المدينة في عام ٦٢٢م، كحكم في نزاع قبلي بين أهل المدينة. وأنه كالنبي قد أصبح قائداً ومشروعاً يحكم مجتمعا جديداً على أساس ديني. وأن محمداً قد اقتبس من اليهود في المدينة كثيراً من الأحكام. إن روايات جمع القرآن ملفقة لفقها الفقهاء؛ وأصول الفقه وكذلك التشريعات الإسلامية منتحلة من القانون الروماني، والقانون البيزنطي، وقوانين الكنائس الشرقية، ومن التعاليم التلمودية، وأقوال الأخبار، ومن القانون الساساني. كل هذه القوانين والتعاليم والقواعد تُشكّل منها القانون الديني للإسلام." (Schacht, An Introduction to Islam.. P., 20-21. 34ff)

القرآن، وأن القرآن من أساطير الأولين طلب محمد كتابتها أو استنساخها، فكانت تُملى عليه أول النهار وآخره؛ انظر كيف أخذ ويلش قول الخصوم، وهم كفار قريش، على أنه تقرير من الله الذي أنزل القرآن، تقرير صريح واعتراف واضح منه تعالى بأن محمداً قد استعان بالبشر في كتابة القرآن؛ ولسنا ندري متى كان ذلك، ولا من هو يا تُرى الذي فعل ذلك؟

تجاهل الكاتب متعمداً أو غير متعمد، قول الله تعالى في أول السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾، و"الفرقان" من أسماء "القرآن"، و"نزل" بمعنى "أنزل منجماً، وعلى التراخي" و"العبد" هو "محمد ﷺ"، نبي الله الذي حقق صفة العبودية الكاملة لله تعالى، فاستحق أن يكون كاملاً معصوماً، يوحى إليه هذا القرآن الكامل في إعجازه. كذلك تجاهل ويلش قول الله بعده: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٢﴾ (الفرقان: ٦)، حيث أثبت أنه تعالى هو منزل القرآن الكريم على عبده محمد ﷺ لا غيره، وقد جهل الكاتب أيضاً أن الكفار وصفوا القرآن بالتنزيل كذلك في السورة نفسها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ ﴿٣﴾ (الفرقان: ٣٢)، فهذا اعتراض ضمنى منهم بأن القرآن منزل وأهم سألوا فقط على سبيل التعنيت، لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة، كما نزلت الكتب قبله جملة واحدة، كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب الإلهية، كما كانوا يسمعون من أهل الكتاب؛ فردَّ الله عليهم بأنه أنزله مفرقا، في ثلاث وعشرين سنة، بحسب الوقائع، والحوادث، ومتطلبات الدعوة، والدولة الإسلامية؛ وليثبت به قلب النبي ﷺ، وقلوب المؤمنين؛ وليثبت به أركان الدولة، ويحدد به معالم الأمة الإسلامية. وقد جمع الله تعالى للقرآن الصفتين معا. ففي الملأ الأعلى أنزله جملة واحدة من اللوح المحفوظ، إلى بيت العزة في السماء الدنيا؛ ثم أنزله بعد ذلك إلى الأرض منجما^(١)؛ فتم بذلك للقرآن شرف النزول جملة واحدة؛ ثم النزول مفرقا على قلب رسول الله ﷺ؛ وليس يقل عن ذلك أهمية أن نذكر أن حياة

(١) ابن كثير (٦٣٢/٢).

اليهود، وكذلك النصارى كانت قلقة مضطربة، وكانوا مطاردين، ولم يتأت لهم استقرار، ولم تنشأ لهم دولة؛ بل لقد كانوا يعيشون مستعمرين محاصرين، فلم يكن من المناسب أن تنزل عليهم الكتب منجمة، بخلاف القرآن، وبخلاف الأمة الإسلامية التي تم لها الاستقرار ونشأت لها دولة.

ونعود إلى ما زعمه ويلش فنتساءل كذلك كيف كان يكتب محمد ما يُملَى عليه، والتاريخ والقرآن والسنة كلها تسجل أنه كان أمياً لا يعرف القراءة ولا الكتابة؛ ولم تكن هناك في مكة مدرسة، ولا جامعة، ولا حلقة، ولا إرسالية يتعلم فيها محمد؛ ولو وُجد شيء من ذلك في مكة لزاحمه عليه أولادُ الأغنياء والوجهاء من أهل مكة، الذين كانوا يسيطرون على كل شيء فيها؛ فقد صحت لهم المنافسة في قرض الشعر، والتباري في ارتجال الخطب، وعلى الزعامة، والرئاسة، وغير ذلك مما كان يعينهم ويشغل بالهم؛ ثم إنه إذا كان هناك في مكة من يُعلّم الناس تعليماً خاصاً يؤجر عليه، لَعَزَّ ذلك على محمد لِيُثِمّه وفقره. ألم ترفضه مرضعات البوادي لهذا السبب؟ وهل كان في إمكان محمد ﷺ أن يستقلَّ وحده بالمعلمين والمدرسين والقصاصين وأهل السير، دون أثرياء مكة، ووجهاء قريش؟ كلاً والله ما هذا برأي؛ وهل كانت هذه الأساطير، التي يدّعون عليه أنه اكتتبها، في متناول يده وحده دون سائر الناس؟ وهل كانت تلك الأساطير مكتوبة أو محفوظة يرددها الناس كما كانوا يرددون التراث الشعبي مثلاً؟ وهل عُدّت - يا ثرى - تلك الأساطير المزعومة من يهتم بنقلها وانتحالها والتباهي بها في القوم؟ ولماذا لَعَمْرُو الحق، لم تكن هذه الأساطير تُلْقَى رواجاً بين العرب وتُروى كالشعر والخطب في سوق عكاظ؟! ولماذا لم يُدَوِّها العرب كما دونوا المعلقات؟ لقد تناقض الكفار - الذين زوّروا تلك التهمة ضد محمد ﷺ - ذلك لمحمد في قولهم، وفي أوصافهم للقرآن ولمحمد ﷺ؛ فهم تارةً يصفونه بالكذاب؛ وهو أمينهم وأصدقهم؛ وتارةً يتهمونه بالجنون وهو أكثرهم عقلاً، وبالسحر وهو أبعدهم عنه، وبالشاعرية، والكهانة؛ وأحياناً أخرى يتعنتون معه يطلبون منه المستحيل، ولا يقبلون منه الممكن؛ وإن من عَرَفَ حالهم وخَبَرَ دعاواهم، أيقن أنهم لم يكونوا يبحثون عن الحق المحرد، ولا يطلبون الصواب؛ وإنما قصدوا بفعلهم هذا إلى التعنت وعمدوا إلى التشهير؛ هذا مع أن للعرب أوصافاً أطلقوها على القرآن تعتبر دُرراً في ديوان

خطبهم وأقوالهم؛ ثم إن بلغاءهم، بخلاف المستشرقين، قد اعتنقوا الإسلام فيما بعد، وآمنوا بالقرآن، وخضعوا لبلاغته، وتباروا في محاكات أسلوبه وصياغته حتى أشربت قلوبهم، وتدارسته عقولهم، واتسمت به حياتهم، وانبعثت منه علومهم ومعارفهم وقيمهم وحضارتهم.

يعرض الكاتب بعد ذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ (النحل: ١٠٣).

تعليق الكاتب على هذه الآية هو كتعليقه على الآية السابقة في البطلان؛ إذ أنه يزعم أن القرآن لم ينكر هذا الاتهام؛ بل إنه يضيف إلى ذلك أن القرآن يُصر فقط على أن ألفاظه (أى القرآن) وعباراته لم تأت من معلم بشر، بمعنى أن المعاني كانت قد أُلقيت، أو اقترحت لمحمد؛ وهو الذى صاغها وصنّها في قوالبها اللغوية. وكما هو واضح، يعتمد الكاتب في تفسيره هذا الغريب، على كلمة "لسان" التى هى بمعنى اللغة. هذا مع أن القرآن ينفى نفياً قطعياً، إمكان التفاهم بين محمد العربى الذى لا يعرف غير لغة العرب، وبين الشخص الذى يدّعون أنه كان يعلمه، وذلك لاختلاف اللغتين، ولت شعري كيف يستطيع الأعجمى، المغموز به، أن يصل إلى هذه الأفكار والمعاني الجمّة والتامة والمتضاعفة في الحسن والرواء، والتي تصل إلى درجة الشمول والإحاطة بكل أنواع العلوم، وكيف لمثل هذا الرجل الأعجمى الغمر أن يظل مغموراً ويعيش مدحوراً ومطحوناً، ولديه كل هذه العلوم المعجزة والمعارف المتنوعة؟ وكيف يجوز أن يوجد شخص، بكل هذه الأفكار والمعاني والأبنية، لشخص لا يعرفه ولا ينتفع به؟

إننا لكى نحصل على علم كعلم القرآن أو قريب منه، نحتاج إلى عقول علماء أهل الدنيا معاً إنسهم وجنهم، وليس إلى شخص واحد أعجمى اللسان، غلف البيان، لم يسجل له التاريخ أى شأن، ولا نعرف متى وُلد، ولا كيف عاش، ولا متى مات؛ بل إننا لا نعرف له اسماً - على وجه التحقيق - ولا مهنة - على وجه التدقيق؛ فقد قال البعض إن اسمه "يعيش"، وآخرون قالوا بل هو "جبر"، وفريق ثالث قال إن اسمه كان "بلعام"؛ وقال البعض إنه كان حداداً أو بياعاً وهكذا دواليك؛ ثم إن الآية واضحة في ردّ دعوى المشركين قديماً، والمستشرقين حديثاً، في أنه لم تكن هناك لغة مشتركة يتفاهم من خلالها

محمد مع هذا الحداد المغمور؛ قال الذين ادّعوا أن محمداً كان يزوره نعم قد يكون صحيحاً وأن النبي ﷺ زار شخصاً ذا مهنة، وهذا من ضرورات العيش وقضاء المصالح بين الناس؛ ولكن هل قابل محمدٌ هذا الرجل وحده دون سائر أصحاب المهن الأخرى، ودون الحاويج، والضعاف الذين كان النبي ﷺ يجبر خواطهم، ويمسح آثار الذل عنهم؟ وهل هناك أدلة على علم هذا الرجل وثقافته، حتى ننسج حوله هذه الأسطورة العجيبة؟ يقول الإمام أبو سعيد الدرامي (٢٨٠هـ) في كتابه "الرد على الجهمية": (... فنشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله اصطفاه لوحيه، وانتجبه لرسالته، واختاره من خلقه لخلق، فأنزل عليه كلامه المبين وكتابه العزيز الذي: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، ﴿قُرْءَانًا غَرِيبًا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ (الزمر: ٢٨)، ﴿يَهْدِي لِلَّذِي هُوَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٩)، فيه نبأ الأولين، وخبر الآخرين، لا تنقضى عبره، ولا تفي عجائبه، غير مخلوق، ولا منسوب إلى مخلوق ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ (٣٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿الشعراء: ١٩٣-١٩٤﴾ ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: ١٦) من قال به صدق، ومن تمسك به هدى إلى صراط مستقيم؛ ثم قال لبيبه ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ (الإسراء: ١٠٦)، فقرأه كما أمر، ودعا إليه سرا وجهراً؛ فلما سمع المشركون آيات مبینات قالوا ساحرٌ وكاهنٌ وشاعرٌ ومعلمٌ مجنونٌ ﴿وَأَنطَلَقُ أَلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ (١) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْأَلْهَةِ الْأَخْرَىٰ إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقٌ ﴿(ص: ٦-٧)، وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر: ٢٥)، وقالوا: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الأنفال: ٣١) وقالوا: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ آفَرتَهُ وَأَعَانَتْهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَاخِرُونَ﴾ (الفرقان: ٤)، وقالوا كذلك: ﴿أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥)، ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣) مخلوق بكلام مخلوق. فكذب الله ﷻ قولهم، وأبطل الله دعواهم، فقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءُوكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَظَلَمُوا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ

عَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ (الفرقان: ٦)، ﴿قُلْ تَزَلَّهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ (النحل: ١٠٢)، وقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي

يُلَجِّدُونَ إِلَيْهِ أُعْجِمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَفِي مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل: ١٠٣)؛ ثم بالغ في

الدعوى فقال: ﴿قُلْ لِّينِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨). ثم نديهم جميعاً إلى أن يأتوا

بمثله تحريضاً وتعلماً^(١) من الخطباء والشعراء وغيرهم، إن كانوا صادقين، فقال تبارك

وتعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِسَاتٍ وَأَدْعُوا مَنْ أَسْطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾

(هود: ١٣)، واثتوا بسورة مثله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ

وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣-٢٤)، فلم يقدر

الجن والإنس، عربها وعجمها من عبدة الأوثان، وعلماء أهل الكتابين، أن يأتوا بسورة ولا

ببعض سورة؛ ولو علموا أنهم قادرون عليها لدعوا شهداءهم إلى ذلك، وبذلوا فيها

الغرائب والأموال وغيرها لخطبائهم وشعرائهم وأخبارهم وأساقفتهم وكهنتهم وسحرتهم،

أن يأتوا بسورة مثلها تصديقاً لما ادعوا من الزور تكذيباً بمحمد ﷺ، وأن يأتي المخلوق

بمثل كلام الخالق، وكيف يقدر عليه، وقد قال الله تعالى: "وَلَنْ تَفْعَلُوا" فلن تفعلوا إلى يوم

القيامة؟ فكما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: ١١)، فليس ككلامه كلام^(٢).

وقد فهم كثير من علماء الغرب ما للقرآن من عظمة وتفرد في اللغات الإنسانية،

على سبيل المثال فقد نقل سنكس عن مسيو بارتلمي سنتيكير قوله: "إن القرآن قد أبقى

أجمل أثر للغة التي أنزل بها، ولم أرَ ما يشبه ذلك في جميع أدوار التاريخ الديني للعالم

الإنساني، وهذا الأمر يفسر التأثير العظيم الذي أحدثه هذا الكتاب على العرب الذين

اعتقدوا أن محمداً في معارفه الساذجة (البسيطة) لا يستطيع أن يؤلف بنفسه هذا الكتاب،

وأنه لا بد أن يكون قد أملاه عليه جبريل من عند الله"

(١) (خرص وترخص أى كذاب، تحرص فلان على الباطل أي افعله، ويجوز أن يكون الخراصون هم الذين إنما يظنون الشيء ولا يحققونه فيعملون بما لا يعلمون. وأصل الخرص التظن فيما لا يستيقنه. (لسان العرب - ج ٧ ص ٢١).

(٢) أحمد بن حنبل وابن قتيبة وعثمان الدارمي - عقائد السلف - ص ٢٥٦ - ٢٥٧.

إن كتب اليهود والنصارى وما هو موجود من كتب الأديان الأخرى لم تحدث من التأثير ما أحدثه القرآن ولم ولن تجذب إلى نفسها من الخلق ما جذبه القرآن إلى لغته من شتى أجناس الأرض. إن قيم القرآن الأدبية والجمالية، والعلمية فائقة الحسن والتأثير، وتأثير القرآن على النفس البشرية باقٍ وتام أبداً.

يستمر المستشرق ويلش في عرض موضوعه، فيقول: "إن هناك آيات مدنية متعددة تعطى الانطباع بأن محمداً كان يحاول مهمة ودأب أن يحصل على معلومات من كتب اليهود المقدسة، مستشهداً على ذلك بما جاء في آية: ﴿يَأْهَلُ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (المائدة: ١٥)، فهم ويلش من الفعل "تخفون" أن اليهود كانوا لم يُمَكِّنوا محمداً من كتبهم؛ ولقد فاته أن يفهم أن الآية لا تلوم اليهود، لأنهم أخفوا كتبهم عن محمد، ومنعه أن ينقل منه؛ بل إن الآية تتحدث على طريقة الخطاب القرآني وتبين أن اليهود بدلوا وحرّفوا كتبهم، وأخفوا منها وأظهروا، وأولّوا نصوصها على وفق أهوائهم ونوازعهم الطائفية والعنصرية؛ والآية تشير تحديداً إلى إخفائهم لآية الرجم، بالتحديد، كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن جرير وغيره؛ وفي الآية أن محمداً ﷺ بين لهم في القرآن أشياء كثيرة مما كانوا يتعمدون إخفاءها؛ ولم يرد أن محمداً سأل اليهود أن يُطلعوه على كتبهم ألبتة؛ كيف وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب؟ أضف إلى ذلك أن كتبهم كان بالعبرية، ولم يترجم منها شيء بعد إلى العربية كما هو معلوم لعلماء الأديان؛ وكيف يقرأ محمداً كتب النصارى ليفيد منها في كتابة القرآن، وهو الذي أنكر أصول النصرانية، كالتثليث، والصلب، وعقيدة الفداء والكفارة؟ وكيف يقرأ محمداً كتب اليهود وهو يُحاجّهم ويكشف أمرهم تارةً بالوحي، وأخرى بسنته واجتهاده ﷺ. إن الله هو الذي طلب من اليهود على لسان محمد أن يأتوا بالتوراة إذا أمكنهم، وهذا من باب الإلزام والإفحام للخصم، حتى يُكذّب الله دعواهم في مسألة مخصوصة، تنازعوا فيها، وهي تحريم إسرائيل، وهو نبي الله يعقوب عليه السلام، أكل العرق، على نفسه، أو أكل ولد ما له عرق، وذلك لئذّر كان نذره، إن شفاه الله من عرق النساء، الذي كان يزعجه ويقلقه ويؤرقه فلا ينام؛ فحرم اليهود ذلك على أنفسهم إتباعاً له، لا لنص ملزم في التوراة؟ والآية التي عليها مدار الحديث هي: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ ۚ قُلْ فَأْتُوا

بِالتَّوْرَةِ قَاتِلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ (آل عمران: ٩٣). أما عن قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۚ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۚ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعِلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ۖ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٤﴾﴾ وهذا كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٥﴾﴾ (الأنعام: ٩١-٩٢)، فمعنى الكلام في هذا الموضع من القرآن أنهم استنكروا أن الله أنزل وحياً، والمستكروا هم اليهود؛ فأخبر الله تعالى أن هذا يتنافى مع صفته، وعظمته؛ وأخبرهم في صورة سؤال أن الذى أنزل على موسى الكتاب هو نفسه الذى أنزل على محمد القرآن؛ وأنكم إذا نفيت نسبة القرآن إلى الله، وجب ضرورة أن تنفوا نسبة التوراة إليه تعالى؛ وهذا إلزام قرآنى لهم. وأخبر القرآن كذلك أنهم يُقَطِّعُونَ التوراة قراطيس، أى أجزاء، وسجلات ينسخونها من الكتاب الذى كان بأيديهم، ويخرفون المنقول ليوافق هواهم، وأحياناً يُثَبِّتُونَ الكلام، ويحرفون المعانى حسب ما يرون، ثم يدَّعون بعد ذلك أن هذا من عند الله^(١)؛ والكلام هنا عن فعل اليهود مع نبي الله موسى، ومع التوراة التى جاء بها، وليس مع محمد ﷺ، ولا مع القرآن؛ كما أنه لا يُفهم من كلمة "تبدونها"، التى تعلق بها الكاتب وضرب الهواء بجناحيه، أنهم أبدوا التوراة لحمد ينقل منها ما شاء؛ بل إنهم كانوا يبدونها لأتباعهم هم أو للعامة منهم ونحو ذلك.

استشهد الكاتب على المسألة نفسها أيضاً بقول الله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ۚ قَوْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ (البقرة: ٧٩)، هذه الآية تصب الويل على أحبار اليهود، لتلاعبهم بكلام الله تعالى، واتجارهم بالدين، فقد كان منهم فريق يتكسب بالوحى، يكتب كتباً بيده، ثم يبيعها لبعض العرب أو غيرهم، على أنها كلام الله؛ وهى فى الحقيقة كلامه هو، وذلك لأن التوراة كانت نسخة واحدة موضوعة تحت يد الكاهن الأكبر، لا تخرج للعامة أبداً؛ ولا يُمكن أحدٌ سواه من قراءتها؛ فكان الأحبار يكتبون قليلاً

من كلام الله الذى تعلقوه، مع شيء كثير^(١) من كلامهم الذى زوروه، زاعمين أن الكل هو كلامه عز وجل، فكذبهم الله. وربما كان هذا العمل في حد ذاته سبباً من أسباب تحريف التوراة وتحريف كتب أنبياء اليهود أيضاً، والبعد بها عن النص المتزل من عند الله تعالى. ولسنا نستبعد أن مثل هذه النصوص، التى اختلط فيها كلام الله بغيره، من كلام البشر؛ قد بقيت كلها أو بعضها، واستعملت فيما بعد، في تجميع مادة كتب العهد القديم، التى هى بأيدي اليهود اليوم. وهذه الأعمال الخفية، لم تكن لتظهر بسهولة، لولا نزول القرآن الذى كشف عنها. ومما ينبغى التنبيه به أن الدراسات النقدية الحديثة تؤيد صدق كلام الله تعالى، بالنسبة لتحريف كتب اليهود والنصارى؛ إذ أثبتت بالأدلة النصية، والبراهين العقلية، وبالقرائن التاريخية أن أياد كثيرة، وليست يد واحدة، قد عملت في كتب العهد القديم؛ وأن هذه الكتب تحتوى على كتابات وإشارات إلى تواريخ متقدمة ومتباعدة جداً فيما بينها، كلها تؤكد على أن أكثر من يد قد تناولتها وتعاونت على كتابتها؛ وبالأدلة العلمية تأكد أن هذه الكتب كانت قد وضعت في تواريخ مختلفة، وفي أماكن متفرقة.

يشير الكاتب بعد ذلك إلى الآيات (البقرة: ٧٧^(٢)، ١٤٠^(٣)، ١٧٤^(٤)) و(آل عمران: ٧١^(٥))، و(المائدة: ١٥^(٦))؛ ثم يزعم أنه بقراءة هذه الآيات، يكون من السهل علينا أن نفهم أن محمداً قد تلقى قصصاً ومعلومات أخرى من مصادر متعددة، من بينها كتب اليهود والنصارى؛ وأن محمداً قد أعاد تشكيل هذه المعلومات، وصياغتها، وأدبجها في القرآن أثناء عملية الإلهام (القرآن عند الكاتب أصبح إلهاماً وليس وحياً!)؛ يقول إن هذه النظرة تُعد اليوم عند المسلمين غير أصولية، أو سلفية، ولكنها، على أى حال، ليست

(١) انظر: "ابن حزم الأندلسى ونقده للتوراة وكتب اليهود الأخرى" (رسالة دكتوراه بالإنجليزية للدكتورة نور شيف عبد الرحيم رفعت - إكستر - إنجلترا ١٩٨٨).

(٢) ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾.

(٣) ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَشْتَمُ أَعْلَمُ أَمْرُ اللَّهِ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

(٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَيَتَنَزَّهُونَ يَوْمَ نُنْزِلُ قِيلًا أَلْوَيْتُمْ مَا يَكْفُرُونَ فِي نُطُونِهِمْ إِلَّا التَّارَ وَلَا يَكْلِمُهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(٥) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(٦) ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾.

متعارضة مع بعض المسائل التي توجد في مجموعة الأحاديث، والمصادر الإسلامية الأخرى. وهذه الأصول المشتركة بين القرآن، وكتب اليهود والنصارى، قد حُتِّمَتْ طرح السؤال بين الباحثين عن طبيعة الصلة بين القرآن وهذه الكتب؛ واضح أن الكاتب يسير في خط متعرج، وكثير التواء والمسارب. فزعمه بأن ما قيل حل أخذ محمد من كتب اليهود والنصارى يعد اليوم غير أصولي، يوحى بأنه كان أصولياً، وموضع تسليم من قبل، وهذا محض افتراء؛ فعقيدة المسلمين في القرآن هي هي، بالأمس، واليوم، وإلى قيام الساعة؛ ثم إن الأحاديث التي يحاول الكاتب أن ينتزع منها أدلة تؤكد، من وجهة نظره، انتحال القرآن من كتب سابقة؛ ليس فيها أن الرسول ﷺ قد أخذ أى شىء من القرآن من غير الله تعالى، حتى ولا من عند نفسه؛ فكلام رسول الله ﷺ غير كلام الله. ثم إن إشارة الكاتب إلى وجود موضوعات متشابهة بين القرآن وكتب اليهود والنصارى، أمر لا ينكره المسلمون، بل يعتقدونه ويعتمدونه ضمن الإطار العام لعقيدتهم في وحدة مصدر الأديان والرسالات الإلهية، ولا يرون في ذلك غضاظة، ولكنهم لا يرون في الوقت نفسه أن في تلك المشابهات العليلة أي دلالة على أن محمداً ﷺ انتحل أي شىء، أو تأثر بأى شىء من خارج الوحي. والذي ينبغي معرفته كذلك، أن هذه الأشياء المتشابهة بين كتب الله الثلاث لا تعدو أن تكون قصصاً وحكاية لتاريخ الدعوة والأنبياء من لدن آدم حتى خاتم المرسلين محمد ﷺ، أنزلها الله في القرآن محضة صافية غير مشوبة بما علق بها في كتب اليهود من تحريف ومغالطات وطعن في شرف الأنبياء وعصمتهم.

إن موضوع الصلة بين القرآن وكتب اليهود والنصارى قد دُرِسَ وعُولِج كثيراً من قبل المستشرقين والمسلمين؛ وأهم كتاب تعرض لهذا الموضوع من قبل المستشرقين، هو كتاب "أبراهام جيجر" اليهودي الألماني، الذي اتسع خياله فصوّر النبي ﷺ، وكأنه لم يكن له عمل البتة إلا النقل من كتب اليهود، التوراة، وكتب الأنبياء، والتلمود، والمشنا، والجمارا، كما أشرنا إليه من قبل. وقد بينا، في دراسة لنا، قهافت جيجر وسطحيته، مع ترجمة لكتابه (هل أخذ محمد من كتب اليهود) إلى اللغة العربية، والتي نرجو أن ننشرها قريباً بإذن الله تعالى. ومن الكتب التي أفاضت في موضوع الانتحال المزعوم هذا، كتاب "ويلهلم رودلف"، (صلة القرآن باليهودية والنصرانية)، مترجم إلى العربية؛ وكتاب "هنرى دى كاسترى" (الإسلام سوانح وخواطر)، بترجمة فتحى زغلول باشا؛ حيث نقل عن

بعض النصارى قوله إن محمداً إنما كتب القرآن بإملاء سرجنوس لأنه كان أمياً مجرداً من كل تربية"^(١) ويشير كاستري إلى كتاب آخر في نقد القرآن، هو كتاب "القس مراشقي" (الرد على القرآن)^(٢). أما كاستري نفسه فيقول "إن القرآن يستولى على الأفكار، ويأخذ بمجامع القلوب، ولقد نزل على محمد دليلاً على صدق رسالته".

يذكر المستشرق ويلش أن هناك آيات مكية، وأخرى مدنيّة أحدث نزولاً، تتحدث عن كتاب تدعوه كتاب الله، وتُحدّد هؤلاء الذين نزل عليهم هذا الكتاب، كالرسل (البقرة: ٢١٣)، وذرية إبراهيم عليهم السلام (العنكبوت: ٢٧)، وبني إسرائيل (غافر: ٥٣)، وموسى عليه السلام (البقرة: ٥٣، ٨٧؛ والأنعام: ١٥٤)، يحيى أو يوحنا عليه السلام (مریم: ١٢)، السيد المسيح عليه السلام (مریم: ٣٠)، وغيرها من الأمور المشتركة بين القرآن وكتب العهدين القديم والجديد؛ والقرآن يُسمّى اليهود والنصارى بأهل الكتاب، ويتحدث عنهم بأنهم الذين "أوتوا الكتاب" (البقرة: ١٠١، ١٤٤، ١٤٥؛ آل عمران: ١٩، ٢٠، ١٠٠؛ النساء: ٤٧، ١٣٣)؛ وذكرهم القرآن كذلك بعبارة: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ (البقرة: ١٢١، الأنعام: ٢٠، ١١٤؛ الرعد: ٣٦)، ولا بد من التنبيه على أن هذه الكتب المذكورة قد نزلت على الأنبياء المعصومين، وإن جاءت بصيغة "آتيناهم" أو "أوتوا" إشارة إلى أقوام بعض الأنبياء، أو ذرياتهم، مثل ذرية إبراهيم وبني إسرائيل....

ويرى الكاتب أن لفظ "الأميين" المذكور في القرآن، والذي ناقشه كثير، إنما جاء ليشير إلى هؤلاء الذين لم يؤتوا كتاباً من قبل وهم العرب؛ وذلك في مقابل اليهود والنصارى، ومفرد "أميين" "أمي"، وقد أطلق اللفظ الأخير على محمد في سورة (الأعراف: ١٥٧)، لهذا السبب نفسه، أي لكون محمد لم يعط كتاباً، وليس لكونه عاجزاً عن القراءة والكتابة".

عجيب أمر المستشرق، وعجيب تفسيره وتعريفه لكلمة "أمي" كإشارة إلى محمد ﷺ بخاصة. إن المستشرق ويلش يزعم مع بعض الكتاب الغربيين الآخرين، بأن القرآن لا يحتوى على أية إشارة تفيد أن محمداً كان أمياً، بمعنى أنه كان عاجزاً عن القراءة والكتابة.

(١) الإسلام سوانح وخواطر، مطبعة الشعب ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م، ص ١٣٦.

(٢) المصدر نفسه ص ٩٣.

ويتفسق بل ووات على الزعم بأن محمداً كان قارئاً كاتباً؛ شأنه في ذلك شأن تاجر مكة، الذين كانت نسبة عدد المتعلمين فيهم لا بأس بها، هذا مع أن محمداً، لم يكن تاجراً، بالمعنى الدقيق للكلمة؛ ولم تكن التجارة لتماماً حياته ﷺ؛ ولم يكن محمد معدوداً من كبار التجار؛ ولم يكن تاجر مكة يَعْلُونَهُ واحداً منهم أبداً، حتى عندما استعملته السيدة خديجة في التجارة، ورافق غلامها "ميسرة" في قافلة إلى الشام ومارس المهنة بالفعل. ثم إن القراءة والكتابة لم تكن ضرورية في هذه الأيام بالنسبة للتجار، ولم تكن كذلك شرطاً لتأهيل التاجر، ولا ضرورة مفروضة على كل من أراد أن يغامر في أعمال التجارة؛ بل إنها ليست كذلك حتى في وقتنا الحاضر؛ إذ أن كثيراً من كبار التجار ومهرتهم، لا يحسنون القراءة والكتابة. ولو أن محمداً كان يكتب ويقرأ، لثقل إلينا التاريخ ذلك، ولما أخفاه أصحاب محمد ﷺ؛ فالعلم شرف ما بعده شرف، ومحمد ﷺ نفسه، هو الذي ارتفع بالعلم إلى درجة العبادة، وإلى حد جعل فيه العلم قاعدة الإيمان، وراعى العقيدة وحاميها، ومحمد ﷺ هو الذي حث أتباعه على تعلم القراءة والكتابة وحثهم على تعليم أبنائهم وبناتهم، وجعل العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة.

ونقول مرة أخرى إنه لو كان محمد ﷺ قارئاً وكاتباً لذكر ذلك معاصروه، ولصار محمد ﷺ في هذا الباب متميزاً؛ لندرة المتعلمين والقارئین والحاسبين بين قومه؛ ثم إنه ليس من الضروري أن يكون محمد ﷺ أمياً حتى تصح نبوته؛ وليست الأمية كذلك ضرورية في إثبات إعجاز القرآن، وفي التدليل على صدق رسالته ﷺ، فجميع الأنبياء السابقين كانوا يقرأون ويكتبون؛ ناهيك بأن ما جاء في القرآن من علوم ومعارف، تتعدى قدرات أكبر العلماء وأبلغ البلغاء.

يقول بل ووات أيضاً: "إن المسلمين يعتقدون أن محمداً كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وأن هذا يُعزِّز القول بإعجاز القرآن، وذلك لكونه قد جاء به أمي". ويزعم المستشرقين كذلك "لم تتفق كلمة علماء المسلمين الأوائل على أمية محمد؛ وكان مما اختلفوا حوله تطبيق كلمة "أمي" الواردة في سورة (الأعراف: ١٥٧-١٥٨)، على محمد ﷺ؛ حيث قالوا إن كلمة "أمي" تعني غير قارئ وغير كاتب". وأشار بل ووات أيضاً إلى ما جاء في سورة (البقرة: ٧٨)، لتأكيد هذا المعنى ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِي﴾، ولكنهما يُقدِّمان فهما آخر، خاصاً بهما، للآية؛ فيقولان إنها تفيد أن المشار

إليهم في الآية كانوا قارئين كاتبين، ولم يكونوا أميين، غير أنهم كانوا يقرءون على نحو ما، مستدلين بهذا على أن محمداً كان قارئاً كاتباً، على نحو ما أيضاً، ويتمسكان بما ورد في الرواية الضعيفة من أن النبي ﷺ كتب بنفسه بعض الكلمات في وثيقة صلح الحديبية التي أبرمت عام ٦٢٨ ميلادية، بينه ﷺ، وبين وفد مكة الذي بعثوا به إليه.. والكاتبان يدركان، بلا شك، ضعف هذه الرواية، ومعارضتها بروايات أخرى، أقوى وأثبت منها؛ ولكنهما يتجاهلان ذلك لأنه لا يخدم غرضهما.

يضيف بل ووات إلى هذه الرواية الضعيفة ما ورد أن النبي ﷺ كان قد كتب كتاباً، فيما يبدو، بنفسه؛ ثم طواه وسلمه لقائد سريته إلى نخلة، قبل غزوة بدر بشهرين، طالباً منه ألا يقرأه إلا بعد مسيرة يومين، بعيداً عن المدينة. ولسنا نرى في هذا دليلاً على أن الرسول ﷺ هو الذي كان قد كتب الكتاب بيده؛ ولو حدث ذلك لنقل إلينا صريحاً ولتواتر العلم به، ولاحتفظ الصحابة بهذا الكتاب. إنه من الأجدر أن يقال إن الرسول ﷺ قد أمر بكتابة الرسالة في سرية تامة لأنها تحمل معلومات تتصل بشئون الدولة العسكرية، وفضّل النبي ﷺ لذلك أن يسلمها بنفسه لقائد حملته؛ في هذا الوقت كان الرسول ﷺ يجمع حوله لفيفا من الكتاب الذين يكتبون له.

ولمزيد التوضيح نذكر ما أورده السيوطي في (الدر المنثور) في تفسير (آية الأعراف: ١٥٧)، أن بعض السلف ومنهم الأعمش قالوا إن النبي ﷺ لم يمت، إلا بعد أن عرف القراءة والكتابة، وهذا قول غريب، بل شاذ، إذ لم يكن رسول الله ﷺ يتعلم من بشر ألبتة، بل من الله تعالى، ويظهر أن القائلين بهذا الكلام، وهو موقف عليهم، ولا يصلح أن يكون حجة ألبتة، رأوا أن معرفة القراءة والكتابة من كمالات النبوة، التي ينبغي أن لا تفوت النبي ﷺ، وهو الكامل المعصوم^(١).

وهذا التوجيه غير مقبول وغير مقنع في الوقت نفسه؛ فإن تعلم القراءة والكتابة ليس شرفاً في حد ذاته، وإنما لما يؤدّيان إليه من تحصيل العلوم والمعارف، وبما يُمكنان من نقلها إلى الغير، والنبي ﷺ قد أعطاه الله تعالى علوم الأولين والآخرين، وقد انتشر علمه وهديه ﷺ في الآفاق؛ وأوجد أمماً من العلماء في كل مجال من مجالات المعرفة الصالحة.

(١) حول الخلاف في موضوع أمية النبي ﷺ انظر: الزرقاني مناهل العرفان في علوم القرآن جـ ١ ص ٣٦٥.

لم يفك المستشرقين أن يُعيدا قراءة روايات أحاديث بدء الوحي، لينتزعا منها دليلاً على ثقافة محمد ﷺ، فزعموا، من وجه آخر، أنه بمراعاة الاعتبار العام للروايات ودلالاتها، وبناءً على القصص المتشابهة بين القرآن والكتاب المقدس، وانطلاقاً أيضاً من تفسير كلمة "أُمِّي". بمعنى عدم القدرة على القراءة والكتابة، يمكن أن يكون القول بأن محمداً لم يكن يقرأ ولا يكتب ولم يكن له اطلاع على كتب اليهود والنصارى صحيحاً، وهذا على عكس ما زعمه ويلش وجمهور المستشرقين، كما ذكرناه مراراً فيما سبق، لكن بل ووات، على الرغم من هذا، يعرضان رأياً آخر له أيضاً خطورته في المسألة التي بين أيدينا؛ إذ يزعمان "أن محمداً نعم كان أمياً حقاً، ولكنه كان مثقفاً واسع الثقافة، بصيراً بأحوال العالم من حوله؛ وعلماؤ التربة يقررون أنه ربما يوجد شخص متعلم يعرف القراءة والكتابة، وهو غبي مأفون، وآخر أُمِّي لا يعرف القراءة والكتابة، وهو على قدر عال من الثقافة، ويمتلك لديه ثروة هائلة من الآداب والمأثورات الشعبية، بل إن الذي يقرأ ويكتب ربما يُضَيِّع على نفسه فرصة تحصيل مثل تلك الآثار العظيمة وذلك لانشغاله بتعلم هذه الأشياء البسيطة؛ وسواء كان محمداً أمياً أم متعلماً، فإنه كان، ولا شك، مثقفاً بثقافة عصره، وعلى المستوى الذي وصل إليه أهل مكة". يقول الكاتبان، وكأهما وقفاً على صيد ثمين، إن مثل هذه النقطة المهمة ينبغي أن تستعمل في الحجاج والحوار مع المسلمين^(١).

من هذا الكلام تتضح الأغراض التنصيرية من وراء الدراسات الاستشراقية بوجه عام، كما يتضح مقصد الكاتبين من محاولتهما في الوصول إلى تلك النتيجة الخاطئة، وهي أن محمداً ﷺ كان قد وصل إلى المستوى العلمي والثقافي الذي يُمكنه من كتابة القرآن؛ واعتبار القرآن انعكاساً لثقافة محمد وصديقه لتجاربه، تلك الثقافة التي جمع محمد أطرافها، في زعمهم، من مظان شتى، ومن مواد متفرقة ومتنوعة، منها ما هو مأخوذ من كتب اليهود والنصارى التي انتقلت إليه الطريقة نفسها التي انتقلت بها الآداب والمأثورات الشعبية نفسها بزعمهم. وهذا يكون قد تأكد من وجهة نظر المستشرقين أن الإسلام إنما هو خليط ومزيج ذكي لعناصر مختلفة ومتنوعة. والعجيب

(١) بل ووات ص ٣٧.

أهم لم يفكروا لماذا كان محمد وحده هو القادر على حفظ التراث والمأثورات الشعبية، ونظمها في سلك واحد، سماه "القرآن"؛ ونسأل أيضاً لماذا كان في مكة قرآنً واحد، ومحمدً واحد، ما دامت المسألة تركز على الجهود البشرية؟ إن هذا لأمرٌ عَجَابٌ. إن القرآن ليس ثقافة ولا مأثورات شعبية ولا اقتباسات من كتب ولا انعكاسات لبيئة أو ثقافة معينة، وإنما هو كلام الله رب العالمين. ليس القرآن تجميعاً لمواد غريبة متناقضة غير منسجمة؛ ولكنه كلام الله الذي لا عوج فيه، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ليس لأحد في القرآن آية ولا جزء آية.

وأما زَعْمُ المستشرقين بأن القرآن لا يتضمن كلمة "أمي" بمعنى انعدام القدرة على القراءة والكتابة فرغمُ متهافت وتحريف لألفاظ اللغة عن معانيها، وتخصيص لمعاني الألفاظ بلا مبرر، إذ أن المعنى الأول لكلمة "أمي" هو عجز الشخص عن القراءة والكتابة؛ هذا أمر بديهي، ومن القواعد الأصولية المقررة أننا ينبغي ألا نخرج على ظاهر معنى اللفظة أو العبارة إلى غيره، إلا لضرورة توجب ذلك، شريطة أن تكون هذه الضرورة مؤيدة بالدليل. و"الأمي" بالمعنى الظاهر والمشهور مذكور في القرآن بصورة واضحة. وأما قول اليهود ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ (آل عمران: ٧٥)، فيمكن أن تكون بمعنى الأمية الكتابية أيضاً، وَصَفَ بها اليهودُ العربَ باعتبار واقعهم من هذه الحيثية؛ فقد كانوا أمة أمية، لا تحسب ولا تكتب، وكان اليهود يطلقون هذا الوصف على غيرهم من الأمم، إظهاراً لتفوقهم عليهم بالكتب الإلهية التي نزلت عليهم، كما حكى عنهم القرآن قولهم وقول النصاري: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا لِلَّهِ وَأَحِبُّوهُ﴾ (المائدة: ١٨)، ونبه على أن كلمة (Gentile)، التي يطلقها اليهود على الشعوب غير اليهودية، تأتي النسبة منها هكذا "أمي"، وليس "أمي"؛ وعلى الرغم من هذا فإنه ليس هناك مانع في أن تحتل الكلمة معاني كثيرة تحددها القرائن.

يدعي ويلش، علاوة على ما سبق، أن تسمية "القرآن" بـ"الكتاب" و"الوحي" إنما ظهرت في السور المدنية، أو في أشكال التعبير القرآني في السور المدنية؛ وذلك عندما دب النزاع بين محمد واليهود في المدينة، وحدث التقاطع بينهما، وَيَسَّ محمد ﷺ من انخياز

اليهود لدينه، وقع هذا في وقت قريب من غزوة بدر^(١)؛ ونلاحظ أن كلام المستشرقين يخرج كثيراً على عرف البحث العلمى ومنهجه. إنهم يبنون أحياناً نتائج كثيرة غائمة على ظنيات وتخمينات واهمة وواهية؛ وليس هكذا تورد الإبل عند الكلام عن كتاب المسلمين الذى يحوطهم ويحوطونه ويحفظهم ويحفظونه. إن القرآن - منذ البداية - يعنى ذاته ويدرك أبعاد نفسه، والنبي محمد ﷺ يعرف منذ بدء الوحي أن ما جاء به جبريل عليه السلام كان وحياً من عند الله؛ وقد تكلمت آيات مكية كثيرة ومتقدمة في النزول عن القرآن كـ "كتاب" و "وحي" و "تنزيل"، وأن المقاطعة أو النزاع الذى حدث بين النبي واليهود أو غيرهم، لم يؤثر أثبتة في بناء النص القرآن لا في الشكل ولا في المحتوى. وكون القرآن قد اتخذ مواقف مع اليهود، أو كشف نواياهم ومخططاتهم، فإن هذا لا يعنى أن محمداً ﷺ هو الذى سجل ذلك في القرآن وصاغه على هذا النحو. إن في القرآن آيات مدنية تمجد التاريخ النبوي لليهود وآيات أخرى تذكر اليهود بعهودهم مع الله، وما جاءهم به رسل الله، وبالمعجزات التى جرت لهم على أيدي أنبيائهم؛ فالقرآن كله ليس هجوماً على اليهود، ولا صدئاً لمصادمات وقعت بينهم وبين محمد ﷺ كما يدعى هذا الكاتب وغيره من المستشرقين.

يزعم ويلش وأشباعه من المستشرقين، إضافة إلى ما سبق، بأن مواقف الصراع بين محمد واليهود جعلته يُعَيَّر موقفه من كتبهم، إذ بعد أن وصفهم بأنهم "أهل كتاب"، وبأنهم "أوتوا الكتاب"، عاد فقال إنهم فقط "أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ"، وليس الكتاب كله، مشيراً في هذا الصدد إلى قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَمَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٣) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضَلُّوا السَّبِيلَ ﴾ (النساء: ٤٤)، ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيْبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَالطَّغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيْلًا ﴾ (النساء: ٥١) المراد "بالذين" في الآيات هم أخبار اليهود بخاصة، وليس كل اليهود؛ قال الله تعالى لعامة اليهود

ولغيرهم إن الأحبار قد حصلوا نصيباً من التوراة قد يكون حفظاً أو فهماً، و"من" في الآيات المذكورة إما أنها للتبعيض بمعنى أن ما كان مع هؤلاء المشار إليهم من التوراة، لم يكن هو كل التوراة؛ وإما أنها للبيان بمعنى أنهم حصلوا من جنس الكتب المنزلة، أو من اللوح المحفوظ، التوراة التي جاء بها موسى، وهى في ذاتها نصيب عظيم^(١)؛ ولنا أن نفهم أيضاً عبارة "أوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ" على أنها إشارة كذلك إلى تحريف التوراة، وكتب الأنبياء، والتحريف معناه أن كتب اليهود والنصارى، التي بأيديهم، يختلط فيها الإلهى بغير الإلهى.

يغور الكاتب في زعمه أكثر فأكثر، إذ يقول: إنه في أواخر العهد المكى وأوائل العهد المدنى، نقل إلينا القرآن أن محمداً كان قد تُحْدَى بأن يأتى بكتاب يقرؤه الناس بأنفسهم، فعلى سبيل المثال، يقول القرآن: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ بِرُفْقِكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرُؤُهُ﴾ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٣﴾ (الإسراء: ٩٣)، يضرب الكاتب هنا في عماية بتجاهله للآيات القرآنية التي أشار إليها هو نفسه، والتي تتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن، كله أو بعضه؛ وأن الله سبحانه وتعالى قال في مواضع كثيرة في القرآن إنه صرّف في القرآن من كل مثل مُّقْتَع، وأقام فيه من الأدلة الكثيرة الدامغة، كما أظهر المعجزات المتعددة والمتنوعة للناس؛ ولكنهم مع ذلك قد أضروا على الكفر؛ بل لم تزد المعجزات بعضهم إلا فجوراً وطغياناً، حتى لقد تركوا الممكن، وطلبوا المستحيل الذي لا يصلح دليلاً على صحة الكتاب. والقرآن نفسه يُعَدُّ أكبر دليل على صدق الذي جاء به، وهو محمد ﷺ؛ بل وعلى صدقه في نفسه. قال الكافرون- في الآية نفسها التي أشار إليها المستشرق بطريقة تخدم غرضه- إنهم لن يؤمنوا حتى يفجر لهم محمد ينبوعاً في الصحراء، أو ينشئ لهم جنة حافلة بالنخيل والكروم تجرى خلالها الأنهار وتضطرب فيها العيون بالماء، أو أن يسقط عليهم السماء كسفاً أى قطعاً كما توعدهم، أو يأتى لهم بالله والملائكة قبلاً، أو يبنى لنفسه بيتاً من زخرف، أو يرقى في السماء ويحضر لهم كتاباً من

هناك يقرعونهم بأنفسهم؛ هذه المعاجز لو أرادها الله بالطبع لتحققت ووقعت. ففي المعجزات دلالات على صدق الأنبياء، الذين أرسلهم الله تعالى وأيدهم بها، وأمر الناس أن يصدقوهم، وتوعدهم على تكذيبهم للأنبياء، ولكن المعجزات لا تأتي وفق الإرادات والشهوات؛ فالله يعلم أن الطالبين مشاغبون، ولن يهتدوا إذا أبداً.

وأما لفظة "كتاب" في الآية التي يتعلق بها المستشرق، فليست تعني "القرآن"؛ وإنما هي إشارة إلى كتاب خاص سأل المعارضون محمداً ﷺ أن يأتيهم به من السماء، يحمل اسم المعارضين، كل واحد منهم على حدة، ويخاطبه باسمه خصيصاً، كبطاقة دعوة خاصة به، تقول له يا فلان بن فلان أنت مدعو لتصديق محمد، والإيمان بالإسلام: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ أَنْ يُوَفَّى صُحُفًا مُنْشَرَةً﴾ (المدثر: ٥٢)؛ ثم إن الذين طلبوا من محمد ﷺ هذه الأمور لا يُمثلون إلا أنفسهم، وهم أعدى أعدائه، وأشدّهم عصبية عليه، وحسداً له، كعبد الله بن أمية وعتبة وشيبة ابني ربيعة^(١).

جاء ذلك منهم بعد أن أخفقوا في إغراء النبي ﷺ بالمال، والجاه، والسلطان، ليتخلى عن دعوته، ويركن إليهم؛ ولم يكن هؤلاء المعاندون من أهل الدليل ولا ممن يقتنعون بالحجج والبراهين. لقد قالوا ذلك وغير ذلك عناداً وإباءً لا طلباً للدليل واليقين ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾ (الفرقان: ٣٢)؛ يعضى الكاتب في استعراضه للآيات فيشير إلى قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَفِيلِينَ﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥٦-١٥٧)، الطائفتان المشار إليهما في الآية هما اليهود والنصارى، لأنهم كانوا يجاورون العرب، والعرب تعرفهم. يقول ويلش: "إن أتباع محمد قد اشتكوا من عدم وجود كتاب لديهم، كهذا الذي لدى اليهود والنصارى؛ والآية ليس فيها شكوى، ولا ما يشبه الشكوى؛ وإنما فيها، لو أنصف الكاتب نفسه من نفسه، تَعَلُّلٌ وَتَحَلُّلٌ. أراد الله تعالى بذلك أن يقطع أعذار المتعللين منهم، ليقم عليهم الحجة كما في قوله: ﴿وَلَوْلَا أَنْ

(١) ابن عطية المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ج ٩ ص ١٩٦ - ١٩٨.

تُصِيبُهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ (القصص: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسُمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ إِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ (فاطر: ٤٢)، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرُنِي عَلَى مَا فَقَرْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ﴾ (٤٨) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ (الزمر: ٥٦ - ٥٧)، وقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: ١٩).

لما تعلل كفار مكة بأن كتب اليهود والنصارى لم تكن في متناول أيديهم، ولم يكن في إمكانيهم بالتالي دراستها؛ لأنها كانت مكتوبة بغير لغتهم، قال الله فيهم: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ﴾ (٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿٥٧﴾ (الأنعام: ١٥٦ - ١٥٧)، ألزمهم الله بهذا أن يأخذوا بالقرآن ويعملوا بما فيه، وتَهَدَّدَهم تعالى، على تركه، بأشد العذاب. ومعنى أن "تقولوا" لئلا تقولوا وتختلفوا الأعذار لتعنتكم، ومعنى "وإن كنا عن دراستهم لغافلين" أى ما كنا نفهم ما يقولون، لأنهم لا يتكلمون لغتنا، ونحن في غفلة وشغل مع ذلك عما هم فيه، من شأن الدين والكتب. ومعنى "كذب بآيات الله" أى كذب بالقرآن؛ "وصدَفَ عنها" أى صرف الناس عن اتباع آيات الله، وصدَهم عن سبيل الهدى. هذه الآية واضحة في جهل العرب بكتب اليهود، وباختلافهم معهم في معنى اللسان؛ لكن المستشرقين يتشبثون بما يرون هم وإن صادم الحقيقة. وقد عرض لنا القرآن تخطيط المعارضين القائلين: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُستَيْقِينَ﴾ (٥٨) (الجنات: ٣٢)، وقال أيضاً عن عناد الكافرين: ﴿وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَّا نَحْنُ الْمَلِئِكَةَ وَلَكُمُهَا أَلْوَنٌ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ جَاهِلُونَ﴾ (٥٩) (الأنعام: ١١١)، ﴿وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ

لَمَجْنُونٌ ﴿٦٠﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِن كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦١﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٦٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ (الحجر: ٦ - ٩)، وأيضاً قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كِرْهُونَ﴾ ﴿٦٤﴾ (المؤمنون: ٧٠) هذا هو المعنى الصحيح للآيات وهذا هو الغرض الصحيح منها.

وأما ما ادّعه ويلش من أن محمداً قد بدأ يكتب القرآن، ويؤلف منه كتاباً، استجابة لتحديات خصومه من كفار مكة، فأمر غريب، وعجيب حقاً؛ فقد رأينا أنه ليس في أى من الآيات السابقة أو غيرها من الآيات أى إشارة إلى هذا المعنى البتة؛ وليس يقلُّ عن هذا غرابة، ما ادّعه الكاتب من "أن الغرض من تأسيس دولة قوية، وأمة مستقلة في المدينة، وتمييزه عن أهل الكتاب، كان أيضاً من الأسباب التي تكمن وراء كتابة القرآن حيث كان القصد من كتابته أن يكون بمثابة القانون والدستور للدولة الإسلامية الجديدة". إن القرآن إنما نزل ليكون دستوراً، وفرقانا، ومعياراً، يُفَرِّقُ به المسلمون بين الحق والباطل، والنافع والضار، والخطأ والصواب، وليكون سلوكاً لهم، ومنهج حياة يلتزمون به، ومصدراً للاعتقاد، والمعاملات، والعبادات، والأخلاق التي تقوم عليها حياتهم ويستمر بفضلها والعمل بها وجودهم.

يشير الكاتب بعد ذلك إلى قوله تعالى: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ﴿٦٥﴾ من قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٦٨﴾ (آل عمران: ٣ - ٤)، سمي الله تعالى "القرآن" هنا "فرقانا" إما لأنه يفرق بين الحق والباطل، والفضيلة والرذيلة، والتوحيد والشرك، والكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، وبين أهل الجنة وأهل النار؛ وإما لأن الله أنزله مفرقاً على اعتبار حالة المنزل عليه، وحالة المنزل لهم؛ وقد قال الله تعالى إنه أنزل الفرقان على موسى أو على موسى وهارون: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ﴿٥٣﴾ (البقرة: ٥٣)، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٥٤﴾ (الأنبياء: ٤٨)، ويظهر أن "الفرقان" في هاتين الآيتين ليس اسماً لكتاب، كما هو الحال بالنسبة للقرآن؛ وإنما هو بمثابة الحكمة والقوة على التمييز، أو هو إشارة على المعجزة التي أعطاهها الله لموسى وهارون، ليفرقا بها بين الحق والباطل، وبين سحر

السحرة وعمل الله تعالى، وبين دعوى الخلق ووعد الخالق؛ وهكذا يكون لفظ "الفرقان" خاصاً بالقرآن لأن التمييز، وتنصيب الأدلة والأعلام على الحق من أهم الخصائص التي تفرد بها القرآن. من هذا يتبين ضعف رأى الكاتب في التعلق بالآيات القرآنية. فلقد كان القرآن معروفاً للمسلمين والكفار، وما كان محمد ﷺ ليسكت هذا الوقت الطويل، منذ بداية دعوته حتى قبيل غزوة بدر، وهو يتلقى من ربه الكلمات، والآيات، والصور، فلا يسمى "القرآن" كتاباً، كما يزعم ويلش؛ وليس من المعقول أن نتصور أن المسلمين كانوا يجهلون أن الله تعالى أنزل على محمد كتاباً، فيه الهدى والنور، والفرقان اسمه "القرآن".

يزعم ويلش مرة أخرى "أن الدليل يؤكد أن محمداً كان قد فكر في جمع القرآن؛ إلا أن مسؤولياته الضخمة كرجل دولة وقائد أمة كانت تتقدم وتتطور بسرعة هائلة، جعلته يرحل عن الدنيا دون أن يحقق الغرض ويكمل جمع القرآن". ويضيف المستشرق نفسه قائلاً "يبدو أنه من الصحيح أن محمداً كان قد ساهم في جمع القرآن، ووجهه إلى كتابته، كما هو مؤيد بنصوص الأحاديث، التي تخبرنا أنه كان يُملئ القرآن على كتاب الوحي، ويعلمهم كيف يرتبون آيات الوحي وسوره. وأنه (أى محمد ﷺ) كان أحياناً يضع آية جديدة في سياق سورة قديمة"^(١).

ويذكر المستشرق أن النبي ﷺ لم يقم بنفسه، في الأغلب الأعم، بالكتابة الفعلية للقرآن وبالتحقيق العلمى له، بخاصة في المدينة المنورة، حيث كان قد اتخذ كتاباً للوحي ليقوموا عنه بهذه المهام الشاقة؛ ولكنه ليس من الممتع في نظر المستشرق أن محمداً ﷺ كان يكتب الوحي بنفسه في بعض الأحيان، ويُصر الكاتب على أن محمداً كان قادراً على القراءة والكتابة، ولم يكن أمياً ألبتة؛ ونلاحظ هنا تردد الكاتب بين النفي والإثبات، فمحمداً ﷺ لم يكتب القرآن بنفسه، وهو في الوقت نفسه قد كتب بعض القرآن؛ إن المستشرق يتخير من العبارات والأساليب، التي تجعل القارئ الغربي يندفع إلى الشك لأول وهلة في القرآن، وبخاصة هؤلاء الذين ليست لهم معرفة تامة بهذا الكتاب؛ فتصوير محمد ﷺ على أنه رجل دولة، مشغول بشئونها، معنيّ بأمرها؛ وأنه لم يتمكن بسبب ذلك من جمع القرآن في حياته، وأنه ترك عملية الجمع كلها غالباً للصحابة، وعملية تحقيق النص القرآني بأكملها إلى كتاب الوحي، كل هذا كلام يقطر افتراءً وتشكيكاً في

١٤٢ — See Islamic Encyclopedia p. 404, d Bell and Montogomry Watt Introduction pp. 141 (١)

؛ انظر: البخارى. فضائل القرآن. الباب الثانى. حديث رقم ٢، أبو داود "الصلاة" ج ٣ ص ٢، ٥٩.

القرآن. وبنفس الرؤية المضطربة، ينظر ويلش إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَاتَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ (الفرقان: ٤)؛ إن الكاتب يبنى هنا، على رأى الخصوم، ويعتمد عليه اعتماداً جازماً، ويُهمل اعتقاد أهل العلم من المسلمين؛ بل ويهمل الدليل الإلهى الدامغ، ويُغفل رد القرآن نفسه على خصوم القرآن، وكان الخصوم هم الطرف الأصدق فى القضية، وهذا تحيز بلا شك ومصادمة لأصول البحث العلمى.

نقول لو أن محمداً ﷺ كان قد كتب بعض آيات القرآن الكريم بيده الشريفة، لتسابق الصحابة إلى حفظها بعينها، وتوارثوها، ولبقيت مع ما بقى من آثاره ﷺ، ولكن شيئاً من ذلك لم يسجله كُتّاب السيرة. ونجد من الواجب علينا، أن ننبه إلى عدم دقة الكاتب فى استعمال كلمة (EDITING)، ومعناها التحقيق بالنسبة للقرآن، والتي توحى بأن كُتّاب الوحي من الصحابة كانوا يقومون بتنقيح النص، والتصرف فيه كما هو الحال بالنسبة لكتب اليهود والنصارى؛ وهذا شيء مستبعد تماماً بالنسبة للقرآن. لقد كان كُتّاب الوحي يكتبون ما يسمعون من رسول الله مباشرة؛ ثم يطلب منهم الرسول، أن يقرءوا عليه ما كتبوا، ليستوثق من ضبطهم، ويتأكد من سلامة كتابة النص القرآنى المكتوب من التحريف؛ هذا بالإضافة إلى أن القرآن كان محفوظاً فى الصدور، من الكبار والصغار، والرجال والنساء من المسلمين، كما أشرنا إليه من قبل.

إن الكاتب محكوم هنا بعقيدته وخبرته النقدية للكتاب المقدس متجاهلاً للأسف الفروق الجوهرية بين الكتاتين؛ فالقرآن، بعكس كتب اليهود والنصارى، قد حُفظت آياته لأول وهلة، وقد ثبت بالدليل القطعى بالنقل المتواتر أن الجُم الغفير من المسلمين كانوا يحفظونه كله أو معظمه، فى حياة النبى ﷺ، وبعد مماته. ولقد انتشرت الكتاتيب، وانتشر المحفّظون فى كل مكان داخل الجزيرة العربية وخارجها؛ وقد كان القرآن مبثوثاً فى أيدي الناس دون تمييز، يحفظونه كما جاء به جبريل عن الله، وكما بلغه محمد ﷺ عن جبريل عليه السلام بغير اختلاف، اللهم إلا فيما أُمّلت لهجات القوم فى طريقة الأداء مما تخصصت فى عرضه كتب القراءات^(١). هذا بخلاف التوراة وكتب الأنبياء والأنجيل التى

(١) انظر محمد أبو ليلة - رسالة دكتوراة (المملكة المتحدة - اكتوبر ١٩٨٤)، وكتاب تحت الطبع، وابن الندم كتاب الفهرست لبنان دار المعرفة ص ٥٣.

فُتِدَتْ أعيانها، وثبت بالأدلة اليقينية وضعية الموجود منها، إلا ما حفظ الله تعالى فيها من كلامه القديم ليكون دليلاً على إلهية الأصل، وحجة للمسلمين على تحريف هذا الأصل.

ولقد أصبح من المسلم به لدى النقاد الغربيين المحدثين أن التوراة الحالية مثلاً ليست هي التي نزلت على موسى عليه السلام وأنه عليه السلام لم يكتبها ألبتة؛ وأنها إنما كتبت بأيدي مختلفة، وفي عصور مختلفة، وجهات مختلفة؛ هذا ما تؤكد النصوص الحالية لهذه الكتب؛ وليس حال الأناجيل في وضعها الحالي بأفضل من حال التوراة وسائر كتب اليهود. ولذلك كانت عملية كتابة الأناجيل وغيرها تحتاج إلى تنقيح وترقيع، وتعديل وتدقيق، ومراجعة ومعارضة، وحذف وإضافة، بحسب أحوال المخطوطات المختلفة والنصوص المتباينة والترجمات الكثيرة التي ولدت منها هذه الكتب التي بين أيديهم، هذا مع ضرورة الأخذ في الاعتبار أنه لا يوجد إنجيل واحد في لغته الأصلية؛ والاختلافات الجوهرية بين الأناجيل تؤكد عدم سلامة الأصل الذي أخذت عنه. ناهيك بأن هذه الكتب لم يحفظها أهلها في صدورهم كما حفظ المسلمون كتاب ربهم، وأحاديث نبيهم صلى الله عليه وسلم. ونذكر بما قلناه في موضع آخر من هذا الكتاب بأن من وجوه إعجاز القرآن كونه آية باقية لا تعدم ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه.

يزعم الكاتب بإصرار أن القرآن نفسه هو الذي يشهد بأن "القرآن" قد تعرض للتغيير معتمداً في ذلك على قوله تعالى: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة: ١٠٦)، وقوله: ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ١٠١)؛ آية أخرى يرى فيها المستشرق تبريراً لما وقع في القرآن من تحريف وهي قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢)؛ يدعى الكاتب أن هذه الآيات توحى بأنها وُضعت للرد على اتهام القرآن بالتغيير والتبديل، وأن القرآن يُقدم ثلاثة تفسيرات لهذه المسألة، يعني التحريف من وجهة نظره، وقيل إن هذه التفسيرات:

أولاً: أن محمداً نسي أجزاء من القرآن في بعض الأحيان.

ثانياً: أن الشيطان قد وضع أو أقحم شيئاً في ثنايا الوحي أثناء قراءة محمد.

ثالثاً: أن الله قد يستبدل آيات بأخرى خير منها أو مثلها، أو ينسي الرسول إياها. وفي التعليق على هذه الآية نقول إنه ينبغي علينا أن نعرف أن المفسرين قد فسروا كلمة "تمنى" في الآية بمعنى "قرأ"، وكلمة "أمنيته" بمعنى "قراءته"، واستشهد على ذلك بشعر جاهلي ذكر فيه هذا المعنى، ثم فسروا إلقاء الشيطان بأنه كان في القرآن أثناء قراءة النبي ﷺ. (١)

وهذا تفسير بعيد، وهو تأويل وليس بتفسير؛ كما لاحظ ابن جرير الطبري. إذ الأصح أن نأخذ "تمنى"، و"أمنيته" بمعناها الظاهر ولا نلجأ إلى المعنى البعيد، ومعنى "التمنى" حديث النفس بما يكون وبما لا يكون؛ والتمنى: السؤال للرب في الحوائج. والتمنى أن تشتهي حصول الأمر المرغوب فيه، وحديث النفس بذلك؛ وتقول "تمنيتُ الشيء" أي قدرته وأحببت أن يصير إليّ، من "الْمَنَى" أي القدر. يقال "مَنَى اللهُ لك ما يسرك" أي قدر لك ما يسرك، و"الْمَنَى وَالْمَنِيَّةُ" الموت لأنه قُدِّرَ علينا. (٢) وإذن فتفسير كلمة "تمنى" في الآية السابقة بمعنى تشهى حصول الشيء ورغب فيه أقرب لغوياً وأنسب دينياً من تفسيرها بمعنى "قرأ" التي هي من المعاني المتأخرة ليمنى، وعلى هذا النحو ينبغي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلَكُتَبِ إِلَّا أُمَانِي﴾ أي إلا كذبا وتظاهرا، أو العرب تقول "أنت إنما تمنني هذا القول" أي تحتلقه؛ نعم قال أبو إسحاق إن معنى "إلا أُماني" يعني إلا قراءة. وهو على هذا التفسير يعني أيضاً الكذب، لأن قراءتهم لكتبهم غير مصحوبة بالعمل، يكذبون بهذا على أنفسهم وعلى الناس.

وبعد هذا التوضيح نقول إن معنى قوله تعالى: "إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ" أن أيّ نبي كان بلا شك يتمنى هداية قومه، ويحرص على ذلك جهده، وفي القرآن آيات توضح ذلك؛ على سبيل المثال قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ﴾ (فاطر: ٨)، وقوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (الكهف: ٦) ولأن التمني هو حديث النفس فإن الشيطان ربما

(١) تفسير ابن كثير ج ٢، ص ٥٥٠-٥٥١

(٢) لسان العرب ج ١٥ ص ٢٩٢، ٢٩٤

وجد إلى النفس البشرية طريقاً فدخل إليها يوسوس بهواجس اليأس والإحباط لصرف الرسل عن هداية البشر، فيأتي العون من الله تعالى لأنبيائه فينسخ أي يزيل هذه الهواجس التي ألقاها الشيطان في طريق تمنيههم، ويحكم الله آياته بمعنى قوانينه وسننه التي لا تتخلف في نصرة أهل الحق ودحر أهل الباطل، فينشط الأنبياء، وتزداد عزائمهم قوة، وخطاهم مضاءً على صراط الحق، يؤيد هذا قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۚ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ (يوسف: ١١٠) ومعنى "فَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا" أي أن أتباع الرسل قد استياسوا من قومهم أن ينصروه، وأن المرسل إليهم قد ظنوا أن الرسل قد كذبوا؛ فالظن لأتباع الرسل لا للرسل أنفسهم؛ ومن هذا أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرُّسُلُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصُرَ اللَّهُ ۚ أَلَا إِنَّا نَصُرُ اللَّهَ قَرِيبًا ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وينبغي أن نبه على ملحوظة مهمة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (الحج: ٥٢) وهو أن معنى الآية على توجيه المفسرين أن إلقاء الشيطان في القراءة أثناء قراءة النبي ﷺ غير خاص بمحمد ﷺ بل عام وشامل لجميع الرسل والأنبياء بنص الآية، على أن المفسرين أو المؤرخين لم يقدم لنا ولو مثلاً واحداً على إلقاء الشيطان في أمنيات الأنبياء والرسل السابقين، بل كادوا أن يخصوا محمداً ﷺ بهذا وحده من دون الأنبياء والرسل، وهذا التخصيص لا مبرر له ولا سند؛ أما إذا فسرنا "تمنى" بمعنى رغب وأراد فلن يكون ثمة مجال لهذا الإشكال، لأن جميع الأنبياء والرسل تمنوا الهداية لأقوامهم، وقد اعترض الشيطان أمنياتهم، ولكن الله تعالى أزال ذلك بشرح الصدر، وتقوية العزم؛ وعلى هذا التوجيه يكون معنى قوله تعالى: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۚ ﴾ (الحج: ٥٣). أما ما يلقيه الشيطان من وساوس ومشبطات فتنة؛ و"الفتنة" الشيء المغري بفعل الشر، أو هو السبب إليه، والفتنة الحرب، وبينهم فتنة أي حرب؛ وهم يتفانون أي يتحاربون؛ والفتان هو الشيطان، وجمعه فتان، شياطين. (١)

(١) الرمحشري. أساس البلاغة ص ٦٠٤.

ومما ينبغي ملاحظته أيضاً أنه لا يوجد تحديد لنوع ما ألقاه الشيطان في أمنيات الرسل في الآية؛ إذ لم ينص على أنه كلام محدد، أو أنه مجرد وساوس، على أن وساوس الشيطان إذا تمكنت من قلوب الأنبياء، وصاقت (جاورت) الوحي في صدورهم أضعف ذلك الثقة فيهم؛ أما إذا كانت إلقاءات الشيطان مُحَرَّد وساوس عارضة تلمع ثم تنطفئ وتنمحي، فإن ذلك جائز على الأنبياء؛ وهو من عوارض البشرية الملازمة لهم.

وعلى هذا لا نرى أن الآية رقم (٥٤) من سورة الحج لها تعلق من حيث المعنى بالآيات (٥٢-٥٣) من السورة نفسها؛ وإذن فإن قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٤) الكلام في هذه الآية مستأنف، ولا تعلق له بالآيتين السابقتين التي لا ذكر فيهما للقرآن. وقد قلنا فيما سبق إن معنى ﴿ثُمَّ يُخَبِّرُكُمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ﴾ أي بيناته، وسننه في نصرة الحق وأهله، وهزيمة الباطل، وأشياعه.

أضف إلى ذلك أن الآيات من أول سورة الحج إلى الآية رقم (٥٣) من السورة نفسها لا تحتوي على أية إشارة عن القرآن الكريم، وأن الآيات من رقم (٣٩) إلى (٥٣) - وهي أقرب إلى موضوع الآيتين الخاصتين بالإلقاء (٥٢-٥٣) - كلها تتحدث عن صراع الأنبياء مع أقوامهم، وعن انتصار الحق في النهاية جرياً على سنة الله تعالى في خلقه؛ وهذا يعزز وجهة نظرنا في تفسير معنى إلقاء الشيطان في أمنيات أنبياء الرحمن صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ويلحق به أن سورة النجم التي زعم أن الرسول ﷺ كان يقرأها وأن الشيطان ألقى في قراءته مكية؛ وأن سورة الحج التي وردت فيها الآية السابقة، والتي فسرت على أنها خاصة بفقرات الغرائق مدنية؛ وليس من المعقول أن الله تعالى يترك عباده في وهم الغرائق دون أن يصحح موقفهم أو يزيل اللبس الاعتقادي عنهم.

ولفظ "آية" في آية سورة البقرة فسر على أنه آية من القرآن، على أن القرآن لم يحدد لنا حجم الآيات أو الأجزاء التي بدلت بغيرها في القرآن الكريم^(١).

هذه حزمة جافة العيدان من الدعاوى حدادها وصورناها من كلام الكاتب مع تصرف يسير للغاية؛ والآن نناقشه في منهجه ونتائجه فيما يختص بهذه الآيات:

أولاً: دعواه بأن النبي ﷺ كان قد شرع في كتابة القرآن، لكن مشاغل الدولة كانت قد حالت بينه وبين تحقيق هذا الغرض بصورة كاملة، وأنه إنما ترك المهمة برُمتهما لكتاب الوحي؛ كلام سقيم وغير مستقيم، فالنبي ﷺ كان يحفظ القرآن الذي ينزل عليه، يصلى به ويحكم به، ويرتله، ويعلمه، ويدارسه، ويسمعه من غيره، ولم يشغله شيء ألبتة عنه، لا الدولة ولا غيرها؛ بل إن القرآن كان هو دستور الدولة وقانون حاكمها ورعاياها. وكيف ينشغل النبي ﷺ عن القرآن، وبالقرآن عُقدت نبوته، وتمت عصمته، وجرت معجزته، وتأسست دولته، واشتهرت أخلاقه، وطارَت دعوته في الخافقين، ودان الأبيض والأسود برسالته.

كان القرآن محفوظاً في حياته ﷺ في صدور الناس، ومكتوباً على ما تسنى لهم من مواد، كالصحف والجريد والظُر (الحجارة الصغيرة المدورة، جمع "ظُرار")، وفي اللخاف وعلى الخزف والحزير وقطع الأديم.

قال الحاكم في المستدرک: "جُمع القرآن ثلاث مرات، مرة بحضرة النبي ﷺ". وأورد في ذلك حديثاً، أخرجه بسنده على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت قال: "كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع ... الحديث"^(١).

وقال الإمام أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبی، في كتاب "فهم السنن": "كتابة القرآن ليست محدثة فإنه ﷺ كان يأمر بكتابتها، ولكنه كان مفرقاً في الرقاع والأكتاف والعُسب، وإنما أمر الصديق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وجدت في بيت رسول الله ﷺ، فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء".

وقال محمد بن إسحاق في "الفهرست": "وكان القرآن مكتوباً بين يدي رسول الله ﷺ في اللخاف والعُسب وأكتاف الإبل"^(٢). روى العياشي من كبار محدثي الإمامية في تفسيره قال على كرم الله وجهه: "إن رسول الله ﷺ أوصاني إذا واريته في حفرة،

(١) الإتيان ج ١ ص ١٦٨. ابن عطية المحرر الوجيز ج ١ ص ٥٣، ٥٤، والزرکشی. البرهان في علوم القرآن ج ١ ص ٢٣٦.

٢٣٨ وابن النديم. الفهرست ص ٤١.

(٢) الفهرست ص ٤١.

أن لا أخرج من بيتي حتى أولف كتاب الله (أى أجمعه) فإنه فى جرائد النخل، وفى أكتاف الإبل" (١).

وروى على بن إبراهيم القمى، من ثقات محدثى الإمامية، فى تفسيره، عن أبى بكر الحضرمى، عن أبى عبد الله جعفر بن محمد رضى الله عنهم قال: "إن رسول الله ﷺ: قال لى "يَا عَلِيَّ إِنَّ الْقُرْآنَ خَلْفَ فِرَاشِي، فى الصُّحُفِ، وَالْحَرِيرِ، وَالْقَرَاتِيسِ، فَخُذُوهُ وَاجْمَعُوهُ، وَلَا تُضَيِّعُوهُ كَمَا ضَيَّعَتِ الْيَهُودُ التَّوْرَةَ". وانطلق عليّ ﷺ، فجمعه فى ثوب أصفر، ثم ختم عليه".

والروايات كثيرة فى أن وضع الآيات فى مواضعها فى القرآن كان بأمره ﷺ، وأنها بتوقيفه ﷺ، وفى هذه الروايات ما يدل على أن آيات القرآن كتبت بين يديه وبأمره ﷺ (٢).

ومن هذا كله يتبين أن القرآن بأكمله قد كُتب بأمر النبى ﷺ، وبحضرته وظل مكتوباً حتى جاء أبو بكر فجمعه الجمع الأول من المواد المذكورة المتفرقة إلى الصحف؛ ثم جاء عثمان فجمعه الجمع الثانى فى المصحف الأم كما سنبينه. ولم يجمعه النبى ﷺ فى كتاب له دفتان، لأن الوحي كان لا يزال ينزل عليه؛ بل إن فى جمع الصحابة للقرآن دليل على أنه كان مكتوباً على المواد التى ذكرناها سابقاً؛ وإلا لما كان لجمعهم معنى، إذ أن كلمة "جمع" فى حد ذاتها تعنى تجميع الأشياء المتفرقة وحصرها، ووضعها فى مكان واحد، أو نظمها فى سلك بعينه. وهذا ما تؤيده أحاديث جمع القرآن بصفة عامة، وتتواتر عليه الأدلة الكثيرة؛ وأولها وأعلاها جميعاً دليل القرآن؛ فقد تضمن القرآن الوعد الإلهى بحفظ هذا الكتاب: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُتْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: ٤٢)، ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٧).

واستشهاد المعارض بآية سورة البقرة ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ (البقرة: ١٠٦) على حدوث تغيير فى القرآن، ضرب من التعميم والتعمية فى آن واحد، فالآية أولاً تُسند عملية النسخ إلى الله تعالى، لا إلى محمد ﷺ؛ وإذن فلا دخل له ﷺ

(١) الزنجاني . تاريخ القرآن ص ١٩ والزركشى . البرهان ج ١ ص ٢٣٨ .

(٢) انظر : أبو عبد الله الزنجاني . تاريخ القرآن . ص ٥٠ - ٥١ .

في النسخ، أو الإنشاء، كما لم يكن له دخل في الوحي والتنزيل؛ وهذا واضح في الآية، إذ المتحدث هو الله، ويظاهر هذا المعنى ويؤكد ما أورده الله تعالى على لسان النبي ﷺ في القرآن: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ لَّا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٧﴾ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ؕ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٨﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؕ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (يونس: ١٥: ١٧).

في هذا الموضع لما طلب الكفار من رسول الله أن يأتيهم بقرآن غير هذا القرآن الذي جاءهم به، أو يبدله، ويعدله، ليوافق هواهم، ويصادف رضاهم في غير الحق، أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم إنه ليس له أن يتدخل، على أى نحو من الأنحاء، في القرآن؛ بل إنه متبع لما يوحى إليه ومبلغ له. وقول الله تعالى على لسان رسوله ﷺ: "مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي" ما يوحى بأن إمكان تبديل القرآن إنما هو لله تعالى، وليس لحمد ﷺ، وفي هذا تأكيد للمعنى الذي قلناه، بعبارة أخرى أن النسخ في القرآن لله تعالى، وهو يختلف عن التحريف تماماً، فالتحريف من فعل البشر، وتقحمهم على كلام الله عز وجل، والقرآن بهذا ينفي التبديل عن القرآن: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبِيِّئِكَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام: ٣٤)، ثم إن النسخ لا يخرج عن أن يكون نسخاً لمأمور به، بمأمور به آخر، فأبدل أحدهما مكان الآخر، وكلاهما كلام الله تبارك وتعالى وحكمه^(١).

والجمهور على أن النسخ يكون في الأحكام، والأوامر، والنواهي، والأخبار التي تتضمن ذلك؛ والنسخ يجيء بالرحمة، والتدرج بالعباد في التكليف، ومراعاة أحوالهم، فرمما أنزل الله حكماً ما، يصلح للجماعة المخاطبة به وقت التنزيل، ثم يرفعه الله تعالى بعد ذلك لعدم الحاجة إليه؛ فالله تعالى مثلاً يُجرى اللبن في ثدى الأم، ليغذى وليها، فإذا كبر الولد، وصار مستغنياً عن لبن أمه، رفع الله هذا اللبن وهكذا. ونقطة أخرى مهمة ينبغي معرفتها، وهي أن النسخ واقع في الموحى به، وليس في المثبت في أم الكتاب، والناسخ وهو

(١) انظر: المحاسبي. العقل وفهم القرآن. تحقيق حسين القوتلى بيروت. دار الكندى ودار الفكر ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م ص

الله تعالى قد راعى الظروف والأحوال والحاجات بالنسبة للمكلفين، كما راعاها في تنزيل القرآن منجماً. وقد نَسَخَ تعالى كذلك أحكاماً وتكاليف كانت على أمم سابقة، وذلك من باب التخفيف على المسلمين.

والناسخ والمنسوخ في القرآن يعتبر من موضوعات القرآن ومن تعاليمه سبحانه وتعالى؛ والإيمان به واجب، كالإيمان بثبوت الأحكام القرآنية وثباتها، وبأن كل آية في القرآن هي من كلام الله تعالى.

إن ما يشتمل عليه القرآن من ناسخ ومنسوخ معروف لأهل العلم من المسلمين؛ وهو قليل في كتاب الله. وقد ارتبط النسخ بوقت تنزل القرآن، أما بعد وفاته ﷺ فغير جائز على الإطلاق^(١)، ومن تحققت معرفته بالنسخ عَلم أن غالب ما وقع في القرآن من المنسأ، وأن من هذا النسخ ما يرجع لبيان الحكم المجمل، أُخِّرَ بيانه لوقت الحاجة؛ أو هو خطاب واحد توسطه خطاب آخر غيره؛ أو هو خصوص من عموم؛ أو حكم عام لخاص؛ أو لمداخلة معنى في معنى. وينبغي أن تعلم أن أنواع الخطاب في القرآن كثيرة ومتنوعة، وربما خلط بعض الناس في فهم النسخ، ونوع الخطاب، مقدراً من الأول ما هو من الأخير^(٢).

ومن المفيد أن نلفت النظر إلى ما في قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ من سرِّ ينبغي ملاحظته، وهو أن الله تعالى لم يَقُلْ "ما نَسَخَ من القرآن" لأن القرآن لا يُنسخ، وإنما يُنسخ حكم في آية بحكم آخر ما، وكلا الحكمين يشملهما كلامه ﷻ، كما أشرنا إليه فيما سبق. والقرآن ناسخ لما سبقه من كتب، ومُهِمِّنٌ عليها، وهو خاتمها ولا يأتي بعده ناسخ له أبداً.

والنسخ ثابت بالقرآن، كما في الآية السابقة، وكما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ﴾ (النحل: ١٠١). والعلم بالناسخ والمنسوخ واجب على كل مفسر وعالم بكتاب الله متصدر للفتوى؛ ولا يجوز لأحد أن يفسر القرآن، أو أن يُفتي إلا بعد أن يلم بهذا العلم. وقد قال الإمام على كرم الله وجهه لأحد القُصَّاص: "أُتِعرف الناسخ والمنسوخ" قال: "الله أعلم"، قال: "هَلَكْتَ وَأَهْلَكَتَ"^(٣).

(١) انظر: البرهان ٢ / ٤٠.

(٢) المصدر نفسه ٢ / ٤٣، ٤٤.

(٣) البرهان ٢ / ٢٨، ٢٩.

والكلام في الناسخ والمنسوخ جد واسع ومتشعب؛ وقد صَنَّف فيه جماعة من أهل العلم عظيمة^(١). والنسخ بعلم الله تعالى الكلي، وليس فيه بَدَأٌ، ولا هو فيه دليل على نقص علمه سبحانه وتعالى؛ والمعتزسون على النسخ من أهل الأديان، كاليهود والنصارى، لا يمكن أن يدللوا على استحالته عقلياً بطريقة حاسمة. وأضف إلى ذلك أن كتبهم تحمل أدلة كثيرة على جواز النسخ؛ وقد رد عليهم وناقشهم بعض أئمة المسلمين كابن حزم الأندلسي^(٢)، والشهرستاني^(٣)، وغيرهم؛ والمقام لا يتسع للدخول في محيط هذا الموضوع الواسع، وفيما سقناه كفاية.

ودعوى شخت وجولدزير بأن القول بالنسخ إنما استحدثه المتأخرون من الفقهاء، لإيجاد حلول لمشكلات ومعضلات فقهية، فقول جَدُّ مبتور؛ وقد بيَّنَّا أن رأى الجمهور، بل الإجماع، على جواز وقوع النسخ في الأحكام.

قصة الغرائيق

أشار الكاتب إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلَقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ۝ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ (الحج - ٥٢ : ٥٤).

وأشار أيضا إلى حكاية الغرائيق (تلك الغرائيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى)، وقال: إن هذه الآيات الخاصة بالغرائيق تعتبر موضع تسليم من الكتاب الغربيين، الذين رأوا فيها دلائل تاريخية تُبعدها عن أن تكون وضعية أو ملفقة. ولكن ويلش على الرغم من هذا يعتبر القصة ملفقة، وهى فى نظره من اختراع المفسرين، الذين ولدوها لتأييد نظريتهم فى القول بالناسخ والمنسوخ.

(١) المصدر نفسه والموضع، والفهرست ص ٥٦. والإمام الغزالي. المستصفى من علم الأصول. ت: إبراهيم محمد رمضان بيروت دار الأرقم ج ١، ص ٣١٧ وما بعدها.

(٢) انظر: كتابه الفصل فى الملل والنحل القاهرة، ط. صبيح الجزاين الأول والثاني، وكذلك رسالته فى "الرد على ابن النغريلة اليهودى" ط. القاهرة بتحقيق عباس إحسان.

(٣) انظر: الشهرستاني الملل والنحل مباحث كتاب الفصل السابق، وانظر أيضاً، السيوطى، الإتقان ج ١ ص ٥٩ - ٧٧.

ويرى الكاتب أن الآيات (١ : ٢٠) من سورة النجم، والتي قيل إن فقرة الغرائق تخللتها، والآيات الأخيرة من هذه السورة، لا تمثل وحدة واحدة كما تُصور القصة، ثم إن آية السجدة التي يقال إنه ﷺ سجد عندها، وسجد معه المسلمون والمشركون، متباعدة في الذكر؛ ولا تبعد أن تكون نزلت في المدينة وليس في مكة.

وفي هذه القرينة نشير إلى المستشرق "كيتي" حيث يرفض حكاية الغرائق لضعف إسنادها. أما برتون، فيرى أنهما من تلفيقات الفقهاء، كما أشرنا إليه من قبل؛ ولكي يتضح خطأ المستشرقين بجلاء نذكر ما أورده المفسرون في سبب نزول الآية؛ قالوا إن النبي ﷺ، وكان في رمضان في السنة الخامسة لنزول الوحي، لما رأى إعراض قومه عنه، وشق عليه ما رأى من مبادئهم عما جاءهم به، تمنى في نفسه أن يأتيهم من الله ما يقارب بينه وبين قومه، وذلك لحرصه ﷺ على إيمانهم؛ فجلس ذات يوم في ناد من أندية قريش، كثير أهله، وأحب يومئذ أن لا يأتيه من الله شيء ينفرهم منه، وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى سورة النجم، حتى بلغ قوله: ﴿ أَقْرَأْتُمْ أَلَلَّتْ وَالْعَزَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿١١﴾ ﴾ ألقى الشيطان على لسانه "تلك الغرائق العلى منها الشفاعة تترجى"؛ فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ في قراءته، فقرأ السورة كلها فسجد وسجد المسلمون لسجوده وسجد جميع من في المسجد من المشركين، فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد سوى الوليد بن المغيرة، وأبي أحيحة سعيد بن العاص؛ إذ أخذ كل منهما حفنة من التراب من البطحاء، ورفعاهما إلى جبهتيهما، وسجدا عليها، وذلك لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود. وتفرقت قريش وقد سبرهم ما سمعوا من محمد ﷺ، وقالوا قد ذكر محمد آلهتنا بأحسن الذكر، فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: "ماذا صنعت، تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله، وقلت ما لم أقل"، فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً، وخاف من الله خوفاً عظيماً، حتى نزل قوله: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُخَكِّمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (الحج: ٥٢).

بعد أن ساق ابن كثير هذه الرواية علق عليها بقوله: "هذه رواية عامة المفسرين الظاهريين، أما أهل التحقيق فقد قالوا هذه الرواية باطلة موضوعة، واحتجوا على ذلك بالقرآن والسنة والمعقول؛ أما من القرآن فقول الله: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ﴿١١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿١٣﴾ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ (الحاقة: ٤٤ : ٤٧). وبقوله تعالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَائِي نَفْسِي ۖ ﴾ (يونس: ١٥)، وقوله: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ (النجم: ٣) ، ومضمون هذه الآيات كلها، ينافي ما حمله بعض المفسرين المتعجلين على سورة النجم بسبب دعوى الغرائيق. ولو كان النبي ﷺ قد قرأ عقيب آية سورة النجم، هذه الكلمات المفتراة "تلك الغرائيق" لكان قد ظهر كذب الله تعالى في الحال^(١)؛ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

هذه القصة نقلها المؤرخون وكتاب السيرة، واشتملت عليها كتب التفسير، وتلقفها المستشرقون فيما بعد وكأها "الدغيت" الذي سيفجرون به القرآن؛ وللأسف نجد من المسلمين من يجزم بصحتها غافلاً عما فيها من معارضة لقانون الوحي ولعصمة جميع الأنبياء.

ومن المهم أن نعرف أن حديث الغرائيق حديث منكر من جهة الرواية، ومن جهة الدراية؛ لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة الصحيحة، ولا رواة ثقة بسند سليم متصل؛ بل رواه جماعة بأسانيد ضعيفة واهية مقطوعة أو موضوعة، لا أصل لها، وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم^(٢).

وكان ينبغي أن يعرف هؤلاء المفسرون أن الاستدلال على امتناع تدخل الشيطان في قراءة النبي ﷺ أولى من محاولة تثبيت الرواية المتهافئة، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (التكوير: ٢٥) ويقول: ﴿ وَمَا تَنْزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٦﴾ ﴾ (الأنعام: ٢٦) وما ينبغي لهم وما

(١) انظر: الفخر الرازي. مفاتيح الغيب تفسير سورة النجم. وإسماعيل حقي. روح البيان. بيروت دار إحياء التراث العربي

١٤٠٥-١٩٨٥ م ج ٦ ص ٤٩، وج ١٢ ص ٥١، ٥٢.

(٢) انظر القاضي عياض. الشفا ج ٢ ص ٢٨٩-٢٩٣.

يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١٠﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١١)، ويقول: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ
الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ (الشعراء: ٢٢١ - ٢٢٢).

إن القول بصحة خبر الغرائيق يناقِ حفظ الله تعالى للقرآن وللنبي ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ
نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩)، والعجيب أن يقع هذا الإلقاء الشيطاني في
شهر رمضان، الذي تصفد فيه الشياطين، وفيه كان الرسول ﷺ يلتقي كثيراً بجبريل عليه
السلام يدارسه القرآن.

والأعجب من ذلك أن الله تعالى ينفي في سورة النجم الكذب والضلالة عن
رسوله ﷺ، ويُقسِم على صِدْقِهِ فيما بلغ عنه بالنجم إذا هوى، أى باختلال النظام الكوني
الحكمم كله؛ وأن القرآن وَحْيٌ أوحاه الله تعالى إليه. ثم يشير المستشرق بعد ذلك، وهذا
مهم جداً، إلى حادثة المعراج وبالتضمين إلى حادثة الإسراء أيضاً.

إنه حسب رواية المفسرين، التي اعتمد عليها المستشرقون، فإن حكاية الغرائيق قد
وقعت في السنة الخامسة من البعثة النبوية، مع أن السورة تتحدث عن معجزة الإسراء
والمعراج، التي وقعت قبل ذلك، أي قبل الهجرة بعام؛ وبالتالي يكون زعمُ المستشرق موير
(Muir) وأمثاله، المبني على الروايات الضعيفة، بأن المهاجرين إلى الحبشة قد عادوا إلى
مكة عندما سمعوا بالمصالحة بين محمد ﷺ وكفار قريش، زعمًا لا أساس له؛ وحتى لو كان
تاريخ وضع هذه الحكاية الملققة متزامناً مع عودة المسلمين المهاجرين من الحبشة، لَمَا صَلُحَ
ذلك أن يكون سبباً في حد ذاته لعودتهم من الحبشة؛ وذلك لأن الروايات على اختلافها
وهجنتها، تقول بأن فترة المصالحة المزعومة كانت قصيرة، عاد بعدها الموقف على ما هو
عليه بين النبي ﷺ والكفار؛ وما كان للأخبار في مقدور هذا الزمان أن تصل بهذه السرعة
من مكة إلى الحبشة؛ وما كان للمسلمين المهاجرين أن يعودوا قبل أن يتحققوا من صحتها
وسلامتها قبل عودتهم؛ وكيف بالله يُصدقون أن النبي ﷺ قد تصالح مع قريش على
حساب الدين، الذي خرجوا بسببه عن الأوطان والأهل والديار، بعد أن عُذِّبُوا وأُؤذُوا
في سبيل الله تعالى! الحقيقة أنهم عادوا عندما سمعوا بإسلام عمر بن الخطاب وإعلانه
بالتحدي لقريش واستمراره في هذا التحدي. هذا هو الواقع وهذا هو الشيء المعقول
والمقبول. ثم كيف يتمنى الرسول ﷺ أن لا ينزل الله عليه شيئاً يفرق بينه وبين قومه

الكافرين؛ بالله متى اجتمع بهم رسول ﷺ، ومتى هادهم، وهو الذى صك أسماعهم،
وصدع فيهم بأمر الله تعالى، وهو القائل لعمه أبى طالب (يا عم، والله لو وضعوا الشمس
في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله، أو أهلك
دونه)^(١).

"وقد ثبتت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة،
إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آله غير الله تعالى وهو كفر، أو يسور
(يتسلط) عليه الشيطان ويُشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه، ويعتقد النبي ﷺ أن
من القرآن ما ليس منه حتى ينبهه جبريل عليه السلام، وذلك ممتنع في حقه ﷺ؛ أو يقول
النبي ﷺ من قبل نفسه عمداً، وذلك كفر .. أو سهواً، وهو معصوم من هذا كله؛
واستحالة جريان الكفر على قلب النبي ﷺ أو لسانه لا عمداً، ولا سهواً .. أو أن يتشبه
عليه ما يليق به المَلَك مما يلقي الشيطان؛ أو يكون للشيطان عليه سبيل؛ أو أن يَقُولَ على الله
تعالى عمداً، ولا سهواً ما لم ينزل عليه..."^(٢)

ناهيك بما في الحكاية من تكلف في المواقف واختلاف العبارات وغرابة؛ فجميع
المشركين يسجدون إلا اثنين منهما، يقبضان حفنة من تراب، ويسجدان عليها لضعفهما،
مع أن السَّجْدَةَ جاءت في آخر السورة، وهم لا عِلْمَ لهم بالسجود، وما كان لهم ليقلدوا
محمدًا ﷺ فيما لا يعلمون، وأن يغيروا خططهم هكذا سريعاً لمجرد سماع بعض كلمات غير
مفهومة تفصيلاً؛ وهو أمر يثقل على النفوس، وبخاصة النفوس الموقرة بالحقد والغيط؛
ومصادم كذلك لأحكام الطبائع والنفوس، وبخاصة العربية الجاهلية منها.

أضف إلى ذلك أن الحديث جَدُّ مُشْكِلٍ، وليس له في الصحاح أصل ولا فرع، ولم
يَرَوْهُ ثقةٌ بسند متصل؛ وإنما أُولِعَ به المفسرون والمؤرخون، المتيمون بكل غريب، المفتنون
بكل سقيم وصحيح دون تمييز كما أوضحناه. إن هذا الدين قد ابتلى بأهل الأهواء،
والملاحدة، والزنادقة الذين حاولوا أن يصلوا إلى تحريف القرآن وهيئات. ذكر القاضي
عياض قول أبى بكر البزار أن هذا الحديث لم يُرَوْهُ عن النبي ﷺ بإسناد متصل؛ وإنما عُرِفَ

(١) ابن هشام سيرة ج ١ ص ٢٤٠.

(٢) الشفا ج ٢ ص ٢٩٣-٢٩٤

عن الكلبي؛ والكلبيُّ من لا تجوز الرواية عنهم. وقد أجمعت الأمة على عصمته ﷺ^(١).

وسئل محمد بن إسحاق عن هذه القصة فقال هي من وضع الزنادقة؛ وقد صنف فيها كتاباً. وقال الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي إن هذه القصة غير ثابتة من جهة النقل، وطعن في روايتها.

وللإمام الرازي نظرات متعمقة ومستوعبة لشعاب هذه المسألة ذكرها في تفسيره "مفاتيح الغيب" في سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ الآيات (الحج: ٥٢ : ٥٤).^(٢)

وروى البخاري في صحيحه أن النبي ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون والإنس والجن، ولم يذكر فيها حكاية الغرائق. وروى هذا الحديث من عدة طرق وليس فيه ذكر الغرائق.

وإن كنا نتردد في قبول إمكان سجود المشركين مع رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى يقول: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٥١﴾ ﴿الانشقاق: ٢٠-٢١﴾. ويضيف القاضي عياض أن هذه القصة تستحيل نظراً وعرفاً؛ لأن الكلام لو صحت روايته لكان بعيد الالتئام متناقضاً يمتزج فيه المدح بالذم، ضعيف النظم، مخلخل التركيب، ولما كان النبي ﷺ ولا من بحضرته من المسلمين، وصناديد (شجعان) المشركين من يخفى عليه ذلك؛ وهذا لا يخفى على أدنى متأمل، فكيف بمن رجح حكمه واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه!!

ويضيف القاضي عياض دليلاً عقلياً وتاريخياً على ضعف القصة ووضعها السقيم أنه من عادة المنافقين ومعاندى المشركين، وضعفة القلوب، والجهلة من المسلمين نفورهم لأول وهلة، وتخليط العدو على النبي ﷺ لأقل حادثة، وتعييرهم للمسلمين والشimate بهم، الفينة بعد الفينة؛ وارتد من في قلبه مرض ممن أظهر الإسلام لأدنى شبهة؛ ولم يُحْك أن أحداً ارتد بعدُ تحت تأثير هذه الحكاية الضعيفة؛ ولو صح وقوع هذه الحكاية لوجدت

(١) انظر: القاضي عياض الشفا ج٢، ص ٢٩١-٢٩٢. وعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي. تفسير الثعالبي الموسوم

بالجواهر في تفسير القرآن. بيروت. مؤسسة الأعلمی للطبوعات. بدون تاريخ. ج ٣ ص ٨٤، ٨٥.

(٢) انظر الفخر الرازي. مفاتيح الغيب ج٧، ص ٢٩٨ وما بعدها. دار الغد/ القاهرة ١٩٩٩م

قريش بها على المسلمين الصولة (القهر)، ولأقامت بها اليهود عليهم الحجة، كما فعلوا مكابرةً في قصة الإسراء؛ حتى أن بعض ضعاف المسلمين ارتدوا.

وما جاءت به رواية الغرائق الضعيفة يُعدّ أشدّ وقعاً وأثخن إيلا ما لنفوس المؤمنين، فضلاً على نفوس الضعاف المتشككين من حادثة الإسراء، ومع ذلك فإنه لم يرد في هذه الرواية ما ورد في رواية الإسراء أن أحداً ارتد.^(١)

وقال ابن العربي (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ) "إنه لو جاز للشيطان أن يتمثل لرسول الله ﷺ، صورة أو صوتاً، ما أمناه على آية، ولا عرفنا منه باطلاً من حق. وإن الله قد عصم نبيه من الكفر والشرك فكيف يجريه الشيطان على لسانه"^(٢). ونقول بالإضافة إلى هذا الكلام، كيف يجهل النبي ﷺ صوت جبريل، أو يشبهه عليه صوته بغيره، وبخاصة في شهر رمضان حيث كان جبريل يعارضه بالقرآن مرتين؛ وقد سمعه النبي ﷺ مراراً وتكراراً. ثم كيف يتصور عاقل أن النبي ﷺ يؤثر وصلّ قومه على وصلّ ربه. ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن النص الموضوع نفسه يحمل الدليل على بطلانه إذ أنه روى بعدة أشكال مختلفة؛ وهي على النحو التالي:

- ١- "تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى".
- ٢- "تلك الغرائق العلى، وإن شفاعتها لترتجى ويروى لترتضى"^(٣).
- ٣- "الغرائق العلى إن شفاعتهن ترتجى".
- ٤- "إن شفاعتهن ترتجى" (بدون لفظة الغرائق).
- ٥- "إنها هي الغرائق العلى".
- ٦- "وإنهن هن الغرائق العلى وإن شفاعتهن هي التي ترتجى".

(١) الشفا ج ٢ ص ٢٩٤-٢٩٥

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي. أحكام القرآن. تحقيق محمد علي البحوى. بيروت. دار المعرفة، ودار الجليل ١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م ج ٢ ص ١٢٩٩ وما بعدها.

(٣) الشفا ج ٢ ص ٢٨٨ - ٢٩٨.

وهناك أشكال أخرى لهذه الكلمات المزعومة تغني عنها هذه الستة؛ وهذا الاختلاف في رسم هذه العبارات المعدودة والمحدودة، لأَكْبَرُ دليل على وضع هذه الحكاية. وأخيراً نسأل أين هو حتى اسم "الغرائيق"، فيما يعرف من "أدب الفترة"، أو "الأدب الجاهلي"، شعره ونثره؛ إن الكلمة لا وجود لها في شعر العرب. ولا يعرف ألبتة أن العرب سمّت آلهتها بهذا الاسم الغريب، كما لاحظ بحق الشيخ محمد عبده؛ ولم يُعرف أن العرب سمّت الملائكة بالغرائيق كما زعم ابن الكلبي في روايته الضعيفة المردودة، ولا يمكن أن يخاطب القرآن العرب بكلام غريب عليهم، وبخاصة ما يتصل بأكبر قضاياهم، وهي قضية الوثنية. يتبين من كل هذا أن حكاية الغرائيق مدسوسة على التفسير وعلى المحدثين، وهي من وضع زنديق مُدلس عدو للدين والأنبياء. يقول القاضي عياض: "ولا شك في إدخال بعض شياطين الإنس أو الجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين ليلبس به على ضعفاء المسلمين"^(١)؛ وللأسف فقد تلقفها بعض المفسرين وبعض المحدثين وبعض من ينتسبون إلى العلم وجعل يتحايل على تأويلها وإثباتها والتوفيق بينها وبين الآيات، والأحاديث الواردة حول عصمة النبي ﷺ فأساء بذلك إلى الدين وفتح باباً للملحدين أن يشككوا في صحة القرآن وسلامة الإسلام. ومن هؤلاء ابن حجر العسقلاني حيث إنه قد دافع عنها وفند آراء القائلين ببطلانها وضعف آراءهم، وعضد الروايات الواردة بها^(٢).

(١) الشفا ج ٢ ص ٢٩٥.

(٢) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٨، ص ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، دار المعرفة - بيروت ١٩٦٠ م.

الباب الثالث

تاريخ القرآن بعد سنة ٦٣٢م

تمهيد

الفصل الأول ... جمع القرآن

الفصل الثاني ... القراءات المتنوعة ومصاحف الصحابة

الفصل الثالث ... كتابة "المصحف الإمام" واعتماد القراءات

مَهَيِّدٌ

مَرَّبْنَا أَنْ الْقُرْآنَ كَانَ مَحْفُوظًا فِي الصَّدُورِ وَالسُّطُورِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ النَّبِيُّ يَأْمُرُ بِحِفْظِهِ وَتِلَاوَتِهِ وَيُبَشِّرُ بِالْأَجْرِ الْجَزِيلِ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ اتَّخَذَ ﷺ كُلَّ الْوَسَائِلِ الْمُمْكِنَةِ لِمُضَبَّطِ الْقُرْآنِ وَحِفْظِهِ، فَاتَّخَذَ عِدَدًا كَبِيرًا مِنْ كُتَّابِ الْوَحْيِ، وَهَيَّى الْمُسْلِمِينَ عَنْ أَنْ يَكْتُبُوا شَيْئًا غَيْرَ الْقُرْآنِ، حَتَّى لَا يَخْتَلِطَ الْقُرْآنُ بِغَيْرِهِ، أَوْ يَصْبِيهِ تَحْرِيفَ مَا، عَلَى أَى نَحْوٍ مِنَ الْأَنْحَاءِ. وَالْأَدْلَةُ عَلَى كِتَابَةِ الْقُرْآنِ، وَالْعَنَايَةِ بِهِ، كَثِيرَةٌ فِي الْقُرْآنِ، وَفِي حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَفِي شَوَاهِدِ تَارِيخِ الدَّعْوَةِ.

مَهَّدَ الْمُسْتَشْرِقُ بِكَلِمَةٍ قَبْلَ الدُّخُولِ فِي تَفَاصِيلِ الْمَوْضُوعِ فَقَالَ: "إِنْ تَارِيخُ جَمْعِ الْقُرْآنِ بَعْدَ وَفَاةِ مُحَمَّدٍ، لَا يَزَالُ غَيْرَ وَاضِحٍ (طَبْعًا بِالنِّسْبَةِ لَهُ). وَإِنْ إِعْدَادُ النُّسَخَةِ الرَّسْمِيَّةِ أَوْ الْقَانُونِيَّةِ لِلْقُرْآنِ، قَدْ مَرَّ بِثَلَاثِ مَرَاحِلٍ غَيْرِ تَطَوُّرِهَا، يَصْعَبُ وَضْعُ تَارِيخٍ مُحَدَّدٍ لِكُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنْهَا. وَإِنْ الْإِعْتِقَادُ السَّائِدُ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَانَ مَحْفُوظًا، بِطَرِيقَةِ شَفَهِيَّةٍ، ثُمَّ كُتِبَ أَثْنَاءَ حَيَاةِ النَّبِيِّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَوْ بَعْدَ مَوْتِهِ بِقَلِيلٍ، عِنْدَمَا جُمِعَ وَرُتِّبَ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ بِوَسَاطَةِ الصَّحَابَةِ، ثُمَّ ظَهَرَتِ النُّسَخَةُ الْإِمَامُ أَوْ الْمُصْحَفُ الْإِمَامُ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ عُثْمَانَ بْنِ عَفَانَ ﷺ".

يَقُولُ وَيَلْش: "إِنْ مَعْظَمُ الْمُسْتَشْرِقِينَ يَقْبَلُونَ النُّقَاطَ الْأَسَاسِيَّةَ لِمَا يَقُولُهُ الْمُسْلِمُونَ حَوْلَ جَمْعِ الْقُرْآنِ؛ وَلَكِنْ يَوْجَدُ الْآنَ مُشْكَلَاتٌ أُخْرَى تَعْتَرِضُ وَجْهَةَ النَّظَرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، هَذَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى الصَّعُوبَاتِ الْمُعْتَادَةِ فِي تَقْيِيمِ الْمَوَاصِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَالتَّى نَظَمَهَا عِلْمُ مُصْطَلَحِ الْحَدِيثِ. وَمِنْ جَانِبِنَا فَإِنَّمَا نَلَاظُ أَنَّ مَهْمَةً إِعَادَةِ كِتَابَةِ تَارِيخِ الْقُرْآنِ لَيْسَتْ سَهْلَةً؛ بَلْ هِيَ أَكْثَرُ تَعْقِيدًا فِي الْحَقِيقَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَوَاصِرَ الْقَدِيمَةَ تَحْتَوِي عَلَى آلَافٍ مِنَ الْأَشْكَالِ النَّصِّيَّةِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَالتَّى لَا تَوْجَدُ فِي أَى مَخْطُوطٍ يَعْرِفُهُ الْمُسْتَشْرِقُونَ".

ثم يقول: "إن المسلمين المتأخرين، باستثناء القليل منهم، قد أظهرُوا اهتماماً
يسيراً بمشكلة إعادة كتابة تاريخ المصحف". واعتبر الكاتب أن أهم المصادر الغربية في
دراسة هذا الموضوع هو كتاب نولدك (Geschichte des Qorans). وبخاصة
الجزء الثاني منه (١٩١٩)، والذي حققه ونقحه إف. اسكواللي، والجزء الثالث
(١٩٣٨)، والذي حققه ونقحه ج. برجستراسر وبرترل (Die Geschichte des
Korantexts)^(١)

(١) انظر : دائرة المعارف ص ٤٠٤ عمود ب.

الفصل الأول

جمع القرآن

القرآن كتاب الله أنزله من عالم الغيب إلى عالم القلب، قلب جبريل عليه السلام فحفظه، ثم قلب رسول الله ﷺ فوعاه وتثبت به، ثم قلب المؤمنين بعد أن طهرها الرحمن بالإيمان وهياها لحفظه؛ وإلى جانب القلوب الواعية حفظ الله تبارك وتعالى القرآن كتابةً في عهد النبي ﷺ، فكان يكتب بأمره ﷺ بأيدي الكتبة المؤمنين الذين اختارهم الله تعالى لكتابة وحيه على ما تَسْنَى من موادٍ آنذاك، وحَفِظَها لتكون ظهيراً للقلوب والعقول التي كتب الله على صفحتها آياتِ الذكر الحكيم، فصارت العناية بالنص القرآني مضاعفة، فقد سد بذلك جميع المنافذ في وجوه المحرفين المنحرفين عن منهج الله تعالى، المعادين لكلامه ورسله من أن تصل إليه أيديهم، أو تناله ألسنتهم بالتغيير أو التبديل أو بالإضافة والحذف، فالقرآن معصوم من ذلك إلى يوم القيامة.

ومن إعجاز القرآن كذلك عصمته من التحريف، وجمعه بهذه الطرق المختلفة حتى صار كتاباً بين دفتين، وانتشرت منه الآلاف بل الملايين من النسخ بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، يُقرأ من الألواح ومن الأرواح في لغته الأصلية - اللغة العربية - هذا على الرغم من أنه انتشر في بلاد كثيرة لا تتكلم العربية، فقد تحولت هذه الملايين - التي تفوق الحصر - إلى اللغة العربية تتعلمها من أجل القرآن، وحباً فيه؛ بل لقد حفظت القرآن فكان هو مُعِينُها على تعلمها؛ ولقد حافظ المسلمون على كتاب ربهم حرصاً منهم أن يصيبهم ما أصاب الكتب الإلهية السابقة من تحريف أو تصحيف، واستوى في الحفاظ على القرآن المسلم المعتاد والخليفة الأمر الناهي والرجل والمرأة، بل والطفل الغريب.

وسوف نتناول في هذا الفصل عملية جمع القرآن من المواد المفرقة حتى صار كتاباً

بين دفتين، مُفْتَدِين في ذلك مزاعم المستشرقين ودعاوى العلمانيين من خصوم القرآن

إن أشهر الروايات أو "الحكايات"، كما يسميها المستشرق ويلش، التي تتحدث عن جمع القرآن في كتاب رسمي، هي رواية البخاري التي تقرر أن أول جمع للقرآن كان في عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق (٦٣٢ - ٦٣٤)، يعني أنها كُتبت بعد سنتين من وفاة النبي ﷺ، وقبل أن نعرض وجهة نظر الكاتب في هذه المسألة ونناقشه فيها، من الضروري أن نورد أهم الروايات الخاصة بطريقة جمع القرآن^(١).

من هذه الروايات الواردة في طريقة جمع القرآن، كما في "كتاب المصاحف" لابن أبي داود، وغيره هي تلك التي رواها عبد الله قال حدثنا عمرو بن علي بن بحر قال حدثنا أبو داود قال حدثنا إبراهيم بن سعد حدثنا الزهري قال أخبرني عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت حدثه، قال: أرسل إليَّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة، وكان عنده عمر، فقال: إن هذا أثنى فقال إن القتل قد استحر بالقراء، وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في سائر المواطن، فيذهب القرآن، وقد رأيت أن تجمعوه، فقلت لعمر كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال عمر هو والله خير؛ فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله صدرى للذي شرح الله له صدره، ورأيت فيه الذي رأى؛ فقال أبو بكر إنك شاب (أو رجل) عاقل، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، لا تتهمك، فاكته. قال فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل عليَّ منه، فقلت لهما كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر وعمر هو والله خير؛ فلم يزل أبو بكر، وعمر يراجعاني في ذلك، حتى شرح الله صدرى للذي شرح له صدرهما، ورأيت فيه الذي رأيت؛ فاتبعت القرآن أنسخه من الصحف والعسب والخاف وصدور الرجال، حتى فقدت آية كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأها: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ (التوبة: ١٢٨) فالتمسْتُها فوجدْتُها مع خزيمه بن ثابت فأثبتُها في سورتها. (قال أبو داود: اللخف - الحجارة الرقاق)^(٢).

حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال أخبرني بن السباق ثم أن زيد بن

(١) البخاري - فضائل القرآن، باب ٣، ابن حجر - فتح الباري ٩ / ٩.

(٢) ص ٦، ٧. وانظر أيضاً السيوطي "الإتقان" ١٦٥/١ - ١٦٦.

ثابت الأنصاري رضي الله عنه وكان ممن يكتب الوحي قال أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال إن القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس وإني أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه وإني لأرى أن تجمع القرآن قال أبو بكر قلت لعمر كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال عمر هو والله خير فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري ورأيت الذي رأى عمر قال زيد بن ثابت وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال أبو بكر إنك رجل شاب عاقل ولا نتهمك كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه فوالله لو كلفني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن قلت كيف تفعلان شيئا لم يفعله رسول الله ﷺ فقال أبو بكر هو والله خير فلم أزل أراجع حتى شرح الله صدري للذي شرح الله له صدر أبي بكر وعمر فقمت فتتبع القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعصب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ (١)، وكانت الصحف التي جمع فيها القرآن ثم أبي بكر حتى توفاه الله ثم عمر حتى توفاه الله ثم حفصة بنت عمر.

حدثنا عبد الله قال حدثنا علي بن حرب قال حدثنا جعفر بن عون عن إبراهيم ابن إسماعيل الأنصاري عن الزهري عن عبيد بن السباق عن زيد بن ثابت قال دعاني أبو بكر فقال إنك رجل شاب كنت تكتب الوحي بين يدي رسول الله ﷺ اجمع القرآن فاكتبه فوالله لو كلفوني نقل الجبال كان أيسر علي من الذي كلفني فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال ومن العصب ومن الرقاع ومن الأضلاع ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ لم أجدها عند أحد فوجدتها عند رجل من الأنصار

(الأحزاب: ٢٣) ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ ۞ فألحقها في سورتها من المصحف، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى مات، ثم عند عمر حتى مات ثم عند حفصة.

حدثنا عبد الله قال حدثنا محمد بن يحيى قال حدثنا عثمان بن عمر قال حدثنا يونس عن الزهري قال أخبرني ابن السباق عن زيد بن ثابت قال وحدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبي عن ابن شهاب عن عبيد بن السباق أن زيد بن ثابت حدثه [وهذا حديث عثمان] قال أرسل إلى أبو بكر مقتل أهل اليمامة فأتيته وعنده عمر ؓ فقال أبو بكر إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر بأهل اليمامة من قراء القرآن وأنا أخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن لا يؤعَى (أي لا يُحفظ)، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن فقلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هُوَ والله خير؛ فلم يزل يراجعني في ذلك حتى شرح الله لذلك صدرى، ورأيت فيه الذى رأى عمر، قال زيد وعمر جالس عنده لا يتكلم فقال عمر: إنك شاب عاقل لا نهملك وكنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ؟ فنتبع هذا القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان بأثقل علىّ مما كان أمروني به من جمع القرآن قلت وكيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ ولم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدرى بالذى شرح له صدر أبي بكر وعمر فجمعت القرآن، أجمعه من الأكتاف والأفتاب والعشب وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت الأنصارى لما (لم) أجدها مع أحد غيره ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ۞، قال يعقوب في حديثه فكانت الصحف عند أبي بكر حياته حتى مات ثم عند عمر حياته حتى مات؛ ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنهما.

حدثنا عبد الله قال حدثنا عبد الله بن محمد بن النعمان قال حدثنا محمد قال حدثنا أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية أنهم جمعوا القرآن في مصحف في خلافة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويعلی عليهم أنبي بن كعب فلما انتهوا إلى هذه الآية من سورة براءة: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٢٥﴾،^(١) فظنوا أن هذا آخر ما أنزل من القرآن فقال أنبي: إن رسول الله ﷺ قد أقرأني بعدهن آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿٣﴾، قال فهذا آخر ما أنزل من القرآن، فختم الأمر بما فتح به، لقول الله جل ثناؤه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ (الأنبياء: ٢٥)

حدثنا عبد الله قال حدثنا أبو الطاهر قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني مالك عن ابن شهاب عن سالم وخارجة أن أبا بكر الصديق كان جمع القرآن في قرطيس وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك فأبى حتى استعان عليه بعمر ففعل وكانت تلك الكتب عند أبي بكر حتى توفي ثم عند عمر حتى توفي ثم كانت عند حفصة زوج النبي ﷺ فأرسل إليها عثمان فأبى أن تدفعها إليه حتى عاهدها ليردّها إليها فبعثت بها إليه فنسخها عثمان في هذه المصاحف ثم ردها إليها فلم تزل عندها، حتى أرسل مروان فأخذها فحرقها^(٢)؛ وذلك لأن المصاحف كانت قد نسخت وانتشرت.

يلحق ويلش على هذه الروايات بقوله إن المسلمين قبلوا هذه الروايات على أنها صحيحة تاريخياً، وأن ما فيها حق لا شك فيه، مع أن هناك مشكلات صعبة تحوط بها،

(١) التوبة: ١٢٧

(٢) الحافظ أبي بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت: ٣١٦هـ) كتاب المصاحف تحقيق الدكتور آرثر جفرى ط أولى ١٣٥٥هـ، ١٩٣٦م المطبعة الرحمانية ص ٥ - ٩، والزرکشی. البرهان في علوم القرآن ج ١/ ص ٢٣٢.

حيث توجد روايات أخرى في كتب الأحاديث المعتمدة تناقض موضوع هذا الحديث وهكذا فإن ويلش يرفض هذه الروايات ويعتبرها وضعية لأسباب قد توهمها كما سنبينه.

يعول الكاتب كثيراً على الاختلاف بين الروايات في حديث "جمع القرآن" ودون بذل أي محاولة أو جهد للجمع بينهما، أو حتى قراءتهما قراءة نقدية في ظل واقع القرآن وحياة النبي ﷺ، وحرص الصحابة الشديد على حفظ كتاب الله تعالى؛ أضف إلى ذلك أن الاختلاف بين هذه الروايات اختلاف ظاهري أو شكلي يمكن إزالته، على سبيل المثال فإن تفسير الرواية التي أخرجها ابن أبي داود من طريق الحسن أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله، فقيل كانت مع فلان، قتل يوم اليمامة، فقال: إنا لله، وأمر بجمع القرآن؛ فكان أول من جمعه. قال السيوطي إسناده منقطع، والمراد بقوله: أول من جمعه، أى أشار بجمعه^(١).

ومعنى منقطع الإسناد أى أنه موقوف على التابعي قولاً له أو فعلاً^(٢). وليس يظن ذلك أو غيره في شدة اهتمام المسلمين بجمع القرآن، أو في أن أبا بكر رضى الله عنه كان أول من جمعه في صحف. وكون عمر يسأل عن آية، معناه أنه كان يعرفها، وإلا كيف يسأل عنها بالتحديد، ويُجاب عليها بالتحديد كذلك؛ هذا ما يجب ملاحظته. ويمكن أن يقال أيضاً إن سؤال عمر جاء أثناء جمع زيد للقرآن، حيث كان هو أحد الثلاثة الموكلين بالمهمة موضع البحث، وإن سؤال عمر عن الآية كان من حيث كونها مكتوبة بحضرة النبي ﷺ لا غير، وهذا تفسره الرواية التي أخرجها ابن أبي داود من طريق يحيى بن عبد الرحمن بن حاطب. قال: قدم عمر، فقال: "من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأت به؛ وكانوا يكتبون ذلك في الصحف، والألواح، والعصب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد له شاهدان"^(٣).

(١) السيوطي . الإتيان ١ / ١٦٦ ، ١٧٠ .

(٢) السيوطي تدريب الراوى تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - القاهرة - ج ١ - ص ١٩٤ .

(٣) السيوطي - الإتيان ١ / ١٦٦ - ١٦٧ .

وهذا يدل على حيطة عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت الشديدين بالقرآن حيث كانا لا يكتفيان بمجرد وجود الآية مكتوبة، حتى يشهد عليها من تلقاها سماعاً من رسول الله ﷺ، ولا ينبغي أن ننسى أن زيدا كان يحفظ القرآن كله؛ ولهذا السبب تم اختياره للقيام بجمع القرآن.

قال السخاوى فى جمال القراء فى طبيعة هذا الإشهاد: "يشهدان أن ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو أنه من الوجوه التى نزل بها القرآن".

وقال أبو شامة (ت: ٦٩٥): "إن غرضهم أن لا يكتبوا إلا من عين ما كتب بين يدي النبي ﷺ لا من مجرد الحفظ". قال: "ولذلك قال زيد فى آخر سورة التوبة، لم أجدوها مع غيره، بمعنى أنه لم يجدها مكتوبة مع غيره، لأنه كان لا يكتفى بالحفظ دون الكتابة". وإلا لاستطاع زيد ﷺ وحده أن يمليه كله من حفظه؛ ومعنى هذا الكلام أن الشهادة كانت تُكَلَّف لإثبات أن هذه الآية أو تلك كانت مما كتب فى حضرة النبي ﷺ؛ وهذا يعنى من جانب آخر أن الصحابة كانوا يُجْمَعُونَ على أن القرآن قد كتب كله بين يديه ﷺ، وأنهم اجتهدوا غاية الاجتهاد فى ألا ينال القرآن تحريف؛ ويعتبر حديث جمع أبى بكر للقرآن لأول مرة هو الأصل فى الباب، الذى ينبغى أن ترد إليه جميع الأقوال، وتصحح عليه كل الروايات.

أخرج ابن أبى أشته فى "المصاحف" عن الليث بن سعد، قال: "أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل ... " الحديث.

وقد مرّ بنا قول الحارث المحاسبي أن النبي ﷺ كان يأمر بكتابة القرآن أولاً بأول وأنه كان يستوثق بنفسه من سلامة نقل كُتَّاب الوحي؛ وأن القرآن كان مكتوباً فى الرقاع والأكتاف والعصب؛ وأن أبا بكر هو الذى أمر بنسخه من هذه المواد المتفرقة إلى الصحف فصار مجموعاً.

وفى موطأ ابن وهب عن مالك، عن ابن شهاب، عن سالم بن عبد الله، عن عمر قال: جمع أبو بكر القرآن فى قراطيس وكان سأل زيد بن ثابت فى ذلك فأبى حتى استعان بعمر ففعل^(١).

(١) السيوطى. الإتقان . ص ١٦٨، والزرکشي . البرهان ١/ ٢٣٣ - ٢٤٠.

وفي مغازى موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: "لما أصيب المسلمون باليمامة فزع أبو بكر، وخاف أن يذهب من القرآن طائفة، فأقبل الناس بما كان معهم وعندهم حتى جمع على عهد أبي بكر في الورق، فكان أبو بكر أول من جمع القرآن في الصحف.

ويقرر ابن حجر أن جمع أبي بكر للقرآن مؤيدٌ بالأخبار الصحيحة المترادفة^(١).

وأما ما أورده ابن أبي أشته في كتاب "المصاحف" وهو غريب جداً؛ (أن أول من جمع القرآن في مصحف، هو سالم مولى أبي حذيفة، أقسم ألا يرتدى برداء حتى يجمعه فجمعه...) الحديث، قال السيوطي إسناده منقطع أيضاً، ومحمول على أنه كان أحد الجامعين بأمر أبي بكر، وربما كان سالم موكلاً بجمع المواد التي كتب عليها القرآن على سبيل المثال، فدخل في روع بعض الناس وهم في طبيعة دوره^(٢)؛ فقالوا إنه أول من جمع القرآن؛ ونقل ابن أبي أشته هذا القول دون تمحيص؛ ومن الجدير بالإشارة إليه أن ابن أبي أشته نقل إلينا رواية أخرى أوثق من تلك الرواية الغريبة، وهي ألصق بالحقيقة الثابتة حول جمع القرآن. هذه الرواية الأخيرة نقلها ابن أبي أشته عن فقيه مصر، الليث بن سعد، تقول الرواية إن أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت، فكان لا يكتب آية إلا بشاهدي عدل^(٣). ويشبه تلك الرواية ما ورد من أن علياً كان أول من جمع القرآن؛ ومعناها كسابقتها أن علياً جمع القرآن كله يعني أنه حفظه بأكمله.

ومما نلفت النظر إليه أن ابن النديم قد أورد في "الفهرست" هذا العنوان: (الجماع للقرآن على عهد النبي ﷺ) - بمعنى حفظه، وعدّ ابن النديم من هؤلاء الحفاظ علي بن أبي طالب، وسعد بن عبيد بن النعمان بن عمرو بن زيد، وأبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب.

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الإنفاق ج ١، ص ١٦٦-١٦٧.

وقد يكون جَمْعُ عَلِيٍّ للقرآن، بمعنى كتابته في صحف من حفظه، كأن يكون كتب نسخة بنفسه خاصة به؛ فقد أورد ابن النديم أيضاً عن علي: "أنه رأى من الناس طيرة^(١) عند وفاة النبي ﷺ فأقسم أنه لا يضع عن ظهره رداءه حتى يجمع القرآن، فجلس في بيته ثلاثة أيام، حتى جمع القرآن؛ فهو أول مصحف جمع فيه القرآن من قلبه، وكان المصحف عند أهل جعفر؛ ورأيت أنا في زماننا عن أبي يعلى حمزة الحسني - رحمه الله - مصحفاً قد سقط منه أوراق بخط علي بن أبي طالب يتوارثه بنو حسن علي مر الزمان،"^(٢).

إذا اعتمدنا هذه الرواية يكون الإمام عليّ إذن، هو أول من جمع القرآن، بمعنى أنه كتبه لنفسه من حفظه، ويكون جَمْعُهُ للقرآن في صحف، هو أول جمع بالنسبة لعليّ لا غير، وعلى أي حال، فإن هذا الخبر لا يعني إطلاقاً أن القرآن لم يجمع في حياة النبي ﷺ. فقد مر بنا أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أن القرآن المكتوب على الرقاع، واللخاف، والعظام، كان في الرداء في الحجرة التي كان النبي ﷺ ينام فيها.

ونقل ابن النديم أيضاً عن محمد بن إسحاق، أن محمد بن الحسين كان رجلاً جماعاً للكتب؛ وقد وجد في خزانته مصحفاً بخط خالد بن أبي الهياج صاحب علي رضي الله، ثم وصل هذا المصحف إلى أبي عبد الله بن حان؛ وبقي هذا المصحف محفوظاً على الرغم من ضياع الكتب والوثائق المهمة والنادرة التي كانت في خزانة محمد بن الحسين^(٣).

وقد أشرنا من قبل إلى أن لفظة "القرآن" تستعمل في معنى "حفظ" وهي من قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ ﴿القيامة: ١٧-١٨﴾.

(١) الطيرة والطيورة أي الخفة والطييش قال الكميت:

وحلمك عز إذا ما حلمت وطيرتك الصاب والحنظل

(ابن منظور - لسان العرب - بيروت - دار صادر - ١٤١٠ - ١٩٩٠) ج ٤ ص ٥١٠ - ٥١١ .

(٢) ابن النديم - الفهرست . ص ٤١ - ٤٢ .

(٣) الفهرست ، ص ٦٠ - ٦١ .

وبهذا المعنى وردت كلمة "جمع" في كلام عبد الله بن مسعود، قال: "من جمع القرآن فقد حمل أمراً عظيماً، وقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه" فجمع هنا بمعنى حفظ؛ ومنه قول السيوطي: "ظفرت بامرأة من الصحابيات جمعت القرآن" وهى، على ما أورد ابن سعد في الطبقات، "ورقة بنت عبد الله بن الحارث"، وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسمىها الشهيذة، وقد حفظت القرآن كله، وأمرها النبي ﷺ أن تقوم أهل بيتها في الصلاة^(١). وأما بخصوص ما قيل من أن عثمان هو الذى جمع القرآن؛ فصحيح لكن بشرطه، فعثمان ﷺ جمع القرآن لكن بمعنى مختلف عن جمع أبى بكر له. لقد كان جمعه بغرض تجميع المسلمين على قراءة واحدة، وكان جمع القرآن على عهد عثمان هو الجمع الثالث، وليس الجمع الأول.

روى البخارى عن أنس أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان، وكان يغازى أهل الشام فى أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق فأفزع حذيفة اختلافهم فى القراءة، فقال لعثمان أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى اختلاف اليهود والنصارى؛ فأرسل عثمان إلى حفصة رضى الله عنها أن أرسلى إلينا الصحف ننسخها فى المصاحف، ثم نردها إليك... الحديث؛ وشكّل عثمان جماعة تقوم بذلك، ووضع لها منهج العمل^(٢).

وهذا هو جمع عثمان بن عفان ﷺ وما تميز به، إنه جمع قراءة، كما ذكرنا، لا جمع صحف فقط؛ فقد كان القرآن مجموعاً محفوظاً عند حفصة بنت الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، فى صحف كانت تسمى الربعة^(٣)؛ وفى حديث البخارى المذكور، ما يفيد شيوع القرآن بين الناس، وحفظ الأطفال له، وعناية الأمة كلها به، وينبغى ألا يفوتنا ملاحظة انزعاج الخليفة عثمان ﷺ ومبعوثه حذيفة بن اليمان، لتنازع الناس فى طريقة كتابة القرآن وطريقة قراءتهم له؛ وفى هذه القرينة نذكر أنه كم هو عجيب أن

(١) انظر الإتيان ٢٠٣/١ - ٢٠٤.

(٢) البخارى "فضائل القرآن"، والسيوطى "الإتيان" ١٦٩/١، والزركشى. البرهان ٢٣٦/١.

(٣) المصدر نفسه ١٧٠.

يَحْفَظُ الْأَطْفَالَ، وَالصِّغَارَ وَالنِّسَاءَ، وَالرِّجَالَ، دَسْتُورَ الْأُمَّةِ الَّذِي يَنْظُمُ حَيَاتَهَا، وَيَعُدُّهَا لِآخِرَتِهَا، عَلَى هَذَا النِّحْوِ. إِنَّ الدَّسْتُورَ الْإِسْلَامِيَّ لَيْسَ مِنْ احْتِرَافِ الْكِبَارِ وَلَا مِنْ عَمَلِ الْمُتَخَصِّصِينَ فَحَسَبَ شَأْنِهِ شَأْنُ سَائِرِ الدَّسَاتِيرِ الْأُخْرَى، بَلْ هُوَ دَسْتُورٌ مُتَّفَرِّدٌ وَمُتَغَلِّغٌ.

وَوَاضِحٌ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَغَيْرِهَا مِنَ الرِّوَايَاتِ الْأُخْرَى أَنَّ ظُهُورَ اللَّهْجَاتِ وَالْحُرُوفِ فِي قِرَاءَةِ النَّاسِ لِلْقُرْآنِ كَانَتْ قَدْ اتَّسَعَتْ بِاتِّسَاعِ أَعْدَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَبِاتِّسَاعِ الْبُلْدَانِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي عَصْرِ الْخُلَيْفَةِ عَثْمَانَ أَكْثَرَ مِنْ اتِّسَاعِهَا فِي عَهْدِ غَيْرِهِ مِنَ الْخُلَفَاءِ؛ فَقَدْ أَخْرَجَ ابْنُ أَبِي أَشْتَةَ، مِنْ طَرِيقِ أَيُّوبَ عَنْ أَبِي قَلَابَةَ قَالَ: حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَامِرٍ يَقَالُ لَهُ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ: "اِخْتَلَفُوا فِي الْقِرَاءَةِ عَلَى عَهْدِ عَثْمَانَ حَتَّى اقْتَتَلَ الْعُلَمَاءُ وَالْمُعَلِّمُونَ فَبَلَغَ ذَلِكَ عَثْمَانَ بْنَ عَفَانَ رضي الله عنه فَقَالَ: عِنْدِي تَكْذِبُونَ بِهِ وَتَلْحَنُونَ فِيهِ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي كَانَ أَشَدَّ تَكْذِيبًا وَأَكْثَرَ لَحْنًا، يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ اجْتَمِعُوا فَارْتَبِعُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا فَاجْتَمَعُوا فَكَتَبُوا. فَكَانُوا إِذَا اخْتَلَفُوا وَتَدَارَعُوا فِي آيَةٍ قَالُوا هَذِهِ أَقْرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَانًا، فَيُرْسَلُ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى رَأْسِ ثَلَاثٍ مِنَ الْمَدِينَةِ وَيَقَالُ لَهُ كَيْفَ أَقْرَأَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آيَةً كَذَا فَيَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَيَكْتُبُونَهَا، وَقَدْ تَرَكُوا لِلذَّكَاءِ مَكَانًا".

وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ أَبِي دَاوُدَ: "أَنَّ عَدَدَ الَّذِي جَمَعَهُمْ عَثْمَانُ لِكِتَابَةِ الْمُصْحَفِ الْإِمَامَ، كَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ، وَأَنَّ عَثْمَانَ كَانَ يَتَعَاهَدُهُمْ (أَيَّ يَتَابِعُهُمْ فِي عَمَلِهِمْ) وَأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْتُبُونَ حَسَبَ الْعَرِضَةِ الْآخِرَةِ"، أَيْ آخِرَ مَرَّةٍ رَاجَعَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ عَلَى جِبْرِيلَ عليه السلام ^(١).

وَقَالَ ابْنُ التِّينِ وَغَيْرُهُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ جَمْعِ عَثْمَانَ، وَجَمْعٍ مِنْ قَبْلِهِ: "الْفَرْقُ بَيْنَ جَمْعِ أَبِي بَكْرٍ وَجَمْعِ عَثْمَانَ، أَنَّ جَمْعَ أَبِي بَكْرٍ كَانَ لِحْشِيَّةً أَنْ يَذْهَبَ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْءٌ بِذَهَابِ جَمَلَتِهِ، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَجْمُوعًا، فَجَمَعَهُ فِي صَحَائِفٍ مُرْتَبَأً لآيَاتِ سُورِهِ عَلَى مَا وَقَفَهُمْ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَجَمْعُ عَثْمَانَ كَانَ لَمَّا كَثُرَ الْاِخْتِلَافُ فِي وَجْهِ الْقِرَاءَةِ حَتَّى قَرَعُوا بِلُغَاتِهِمْ، لِاتِّسَاعِ اللُّغَاتِ (اللَّهْجَاتِ) فَأَدَّى ذَلِكَ بَعْضُهُمْ إِلَى تَخْطِئَةِ بَعْضٍ، فَخَشِيَ

(١) ابْنُ أَبِي دَاوُدَ كِتَابُ الْمَصَاحِفِ ص ٩ وَالسُّيُوطِيُّ الْاِتِّفَاقَ ١ / ١٧٠.

(أى عثمان) من تفاقم الأمر في ذلك، فنسخ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره، واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش محتجاً بأنه نزل بلغتهم. وإن كان قد وسع في قراءته بلغة غيره رفعاً للحرص والمشقة في ابتداء الأمر. فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقصر على قراءة واحدة هي قراءة العرصة الأخيرة للقرآن؛ ثم إن القراءات الأخرى لم تكن واجبة ولا ملزمة وإنما نزلت للتيسير^(١). كان جمع عثمان إذاً بغرض جمع الناس على قراءة واحدة حسناً لمادة الخلاف بينهم. وفي النص الذي سقناه أن الناس كانوا قد اختلفوا في القراءة لا في القرآن، لأنهم كانوا يقرءون بالحروف المتعددة، وهي مما نزل به جبريل أيضاً لتيسير حفظ القرآن في أول الأمر، وكان قصد عثمان هو جمع الناس على القراءة الثابتة عن رسول الله ﷺ في العرصة الأخيرة وجمعهم على مصحف واحد، لا تقدم فيه ولا تأخير، ولا منسوخ تلاوته مع مثبت، ولا تأويل ولا تفسير، وذلك لأن بعض من كانوا يكتبون القرآن كانوا يثبتون أيضاً تفسير الآية بهامش صحفهم أو مصاحفهم، وذلك خشية دخول الفساد والشبهة على من يأتي بعدهم.

ويزيدنا المحاسبي بياناً في هذا الموضوع فيقول إنه لما خشى عثمان الفتنة عند اختلاف أهل العراق والشام في حروف القراءات؛ حمل الناس على قراءة واحدة بمعرفة من شهد التنزيل من المهاجرين والأنصار؛ فأما قبل ذلك فقد كانت المصاحف (أى مصاحف بعض الصحابة التي كتبوها لأنفسهم) مكتوبة بوجوه من القراءات المعلقة على الحروف السبعة التي نزل بها القرآن. وقد قال علي: "لو وليت لعملت بالمصاحف عمل عثمان بها"^(٢) وهو القائل أيضاً: "أعظم الناس في المصاحف أجراً، أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، أول من جمع كتاب الله"^(٣). وأخرج ابن أبي داود بسند صحيح عن سويد بن غفلة قال: قال علي: "لا تقولوا في عثمان إلا خيراً. فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا، قال ما تقولون في هذه القراءة؟ فقد بلغني أن بعضهم

(١) ابن جرير الطبري - جامع البيان في تفسير القرآن (بيروت - دار المعرفة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م) ج ١ والسيوطي الإتيان ١/ ١٤٠، ١٤٢.

(٢) المصدر نفسه ١٧١ - ١٧٢.

(٣) البخاري. خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف ص ١٧٨. والزرقي. مناهل العرفان ١/ ٢٥٣.

يقول: إن قراءتي (وليس قرآني) خيرٌ من قراءتك، وهذا يكاد يكون كُفْراً (لأنه يؤدي إلى الكفر بشيء من القرآن نزل به جبريل) قلنا فما ترى؟ قال: أرى أن يجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فُرقة، ولا اختلاف، قلنا نَعَمْ ما رأيت". وقال على كرم الله وجهه: "لا تقولوا كان عثمان حَرَّاق المصاحف"^(١) "وأما ما وردت به الروايات من أسماء متعددة بالنسبة لعملية جمع القرآن، فإنه يدل على أن عناية المسلمين قد بلغت الغاية القصوى بهذا الكتاب العظيم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

ولا عبرة بعد ذلك بما روى بطريق الآحاد، إذا تَضَمَّن ما يخالف الإجماع على حفظ القرآن وضبطه نصاً، وقراءة. وأما ما دُسَّ على عثمان، وتلقفته الألسن والأقلام من أنه حرق المصاحف، أو أنه أمر بحرقها بعد أن وضع المصحف الإمام، وأنه أبطل القراءات الأخرى بعد أن ثَبَّت قراءة واحدة منها، فهو افتراء وضلالة إذ لم يكن عثمان خليفة إلا والجزيرة العربية كلها مملوءة بالمسلمين، والمصاحف منتشرة، والمساجد آهلة بالعباد والحفاظ والقراء، يُعَلِّمون الصبيان والنساء؛ يَصُدِّق هذا أيضاً على سائر حواضر الإسلام وقراه ومحاله.

يتضح لنا من هذا أن جمع عثمان، وجمع أبي بكر قبله، كان معروفاً لكل الصحابة وكان موضع التسليم منهم. ولو كان غير أبي بكر جَمَعَ القرآن، بالمعنى الذي سقناه، لظهر ذلك واشتهر بين الصحابة، وإذن فالتوفيق بين الروايات، وإزاحة ما يوهم الاختلاف بينها، هو السبيل الوحيد لإقرار المسألة؛ أما أن يتخذ البعض من الخلاف الظاهري والفوارق الشكلية بين الروايات طريقاً إلى الطعن فيها بالكلية، وبالتالي التشكيك في سلامة النص القرآني، فهو أمر مستبعد نقلاً وعقلاً.

إن دعوى الكاتب إذن، بأن بعض المصادر الإسلامية تؤكد عدم وجود نسخة مجموعة معتمدة للقرآن قبل عثمان، خطأ ناتج عن سوء قراءة وسوء فهم لهذه المصادر.

(١) السيوطي - الإتقان ١/ ١٧٠ - ١٧١.

أما المستشرقان كثنائي وإسكواللي فيشككان في صحة رواية واقعة اليمامة التي كانت سبباً في جمع القرآن قائلين بأن عدد الذين استشهدوا في هذه الموقعة من الحفاظ الذين ذكرتهم المصادر قليل، وهذا يعني أن خبر واقعة اليمامة لا يصلح أن يكون سبباً لانزعاج الخليفة عمر، ودعوته لجمع القرآن. ولذلك فإن إسكواللي يذكر أن الذين استشهدوا من الحفاظ من الصحابة في موقعة اليمامة كانوا اثنين فقط؛ هذا على الرغم من أن بعض المصادر تحدد عددهم بأربعمائة وخمسين من جملة من قُتلوا في هذه الموقعة، وعددهم نحو الألف^(١). وبينما تذكر بعض المصادر الأخرى أن عدد القراء الذين استشهدوا في هذه المعركة كانوا سبعين شهيداً^(٢).

ومهما يكن الأمر فإنه ليس من المعقول أن نشكك في صحة الرواية لمجرد الشك، أو لمجرد مقاضاة عصر وجيل باسم العقل، وباسم الشك العلمى، وليس من المعقول أيضاً أن تقوم قائمة الصحابة وفيهم رئيس الدولة الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه المعروف بحكمته وورزنته، ويشفقون هذا الإشفاق على القرآن، لمجرد قتل اثنين من الحفاظ، وأن يبلغ الحال بأبي بكر أن يقول (إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإن أخشى أن يستحر القتل في المواطن، فيذهب كثير من القرآن^(٣)). يقول الكاتب إن واقعة اليمامة لا يمكن وحدها أن تشكل قاعدة أو خطة جمع القرآن، ولكنها ربما تفيد في معرفة أن بعض أجزاء من القرآن مما كتب في حياة محمد صلى الله عليه وسلم وبقيت بعد وفاته صلى الله عليه وسلم قد جُمعت في هذا الوقت.

وهذا خطأً بالطبع وتجاوزاً لظاهر النص، فمجموع الروايات التي نقلناها، وبالذات رواية البخارى، تقرر وبوضوح تام، أن القرآن كان مكتوباً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على مواد متفرقة؛ وأن هذه المواد قد استخدمت في الجمع الأول للقرآن على

(١) الطبرى "تاريخ الطبرى"، حوادث سنئ ١١، ١٢ والزركشى، البرهان ٢٣٣/٢.

(٢) الزرقان. مناهل ١ / ٢٥٠.

(٣) البرهان ١ / ٢٣٢.

عهد أبي بكر الصديق عليه السلام. وقد نوهنا من قبل أن كلمة "جمع" تحمل في طياتها الدليل على أن القرآن كان مكتوباً بالفعل على مواد متفرقة. ونزيد هنا ما رواه الحاكم في المستدرک بسند على شرط الشيخين عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: "كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم نؤلف القرآن من الرقاع... الحديث ^(١). يعني نكتب ما نزل من الآيات المتفرقة ونضعها في سورها، ثم نجمعها معاً بإشارة النبي صلى الله عليه وسلم.

يلحق الكاتب على ما ورد في هذه الرواية الخاصة بتكليف زيد بن ثابت بمهمة جمع القرآن واختياره دون غيره مجرد أنه كان كاتب وحى النبي صلى الله عليه وسلم. فيقول إن هذا التوصيف لمؤهلات زيد، قد أدى دوراً له مغزاه في إخراج النص المعتمد أو الرسمى للقرآن. يحاول ويلش بهذا أن يقول إن الروايات الخاصة بمؤهلات زيد بن ثابت، إنما جاءت كمبرر لاختياره للقيام بمهمة جمع القرآن، وأنها قد وُضعت أو لُفقت بغرض الترويج للنص.

ويزعم ويلش كذلك أن هناك من الأسباب والمبررات ما يجعلنا نشك في صحة هذه الرواية من وجهة نظر تاريخية، ويرى ويلش أن الغرض من وضع هذه الحكاية، في الأغلب الأعم، كان هو التعظيم على دور محمد صلى الله عليه وسلم والتعمية عليه في إعداد نص مكتوب للقرآن، يعني بيده الشريفة وبخطه صلى الله عليه وسلم؛ وهو ما ناقشناه فيه من قبل، هذا أولاً.

وأما ثانياً: يقول الكاتب فإن التقليل من دور عثمان بن عفان رضي الله عنه في كتابة نص رسمى للقرآن، يعني أن عثمان كان هو أول من جمع القرآن، وهذا إصرار عجيب من ويلش وإهدار لقيمة الروايات الكثيرة التي تصادم رأيه في هذه المسألة.

وثالثاً: يرى الكاتب في هذه الرواية مجرد محاولة لإثبات أفضلية المصحف العثماني أو أولويته على المصاحف التي كتبت قبله، والمصاحف الأخرى التي كانت مصاحبة له. هذه اجتهادات ويلش، وليس يُلام أحدٌ على اجتهاده، وإنما يلام على إصراره بأن ما

لديه هو الصواب، وأن ما عند غيره، هو بالضرورة، الخطأ، ويُلام المرء كذلك على إهمال قيمة الأدلة العلمية، وإهدار مدلولاتها من أجل تأييد نتائج وضعت مسبقاً.

إننا لا نشك في صحة روايات جمع القرآن، لأن الأدلة على صحتها كثيرة ومتضافرة؛ ووجود القرآن بنصه المنزل حتى اليوم خير شاهد على جهود المسلمين وجهادهم في حفظ القرآن. "والحقُّ يَدْفَعُ تُرْهَاتِ الْبَاطِلِ"^(١).

ونعود مرةً أخرى إلى هذه النقطة لنلقى بعض الضوء على دور عثمان بن عفان في جمع القرآن. ذكرنا فيما سبق، أن القرآن كان مبعوثاً في الأمصار الإسلامية في الجزيرة العربية، ومصر، والبحرين، وعمان، واليمن، والعراق، وبلاد فارس، وغيرها.

وكانت المصاحف موجودة بكثرة في كل هذه البلاد؛ وكان القراء يملؤها بأعداد لا يحصىها إلا الله تعالى^(٢)؛ فلو قصد عثمان ما ادعوه، لما قدر عليه أصلاً؛ فقد كان في هذه البلدان عند موت الخليفة عمر رضي الله عنه، مائة ألف مصحف؛ وأما القول بأن عثمان جمع الناس على مصحف واحد، وأمر بحرق ما عداه من المصاحف، فباطل؛ إنما كتب عثمان المصحفَ الإمام، بإقرار من جميع الصحابة لسدِّ الباب على المحرِّفين والمبطلين من أن يشككوا في القرآن، وأيضاً ليكون هذا المصحف بمثابة الحكم عند الخلاف والقاضي عند التنازع. وكانت القراءات المتعددة دائرة وسائرة بين المسلمين، وهي موجودة إلى اليوم، مضبوطة ومجموعة، وهي جزء من التنزيل؛ بل إن القراءات الشاذة قد وَجَدَتْ من يَهْتَمُّ بها ويجمعها^(٣)، حتى ما ينسب إلى الرافضة من الزعم بتحريف عثمان ﷺ للقرآن قد لا يكون صحيحاً. وعلى الرغم من أن الروافض ليسوا من فِرَقِ المسلمين، فإن هذا القول المنسوب إليهم يحتاج إلى إعادة نظر؛ إذ يُصر بعض علماء الشيعة على تبرئتهم من اتهام عثمان بتحريفه للمصحف، ويعلن بعض أعلام

(١) شطرة من بيت ذكره ابن جني في الخصائص ١ / ٣٣٧ .

(٢) انظر : ابن حزم الفصل في الملل والنحل ٢ / ٧٩ .

(٣) الفصل ٢ / ٨٢ وما بعدها .

الشيعة اعتقادهم في سلامة القرآن من التحريف بالزيادة أو النقصان وبأنه لم يتغير البتة منذ نزل على محمد ﷺ^(١).

وإذا فخير حرق عثمان لبعض المصاحف يمكن فهمه على أنه كان يقصد به مصاحف خاصة لبعض الصحابة ممن رأوا الاستغناء عنها، فأمر عثمان عندئذ بحرقها إكراماً لكلام الله تعالى من أن تذروه الرياح، أو تدوسه الأقدام، أو يُمتهن على أى نحو من الأنحاء.

وهب أن عثمان قد استطاع أن يحرق المصاحف في موطن ما، فكيف بالمواطن الأخرى؟ وإذا كان عثمان قد استطاع حرق المصاحف، فهل كان يستطيع قتل الحفاظ الذين حفظوا المصحف حرفاً حرفاً، وتعلموا قراءته وإعرابه وبلاغته وأحكامه... الخ؟ ينبغي أن ننظر فيما ورد في الرواية التي استشهد بها الكاتب، من أن عبد الله بن مسعود قد اعترض على فعل عثمان، وأنه أمر المسلمين في الكوفة بإمسك مصاحفهم؛ وهذا صحيحٌ جاءت به بعض الروايات عن ابن مسعود، وقد كان هذا العمل اجتهداً منه لا طعناً في عمل عثمان، ولا بتهمة للقرآن؛ فقد ورد عنه أيضاً رجوعه عن ذلك، ودخوله في الإجماع بشأن توحيد القراءة، وجمعها في مصحف إمام^(٢).

ودعوى أن مصحف عبد الله بن مسعود كان يختلف عن مصحف عثمان، فباطلة، إنما يضم مصحف عبد الله بن مسعود قراءته بلا شك، وقراءته بلا شك هي قراءة عاصم المشهورة عند جميع أهل الإسلام شرقاً وغرباً يقرأ بها المسلمون وهي مما صح تنزيله^(٣). بل إننا لنقرأ في كتاب "المصاحف" لابن أبي داود (ت: ٣١٦هـ) في الجزء الأول منه، هذا العنوان "رضاء عبد الله بن مسعود لجمع عثمان ﷺ المصاحف".

(١) الطبرسي على الفضل بن الحسن مجمع البيان في تفسير القرآن تحقيق السيد هاشم الخلاتي والسيد فضل الله الطباطبائي ببيروت. دار المعرفة ١٤٠٦هـ — ١٩٨٦ م ج ١ ص ١١٠، وقارن بما أورده موسى جار الله في الوشيعة في نقد عقائد الشيعة. تحقيق جماعة من كبار العلماء - القاهرة - مكتبة الكليات الأزهرية - ١٩٨٤ ص ١١٦.

(٢) الإتيان ١/ ٢٠٤، وكتاب المصاحف لابن أبي داود ص ١٦، ١٧.

(٣) ابن حزم الفصل في الملل والنحل ٢ / ٧٩.

ونقل بإسناده عن فلفلة الجعفى قال: "فرعت فيمن فزع إلى عبد الله (هو ابن مسعود) في المصاحف فدخلنا عليه فقال رجل من القوم إننا لم نأتك زائرين، ولكننا جئنا حين راعنا هذا الخير. فقال "إن القرآن أنزل على نبيكم من سبعة أبواب، على سبعة أحرف (أو حروف)؛ وإن الكتاب قبلكم كان يَنزَل (أو أنزل) من باب واحد على حرف واحد معناها واحد"^(١).

ومعنى كلام ابن مسعود ﷺ أن القرآن تتعدد قراءاته كما تتعدد أبواب إعجازه ومفاهيمه؛ ولأن القرآن إنما جاء ليخاطب الناس جميعاً على اختلاف ألسنتهم ولهجاتهم فناسب أن تتعدد وجوه قراءته، وأما الكتب السابقة على القرآن فكانت لأقوام خاصة من ذوي اللسان الواحد لا تتعداهم أصلاً. وها هو عبد الله بن مسعود يقرر أيضاً أن ما كان معه لم يكن قرآناً آخر، ولا وحياً غير الوحي الذي أنزل على محمد ﷺ، وإنما كان مجرد قراءة للقرآن نفسه قد تختلف في بعض الحروف يقول: "لقد أخذت من في (فم) رسول الله ﷺ سبعين سورة، وإن زيدا بن ثابت لصبي من الصبيان ..."^(٢).

فقراءة زيد وقراءة عبد الله كلتاها مُنزَّلة؛ وفي كل رواية جاءت باحتجاج عبد الله بن مسعود عن عدم ضم عثمان له إلى لجنة جمع القرآن، ذكرت فيها عبارة "من في رسول الله"؛ ومعنى ذلك أن الاختلاف الواقع في القراءات كان لمزيد الحرص على القرآن وليس هو بالاختلاف حول القرآن. وكان عبد الله جد حريص، وحرى به أن يكون كذلك، على تجريد المصحف؛ ومن أقواله: "لا تخطئوا بكتاب الله ما ليس منه"، يقصد وضع أسماء السور وأرقامها، والإشارة إلى أجزاء القرآن في نص المصحف^(٣). وكان ﷺ يملئ المصحف كله من حفظه، شهد له بذلك الكبار^(٤).

(١) الحافظ أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني كتاب المصاحف . القاهرة - المطبعة الرحمانية ١٣٣٥هـ - ١٩٣٦م ص ١٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥.

(٣) كتاب المصاحف ١٣٨.

(٤) نفسه ١٣٦ - ٣٧.

قال العلماء إن القرآن نزل بلغة قريش، التي هي اللسان العربي المبين الذي أشار إليه القرآن. قال ابن عبد البر في التمهيد: "قول من قال - نزل بلغة قريش - معناه عندي الأغلب، لأن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات من تخفيف الهمزة ونحوها، وقريش لا تهمز"^(١) وقال الشيخ جمال الدين بن مالك: "أنزل الله القرآن بلغة الحجازيين إلا قليلاً".

وذكر ابن مالك من القرآن ما فيه بغير لهجة قريش. قال أبو شامة والباقلاني: "لأن اللهجة الحجازية كانت أفصح لهجات العرب وقريش أفصح العرب جميعاً وأدقها في اختيار لغتها وأصفى العرب طبيعة وسليقة"^(٢). وكون القرآن يحتوي على بعض ألفاظ غير قريش لا يعني أنه لم ينزل بلسان قريش. وهكذا يكون حكم المستشرقين على الرواية بالوضع اعتساف وإجحاف وإهدار للأدلة وقرائن الأحوال؛ ولنا وقفة أخرى مع الكاتب عند تعرضه للغة القرآن الكريم.

يستمر ويلش في عرض رأى سكوالي فيقول: "إن الأسماء المعروضة في الروايتين للقيام بمهمة جمع القرآن لا يمكن أن يكون أصحابها هم الذين رشحهم عثمان؛ ويتفق ويلش معنا في رفض دعوى أن عثمان قد أمر بحرق جميع النسخ الأخرى للقرآن؛ ويرى أنه من الصعب الاعتقاد بأن الاختلاف في قراءة القرآن في الصلاة، وتأثير ذلك على الغزاة كما في رواية حذيفة بن اليمان كان هو الدافع من وراء جمع عثمان للقرآن.

ويزعم ويلش: أن كل هذه العناصر المذكورة في القصة إنما تشير من بعيد، إلى أنه كان للقصة وضع تاريخي لاحق؛ بعبارة أخرى أنها كانت محض روايات ملفقة؛ وأن إقحام حفصة في موضوع جمع القرآن إنما يمثل عنصراً ملفقاً آخر في رواية توثيق القرآن، إذ أنها أفتحت لمجرد الربط بين الروايات، وذلك لإيجاد علاقة بين هذه

(١) الإتيان ٢ / ١٠٣.

(٢) بيانات مقاييس اللغة ص ٢٣ عبده الراجحي . اللهجات العربية في القراءات القرآنية. مصر. دار المعارف ١٩٦٩ ص ٣٣. محمد أبو ليلة . النصرانية من وجهة نظر الإسلام (رسالة دكتوراه ١٩٨٤) الباب الثاني.

الروايات المختلفة لتقرير أن القرآن قد جُمع في عهد محمد ﷺ، وأبي بكر ﷺ، وبالتالي يتم التوصل إلى سلامة نقل القرآن بطريق السند المتصل كما يعتقد المسلمون.

ويزعم ويلش بالإضافة إلى ذلك، أن مصحف عثمان لم يكن بالنص الذي يخلو من الاختلاف والتنوع، حتى من حيث تناسق اللحن والشكل.

ويعضى ويلش في استعراض آراء المستشرقين فيقول: "إن معظم الباحثين الغربيين قد قبلوا عنصراً آخر في هذه الروايات؛ مؤداه أن زيدا بن ثابت قد قام بدور في وضع النص العثماني للقرآن، ولكن من الصعب تحديد طبيعة هذا الدور الذي قام به زيد؛ على أن هناك روايات أخرى تعطي مزيداً من الاحتمالات^(١) في إمكان تحديد هذا الدور وطبيعته".

ويشتط برتون إلى حد اعتبار أن مجموع الروايات، الخاصة بجمع القرآن، من وضع الخيال، وأن دور زيد بن ثابت ﷺ البارز في هذه العملية إنما اخترع اختراعاً، لأنه كان يكتب وهو شاب للنبي ﷺ؛ وأنه كان من أواخر من مات من الصحابة إذ مات حوالى (٢٤٥هـ - ٦٦٥م) رضوان الله عليه^(٢).

يلقى برتون بالكثير من الشكوك الخطيرة حول الدور الذي قام به زيد في جمع القرآن، وفي كتابة المصحف العثماني الذي يحلو للمستشرقين أن يطلقوا عليه (Official text)، وتعني "النسخة الرسمية". يشير الكاتب بهذا إلى ما ورد عن عثمان ﷺ أنه حين عرض عليه المصحف قال: "أحسنت وأجملتم، إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها"^(٣).

وإلى ما رواه عكرمة قال (لما كتبت المصحف عرضت على عثمان فوجد فيها حروفاً من اللحن): "لا تغيروها فإن العرب ستغيرها، أو قال ستعربها بألسنتها لو كان الكاتب من ثقيف، والمُملئ من هُزِيل لم توجد هذه الحروف".

(1) Burton. Collection of the Quran pp. 117ff. Ibid pp. 120, 228.

(٢) الموضوع نفسه وانظر مصدره . ابن أبي داود . كتاب المصاحف . ص ٢٠ وما بعدها .

(٣) المصاحف ص ٣٢ .

طار نُقَادُ الإسلامَ بهاتين الروائيتين الضعيفتين كل مطير، واستنتجوا منهما ما شاء لهما الخيال أن يستنتجوا؛ لقد رأوا فيهما اعترافاً من قبل عثمان نفسه بأن رسم المصحف العثماني ليس موضع ثقة، وأن الصحابة رضوان الله عليهم لم يجمعوا عليه، وأن ما تضمنه هذا المصحف لم يكن توقيفاً.

هذا مع أن الروائيتين ضعيفتان من حيث الإسناد مضطربتان من حيث المتن. أما من حيث الإسناد، فقد قال الألويسي: "إن ذلك لم يصح عن عثمان أصلاً ولسنا ندرى من قاله ومن تحمله". وأما من جهة المتن، فإن فيهما تناقضاً إذ كيف يقول عثمان أولاً أحسنتم وأجملتم؟ ثم يقول "إن في القرآن لحناً ستقيمه العرب بألسنتها"؛ على الرواية الأولى، وكيف يقر ذلك عثمان ذو النورين المعروف بقوة فراسته، وهو إمام الأمة ومقدمها في عمل المصحف الإمام. هذا مع أن الرواية الثانية تختلف عن الأولى في متنها، فقد زادت عليها في مواضع ونقصت عنها في أخرى، والموضوع واحد بعينه. ولا ينبغي أن يفوتنا أن ننبه على أن ابن أبي داود السجستاني لم يترك هذه الرواية دون تعليق، إذ يقول: "هذا عندي، يعني بلغتها، وإلا لو كان لحنٌ لا يجوز في كلام العرب جميعاً، لما استجاز أن يبعث به إلى قوم يقرءونه"^(١).

ثم إننا قد ذكرنا أن عثمان كان يشرف بنفسه على هذا العمل الجليل، ولم يكن هو بالذي يترك الكتابَ حتى يُكْمَلُوا كتابة المصحف دون أن يفطن لهذا اللحن المزعوم. على أننا واجدون رواية أخرى تؤكد شدة ضبط عثمان وحيطته في رسم المصحف "أخرج أبو عبيد عن عبد الرحمن بن هانئ، مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه، قال- كنت عند عثمان وهم يعرضون المصاحف فأرسلني بكتف شاة إلى أبي بن كعب فيها ﴿لَمْ يَتَّسِن﴾"^(٢) وفيها ﴿لَا تَبْدِيلَ لِلْخَلْقِ﴾"^(٣)، وفيها ﴿فَأَمِّهِدِ الْكَافِرِينَ

(١) كتاب المصاحف ص ٣٢.

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) الروم: ٣٠.

أَمَلَهُمْ رُؤَيْدًا ﴿١﴾، فَمَحَا أَحَدَ اللَّامِينَ وَكَتَبَ ﴿لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، وَمَحَا ﴿فَأَمْهَلُ﴾ وَكَتَبَ ﴿فَمَهْلُ﴾ وَكَتَبَ ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ فَأَلْحَقَ فِيهَا الْهَاءَ.

قال ابن الأنباري "فكيف يدعى عليه أنه رأى فسيداً فأَمْضاه؟، وهو يوقف على ما يكتب، ويرفع الخلاف بين الناسخين فيه فيحكم بالحق ويلزمهم إثبات الصواب وتقييده" (٢).

ولو فرضنا صحة هاتين الروايتين لما حاز لأحد في ظل الظروف العامة للموضوع ككل، أن يستنتج منهما وجود خطأ في المصحف العثماني؛ وذلك لأن كلمة "لحن" و"لحن"، تفيد قراءة، وقراءات، ولغة، ولغات، يقال "لحن العرب" يعني لغاتها ولهجاتها.

وقول عثمان ؓ السابق، إن صح عنه، إنما يفيد أن القرآن قد اشتمل على شيء من غير لغة قريش، مما يشق على غير القرشي، قراءته، لكن عثمان أمضى ذلك الشيء لأن العرب يمكن أن يتدربوا عليه ويمهروا فيه وتلين به ألسنتهم مع كثرة التلاوة . ولزيادة التوضيح نعرض بعض الشواهد المهمة على صحة روايات جمع القرآن، وصحة موقف عثمان ؓ من كتابته قال ؓ في تفنيد بعض مزاعم خصومه: "... أما القرآن فمن عند الله إنما نهيكم (أن تعددوا في قراءته) لأني خفت عليكم الاختلاف، فأقرءوا على أى حرف شئتم" (٣) فهذا إقرار من عثمان بصحة القراءات، وثبات القرآن مع جميعها. وهذا هو على بن أبي طالب ينهى عن سوء فهم ما أداه عثمان من خدمة جليلة لكتاب الله تعالى وللأمة المسلمة، أعني جمع القرآن في قراءة واحدة إذ يقول: " فوالله ما فعل (أى عثمان) الذى فعل فى المصاحف إلا على ملأ منا جميعاً".

ثم يروى على عن عثمان أنه سألهم: "ما تقولون فى هذه القراءة؟ فقد بلغنى أن

(١) الطارق: ١٧

(٢) الزرقاني . مناهل العرفان فى علوم القرآن ١ / ٣٨٦ - ٢٨٧.

(٣) كتاب المصاحف ص ٣٦.

بعضهم يقول إن قراءتى خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفراً قلنا فما ترى؟ قال
نجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة، ولا يكون اختلاف. قلنا نعم ما
رأيت....^(١).

إن جمع عثمان للمصحف يعد من أجل الأعمال فى تاريخ الإسلام؛ بل إنه ليعد
مأثرته الأولى بين مآثره الكثيرة والعظيمة ﷺ.

جمع عثمان بن عفان كبار القراء، وأحضر الربعة- أى المصحف أو الصحف
التي كانت عند حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها- وأمر بكتابة المصحف، وكان إذا
اختلف القراء فى شىء من حيث التقديم والتأخير، أمهلهم عثمان حتى ينظر آخرهم
عهداً بالعرضة الأخيرة فيكتبوه على قوله^(٢).

ولزيادة التوضيح نقول إن الأمة قد أجمعت على صحة الرسم العثمانى، وعلى
ضرورة العمل به، فعن أشهب، سئل مالك: "هل يكتب المصحف على ما أخذته
الناس من الهجاء؟" فقال: "لا، إلا على الكتابة الأولى."^(٣) ثم قال: "ولا مخالف له من
علماء الأمة". وسئل مالك أيضاً عن الحروف فى القرآن الواو، والألف؛ أترى أن يُغيّر
من المصحف إذا وجد فيه كذلك؟ قال: "لا". قال أبو عمرو الداني: "يعنى الواو فى
"أولوا"؛ وقال الإمام أحمد: "يحرم مخالفة مصحف الإمام فى "واو، أو ياء، أو ألف، أو
غير ذلك". وقال البيهقي فى شعب الإيمان: "من كتب مصحفاً فينبغى أن يحافظ على
الهجاء الذى كتبوا به هذه المصاحف، ولا يخالفهم فيه؛ ولا يغير مما كتبوا شيئاً، فإنهم
أكثر علماً، وأصدق قلباً ولساناً، وأعظم أمانة منا؛ فلا ينبغى أن نظن بأنفسنا استدراكاً
عليهم."^(٤) وسوف يكون لنا كلام آخر يضاف إلى هذا الكلام عند الحديث عن لغة

(١) المصاحف ص ٢٢.

(٢) نفسه ٢٥.

(٣) رواه الداني فى المقنع ص ٥.

(٤) الإتيان ١٤٦/٤، ١٤٧؛ والبرهان ٣٧٩/١.

القرآن. يزعم برتون ومعه المستشرق شخت أن عِلْمَى الحديث والفقهاء قد أثرا في عملية تزايد عدد الروايات الخاصة بجمع القرآن؛ كما يدّعى أن هذه الروايات كانت من صنع المحدثين والفقهاء صنعوها بغرض تأييد ما ذهبوا إليه من القول بالناسخ والمنسوخ.

من خلال هذا الاستعراض التحليلي للروايات ظهر أن برتون لم يستطع أن يَسُوق الأدلة على صحة رأيه، كما أنه لم يسلك طريقة مقنعة في مناقشته للموضوع. وبالرغم من هذا فإنه مما يُحْسَب له أنه لم ينكر شخصية زيد بن ثابت نفسه كما فعل غيره من المستشرقين؛ ولو فعل لما استكثرتنا عليه ذلك.

إن روايات جمع القرآن كلها يربطها خيط واحد رفيع ومتين وهذا الخيط ينتهى بنا إلى الحقيقة الصارمة، وهى أن القرآن قد كُتِبَ في حياة النبي ﷺ، وأن كل وسائل الحفظ والضبط الممكنة قد استخدمت لتأمين النص القرآني، وسلامة نقله، وأنه جمع في أول خلافة أبي بكر ثم في خلافة عثمان ؓ.

ونتساءل مع مولانا محمد على، كيف يستمر القرآن بدون ترتيب سواء بالنسبة للآيات أو بالنسبة للسور في حياة النبي ﷺ؟ إن القرآن لم يكن يتلى فقط في الصلاة الجهرية والسرية، لكنه كان يحفظ في الصدور، ويكرر المرة بعد المرة خوفاً من التفلت والنسيان.

فإذا لم يكن القرآن بالترتيب الذى بين أيدينا الآن فكيف كان يُقرأ في الصلاة؟ وكيف كان يُحَكَّم في الأمور ويَضَمَّن في الخطب؟ إذا أمكن ذلك، وهو غير ممكن، إذن فكيف عبر الله عن القرآن بالكتاب؟ وقد كان أبو موسى وعبد الله بن مسعود وغيرهما يقرءونه آناء الليل وأطراف النهار، ويختمونه، ثم يعاودون قراءته من جديد وهكذا؛ وكان النبي ﷺ يقرؤه لهم ويسمعه منهم؛ وكان ﷺ يقرؤه بترتيبه الذى بين أيدينا؛ وكان ﷺ يحدد السورة والآية في السورة للصحابة. وإن أيَّ خطأ يحدث في

قراءة القرآن، مهماً كان يسيراً، يُلاحَظ ويُصوب إذا ما أحدثه إمام الجماعة في الصلاة في آية ما، فإنه يجد ممن يصلون وراءه في الصفوف من ينهه ويصوبه. هذا هو موقف المسلمين من القرآن حتى اليوم^(١).

وذلك أن القرآن العظيم هو المعجزة الباقية والمبثوثة في العالمين لرسول الله ﷺ، تقف عليها الأجيال جيلاً بعد جيل عياناً لا خبراً، استماعاً لا سماعاً إلى يوم القيامة. لم يحبس القرآن في خزانة أو يلف في الأضابير أو يحصر في معبد؛ وإنما جعلت له الأرض كلها مسجداً ومعهداً؛ يُقرأ للدنيا كما يُقرأ للآخرة. يقول ﷺ: "ما من نبي من الأنبياء إلا وقد أعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة" رواه الشيخان، عن أبي هريرة.

(1) Maulana Mohammad Ali The Religion of Islam UAR, p. 28f

الفصل الثاني

القراءات المتنوعة ومصاحف الصحابة

القراءات القرآنية مثل القرآن نفسه تنزيل من الله العزيز الحميد؛ نزل القرآن على سبعة أحرف لتيسير قراءته على الأمة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧).

عرّف الزركشي القرآن والقراءات بقوله: "(القرآن)، و(القراءات) حقيقتان متغايرتان. فالقرآن هو الوحي المنزّل على محمد ﷺ للبيان والإعجاز، والقراءات اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كتابة الحروف أو كيفيتها؛ من تخفيف وتثقيل وغيرها^(١). ولأن العرب كانوا يتكلمون بعدة لهجات، وبلغات متقاربة لكنها مختلفة من حيث الإمالة والنبر، أو الهمز، أو التلين والمد، وغير ذلك، فقد وسّع الله لهم أن يقرءوا القرآن، كلّ حسب ما نشأ فيه ودرج عليه، إذ لو كان كلّ أحدهم ترك لغته التي ألفها واعتادها لشقّ عليه ذلك؛ والقرآن لم يأت بالحرج والمشقة؛ بل إن الأمم الكثيرة التي دخلت في الإسلام بعد ذلك، وكانت تتكلم بلغاتها القومية التي تختلف عن العربية في تراكيبها وصوتياتها، وكان يصعب عليها والأمر كذلك، نطق بعض الحروف العربية وهي تقرأ القرآن ولا يزال الأمر كذلك حتى اليوم. والمُسلّم مكلفٌ بقراءة القرآن والتعبد به في لغته الأصلية؛ وقراءة القرآن، والنظر فيه عبادة. وفي جواز قراءة القرآن باللهجات المختلفة دليل على عالمية الإسلام، وشمول دعوته وخاتمته.

روى الترمذی عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ لقي جبريل فقال: "يا جبريل إني بعثت إلى أمة أميين، منهم العجوز والشيخ الكبير، والغلام والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتاباً، فقال يا محمد إن القرآن أنزل على سبعة أحرف" رواه الترمذی، وقال حسن صحيح. وقد تلقى العرب القرآن سماعاً من رسول الله ﷺ، ومنهم الرجل الطاعن في السن والمرأة والكهل والطفل الذي يصعب عليه التحول عن لغته^(٢)، فجاءت هذه

(١) الزركشي - البرهان جـ ١ ص ٣١٣ وقارنه بما أورده السيوطي في الإتيان جـ ١ ص ٢٢٢ .

(٢) البرهان ١/٢٢٧ .

الرحمة الإلهية كعلاج شاف وحض كاف على حفظ القرآن، وتأليف القلوب عليه. روى الحافظ أبو يعلى في مسنده الكبير أن عثمان قال يوماً وهو على المنبر: أَذَكَّرُ الله رجلاً سمع النبي ﷺ قال: "إن القرآن أنزل على سبعة أحرف كلها شاف كاف" لما قام، فقاموا حتى لم يحصوا، فشهدوا فقال عثمان: "وأنا أشهد معهم".

فهذا الجرم الغفير من الصحابة قد شهد على أن القراءات السبعة منزلة ومعنى شاف، أى موافق للذوق ومتناسق مع الميول ورغائب القلوب ومعنى كاف^(١)، أى أن هذه الحروف تستوفي جميع لحن العرب ولهجاتها؛ وتستوفي مخارج الحروف المختلفة. وفي حديث عمر بن الخطاب وهشام بن حكيم الذى رواه البخارى ومسلم، قال رسول الله ﷺ بعد أن أقرأ كلا منهما فقراً بما تعلمه منه ﷺ: "إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه"^(٢)؛ لقد كان العربى يعتز بلغته ويلتصق ببلهجته التى فى حجرها نشأ ولبينها غذى وترعرع وعن طريقها عبر عن نفسه وتواصل مع غيره. يقول ابن مهديّة من قصيدة له:

ولا تاركاً لحني لأحسن لحنهم *** ولو دار صرف الدهر حيث يدور
واللحن فى البيت معناه اللغة أو اللهجة^(٣).

ويتساءل أبو عبد الله الشجرى متعجباً: "أرأيت إنساناً يتكلم بما ليس فى لغته؟"^(٤) وهذا يدل إلى إعجاب كل قبيل بلغته وبلهجته، وبخاصة العرب الذين ضربوا المثل فى الاعتزاز بلغتهم.

والعرب يطلقون اللغة وهم يعنون ما نعرفه نحن فى عصرنا الحديث باللهجة أو اللحن. وهم لم يستعملوا كلمة لهجة بالمعنى الاصطلاحي على الرغم من وجودها فى لغتهم^(٥).

ولذلك جاءت كتبهم فى هذا المجال تحمل هذه العناوين:

-
- (١) المصدر نفسه والموضع والزرقان مناهل ١/ ٣٩.
(٢) المصدر نفسه ص ١٤٧ وانظر أيضاً أرثر جفرى. مقدمتان فى علوم القرآن. وهما مقدمة كتاب المبانى، ومقدمة ابن عطية. القاهرة الخانجي ١٩٥٤، ص ٢١٨ - ٢١٩.
(٣) أبو الفتح عثمان بن جنى الخصائص تحقيق محمد على النجار القاهرة دار الكتب المصرية ١٣٧١ / ١٩٥٢ / ٢٣٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٢٤٢.
(٥) انظر: ابن منظور لسان العرب مادة لهج.

كتاب اللغات لأبي عبيدة (ت ٢١٠هـ).

كتاب اللغات للأصمعي (ت ٢١٣هـ).

كتاب اللغات لأبي يزيد (ت ٢١٥هـ).

كتاب اللغات لابن دريد (ت ٢٢١هـ).

وهكذا، ولا يوجد كتاب عربي قديم يتخذ من كلمة لهجة عنواناً له^(١).

ونعود إلى حديث الأحرف السبعة فنقول إن حديث القراءات يعنى ليقراً كل منكم بحسب لغته وطريقة أدائه التى لفتها طفلاً، واستقر عليها كبيراً. وهذا الحديث يجعل الأخذ بقراءة ما معينة دون غيرها أمراً اختيارياً، أى أنه ليس واجباً أن نقرأ بكل الحروف، أو أن نلتزم بمجموعة السبع أو أن نُحرِّم قراءة بعينها مما تواترت روايته، ونُصِر على الأخذ بواحدة منها دون غيرها. إذا اتضح هذا، نقول إنه ينبغي أن نتبع ولا نبتدع فى اللحن والقراءة. حدث الأعمش عن حبيب عن أبى عبد الرحمن السلمى عن عبد الله بن مسعود إمام أهل الكوفة عليه السلام أنه قال: "اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتكم"، يعنى اتبعوا ما جاءكم عن القراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله قد كفاكم بما يسر لكم فى القراءة ورفع عنكم الحرج والمشقة. وروى عنه أيضاً قوله: "جردوا القرآن ولا تلبسوا به ما ليس منه"^(٢)، وحدثوا عن حذيفة عليه السلام قال: "اتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيداً ولنن تركتموهم يميناً وشمالاً لقد ضللتهم ضلالاً بعيداً".

وعن الأعمش عن عاصم بن أبى النجود عن زرّ عن عبد الله بن مسعود قال: قال لنا على بن أبى طالب عليه السلام: "إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرءوا القرآن كما علمتم؛ وقال عبد الله بن مسعود برواية شقيق بن سلمة: "إني سمعت القراء فرأيتهم متقاربين فافقرءوا كما علمتم، وإياكم والتنطع والاختلاف، وإنما هو كقولك هلم وأقبل وتعال"^(٣). وعلى هذا النهج جرى كبار القراء فى الحواضر الإسلامية.

وفى هذه الأقوال وغيرها دلالة واضحة على أن القراءات واردة عن

(١) ابن النديم الفهرست مصر المطبعة الرحمانية ١٣٤٨هـ ص ٨٥.

(٢) الحافظ أبو الخير محمد بن محمد الدمشقى الشهير بابن الجزرى (ت ٨٣٣هـ) كتاب النشر فى القراءات العشر. تحقيق محمد الصباغ. القاهرة. المكتبة التجارية الكبرى ج ١ ص ٣٢.

(٣) ابن مجاهد كتاب السبعة فى القراءات ص ٤٦ - ٤٨، الإمام البخارى. خلق أفعال العباد. ضمن عقائد السلف ص ١٧٩ والسيوطى - الإتيان ١٣١/١ وما بعدها وعبد الرأحى - اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ٨٣ وما بعدها.

رسول الله ﷺ، وأنه لا يجوز بالتالى الخروج عنها أو الابتداع فيها؛ وقد ذكرنا كلام ابن مسعود بشأن مصحف عثمان، الذى أشار إليه المستشرقون، وبيّنا أن معارضة ابن مسعود لمصحف عثمان قد قبلها المستشرقون واعتمدوا عليها دون تفنيد ودون قراءة لها فى إطار السياق العام لروايات جمع المصحف. ويظهر من هذه الروايات أيضاً كذب من زعم أن عبد الله بن مسعود كان يجيز قراءة القرآن بالمعنى، هذا محض افتراء^(١)؛ قال أبو شامة فى المرشد الوجيز عن بعض الشيوخ: "إن القرآن أنزل أولاً بلسان قريش ومن جاوهرهم من العرب الفصحاء تم أتيح للعرب أن يقرءوه بلغاتهم التى جرت عادتهم باستعمالها على اختلافهم فى الألفاظ والإعراب، ولم يكلف أحد منهم الانتقال عن لغته إلى لغة أخرى تجنباً للمثقة، ولما كان فيهم من الحمية، ولطلب تسهيل فهم المراد"^(٢)؛ وأوضح بعض الشيوخ المسألة أكثر بقوله: "إن الإباحة المذكورة لم تقع بالتشهى (أي) بأن أحد وجوه الكلمة بمصادفها فى لغته بل المرعى فى ذلك السماع من النبى ﷺ". يشير إلى ذلك قول كل من عمر وهشام فى حديث الباب "أقرأنى النبى ﷺ"^(٣)، وكان عبد الله بن مسعود مبعوث عمر بن الخطاب إلى الكوفة يقرئهم بقراءته التى تعلمها من رسول الله ﷺ، فأخذ أهل الكوفة القراءة عنه قبل أن يجمع عثمان والصحابه الناس على حرف واحد، وأخذها عنه خلق كثير حتى بعد وفاته، لم تزل فى صحابته من بعده يأخذها عنهم الناس كعلقمة بن قيس النخعى (ت: ٦٢هـ)، والأسود بن يزيد (ت: ٧٤هـ)، ومسروق بن الأجدع (ت: ٦٣هـ)، وغيرهم^(٤).

واستمرت قراءة عبد الله بن مسعود فى الكوفة لفترة، ولكنها انحسرت من حيث انتشرت قراءة المصحف العثمانى، إذ كان عثمان قد أرسل بأبى عبد الرحمن السلمى، واسمه عبد الله بن حبيب إلى الكوفة ليقرئ الناس فمكث فيهم يعلمهم القرآن أربعين سنة، وقد أشرنا إلى أن عثمان قد أرسل نسخة من المصحف الإمام إلى الكوفة. ومما يدل على شيوع القراءة العثمانية ما رواه عن الأعمش قال: "أدركت أهل

(١) ابن الجزري كتاب النشر ص ٣٢.

(٢) ص ١٦.

(٣) السيوطى - الإنتقان ١/ ١٣١ وما بعدها، وعنده الراجحى - اللهجات العربية فى القراءات القرآنية ص ٨٣ وما بعدها.

(٤) ابن مجاهد السبعة فى القراءات ص ٤٦، ٦٧.

الكوفة وما قراءة زيد (يعني قراءة مصحف عثمان) فيهم إلا قراءة عبد الله (ابن مسعود) فيكم اليوم، ما يقرأ بها إلا الرجل والرجلان" (١).

وما ساقوه من أخبار عن عبد الله بن مسعود بشأن موقفه من مصحف عثمان إنما فيه دليل على شدة تمسكه رضي الله عنه بقراءة تعلمها من رسول الله ﷺ لا غير؛ لأنه لم يكن قد وصل إلى علمه إجماع الصحابة على كتابة المصحف الإمام بحسب العرضة الأخيرة، أي قراءة النبي ﷺ على جبريل في آخر مرة قبل وفاته ﷺ؛ ولكنه لما عرف ذلك، رجع عن رأيه، ونزل على رأى جمهور الصحابة؛ وذلك الرأى الذى ساندته الإلهام ولم يخرج الأئمة عن إطار الوحي، والذى كان ترجمة عملية لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩). وليس يقدح تمسكه هذا في تواتر القرآن، ولا في صحة ما فعله عثمان ﷺ؛ وقد مر بنا كلام عبد الله بن مسعود في تحريم الابتداع في القراءة، وفي أن الخلاف بين المصاحف إنما كان خلافاً يسيراً، وأنه كله واردٌ عن رسول الله ﷺ وليس من فعل أحد غيره؛ ولكي تتضح المسألة أكثر، نسوق هنا بعض الروايات التي بنوا عليها حكمهم، روي أن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله بن مسعود على المنبر فقال: "ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة؛ غُلُّوا مصاحفكم (أى أخفوها) حتى لا تحرقوها، وكيف تأمروني أن أقرأ على قراءة زيد بن ثابت، وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله؟" رواه النسائي وأبو عوانة وابن أبي داود. هذه الرواية فيها ما ينقضها من داخلها؛ بل إن فيها ما يؤيد القضية العامة التي بين أيدينا. أولاً: كيف يستشهد ابن مسعود بقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ (آل عمران: ١٦١) في غير موضعها، فالآية فيها ذم لا مدح، ونهى عن الغلول لا حث عليه، ومعنى الغلول، الخيانة، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ (٢).

هذا أولاً؛ وأما ثانياً فإن قوله "وقد قرأت من في رسول الله ﷺ مثله"، أو ما جاء في الرواية الأخرى: "أفأترك ما أخذت من في رسول الله ﷺ" (١).

على أنه يمكن لنا أن نتساءل أيضاً كيف يأمر ابن مسعود الناس هكذا بالإطلاق أن يحتفظوا بمصاحفهم، وهو بعد، لم يطالعها جميعاً للتأكد من سلامتها، وبخاصة وأن ابن النديم يخبرنا أن محمداً بن إسحق رأى عدة مصاحف ذكر نساخها أنها مصحف ابن مسعود، ليس فيها مصحفين متفقين، وأكثرها في رق كثير النسخ (٢).

أضف إلى ذلك رجوع ابن مسعود عن رأيه، واعتناقه لإجماع الصحابة على سلامة مصحف عثمان رضي الله عنه مصدراً وكتابة؛ وما أورده صاحب "المباني" من أن الصحابة كرهوا موقف ابن مسعود، على الرغم من إجماعهم على جودة ترتيله وحلاوة قراءته، وعتبوا عليه غضبه على عثمان وزيد بن ثابت رضي الله عنهم أجمعين، حتى لقد قيل إن عبد الله بن مسعود رجع عن رأيه وندم على ما قال واستحيا منه. روى أبو وائل هذه القصة ثم قال عقيها، إن عبد الله استحيا مما قال، فقال: "ما أنا بخيرهم"، ثم نزل عن المنبر. وقالوا إن سبب عدم إثبات الفاتحة والمعوذتين في مصحفه كان بسبب شهرتها وحفظ الكبير والصغير، والرجال والنساء لها، ولما كان سبب كتابة المصحف هو الخوف عليه من الضياع، لم يكتبهما ابن مسعود لذلك، علماً بأنه وجد من بين من قرأ عليه من أثبت هذه السور في مصحفه (٣).

(١) أو قوله: "والله لا أدفعه (يعني مصحفه) أقرأني رسول الله ﷺ". وحدث جرير عن الأعمش قال: قيل لعبيد الله بن مسعود لم لم تكتب فاتحة الكتاب في مصحفك؟ قال "لو كتبتها لكتبها مع كل سورة" قال أبو بكر الأنباري يعني أن "ركعة سبيلها أن تفتح بأم القرآن قبل السورة المتلوة بعدها، فقال "اختصرت بإسقاطها، ووثقت بحفظ المسلمين لها ولم أثبتها في موضع فيلزم أن أكتبها مع كل سورة إذا كانت تتقدمها في الصلاة" وقع هذا على سبيل الاجتهاد من ابن عمر ولا نقول مع ذلك أنه أصاب هو وأخطأ جمهور المهاجرين والأنصار. انظر تفسير القرطبي ٩٩/١ وكتاب المصاحف ص ١٣ وما بعدها.

(٢) الفهرست ص ٤٠.

(٣) انظر: جفرى مقدمات في علوم القرآن ٩٣، ٩٤.

يقول ابن كثير: "مشهور عند كثير من القراء والفقهاء أن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه فَلَعَلَّهُ لم يسمعهما من النبي ﷺ. ولم يتواتر عنده ثم رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة فإن الصحابة رضوان الله عنهم أثبتوها في المصاحف الأئمة وأنفذوها إلى الآفاق".

وأما ما روى من أن ابن مسعود رفض أن يحرق مصحفه، فليس بقادح في إجماع الصحابة على قراءة المصحف العثماني التي أقر بصحتها ابن مسعود نفسه فيما بعد. ثم إن عثمان لم يأمر أحداً بحرق مصحفه أمر إلزام، ولا عاقب أحداً على مخالفة ذلك، وإلا لاختفت جميع المصاحف من الأمصار الإسلامية؛ وهو ما لم يحدث أَلَبَتَهُ؟ على أن ابن النديم (ت: ٣٧٧-٩٨٧) حدث بأنه رأى مصحفاً، ينسب إلى ابن مسعود كتب منذ نحو من مئتي سنة فيه فاتحة الكتاب^(١). كذلك يمكن توجيه اعتراض ابن مسعود وتمسكه بمصحفه على أنه كان في بداية الأمر، فلما تبين له إجماع الصحابة نزل عن رأيه إلى رأيهم كما أوضحناه من قبل. ورأى العلماء قراءة مصحفه سداً للذرائع، ولأنه كتب فيه أشياء لنفسه على سبيل التفسير^(٢)؛ وما يقال بالنسبة لعبد الله بن مسعود يقال كذلك بالنسبة للصحابة الآخرين الذين ذكر المستشرقون أسماءهم وأشاروا إلى مصاحفهم والتي جمعها^(٣) المستشرق جفري، ونشرها في كتاب مستقل؛ هذا مع أن وجود مثل هذه المصاحف يدل من طريق قريب على اهتمام المسلمين بكتابة القرآن وتسجيل القراءات المتعددة له، وهو مما يحسب للمسلمين لا عليهم.

ونضيف إلى هذا أننا إذا جمعنا كل هذه الاختلافات الموجودة في المصاحف السابقة على مصحف عثمان لاستطعنا بسهولة ويُسر أن نوفق بينها وأن نستخلص منها جميعاً مصحف عثمان، وأما ما تضمنته هذه المصاحف من خلافاً يسيرة فُتَحِلَّ على أنها قراءات مختلفة، حفظها أصحابها بعد أن سمعوها من رسول الله ﷺ بطريق الآحاد، أو أنها نتجت عن الاختلاف في طريقة الرسم والشكل والنقط، على أن القرآن كله كان محفوظاً

(١) الفهرست ص ٤٠.

(٢) ابن عطية المحرر الوجيز ١ / ٤٨.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (النص الإنجليزي ص ٤٠٦ وأرثر جفري. كتاب المصاحف لابن أبي داود السجستاني ص ٥، وما بعدها وكتاب الباني (كتب سنة ٤٥٠ هـ) لمؤلف مجهول نشره أرثر جفري مع مقدمة ابن عطية ص ٢٠ وما بعدها.

في الصدور وأنه كان يتلقى مشافهة، لا خلاف في ذلك عند أحد. لقد وضع العلماء ضوابط لقبول القراءة، من أهمها تواتر الرواية، وصحة السند، وموافقتها للعربية.

قال ابن عبد البر في معنى الحروف التي تنزل عليها القرآن: "إنها معان متفق مفهومها، مختلف مسموعها، لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافا ينفيه ويضاده؛ كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده."

وذكر أن أبي بن كعب كان يقرأ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشْأَوْا فِيهِ﴾ (البقرة: ٢٠) "مروا فيه"، "سعوا فيه"؛ وكان بين ابن مسعود يقرأ ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْظُرُونَا﴾ (الحديد: ١٣)، "أمهلونا"، "أخرونا".

قال الطحاوي: "وإنما كان ذلك رخصة، كما كان يتعسر على كثير منهم التلاوة بلفظ واحد لعدم علمهم بالكتابة، والضبط، وإتقان الحفظ، ثم نسخ بزوال العذر وتيسر الكتابة والحفظ"؛ وبه قال ابن عبد البر والباقلاني وآخرون.^(١)

ومن أمثلة الخلاف بين المصاحف: "مَلِكٌ وَمَلِكٌ"، و"يُخَدَعُونَ وَيُخَدِّعُونَ"، و"أَوْصَى وَوَصَى" وغيره كثير في القراءات المشهورة. وقراءة ابن مسعود و"الذِّكْرُ وَالْأُنْثَى" في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ الذِّكْرَ وَالْأُنْثَى﴾ بحذف عبارة "مَا خَلَقَ".

وقراءة ابن عباس: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِيَةٍ﴾ "صاحلة" غصبًا بإبدال كلمة "وراء"، وبزيادة كلمة "صاحلة"، وهي زيادة تفسيرية لا قرآنية، ونحو ذلك، مما رواه الثقات.

وقراءة ابن مسعود "كالصوف المنفوش" بدل ﴿كَالْعِهْنِ المنفوش﴾، (فناداه جبريل) بدل "فنادته الملائكة"، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ لَأَسْلَمُونَ﴾ (آل عمران: ١٩) عند ابن مسعود (إن الحنيفية)، وقراءة سعد بن أبي وقاص: ﴿وَلَهُ أَعْ أَوْ أُحْتُ "من أم"﴾ (النساء: ١٢)، وقراءة عائشة وحفصة رضي الله عنها: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى "صلاة العصر"﴾ (البقرة: ٢٣٨)^(٢)، وقراءة ابن عباس: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ "في مواسم الحج"﴾ (البقرة: ١٩٨). (أخرجه البخاري).

(١) السيوطي . الإتقان ١/ ١٣٤، ١٣٥.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

أمثال هذه الزيادات أدرجها أصحابها على أنها تفسير للآية لا قراءة مختلفة لها، ولذلك علق عمر بن الخطاب على الزيادة في قراءة ابن الزبير في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ "ويستعينون بالله على ما أصابهم"﴾ (آل عمران : ١٠٤)، قائلاً فما أدرى أكانت قراءته أم فسّر. أخرجه سعيد بن منصور ابن الأنباري وجزم الأخير بأنه تفسير. ويؤكد ذلك ما ورد عن الحسن أنه كان يقرأ: ﴿وَأَنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ "الورود: الدخول" (مریم: ٧١)، قال ابن الأنباري قوله: "الورود الدخول"، تفسير من الحسن (وربما سمعه من النبي ﷺ) لمعنى الورد، وغلط فيه بعض الرواة، فألحقه بالقرآن؛ ذكر ابن الجزري في آخر كلامه (أنهم) "ربما كانوا يُدْخِلُونَ التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآنًا، فهم آمنون من الالتباس وربما كان بعضهم يكتبه معه"^(١). ولابن حيان في "البحر" أنه "إذا كانت القراءة مخالفة لسواد المصحف فينبغي أن تحمل على التفسير"^(٢). ولذلك فلم يرد عن أحد منهم أنه كان يصلى بهذه القراءة، ولا أن قراءته كانت معروفة لغيره، شائعة بين عموم المسلمين، هذا أمرٌ ينبغي أن يكون واضحاً.

ولا يفوتنا أن ننبه كذلك على أنه لا يوجد دليل ألبتة على أن مصحف عبد الله بن مسعود في ترتيب السور الخاص به كان قد وضع بعد ظهور المصحف العثماني كما يدعيه بعض المستشرقين^(٣).

زعم جولدزيهر أن هذه الخلافات البسيطة بين المصاحف قد وُضعت بغرضٍ لاهوتي، أو كلامي، أو غير ذلك؛ يقول: "إن بعض هذه الاختلافات في القراءة ترجع أسبابها إلى الخوف من أن تنسب إلى الله ورسوله عبارات، قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجهات النظر الخاصة ما يمس الذات الإلهية العالية، أو ذات الرسول، أو مما قد يرى إنه غير لائق بهذا المقام، ولهذا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب الأفكار التنزيهية". ساق جولدزيهر مثلاً على ذلك من قوله تعالى: ﴿بَلْ

(١) الإتيان ٢١٦/١.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٠٧.

(٣) انظر: عبده الراجحي. اللهجات ١٧٨ ودائرة المعارف الإسلامية ص ٤٠٧.

عَجِبَتْ وَتَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ (الصفات: ١٢)^(١). إذ قرأها عامة أهل الكوفة وعامة قراء المدينة والبصرة، وهي قراءة ابن مسعود أيضا، ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ بضم تاء عَجِبْتُ، على معنى أن الله تعالى هو المتعجب.

وقرأ بعض قراء أهل الكوفة "بل عجب" بفتح التاء في عجب. وهي على هذه القراءة الأخيرة، تنسب العجب إلى محمد ﷺ، بمعنى بل عجب أنت يا محمد، وأهم يسخرون من القرآن. يزعم هذا المستشرق أن العلماء هم الذين اخترعوا هذه القراءة الأخيرة من عند أنفسهم فراراً من إسناد العجب الذي يتضمن معنى الغفلة وقلة العلم، إلى الله تعالى .

هذا مع أن القراءتين واردتين عن رسول الله ﷺ ولا بأس على من قرأ بهما أو بأحدهما؛ أضف إلى ذلك أن لفظ "العجب" نسب إلى الله تعالى في السنة^(٢)، فعلى سبيل المثال، قال رسول الله ﷺ: "عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل"^(٣)، بمعنى أن الله تعالى يجرحهم إلى الجنة بالسلاسل، أى لسلطفه تعالى، ورحمته بهم، فهو يُكْرِهُهُمْ على عمل الطاعات الموصلة إلى الجنة؛ وقد أبطلنا دعوى الوضع في القراءات أصلاً، ودلنا عليه بما فيه الكفاية. قال الحافظ أبو عمرو الداني في كتابه "جامع البيان وأئمة القراء" لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية؛ بل على الأثبت في الأثر، والأصح في الراوي؛ والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها"^(٤).

لم يفت المستشرقون أن يسيروا إلى بعض الزيادات الواردة في مصحف أبي بن كعب، حيث جاءت في بعض الأخبار أن عدد سور القرآن في مصحف أبي، ست عشرة ومائة سورة؛ لأنه كتب في آخره سورتي الحفد^(٥)، والخلع.

أخرج أبو عبيد عن ابن سيرين، قال كتب أبي بن كعب في مصحفه فاتحة الكتاب

(١) جولد زيهير "المذاهب الإسلامية في تفسير القرآن" - ترجمة على حسن عبد القادر. القاهرة مطبعة العلوم ١٩٤٤ ص ٢٠.

(٢) الرجعي اللهجات ص ٢٠٢ .

(٣) صحيح البخارى- جهاد ١٤٤؛ سنن أبى داود- جهاد ١١٤؛ مسند أحمد ٣: ٢، ٣، ٦: ٤، ٤٤٨

(٤) السيوطي الإتيقان جـ ١ ص ٢١١ . والزرقاني - مناهل العرفان ج ١ ص ٤٢٢ .

(٥) حَقَّدَ حَقْدًا وحَقْدَانًا واحتَفَدَ: خَفَّ في العمل وأسرع. وَحَقَّدَ يَحَقِّدُ حَقْدًا: حَدم قاله الأزهري الحَقْدُ في الخدمة والعمل الحَقْفَةُ. انظر ابن منظور. لسان العرب. ج ٣ ص ١٥٣.

والمعوذتين، واللهم نستعينك، واللهم إياك نعبد؛ وتركهن ابن مسعود؛ وكتب عثمان منهن فاتحة الكتاب، والمعوذتين. ومن حديث عبد الله بن زُرَّير الغافقي قال: قال لي عبد الملك بن مروان: "لقد علمت ما حملك على حب أبي تراب (يعني علياً كرم الله وجهه)، إلا أنك أعراي جاف، فقلت: "والله لقد جمعت القرآن من قبل أن يجتمع أبواك، ولقد علمني على بن أبي طالب سورتين علمهما إياه رسول الله ﷺ ما علمتهما أنت ولا أبوك، (اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونُثْنِي عليك، ولا نكفرك، ونخلع ونترك من يفجرك، اللهم إياك نعبد، ولك نصلي ونسجد، وإليك نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك، إن عذابك بالكفار ملحق)"^(١).

وما قيل في المعوذتين بالنسبة لعبد الله بن مسعود يقال في الحفد والخلع اللتين كتبهما أبي بن كعب في مصحفه.

يقول ابن قتيبة في تأويل مُشْكِل القرآن "لا نقول إن أُمِّيًّا رحمة الله عليه أصاب وحده، وأخطأ المهاجرون والأنصار كلهم رضوان الله عليهم، ولكن نقول ذهب أُمِّيٌّ في دعاء القنوت إلى أنه من القرآن، لأنه رأى رسول الله ﷺ يدعو به في الصلاة دعاء دائماً، فظن أنه من القرآن، وأقام على ظنه، ومخالفة الصحابة"^(٢).

وردَّ الباقلاني أيضاً نصِّي الحفد والخلع المثبتان في مصحف أُمِّيٍّ؛ لأنه لم تقم الحجة بقرآنيتهما، بل هما ضرب من الدعاء، وأنها لو كانا قرآناً لنقل نقل القرآن وحصل العلم بصحتها؛ ونضيف إلى أن الفرق جد واضح بين الدعاء الذي ظن أبي أنه قرآن وبين القرآن؛ فالاختلاف في النظم والبلاغة؛ وفي الوقع والأثر الروحانيين في القلب بين هذا الدعاء وبين أدعية القرآن المعروفة لنا.

يزعم برتون بجرأة مزرية أن مصاحف الصحابة إنما هي فكرة ملفقة لتبرير عمل عثمان، ومصحف عثمان مُلَفَّق أيضاً لإخفاء حقيقة أن محمداً هو الذي كان جمع القرآن وحققه وكتبه بنفسه. وقد قام بهذا التلفيق في نظره الفقهاء واللغويون^(٣)، لقد قال برتون

(١) الإتيان ١/ ١٨٥ و ١٨٥ وابن النديم : الفهرست ص ٤٠ ، ٤١ .

(٢) التبيان ٤/ ٨٥ ومقدمة كتاب المباني في علوم القرآن ضمن مقدمتان في علوم القرآن: تحقيق أرثر جفرى ٨٥ وما بعدها.

(٣) انظر : دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٠٧ عمود B .

من قبل "الفقهاء والمحدثون"، وهو هنا يقول "المحدثون" "واللغويون"؛ ويغور المستشرق ونسباً أكثر في هذا التيه إذ يتفق مع رفيقه برتون في القول بتلفيق فكرة المصاحف؛ ولكنه يخالفه في التعليل لهذا التلفيق الموهوم؛ فيزعم أن الفكرة من وراء القول بوجود مثل هذه المصاحف هي محاولة من قبل المسلمين لإثبات تاريخ قديم لجمع القرآن، وكتابة المصحف الذي لم يكتب في نظره حتى القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، وربما بعد ذلك. كلا الكاتبين لم يقدموا، للأسف، أى دليل؛ بل لم يستطيعا أن يصبغا كلامهما بصبغة عقلية تحسنه للعقل الواعي، أو حتى يصبغاه بصبغة خيالية ممتعة؛ وإن دل كلامهما على شيء، فإنه يدل على تحاملهما على الإسلام والمسلمين؛ والتشكيك في أي عمل من شأنه أن يظهر عناية المسلمين بكتاب الله تعالى أو على ظهور المسلمين كقوة حضارية وعلمية في التاريخ.

وقد فطن ويلش لهذه المغالطة التي وقع فيها أصحابه، فأخذ على صاحبيه التوسع في الدعوى وإعواز الدليل^(١). هذه المزاعم تذكرنا بما زعمه منجانا، في مقال له عن "نقل القرآن" إذ زعم أن رواية جمع القرآن ليست تاريخية، ولا مؤيدة بالأدلة؛ وإنما هي حكايات جاءت بها الأحاديث عن طريق النقل الشفهي. وأن ما عند النصاري في مسألة جمع القرآن من أقوال هو الصحيح المؤيد بالشواهد التاريخية، وقد أجهد منجانا نفسه لإثبات ذلك من ناحيتين؛ الأولى تجميع حكايات إسلامية تنص على أن القرآن لم يجمع إلا في وقت متأخر جداً، بعد ٢٣٨ سنة من وفاة النبي ﷺ^(٢).

نقل منجانا ما ورد من أن عبد الملك بن مروان كان يخاف الموت في شهر رمضان قائلاً في تعليل ذلك، فيه ولدت وفيه فطمت، وفيه جمعت القرآن وفيه اخترت خليفة^(٣). فهم منجانا خطأ ولم يراجع نفسه في الخطأ أن كلمة "جمعت" تعني كتبت

(١) المصدر السابق ٤٠٨ عمود A.

(٢) "The Transmission of the Qur'an" p. 28f مقال أعدده رداً عليه وهو بصدد النشر.

(٣) المصدر السابق ص ٣٢.

المصحف بعد أن لم يكن مكتوباً، والمعنى الصحيح الذي لا يوجد غيره هو أن كلمة "جمعت القرآن" هنا تعني "حفظت القرآن"، وكلمة "رمضان" في الرواية تدل على هذا المعنى بوضوح تام، إذ كان مما يتفاهل به أن يُتِمَّ الإنسان حفظ القرآن أو يحتمه في شهر رمضان، ولا يمكن بحال أن تفسر كلمة "جمع" بغير هذا المعنى، فالقرآن كان مجموعاً بالفعل في مصاحف تعد بالملايين، ومحفوظاً في صدور الملايين من الحُفَاط بالقطع؛ وكيف يُسَوِّغُ الكاتب لنفسه تجاهل كل هذه الروايات والحقائق في مقابل قولٍ لأحد المسلمين؛ حتى ولو افترضنا المستحيل وقتلنا إن عبد الملك أراد بقوله ذلك المعنى الذي فهمه منجنا وبني عليه رأيه الخطأ؛ ولكنه للأسف فإن منجنا ومن لفَّ لَفِيفَهُ، محكومون بنتيجة مسبقة، وعنصرية مستحكمة.

وبنفس الدرجة من اعتساف القول، اعتماد منجنا على ما ورد في بعض الأخبار الضعيفة من أن الحجاج غيّر في المصحف، كيف يستطيع الحجاج عمل ذلك داخل العراق وخارجه في البلدان التي لم يمتد إليها سلطانه؟، وأين كان العلماء والحفاظ من ذلك؟ وإذا كان الحجاج قد استطاع تغيير النص المكتوب؛ فهل كان يستطيع تغيير المحفوظ في الصدور؟ عجباً! بل إنه أشد في العجب شأننا أن الحجاج كان يحفظ القرآن؛ وكان كثير التلاوة له شديد العناية به.

نعم لقد ذكر ابن أبي داود في المصاحف أن الحجاج غيّر بعض الحروف أو العبارات المعدودة والتي كانت في إطار القراءات القرآنية أيضاً، هذا إذا صح النقل^(١). وأبعد من ذلك عن الحقيقة وروح البحث العلمي أن يحكم منجنا بعدم وجود القرآن ككتاب لسبب بسيط جداً عنده، وهو أن المؤرخين النصاري لم يشيروا إليه في الوقت الذي أشاروا فيه إلى المسلمين أو المهاجرين (نسبة إلى أمهم هاجر) كما كانوا يسموهم^(٢).

(١) المصاحف ص ٤٩ - ٥٠

(٢) The Transmission of the Qur'an P. 33ff؛ وأيضاً مقالته بدائرة معارف الدين والأخلاق ج X ص 549

وكان الأوّل بمنجانا، لو أراد الإنصاف، أن يرمى بني دينه من النصارى بالجهل بالقرآن، أو بالتعصب عليه بإهمال ذكره، مع غزارة الأدلة على ذبّ أمر القرآن داخل الجزيرة وخارجها وذلك عن طريق الرسائل التي أرسلها النبي ﷺ إلى الرؤساء والملوك، وعن طريق اتصال المسلمين بامبراطور الحبشة، وبالروم، وبالحروب والوفود والبعث التي خرجت من عند رسول الله ﷺ، أو حضرت إلى مسجده ﷺ كوفد "نصارى نجران"؛ وعن طريق انتشار الكتابات والمعلمين في الأمصار، والتخوم الإسلامية، ثم عن طريق الترجمات القرآنية والجدل الديني فيما بعد؛ ولكن الكاتب يهدف من دراسته إلى شيء آخر غير طلب الحقيقة، لذلك فقد ولى ظهره لهذه الحقائق كلها. لقد تلقى المسلمون المصحف الإمام بالقبول، وأقبلوا عليه يقرءونه ويحفظونه ويعلمونه للناس في كل مكان. ولم يقرأ من المسلمين المصاحف الأخرى إلا المتخصصون من القراء والحفاظ، وكان المصحف العثماني هو القاعدة والأساس عند وقوع أى اختلاف؛ هذا ولم يمض طویل وقت على سيادة المصحف الإمام حتى تحول إليه أهل الكوفة، وتركوا قراءة عبد الله بن مسعود، بحيث صار لا يقرأ بما إلا الرجل والرجلان، كما مر بنا؛ وأن أحداً من الصحابة لم يتابع ابن مسعود في عدم كتابة الفاتحة والمعوذتين في المصحف. هذا الأمر واضح؛ ولا يقبل التعقيم الذي يحاوله المستشرق ويلش وغيره من المستشرقين.

الفصل الثالث

كتابة "المصحف الإمام" واعتماد القراءات

يزعم الكاتب أنه منذ البداية كانت هناك اختلافات بين المصاحف الأئمة، ونسخ المصحف العثماني حتى في نسخة المدينة الأم كما أورده أبو عمر الداني (١٠٥٢/٤٤٤) في كتاب "المقنع". أما نحن المسلمين فلا نقبل أى رواية على علاقتها، مهما كان راويها، إن للمصحف الإمام رسماً خاصاً، وإن خالف قواعد الخط والكتابة التي تقررت فيما بعد، والرسم ليس توقيفاً، وإنما إلهاماً، وإلا لما اختلفت اللجنة التي شكّلها عثمان في رسم كلمة "التابوت" هل يكتبونها بالتاء أم بالهاء؟ إذ رفعوا الأمر إلى عثمان، فأمر بكتابتها بالتاء؛ ولو كانت الكلمة واردة بهذا الرسم عن رسول الله ﷺ لما توقف فيها زيد بسبب الاختلاف بين المصاحف في الرسم، كما ألحنا إليه.

ويرجع سبب اختلاف المصاحف في الرسم إلى تنوع القراءات، وصوتيات اللغة واللهجات، وإجراء الوقف مجرى الوصل، أو العكس، أو إلى شكل الخط^(١)؛ ولناخذ بعض الأمثلة من كتاب "المقنع" للداني، وهو الذي أشار إليه الكاتب "كل ما في كتاب الله عز وجل من ذكر للكلمة في لفظ الواحد فهو بالهاء إلا حرفاً واحداً في قوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ (الأعراف: ١٣٧)، فإن مصاحف أهل العراق اتفقت على رسمه بالتاء؛ فأما في: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ (الأنعام: ١١٥). وفي: (يونس: ٣٣) ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وفي السورة نفسها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ٩٦)، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (غافر: ٦)، فإن وجدت الحرف الثاني من يونس في مصاحف أهل العراق بالهاء (يعني هكذا "كلمة")، وما عداها بالتاء من غير ألف قبلها، وهذه المواضع الأربعة تقرأ بالجمع والإفراد. وقال أيضاً: "وجدت في مصاحف أهل المدينة والعراق ﴿وَيَحْيَىٰ مِّنْ حَىٰ عَنْ يِّنَىٰ﴾ (الأنفال: ٤٢) بياء واحدة وذلك عندى على قراءة من أدغم^(٢) قام مقام: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ (يس: ٣٥)".

(١) الداني . المقنع ٧٩ وعبد الوهاب حمودة. القراءات واللهجات القاهرة النهضة المصرية ١٣٦٨ - ١٩٤٨ ص ١٠٤

(٢) الداني . المقنع ص ٥٠ وأيضاً ابن أبي داود . كتاب المصاحف ص ١٠٥ وما بعدها .

هذه أمثلة من الخلافات الكائنة بين المصاحف معروفة ومضبوطة ومخرجة، والمسلمون أنفسهم الذين يعتقدون في إلهية كل حرف من حروف القرآن، هم الذين رصدوها وتبعوها ووعوها تماماً؛ ولم يجدوا حرجاً في نقلها وتخرجها.

وقول الكاتب بأن الرسم العثماني^(١) كان غير واضح وأنه ترك للقارئ الحرية في أن يضبط قراءته بنفسه لنفسه فكلام غير معقول وغير مقبول على الإطلاق؛ وقد ذكرنا فيما سبق أن القرآن كان ولا يزال يؤخذ بالتلقى عن الشيوخ، ولا يعتمد فيه على الخط وحده. وبالتالي فزعم المستشرق بأن الأمر بالنسبة لوضع المصحف العثماني لم يكن قد استقر بعد، وأن الخلافات بين المصاحف العثمانية كانت تتسع أكثر فأكثر بمرور الوقت، وأن قراءات أخرى جديدة بدأت تظهر في العصر الأموي (٤١ ١٣٢هـ/٦٦١

٧٥٠م)؛ وأن الحجاج هو الذى وضع النقط، فتوسّع في الكلام، وسوء في التفسير، وتجاوز للحقائق. وأما عن القول بأن الحجاج بن يوسف قد غيّر الشكل، وأن المصحف العثماني لم يكن منقوطةً ولا مشكولاً، فرمما كان القصد من تركه هكذا هو بقاء الكلمة محتملة لأن تُقرأ بالوجه المحتملة للقراءة؛ وقد جاء عن أبي علي الفارسي أنه قال "لما عمل أبو بكر بن السراج كتاب الخط والهجا قال لي: اكتب كتابنا هذا. قلت له: نعم، إلا أني آخذ بآخر حرف منه، قال: وما هو؟ قلت قوله: "ومن عرف صواب اللفظ عرف صواب الخط"^(٢)؛

وينبغي أن يكون واضحاً غاية الوضوح أن الرسم القرآني ليس توقيفياً إذ القرآن لم ينزل مكتوباً من عند الله وإنما تلقاه الرسول ﷺ سماعاً من جبريل ثم أملاه من حفظه على كتاب الوحي فكتبوه. وقد كان النبي أمياً لا يستطيع أن يتبين رسم الكتابة. وقد ورد عنه ﷺ أنه كان يطلب من كتاب الوحي أن يعيدوا عليه ما كتبوه ليتأكد من صحة ما كتبوه، ولو كان الرسم أو الخط القرآني مهما بهذه الدرجة، لطلب النبي ﷺ من كتاب الوحي أن يتفقوا على الخط أو الرسم، هذا توجيه؛ وتوجيه آخر محتمل أن الرسم العثماني ثابت بطريق التوقيف، أو يكون الاختلاف في القراءات كله توقيفي أيضاً وهذا هو السبب

(١) دائرة المعارف ص ٤٠٨ .

(٢) الزركشي. البرهان ج ١ ص ٣٧٧ .

في اختلاف المصاحف العثمانية فيما بينها، إذ يمكن إرجاعها في الأغلب إلى اختلاف القراءات المتلقاة عن النبي ﷺ.

قال أبو عمرو الداني في المقنع "فإن سأل سائل عن السبب الموجب لاختلاف مرسوم هذه الحروف الزوائد في المصاحف - قلت: السبب في ذلك عندنا أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان، لما جمع القرآن في المصاحف ونسخها على صورة واحدة، وأثر في رسمها لغة قريش دون غيرها، مما لا يصح ولا يثبت، نظرًا للأمة، واحتياطًا على أهل الملة، وثبت عنده أن هذه الحروف من عند الله عز وجل كذلك منزلة، ومن رسول الله ﷺ مسموعة، وعلم أن جمعها في مصحف واحد على تلك الحال غير متمكن إلا بإعادة الكلمة مرتين، وفي رسم ذلك كذلك من التخليط والتغيير للمرسوم ما لا يخفاء به ففرقها في المصاحف لذلك، فجاءت مثبتة في بعضها، ومحدوفة في بعضها الآخر لكي تحفظها الأمة كما نزلت من عند الله عز وجل، وعلى ما سُمعت من رسول الله ﷺ، فهذا سبب اختلاف مرسومها في مصاحف الأمصار^(١).

وقد قلنا في أكثر من مناسبة في هذا الكتاب إن حفظ القرآن لا يعتمد على الخط وحده، وإنما على حفظ القلوب أيضًا. يقول ابن الجزرى في كتابه "النشر في القراءات العشر": "إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور، لا على حفظ المصاحف والكتب، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة"^(٢). واستشهد ابن الجزرى على ذلك بحديث مسلم^(٣): "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالًا وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ وَحَرَمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّلْتُ لَهُمْ وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَقَالَ إِنَّمَا بَعَثْتُكَ لِأَتَّبِكَ وَأَتَّبِلِي بِكَ وَأَنْزَلْتُ عَلَيْكَ كِتَابًا لَا يَغْسِلُهُ الْمَاءُ تَقْرُوهُ نَائِمًا وَيَقْظَانِ وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا فَقُلْتُ رَبِّ إِذَا يَتْلَغُوا رَأْسِي فَيَدْعُوهُ خَبْرَةٌ قَالَ اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا

(١) المقنع ١١٤

(٢) ٦/١

(٣) النووي على مسلم ١/١٩٨.

اسْتَخْرَجُوكَ وَاغْرَهُمْ نُغْرَكَ وَأَلْفَقَ فَسُنْفِقَ عَلَيْكَ وَابْعَثْ جَيْشًا تَبْعَثُ خَمْسَةً مِثْلَهُ وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مِنْ عَصَاكَ" ثم قال ابن الجزرى: "فأخبر تعالى أن القرآن لا يحتاج في حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء، بل يقرءونه في كل حال، كما جاء في صفة أمته "أناجيلهم في صدورهم"، وذلك بخلاف أهل الكتاب الذين لا يحفظونه، ولا يقرءونه كله إلا نظراً، لا عن ظهر، ولما خص الله تعالى بحفظه من شاء من أهله، أقام أئمة ثقات تجردوا لتصحيحه وبذلوا أنفسهم في إتقانه، وتلقوه من النبي ﷺ حرفاً حرفاً لم يهملوا منه حركة ولا سكوناً، ولا إثباتاً ولا حذفاً، ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم، وكان منهم من حفظه كله، ومنهم من حفظ أكثره، ومنهم من حفظ بعضه؛ كل ذلك في زمن النبي ﷺ" (١).

وعندما بدأ اختلاط العرب بالعجم يؤثر على فصاحة اللغة ويزحف إلى ألسنة قراء القرآن؛ حتى لقد شق على بعض الناس أن يميزوا بعض الكلمات القرآنية غير المعجمة، هدى الله الخليفة، فأمر الحجاج بأن يتولى عملية ضبط القرآن؛ فكلف الحجاج رجلين ليقوما بهذه المهمة هما: نصر بن عاصم الليثي، وبيحيى بن يعمر العدواني من تلامذة أبي الأسود الدؤلى؛ ولقد كان الرجلان آية في العلم، والعمل، والصدق، والضبط، والأمانة، فقاما بهذه المهمة النبيلة خير قيام، وأراحا بذلك سواد قراء القرآن (٢).

وفي هذا دليل أكيد على أنه لا يوجد في عمل الحجاج ما يضاد صحة القرآن؛ وليس فيه كذلك ما يخرم الثقة في النص القرآني وليس في عمل الحجاج ألبتة ما يوهم بأن القرآن لم يُجمع حتى هذا التاريخ أو أن الحجاج غير في القرآن شيئاً كما حلى للمستشرقين أن يرددوه.

أشار الكاتب بعد ذلك إلى قول بعض المسلمين بضرورة الأخذ بالقراءة التي توافق قواعد اللغة فقط (٣)؛ وقد مر بنا رفض العلماء لمثل هذا الرأي على أساس أن القراءة توقيفية وأن الأخذ بها واجب سواء وافقت قواعد اللغة أم لم توافقها، المهم أن تكون

(١) النشر ١ / ٦ والإمام البخارى - خلق أفعال العباد ٢ / ١٧٨ ضمن كتاب عقائد السلف .

(٢) ابن أبى داود كتاب المصاحف ١١٧ - ١١٨، ابن النديم. الفهرست؛ ابن خلدون المقدمة ٣ / ١٠٢٨ والزركشى. البرهان. ج ١ ص ٣٧٤ وما بعدها؛ والسيوطى - الإتقان ج ١ / ص ٢٢٢ وما بعدها. وانظر الزرقانى، مناهل العرفان. ١ / ٤٠٦ - ٤٠٧.

(٣) انظر: دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٠٩ .

صحت روايتها عن رسول الله ﷺ. ونضيف إلى ما سبق ذكره قول أبي البقاء في كتاب اللباب: "ذهب جماعة من أهل اللغة إلى كتابة الكلمة على لفظها إلا في خط المصحف فإنهم اتبعوا في ذلك ما وجدوه في (المصحف) الإمام والعمل الأول"^(١)

وأما عن كلام الكاتب بالنسبة لعدد القراءات هل هي سبع أم أكثر من السبع؛ فقد تعددت القراءات حتى قيل القراءات السبع، والقراءات العشر، والقراءات الأربع عشرة، وأشهرها القراءات السبع، وهي القراءة المنسوبة إلى الأئمة السبعة المشهورين؛ وهم نافع، وعاصم، وحزمة، وعبد الله بن عامر (ت: ٦٧٣/١١٨١)، وعبد الله بن كثير (٧٣٧/٨٢٠)، وأبو عمرو بن العلاء (ت: ٧٧٠/١٥٤)، والكسائي. والقراءات العشر تكون بزيادة أبي جعفر، ويعقوب، وخلف، على السبعة المذكورين؛ والأربع عشرة بزيادة أربع على قراءات هؤلاء العشرة؛ وهي قراءة الحسن البصري، وابن محيصن، ويحيى اليزيدي والشنبوذي. وقد انتشرت هذه القراءات واشتهرت في الأمصار الإسلامية على رأس المائتين، فكان لكل مصر قراءته وقراءته. ولم تدون القراءات السبع إلا نحو نهاية القرن الثالث الهجري، وقد جمع القراءات السبعة الإمام ابن مجاهد ببغداد. ثم زيدت هذه القراءات إلى الأربع عشرة؛ ولا يمنع ذلك أنه كانت هناك قراءات أخرى كثيرة على هامش هذه القراءات لكنها كانت أقل شهرة؛ ولم يأت القرن الخامس إلا وقد سادت القراءات السبعة^(٢).

وينبغي أن يكون واضحاً أن اختيار قراءة ما لم يكن عشوائياً أو متروكاً لمجرد اجتهادات الناس، هكذا بدون ضوابط؛ كلا فقد وضع العلماء قاعدة على أساسها يقبلون أو يرفضون القراءة فقالوا "إن كل قراءة وافقت أحد المصاحف العثمانية، ولو تقديراً ووافقت العربية، ولو بوجه، وصح إسنادها ولو كان عمن فوق العشرة من القراء، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها؛ بل هي من الأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن"^(٣)؛ ومهما يكن من أمر القراءات، فهي بمثابة اللهجات الكثيرة للغة الواحدة، أو هي بمثابة الفروع للأصل الواحد. والقراءة لا تقبل إلا بسند وتواتر كالأصل

(١) البرهان ١ / ٣٧٦

(٢) انظر الفهرست ص ٤٢-٥٠، وابن خلدون. المقدمة ٣ / ١٠٢٨، الزرقاني. مناهل ١ / ٤١٦ - ٤١٨.

(٣) الزرقاني. مناهل ١ / ٤١٦ - ٤١٨.

في القرآن. وما لم يثبت إلا بطريق الآحاد فإنه مردود، وقد تعددت القراءات بتعدد الشيوخ الكبار ومن أخذ عنهم في الأعصار المختلفة والأمصار المتعددة حتى إذا ما جاء القرن الثالث الهجري تصدى ابن مجاهد لضبط ما رواه الثقات من القراءات وتمييزه عن غيره. وكان أبو بكر بن مجاهد هو أول من اختار القراءات السبع واقتصر عليها. وتحديد ابن مجاهد للقراءات بسبع، كان بغرض التوفيق بين عدد القراءات وعدد اللغات والأحرف التي نزل بها القرآن كما في حديث: "أُنزل القرآن على سبعة أحرف"^(١).

وفعل ابن مجاهد ليس ملزماً، بل لقد اتفق علماء السلف على أنه لا يتعين أن يقرأ بهذه القراءات المعينة في جميع أمصار المسلمين بل لكل واحد ما اختار منها^(٢).

ذكر أبو محمد مكي بن أبي طالب^(٣): أن العلماء أحصوا في كتبهم أكثر من سبعين ممن هو أعلى رتبة، وأعظم مكانة من هؤلاء السبعة الذين احصاهم ابن مجاهد؛ بل لقد أهمل بعض المعنيين بالقراءات ذكر بعض هؤلاء القراء السبعة. وإن كثرة القراءات وتعددتها وانتشار القراء ووفرهم، دليل واضح على ذبوع القرآن وانتشاره وعلى اهتمام المسلمين به إذ كان القرآن دائماً موضع عناية العلماء ومشايخ الحفاظ والقراء، كما كان محل عناية المسلمين جميعاً، عملاً وتطبيقاً، ومدارسة وتدبراً.

والله اعلم بالصواب. والحمد لله رب العالمين.

(١) انظر: مقدمة المحرر الوجيز لابن عطية ضمن "مقدمتان في علوم القرآن" ص ٢٦٥ وما بعدها.

(٢) انظر: جامع البيان للطبرسي ١٠٦/١ النشر في القراءات العشر ١٣٣/١ وأيضاً عبده الراجحي اللهجات ص ٧٤، ٧٥.

(٣) النشر في القراءات العشر ٦٣/١؛ والراجحي. القرآن واللهجات ٧٥؛ وعبد الصبور شاهين. القراءة القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث. القاهرة. الخانجي ١٩٦٦ ص ٧٠.

الباب الرابع

بنية القرآن

تمهيد

الفصل الأول ... السور وأسمائها

الفصل الثاني ... الآيات

الفصل الثالث ... البسملة

الفصل الرابع ... الحروف المقطعة

الفصل الخامس ... عناية المسلمين بالحروف المقطعة

مُهَيِّدٌ

فى هذا الباب يتعرض الكاتب لأسماء السور وحجم الآيات القرآنية وموقعها من السورة، وأيضًا للسمات الأدبية التى تميزها يقول "إنه على الرغم من ورود اسم "آية" فى القرآن بالإفراد والجمع، إلا أنه ليس من الواضح، أن هذه اللفظة كانت تستعمل منذ البداية كإشارة إلى الجزء المحدد من القرآن كما هو معروف اليوم، لقد كانت هذه الكلمة تعنى المعجزة فى بداية الأمر ثم استخدمت فيما بعد للدلالة على الآية من القرآن". يريد ويلش أن يقول إن محمدًا أو الصحابة قد نقلوا الكلمة من معناها الأول إلى معنى آخر بهدف تحديد معالم القرآن الكريم، وأن محمدًا أو أصحابه قد أخذوا المعنى الجديد للكلمة من كتب اليهود والنصارى. وتلاحظ هنا كما لاحظنا فى كل موضوع تناولنا فيه كلام المستشرقين أن الكاتب دائمًا جد حريص على إرضاء غروره العنصرى بجعل كُتبه المقدسة هى المعيار، وهى الأصل الذى يقاس عليه. ويقول بعد ذلك متصلًا "إن أول سورة فى القرآن هى فاتحة الكتاب، المكونة من سبع آيات، وهى عبارة عن دعاء من العبد لربه، وباستثناء سورتي يوسف ونوح فإن معظم سور القرآن تبدو وكأنها مكونة من مقاطع أو أجزاء مختلفة، متنافرة وغير مترابطة ولا يجمعها عنوان واحد ومحدد ولا نسق موضوعى بعينه، وإن سورتي يوسف ونوح مركبتان من عناصر مختلفة جمعت من عدة سور أخرى؛ وإن بعض سور القرآن وبالتحديد الثلاثة الأخيرة منه تبدو وكأنها فقرات مقطوعة الصلة بباقي سور القرآن.

"Most of the Suras consist of several segments or periscopes that are only loosely connected often with little or no apparent connection of Thought". (The Encyclopaedia of Islam, vol. 2. p. 409, col. 8).

ويشير ويلش فى هذا الصدد إلى سقوط المعوذتين من مصاحف بعض الصحابة وإلى

سورتي الفيل ولإيلاف قريش اللتان عدتا سورة واحدة فى مصحف أبيّ.

إننا لا نتهم ويلش بالجهل أو الغفلة هنا وإنما نتهمه أكثر بالتعصب وذلك لأنه أخذ القول السابق فيما يخص مصحف أبي بن كعب من كتاب الإتقان للإمام السيوطى واقتصر عليه دون تفنيد أو اعتبار للروايات الأخرى الأشد وثوقًا من هذه الرواية التى اهتبل بها.

أضف إلى ذلك أن الإمام السيوطى قد أورد هذا الخبر فى الكتاب نفسه وفى الموضع نفسه الذى اطلع عليه ويلش، لكن السيوطى قد استشهد على ردّ خبر مصحف أبي بالحديث

الذى أخرجه الطبراني من حديث أم هانئ، أن رسول الله ﷺ قال: "فَضَّلَ اللهُ قريشًا بسبع...". الحديث؛ وفيه: "وإن الله أنزل فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها معهم غيرهم- لإيلاف قريش"^(١).

وهَبُ أن واحدًا من الصحابة فعل ذلك في مصحفه الذى كتبه لنفسه بخاصة فهل يكون فعله حجة على جميع الصحابة وحرَقًا لإجماعهم؟. إذ كانوا قد أجمعوا على اعتماد مصحف عثمان رضى الله عنه لا غير والذى فيه المودتان وسورتا الفيل وإيلاف قريش كسورتين منفصلتين.

وزعم ويلش كذلك أن سورتي العصر والكوثر قلقتان في موضعيهما من المصحف وبعبارة هو:

"Some short suras (e. g. C III, CV III,) seem to be isolated fragments; and it is not unlikely that some for the present Suras or parts of them were once joined with others. For instance, 'Ubayy b. Ka'b and other really authorities are reported to have regarded CV and CVI as a single Sura"⁽²⁾

ولسنا ندرى على أى أساس حَكَمَ ويلش بأن هاتين السورتين بالذات دون باقى السور القصار الأخرى قلقتان في موضعيهما؟ إنه ربما حكم هذا الحكم لَمَّا لاحظ أن سورة العصر تشتمل على سطرين اثنين، وأما تتوسط سورتين تشتمل كل منهما على أربعة سطور فحكم بظاهر المرسوم مع إهمال متعمد للحقائق المقررة. والكلام نفسه يقال فى تعليل رأى المستشرق بالنسبة لسورة الكوثر التى تشتمل هى الأخرى على سطرين، وتتوسط كذلك سورتين رباعية السطور، وليستا هما جاريتين فى موضعيهما على قاعدة ترتيب المصحف، من حيث عدد السطور أو الآيات؛ ولو أننا طبقنا قاعدة أن سور القرآن مرتبة بحسب الطول والقصر فقط، كما يحاول المستشرق ويلش أن يقول، لحكمنا أن سورًا كثيرة موضوعة، بناءً على منطق هذا، فى غير مواضعها؛ وكان من الأنسب على هذا المنطق الخاص به ألا توضع الفاتحة فى أول المصحف، بل مع قصار السور أى فى آخر المصحف.

(١) الإتيان ج ١ ص ١٨٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٢. ص ٤٠٩ وما بعدها.

لقد نهنا مراراً إلى أن ترتيب سور القرآن لم يكن اجتهادياً؛ بل توقيفياً، لا دخل للعقل ولا للمنهجية البشرية فيه؛ فللقرآن منهج ونسق خاصين به، بل إنني قد أغامر فأقول إن هذا الترتيب المعجز لسور القرآن يعتبر من قبيل التشابه الذي يحتاج إلى إعمال الذهن للتوصل إلى العلاقات التي تجمع بين أجزاء القرآن من أوله إلى آخره والتي قد تبدو غير واضحة أحياناً. ليس في القرآن خلل أثبت ولا عوج ولا اختلاف أبداً لا في ترتيب السور ولا في ترتيب الآيات.

لقد تكلم علماؤنا في مناسبة الآيات والسور القرآنية، وأفرده جماعة منهم بالتأليف ربما كان من أولهم أبو جعفر بن الزبير شيخ أبي حيان الذي ألف كتاباً سماه "البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن"، وللشيخ برهان الدين البقاعي السورى (ت: ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م)، كتاب بعنوان "نظم الدرر في تناسب الآي والسور". كذلك ألف السيوطي كتاب "تناسق الدرر في تناسب السور"؛ وكما تكلم بعض المفسرين في موضوع ترتيب السور والآيات يقول الفخر الرازي عند تفسيره لسورة البقرة على سبيل المثال:

"ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها، علم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه، وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بسبب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا: إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك، إلا أني رأيت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير متبهرين لهذه الأسرار، وليس الأمر في هذا الباب إلا كما قيل:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ وَالذَّبُّ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصَّغَرِ

ويُعرف السيوطي المناسبة بقوله هي في اللغة المشاكلة والمقاربة، ومرجعها في الآيات ونحوها إلى معنى رابط بينهما، عام أو خاص، عقلي أو حسي أو خيالي، أو غير ذلك من أنواع العلاقات أو التلازم الذهني، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول، والضدين، ونحوه".
ويبين فائدتها بقوله إنها: "جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء"^(١).

أمّا الشيخ عز الدين بن عبد السلام فقد اعترض على القول بوجود مناسبة بين سور القرآن وآيه؛ واعتبر البحث في ذلك تكلفاً وذلك بحجة "أن ارتباط الكلام لا بد وأن يقع في أمر متحد مرتبط أوله بآخره، والقرآن قد نزل في نيف وعشرين سنة، وفي أحكام مختلفة، شرعت لأسباب مختلفة، وما كان كذلك لا يتأتى ربطه ببعضه ببعض". وقد رد الشيخ ولي الدين

الملوى على مثل هذا الاعتراض بقوله: "وفصل الخطاب ألها (أى السور والآيات) على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق اللوح المحفوظ، مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، كما أنزل جملة إلى بيت العزة؛ ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر، والذي ينبغي فى كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكتملة لما قبلها أو مستقلة؛ ثم المستقبل ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففى ذلك علم جم وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سبقت له^(١).

وهنا ينبغي أن تنبه على أن قول العز بن عبد السلام بأن ترتيب السور والآيات ليس بينها مناسبة نظراً لنزولها على التراخى واختصاص كل منها بأحكام مستقلة فهو قول لا نوافقه عليه فإن القرآن مصدره واحد، وهو على الرغم من تراخى فترات نزوله كتاب واحد ونظم واحد، ومع هذا فليس هناك ما يؤيد رأى المستشرقين، فى دعوى عدم ترابط سور القرآن وآياته، إذ أن فحوى كلام العز بن عبد السلام: أن القرآن ليس كتاباً من صنف ما يؤلفه البشر، يعنى أن له مقدمة، وموضوعاً، وخاتمة، وغير ذلك؛ وإنما هو كتاب إلهى له نظامه الخاص ونظمه المعجز وترتيبه الفريد؛ فالقرآن ينظم الآيات فى سلسلة نظم العقد للحبات المشعة، فإنها مهما تباعدت فى المسافات واختلفت فى الأحجام، تخضع لنظام جمالى واحد؛ أو هو كماء المحيط مهما تباعدت مسافته اتحدت صفاته وسماته.

أما مقصد المستشرقين فهو أنهم على عكس ذلك، يزعمون أن القرآن لا تجمع سورهُ وآياته آية رابطة أو مناسبة، وليس له نسق فكرى أو موضوعى متصل، وهم بذلك يريدون أن يصلوا إلى تأكيد وجهة نظرهم فى بشرية القرآن وتعدد مصادره التى نقل عنها، وهذا فوق أنه يصادم عقيدة المسلمين فى القرآن فإنه معارض بجميع الأدلة التى قدمناها وأقواها وأسمائها دليل القرآن نفسه.

إن زعم المستشرق ويلش بأن آيات القرآن لا يربطها نسق فكرى واحد، لا أساس له من الصحة؛ فأيات الذكر الحكيم متصلة، ومتواصلة فيما بينها، إنها بمثابة النجوم، لكل نجم نوره فى نفسه، ونوره الذى يمتزج بنور غيره من النجوم الأخرى، فإذا أنت نظرت إلى مجموع

(١) المصدر نفسه والموضع وانظر الأمثلة على ما قلناه فى الإتقان وتفسير الفخر الرازى .

هذه النجوم وجدت كل واحد منها قائماً بنفسه مستقلاً بذاته متميزاً بآلقه، ولكنك إذا نظرت إلى ذلك السَّنة اللاهوائي الذي يضم مجموع أنوار هذه النجوم وجدتها كلها، وكأنها برزت من هذا اللجين المتراعى الأطراف، وانثقت من هذا المحيط النوراني المتدفق.

إنه من الجلي أنه لا توجد سورة من سور القرآن يمكن أن تكون عن القرآن بمعزل، وليس في القرآن ألبَّة تركيب اصطناعي، أو تصنيف بشري ولا تجميع ولا تقطيع، بل وحدة وانسجام، وجمال وكمال، إن القرآن، كل القرآن صادرٌ عن المنزَّل العظيم، ودالٌّ على الله رب العالمين، الذي لا شريك له في ملكه ولا في كلمه؛ يقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝ ﴾ (النساء: ٨٢)؛ ويقول تبارك تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَضْلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ (الأعراف: ٥٢). ويقول تعالى: ﴿ فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۝ ﴾ (الأعراف: ٧)؛ ويقول: ﴿ الرَّ كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَضَّلْتُ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَيْرٍ ۝ ﴾ (هود: ١)، ومعنى "فُضِّلَتْ" أحكمت في صورتها ومعناها بمقياس دقيق، وتركيب بديع مناسب لما فصلت له مناسبة الثوب للبدن، والأعضاء للجسم، والفصل هو موضع المفصل، وبين كل فصلين وصل، ومما قيل شعرا في هذا المعنى: "وصلاً وفصلاً، وتجميعاً ومفترقاً، فتقاً ورتقاً وتأليفاً لإنسان"؛ ويقال: "عقد مفصل" أى جعل بين كل لؤلؤتين خرزة^(١)؛ ويقول تعالى: ﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۝ ﴾ (العنكبوت: ٤٩)؛ ويقول: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾ (فصلت: ٤١ - ٤٢).

(١) انظر ابن كثير مختصر تفسير ٢/ ٢١٠؛ الراغب الأصفهاني. المفردات ص ٦٣٨، ٦٣٩؛ وابن منظور. لسان العرب ١١/

الفصل الأول

السور وأسمائها

وأما بالنسبة لتعدد المصاحف واختلافها في ترتيب السور وأسمائها والتي أثارها الكاتب؛ فنقول إن هذا الاختلاف راجع إلى أن الصحابة كانوا يكتبون مصاحف خاصة بهم يرتونها حسب السماع أو على ما رأوه حسناً، وكان ذلك قبل جمع القرآن في الصحف وقبل ظهور مصحف عثمان الذي التزم فيه ترتيب النبي ﷺ للسور إذ الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات في السور توقيفي^(١)؛ وفي كتب الأحاديث الكثير من الشواهد على ذلك؛ على سبيل المثال، فقد أخرج أحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس قال: قُلْتُ لِعُثْمَانَ مَا حَمَلَكُم عَلَى أَنْ عَمَدْتُمْ إِلَى سُورَةِ الْأَنْفَالِ وَهِيَ مِنَ الْمَثَانِي وَإِلَى سُورَةِ بَرَاءَةَ وَهِيَ مِنَ الْمِثْنِ فَقَرَأْتُمْ بَيْنَهُمَا وَلَمْ تَكْتُبُوا بَيْنَهُمَا سَطْرَ "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" فَوَضَعْتُمُوهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَالِ فَمَا حَمَلَكُم عَلَى ذَلِكَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَهُوَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ فَكَانَ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ دَعَا بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ لَهُ فَيَقُولُ ضَعُوا هَذِهِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَاتُ قَالَ ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتُ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَإِذَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ الْآيَةُ قَالَ ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَكَانَتْ سُورَةُ الْأَنْفَالِ مِنْ أَوَائِلِ مَا نَزَلَ بِالْمَدِينَةِ وَكَانَتْ سُورَةُ بَرَاءَةَ مِنْ أَوَاخِرِ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ فَكَانَتْ قِصَّتُهَا شَبِيهَا بِقِصَّتِهَا فَظَنْنَا أَنَّهَا مِنْهَا وَقَبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَمْ يُبَيِّنْ لَنَا أَنَّهَا مِنْهَا فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ قَرَأْتُ بَيْنَهُمَا وَلَمْ أَكْتُبْ بَيْنَهُمَا سَطْرَ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وَوَضَعْتُهَا فِي السَّبْعِ الطُّوَالِ^(٢) واضح من هذا الحديث أن النبي ﷺ كان هو الذي يرتب الآيات في السورة ويبين كل شيء يختص بالقرآن إلا البسملة فيما يخص أول سورة براءة وأن عثمان لم يشبها مخافة أن يكون قد ابتدع في كتاب الله ما ليس منه؛ ولو أن عثمان كان

(١) السيوطي. الإتقان ١/١٧٢. الزركشي. البرهان ١/١٤٥ وما بعدها وابن أبي داود. كتاب المصاحف. ص ٣١، ٣٢.

(٢) الإتقان ١/١٧٢ وابن أبي داود كتاب المصاحف ص ٣١، ٣٢ وكلمة طول بمعنى طوال.

من يُعْمَل في القرآن عقله أو هواه لوضع البسملة في أول سورة براءة قياساً على جميع سور القرآن ولما وجد في ذلك حرجاً ألبته؛ ولكنه التزم واتبع ولم يتأول، مما يدل على أن الأمر توقيفي لا اجتهادي، ويمكن أن يقال هنا إنه كان أمر ترتيب القرآن موضع اجتهاد وجراً، لطرحها أو طرحها غيره من موضعها في سورة النمل، لأنها لم ترد في أول السورة كما هو الحال بالنسبة لسائر سور القرآن.

وقول النبي ﷺ: "ضعوا هؤلاء الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا" فيه إشارة إلى أنه ﷺ لم يكن يعرف اسم السورة حتى يأتيه بها جبريل عليه السلام بدليل أنه عنها ببعض محتوياتها لا باسمها، كما في الحديث الذي رواه مسلم عن عمر قال: ما سألت النبي ﷺ عن شيء أكثر مما سألته عن الكلاله، حتى طعن بإصبعه في صدرى وقال: يكفيك آية ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾ التي في آخر سورة النساء (الآية: ١٧٦)، فقد حدد النبي ﷺ هنا السورة باسمها لا ببعض محتوياتها، وقربها للسامع بالإشارة إلى موضعها في السورة على جهة التيسير.

ويمكن أن نقول إن ترك عثمان للبسملة في أول سورة براءة، يعتبر سنة، إذ وافقه على ذلك جميع الصحابة الذين لا يجتمعون على ضلالة، وأعمال الخلفاء الراشدين وأقوالهم داخله في عموم سنة النبي ﷺ بنص قوله: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي) ولعل النبي ﷺ لم يبينها لحكمة؛ وما كان لعثمان أن يضيف إلى القرآن ما ليس منه. قال البيهقي في المدخل: "كان القرآن على عهده ﷺ مرتباً سورة وآياته على هذا الترتيب إلا الأنفال، وبراءة لحديث عثمان السابق^(١).

وقد وردت الآثار بتعزيز هذه المسألة فقد روى مسلم قول النبي ﷺ: "اقرأوا الزهراوين، البقرة وآل عمران"، وكحديث سعيد بن خالد: "قرأ ﷺ بالسبع الطول في ركعة" رواه ابن أبي شيبة في مصنفه؛ وما رواه البخاري عن ابن مسعود أنه قال في بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء: "إنهن من العتاق الأول وهن من تلادى" أى ذخائرى وعتادى، حيث ذكر النبي ﷺ هذه السور نسقا كما هي في ترتيب المصحف، وورد أنه ﷺ سمى سورة الحمد بفاتحة الكتاب وهي كذلك موضوعة في أول المصحف.

قال ابن الحصار: "ترتيب السور ووضع الآيات مواضعها إنما كان بالوحي" وقال الكرماني:
"ترتيب السور هكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، على هذا الترتيب" ^(١).

ويمكن أن نفيد من حديث تحزيب القرآن أى تقسيمه إلى أحزاب، الذى أخرجه
أحمد وأبو داود عن أوس بن أبي أوس حذيفة الثقفى أن ترتيب السور والآيات كان
توقيفياً ^(٢).

ومن مؤكدات ذلك تحدى القرآن للكفار أن يأتوا بسورة من مثله أو بعشر سور
مفتريات؛ وهذا في حد ذاته يفيد تحديد السور وترتيبها أيضاً. ودلل السيوطى على أن
ترتيب السور كان توقيفياً بطريقة عقلية قال: "ومما يدل على أنه (أى القرآن) توقيفى
كون الحواميم رتبت ولاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات ولاءً، وفصل بين
﴿طسّم﴾ الشعراء، و ﴿طسّم﴾ القصص بـ ﴿طس﴾ مع أنها أقصر منهما، ولو كان الترتيب
اجتهادياً لذكرت المسبحات ولاءً وأخرت ﴿طس﴾ (هى سورة النمل) عن القصص؛
وهذا يعنى أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال، وإليه مال السيوطى ^(٣).

وقول الزركشى فى البرهان أن ترتيب سور القرآن لم يكن أمراً أوجبه الله تعالى بل
كان أمراً راجعاً إلى اجتهاد الصحابة واختيارهم، معارض بالأدلة الكثيرة التى قدمناها وهو
معارض فى الوقت نفسه لروح القرآن وطبيعة نزوله على النبى ﷺ؛ وأما قول الزركشى
فى تعليل رأيه هذا، أن المصحف لم يُكتب (يعنى بهذا الترتيب) فى عهد النبى ﷺ لئلا
يُفضى ذلك إلى تغييره فى كل وقت، لأن الوحي كان لا يزال ينزل على النبى ﷺ ولم
يكن قد اكتمل بعد. نقول إن هذا التوجيه يمكن أن يستشهد به على جمع القرآن فى
كتاب بعينه لا على ترتيب سور وآياته.

وربما ظهر ذلك جلياً إذا ذكرنا أن النبى ﷺ قد عارض جبريل بالقرآن أى قرأه كله
عليه مرتين فى شهر رمضان من السنة التى توفى فيها ﷺ؛ ومعنى ذلك أن النبى ﷺ قد قرأ
القرآن كما هو، وعلمه الصحابة بهذا الترتيب، الذى بين أيدينا؛ لكن بعضهم كانوا قد

(١) المصدر نفسه جـ ١ ص ١٧٤.

(٢) السيوطى الإتيان جـ ١ ص ١٧٨، ١٧٩.

(٣) المصدر نفسه ص ١٧١.

كتبوا لأنفسهم مصاحف التزموا فيها بترتيب النزول، كالإمام على، إذ أن مصحفه يحتوى على الترتيب التالى: "اقرأ، ثم المدثر، ثم المزمل، وهكذا؛ وقع هذا من على وغيره قبل أن يُعرف الترتيب التوقيفى للقرآن؛ لكنه لما عرفه أخذ به مثل سائر الصحابة^(١) رضوان الله عليهم. وبقيت المصاحف الأخرى مصحف عبد الله بن مسعود، ومصحف أبي، لمجرد البحث فى تاريخ القرآن.

ومن المفيد نقل هذا الاعتراض والرد عليه وهو لصاحب مقدمة كتاب المبانى "كيف صح قولكم أن القرآن مرتب فى اللوح المحفوظ على هذا الترتيب؟ وأن الصحابة لم ترتبه بأنفسها؟ ؛ وقد انتشرت الأخبار أن أول ما نزل على النبى ﷺ: ﴿ أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾، وقوله: ﴿ تَبَآئِبُ الْمُدَّثِّرِ ﴾. وقالوا: إنا وجدنا مصاحف عتقا مفرقة فى البلاد منسوبة إلى عبد الله بن مسعود على خلاف هذا الترتيب الذى فى أيدينا؛ فكيف يجوز مع هذا الخلاف الظاهر أن يدعى أن هذا الترتيب متفق عليه؟

قلنا: إنه قد رويما تقدم عن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾، يعنى أن الله عز وجل أنزله جملة إلى سماء الدنيا، ثم كان ينزل منها نجوماً السورة بعد السورة، والآية بعد الآية على حسب الحاجة إليه وإلى معرفة أحكامه، وتعليمه، وترتيبه، ومعرفة موضع كلماته وسوره. ومثال هذا فى الشاهد أن تعلم المبتدئ، أنه يبتدئ بتلقيه من أول القرآن، وربما يبتدئ من آخره، وقد يبتدئ من وسطه سوراً متفرقة من القرآن على حسب رغبة المبتدئ، وحرصه واحتياجه إلى تعلمه ؛ ثم لا تأمره بأن يحفظ على هذا الترتيب الذى لقنه، بل تأمره أن يضع كل سورة منها فى موضعها عند الحفظ والجمع والدراسة والتلاوة. كذلك كان جبريل عليه السلام ينزل على النبى ﷺ الآية بعد الآية، والسورة بعد السورة على حسب الحاجة كما تقدم عن ابن عباس وأبى بن كعب. يدل على هذا الذى ذكرنا أن مصاحف كثيرة قد وجدت وهى متفقة غير مختلفة بحمد الله ومنه.

ثم يسوق المؤلف رحمه الله رواية عن محمد بن كعب القرظى يقول فيها: "رأيت مصاحف ثلاثة: مصحفاً فيه قراءة ابن مسعود، ومصحفاً فيه قراءة أبي، ومصحفاً فيه

(١) الإتيان ١ / ١٧٦ والبحارى. خلق أفعال العباد ضمن عقائد السلف ص ٢٠٩.

قراءة زيد؛ فلم أجد في كل منها ما يخالف بعضها بعضاً" ثم يقول: "وهذه الحجج كلها نيرة دالة على صحة ما أنبأنا عنه، وبطلان ما ادعاه علينا المخالفون المعاندون".

ثم يتصدى الشيخ لدعوى مخالفة مصحف أبيّ، بقوله: "إن هذا ربما كان بفعل فسّاق المسلمين الذين ربما كتبوا مثل هذه المصاحف وقدموها إلى الرؤساء والكبار المولعين بكل غريب؛ وذلك بغرض التوصل إلى ما لهم والانتفاع بتقريبهم إياهم"^(١). وهذا الكلام من المحتمل وقوعه.

وقد ذكرنا من قبل أن أسماء سور القرآن توقيفية كذلك، كان ينزل بها جبريل على رسول الله ﷺ، وقد استعرضنا بعض الأحاديث التي ذكر فيها النبي ﷺ بعض السور بأسمائها، ولا يعقل أن تنزل السور بغير "أسماء" كما يزعم المستشرق ويلش^(٢). وقد تكلم العلماء في مناسبة اسم السورة مع الموضوع الذي تعالجه، فذكروا أن السورة ربما سميت باسم موضوع، أو حدث تكرر فيها؛ فالبقرة، على سبيل المثال، سميت هكذا لقريئة ذكر قصة البقرة فيها وعجيب حکمتها^(٣)، وسميت سورة النساء بهذا الاسم لأنها تتحدث عن أحكام النساء بصفة عامة وعن الموارث وحظ النساء منها الذي أوجبه الله تعالى بعد أن لم يكن لهن في الميراث شيئاً قبل الإسلام؛ والأنعام لما ورد فيها من أحكام الحيوان والذبائح؛ وكون السورة تحمل أكثر من اسم أو وصف فليس هذا دليلاً على أن هذه الأسماء من وضع الصحابة، وإلا فالقرآن نفسه يحمل أكثر من اسم، كما ذكرناه في موضعه.

يدعى المستشرق بعد ذلك أن حجم الآية غير معروف، وأن الآيات، مثل السور، تختلف فيما بينها من حيث الطول والقصر ومن حيث الأسلوب؛ فالآيات القصيرة، وهي السابقة من حيث التنزيل، تكون مسجوعة، وذات إيقاع قد يصل حتى إلى درجة الميزان الشعري في بعض المواضع، كما في قوله تعالى في سورة المدثر على سبيل المثال: ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ۝ وَتِيَابُكَ فَطَهَّرٌ ۝

(١) آرثر جفرى. مقدمتان ص ٤٦، ٤٧.

(٢) انظر: دائرة المعارف ص ٤١٠.

(٣) الزركشى. البرهان ١ / ٢٧٠.

وَالرَّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿١٠﴾ وَلَا تَمْنُنْ فَتَنْكَرُ ﴿١١﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿١٢﴾ ﴿١٣﴾ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿١٤﴾ وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّهَا ﴿١٥﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّهَا ﴿١٦﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿١٧﴾ وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَنَاهَا ﴿١٩﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٢٠﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٢١﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿٢٣﴾ كَذَّبَتْ ثُمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿٢٤﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿٢٥﴾ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ نَاقَةُ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿٢٧﴾ وَلَا تَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٢٨﴾ ﴿٢٩﴾

هذا الإيقاع يتم عن طريق تكرار أشكال لغوية أو لفظية معينة، وليس عن طريق محاولة تطبيق الميزان الشعري سواء عن طريق المقطع أو النبر. ومثل هذه الآيات تستعصى كلها دائماً على الترجمة من وجهة نظر الكاتب^(١). والحقيقة أن القرآن كله تصعب ترجمته؛ لأن عباراته وأبنيته معجزة كمعانيه ومفاهيمه تماماً؛ وليست توجد لغة تتحمل معاني القرآن الكريم على وجه الكمال، كما سنبين في الباب الخاص بترجمة القرآن.

الفصل الثاني

الآيات

يزعم الكاتب نفسه أننا بناءً على التركيب الداخلي للقرآن، لا نستطيع أن نعرف متى تنتهى آية وتبدأ أخرى. ويقول إن بعض الآيات تنتهى بسجع غير منتظم أو شاذ وقد تأتى أحياناً موزونة، وإن مقدار الآية غير موضح بالمخطوطات القديمة للمصحف وإنما تختلف فيما بينها بدرجة ما حتى عندما يشار إلى نهايات الآيات فيها. وهذا فى نظر الكاتب ربما يعكس الاختلاف فى عملية النقل الشفهى للقرآن، والى ترجع إلى التقسيمات الداخلية للنص فى حياة النبي ﷺ؛ حيث ظهرت عدة اختلافات فى تقسيم الآيات وترقيمها داخل الأمة الإسلامية. يقصد ويلش بذلك الطعن فى صحة النص القرآنى وسلامته من التحريف مستشهداً على ذلك بما ورد فى بعض المصاحف من الاختلاف فى حجم بعض الآيات كما فى النسخة الهندية التى اعتمد عليها إم. بيكثال والنسخة المعتمدة من الأزهر الشريف فى مصر.

مشيراً فى هذا السياق إلى أن بعض المصاحف تحسب البسمة آية وبعضها لا تحسبها، فمصحف القاهرة يعد البسمة آية رقم ١ فى سورة الفاتحة، هذا المصحف متضارب فى عد الحروف المقطعة، إنه يعتبرها آيات مستقلة عدا ﴿ حَمْدٌ ﴾ ﴿ عَسَقٌ ﴾ اللتين اعتبرتا آيتين، ثم يشير ويلش فى هذا الصدد إلى جوستاف فلوجل (١٨٣٤م) الذى قدم نصاً للقرآن مخالفاً فى ترتيب سورته وأرقام آياته للمصحف العثمانى، ومخالفاً كذلك للمحاولات الاستشرافية السابقة فى إعادة ترتيب المصحف. لقد غير فلوجل أرقام الآيات فى أكثر من نصف السور تقريباً ولم يعد البسمة والحروف المفرقة آيات مستقلة.

ومحاولة فلوجل هذه مرفوضة تماماً وهى لا تخدم بل تهدم. إنه يحاول التشكيك

في الترتيب التوقيفي للقرآن والذي استقر عليه إجماع الأمة. ولقد حاول السيد محمد الباقر أن ينشر كتاباً مماثلاً بعنوانه "ترتيب سور القرآن الكريم حسب التبليغ الإلهي" وقد اعترض عليه سماحة مفتي لبنان. ونشرت مجلة رابطة العالم الإسلامي نص خطابه إلى وزارة الأبناء.

ومما جاء في نص اعتراض دار الإفتاء اللبنانية أن الكتاب المشار إليه (يحتوي على مغايرات للحقيقة التاريخية والعلمية)^(١).

وقد تبني بعض المترجمين الغربيين مثل بل، وآربري، ترقيم فلوجل للآيات، وآخرون منهم تبنيوا الترتيب الذي جرت عليه الطبعة المصرية للمصحف ولقد تخلى المستشرق الفرنسي ريجس بلاشير وهو من المتحمسين لفلوجل، عن ترتيب هذا الأخير لآيات القرآن الكريم^(٢).

(١) مجلة رابطة العالم الإسلامي. العدد السادس السنة السادسة شعبان ١٣٨٨/٧/١٥ ١٩٦٨ أكتوبر ص ٨٦ وانظر أيضاً: د. محمد صالح البنداق. المستشرقون وترجمة القرآن. ص ١١٢ - ١١٣. وقارن ترتيب فلوجل لآيات المصحف بما أورده صاحب مقدمة كتاب المبان ضمن "مقدمتان في علوم القرآن" ص ٨ - ١٢ تحقيق آرثر جفري.

(٢) محمد صالح البنداق المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ١١٥.

الفصل الثالث

البسملة

يناقش الكاتب بعد ذلك البسملة التي تنصدر كل سور القرآن إلا سورة براءة والتي تظهر أيضاً في سورة النمل كافتتاحية لرسالة سليمان عليه السلام إلى بلقيس ملكة سبأ مشيراً إلى الاختلاف بين المترجمين في ترجمتها وإلى موقف المسلمين من الفاتحة، حيث اعتبر بعضهم البسملة كآية منزلة ووضعوها في مقدمة كل سورة من سور القرآن؛ مع أن أدلة القرآن نفسه تقرر غير ذلك. ويتبع الكاتب ألفاظ البسملة في القرآن يحللها ويعللها حتى يصل إلى أن لفظي ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ لم يظهرها في القرآن إلا في وقت متأخر جداً، ثم يشير أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ (الإسراء: ١١٠) وإلى اعتراض وصف كفار مكة على لفظ "الرَّحْمَن" كاسم لله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ﴾ (الفرقان: ٦٠). ويزعم أن لفظ "الرَّحْمَن" وهو في الأصل أجنبي، لا يظهر وحده في القرآن إلا نادراً جداً؛ وهو بهذا الوضع يفقد مغزاه كاسم عَلِمَ على الله تعالى؛ لأنه مرتبط دائماً بالرحيم. أضف إلى ذلك أن الأصل العربي "رَحِم" يشكل دليلاً آخر على ظهور البسملة على مراحل متعاقبة^(١).

بعد أن بيّنا أهم مزاعم ويلش حول البسملة نقول إنه يحتوي على بعض الأخطاء التي نبينها فيما يلي:

أولاً: تعتبر الآية جزءاً من السورة، وبالتالي من القرآن؛ وهي معلومة ومحددة توقيفياً، ولا يدخل القياس في تحديد مقدارها ﴿المر﴾ آية حيث وقعت من السور المفتوحة بها وهي ست "البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة" وكذلك ﴿المرص﴾ الأعراف آية، و ﴿المر﴾ لم تُعد آية، و ﴿الر﴾ ليست بآية في سورها الخمس، ﴿طس﴾ آية في سورتها (الشعراء، القصص) و ﴿طه﴾ و ﴿يس﴾ آيتان، و ﴿طس﴾ ليست بآية،

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٤١٠

و﴿حَم﴾ في سورها كلها، ﴿حَمَّ﴾ عَشَق ﴿﴾ الشورى آيتان، ﴿كَهَيْقَص﴾ مريم آية واحدة، و﴿صَ﴾ و﴿قَ﴾، و﴿رَ﴾ ثلاثها لم تعد آية، هذا مذهب الكوفيين، لم يعدوا شيئاً منها آية. ولو وكل الأمر إلى العقل والاختيار لما جاءت المسألة على هذا النحو. ولما أجاز العقل أن تحسب ﴿الْمَص﴾ والمشملة على أربعة حروف آية، و﴿الْمَر﴾ المشتملة على العدد نفسه من الحروف ليست آية.

و﴿الر﴾ ثلاثية الحروف ليست بآية، و﴿طَسَم﴾ والتي تحتوى على العدد نفسه من الحروف تعد آية. وهكذا وأن آية الدين في سورة البقرة وهى أطول آية في القرآن تعد آية وكلمة ﴿مُدْهَامَتَانِ﴾ (الرحمن: ٦٤) آية ليس للعقل ولا للاجتهاد إذن هنا مجال؛ وإنما هو التوقيف والتكليف. لذلك قال بعض العلماء "الصحيح أنها، أى الآية إنما تعلم بتوقيف من الشارع، لا مجال للقياس فيه كمعرفة السورة، فالآية طائفة حروف من القرآن علم بالتوقيف انقطاعها معنى عن الكلام الذى بعدها فى أول القرآن، وعن الكلام الذى قبلها فى آخر القرآن وعن الكلام الذى بعدها فى غيرهما، غير مشتمل على مثل ذلك" (١).

قال القاضى ابن العربى إن الفاتحة سبع آيات، وسورة الملك ثلاثون آية، وضح أنه قرأ العشر الآيات الخواتيم من سورة آل عمران. قال: "وتعديد الآية من مفاصلات القرآن، ومن آياته طويل وقصير، ومنه ما ينقطع، ومنه ما ينتهى إلى تمام الكلام، ومنه ما يكون فى أثنائته كقوله تعالى: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ على مذهب أهل المدينة، فإنهم يعدونها آية، وينبغى أن يعول فى ذلك على فعل السلف" (٢).

هذا الكلام جد واضح؛ وفيه رد على ما أثاره الكاتب حول الآيات من حيث حجمها وترتيبها، وحول البسملة كذلك، وكون بعض العلماء لا يعد البسملة آية لا ينفى كونها قرآناً منزلاً، ثم إن الإجماع على أنها جزء من القرآن وأنها ثابتة فى مفتتح كل سورة إلا سورة براءة التى لم ينص عليها النبى ﷺ، وتركت إما لكون السورتين اعتبرتتا كالسورة الواحدة أو لأن سورة براءة جاءت برفع الأمان، والبسملة أمان، فلا مناسبة إذن للبسملة فتذكر فى أولها؛ لكنها مع هذا جزء من القرآن، وآية من آياته؛ من تركها فى

(١) الزركشى. البرهان. ٢٦٦/١ - ٢٦٧.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٨ وانظر: أيضاً مقدمة ابن عطية لتفسيره المحرر الوجيز فى. مقدمتان ٢٨٧ - ٢٩٤.

الصلاة بطلت صلاته، وهى الفاصل بين السورتين، أجمع على ذلك المسلمون، سنة وشيعة^(١) روى أبو داود وغيره عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية، آية، يقول: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم يقف ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ثم يقف، ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ثم يقف^(٢)؛ وكون بعض المصاحف غيرت في حجم بعض الآيات، فليس ذلك بحجة على القرآن؛ ولا يمس ذلك القرآن المحفوظ في الصدور المحاط ببالغ العناية والدراية. وقد يعلل لذلك بأن المعنى في الآيتين قد يتداخل، وقد تحل الآية الواحدة في مقطعين إذا فصل أحدهما عن الآخر أدى معنى من المعاني المحتملة دون الإضرار بأصل القرآن. هذا من قبيل الرسم القرآني لا غير؛ ولعل هؤلاء الذين قالوا إن البسملة ليست آية فهموا من تكرارها في أول كل سورة أنها وضعت هكذا لمجرد الافتتاح؛ فهم مع ذلك لم ينكروا قرآنيتهما؛ وهذا وهم منهم، لأن هناك آيات أخرى كثيرة تتكرر في القرآن مثل: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ ولا يقول أحد أنها ليست قرآناً.

وأما عن صيغة ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ودعوى الكاتب أنها دخلت القرآن متأخرة، وأنها لم تكن معروفة لحمد ﷺ في أول الوحي فليس فيه دليل على تلفيق البسملة أو انتحال بعض ألفاظها من مصدر آخر، فالبسملة عضو حي وحيوي من القرآن؛ وهى من مميزاته، وهى العلامة التى كان يعرف النبي ﷺ من خلالها أول السورة؛ وقول المالكية بأنها لم تتواتر في جميع السور فهو محمول على الخطأ في رأى، وقد يكون هذا القول قد نسب خطأ إلى المالكية؛ إذ البسملة موجودة في كل مصاحف الصحابة، ومن جاء بعدهم^(٣).

وبالنسبة لعدد سور القرآن فقد استقر إجماع الأمة على أنها مائة وأربع عشرة سورة؛ ولا معول على الزيادة التى في مصحف أبي، فإنه قد وهم في دعاء القنوت، فظنه قرآناً، حتى بلغ بعدد السور مائة وست عشرة؛ وبهذا يفسر النقص الذى في مصحف عبد الله بن مسعود أيضاً، لأنه وهم هو الآخر في المعوذتين فظنهما رُفُيتان لا سورتان، ولا

(١) على الفضل بن الحسن الطبرسى. مجمع البيان في تفسير القرآن تحقيق السيد هاشم المجلاتى والسيد فضل الله الطباطبائى. بيروت دار المعرفة ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م ١/ ١١٢.

(٢) الإتقان ٢/ ٢٤٣

(٣) الزرقانى. مناهل ١/ ٢٣٤.

عبرة كذلك بقول أحدهم إن عدد السور مائة وثلاث عشرة يجعل الأنفال وبراءة سورة واحدة؛ وغير ذلك مما هو أحادي المصدر موقوف على قائله وغير متواتر^(١)؛ وفي هذه القرينة وامتداداً لنفس الخط الهجومي على القرآن ينبغي أن نشير إلى باترشا كرون، وكوك وكتابهما "الهاجرية" نسبة إلى السيدة هاجر أم النبي إسماعيل جد النبي محمد ﷺ وهو كتاب إلحادي وهجومي غشوم.

يستنتج الكاتبان من الطريقة التي كتب بها القرآن في زعمهما أن القرآن قد "لُفّق" أو جُمع من عدة أعمال هاجرية مبكرة يمكن إثباتها من عدة طرق، من خلال الإسلام نفسه. يشير الكاتبان إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ تَزَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَبِهًا مَثَانِي تَقْشَعُرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (الزمر: ٢٣). وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنْ أَلَمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧). وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ (الحجر: ٩١). كذلك يشير الكاتبان إلى إنكار الكفار لبعض ما أوحى إلى محمد ﷺ (الرعد: ٣٦) ومن جانب آخر فقد كان هناك من المشركين من طالبوا بنزول القرآن جملة واحدة (الفرقان: ٣٢) والذين طالبوا بتغيير الوحي يعني القرآن أو تبديله (يونس: ١٦) وبلا شك فإن ما قصده الكاتبان من هذا الاستعراض الخبيث، هو التشكيك في صحة القرآن والطعن فيه؛ وليس الدراسة العلمية بحال من الأحوال.

ومن المضحك أن كرون وكوك يأخذان رأى الخبير بت هالي Bet Hale حجة على القرآن، فهو في تقليدهما واجتهادهما، قد فرق بوضوح بين القرآن وسورة البقرة كمصدر للتشريع، ذكرها في معرض رده على قول المسلمين أن النصارى يعبدون الصليب ولم يأمرهم المسيح ﷺ بذلك وليس في الإنجيل دعوة إليه البتة^(٢).

ويشير كل من كرون وكوك إلى ليفونث الذي ادعى النقل عن الإمبراطور ليو أن الحجاج بن يوسف الثقفي قد أعدم الكتابات القديمة لأولاد هاجر، يعني المسلمين وكتب

(١) مجد الدين الفيروزآبادي (ت ٨١٠هـ). أسماء القرآن من بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز. تحقيق محمد على النجار. بيروت. المكتبة العلمية ج ١ ص ٩٧ ومقدمة كتاب الباني. أرثر جفري مقدمتان في علوم القرآن ٩٥ - ٩٦. لمعسرة عدد آي وحروف القرآن انظر: المصدر المذكور عاليه ص ٢٤٣، وما بعدها وحروفه ٣٠٠، ٦٩٠ حرفاً والقرآن كله في عدد أهل مكة ٦٢١٠ آية ذكره الزعفراني عن عكرمة وعن مجاهد أنه ٣٠٠٢١.

كتابات أخرى من عند نفسه بثها في الأرجاء لتحل محلها^(١).

هذا هو السبب الأول في عدم صحة القرآن في نظر النافذين الناقمين، والسبب الثاني في إثبات عدم أصالة القرآن عندهما هو القرآن نفسه، فالشكل الأدبي للقرآن مُهلهل، وكذلك السياق والنسق القرآنيين للآيات غير مُحكمين، ولا يربطه بهما نظام كلي عام، والقرآن كتاب غامض وغير منسق في لغته وموضوعاته، إنه يتحدث بطريقة مملّة آلية مجردة من الروح والجاذبية *Perfunctory*، إنه باهت، ولا يجمع بين آياته أى رابط، إنه يكرر نفسه كثيراً ودون فائدة أو ضرورة؛ وهكذا يخلص الكاتبان المنحازان إلى القول بأن القرآن إنما هو نتاج مواد لفقتها أدمغة مختلفة، أو جمعتها الأيدي في وقت لاحق وفي ظروف جد غامضة، ثم يضيف كرون وكوك إلى هذا التعسف، الذى هو كاف في حد ذاته في التدليل على تحاملهما على القرآن، عنصراً خيالياً آخر، إذ يزعمان أن تحقيق النص القرآنى وتصنيف مادته كان ناقصاً وعاجزاً، وأنه بالنظر في مادة القرآن ندرك أن ظهور هذا الكتاب في التاريخ إنما جاء مفاجئاً أو ينبغي أن يكون كذلك".

وترغم باتريشا وكوك مرة أخرى أنه ليس هناك دليل مباشر يتحدد بمقتضاه تاريخ كتابة القرآن^(٢).

ويزعمان كذلك ومعهما لينج دون مبالاة، أن الخلفاء الأمويين، أو حتى الخلفاء الذين جاءوا بعدهم، هم الذين قننوا القرآن أو جعلوه كتاباً معتمداً. أما فيما يخص محمدا وأنشطته فكل ذلك خرافة، وأن محمداً لم ييشر بدین جدید هو الإسلام، وإنما ببدة نصرانية أو يهودية^(٣).

كل هذه المزاعم المجردة لا يقبلها عقل منصف، وما هى إلا افتراضات وضلالات لا أصل لها ولا سند تعتمد عليه، وإنما هى فقط دلالات نفسية على حقد كُتّابها الدفين وضيقهم المرضى بالإسلام والقرآن والنبي ﷺ. وأى فرقٍ يا ثرى على الرغم من امتداد القرون واتساع الحضارة وانتشار العمران وتقدم الإنسان بين هذا الكلام، وكلام الأعداء

(١) المصدر نفسه ص ١١، ١٩، ١٦٨.

(٢) المصدر نفسه ص ١٨.

(3) See Gerhard Endress, An introduction to Islam, Translated into English by Carole Hellen, 1988 pp.24 f& 92

الأولين في القرآن؛ لقد تشابهت قلوبهم في الكفر والإلحاد.

فلقد هاجم ابن الراوندى (٢٤٥ هـ - ٢٥٩ م) كتاب الله فقال "إن القرآن كلام غير حكيم وأن فيه تناقضاً وخطأً وكلاماً يستحيل"^(١) ويقول: "إن فصاحة أكتهم بن صيفى تفوق فصاحة القرآن"^(٢). وابن الراوندى من الزنادقة الغلاة الذين أفرزتهم الملحدة المناهضة للإسلام وأهداف الزنادقة الغلاة معروفة، في الكيد لهذا الدين وأهله. وهذه نفثة من كلام زعمائهم، أبو ميمون القداح "إني أضيق بدين محمد وليس عندي من جيش أحارب أهله به، وليس لدى مال، ولكني في الحيلة طويل الباع بحيث إذا لقيت عوناً من أحد قلبت دين محمد رأساً على عقب"^(٣).

هذا كلام عدو حاقده على دين الإسلام والمسلمين، عبّر عن خلاله عن مدى حقده الأسود على الإسلام؛ ولكنه بالغ أشد المبالغة في زعمه بأنه بحيلته يمكن "أن يقلب دين محمد رأساً على عقب" وما هو الإسلام ساطعة براهينه على أنه لا هو، ولا من نشأ نشأته، ونزع منزعه استطاع أو يستطيع قلب الإسلام؛ فوجود الإسلام من وجود الله رب العالمين؛ وسيبقى القرآن وسيبقى الإسلام نوراً مبیناً، على الرغم من محاولات الأعداء: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّأ أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٣٢).

المهم أن كلام أعداء القرآن واحد في كل عصر وفي كل مصر؛ وغرضهم كذلك واحد هو سحق الإسلام وتحويل المسلمين عن دينهم. ولكن هيهات - هيهات لما يحاولون. ولا بد هنا من الإشارة إلى دعوى المستشرق نولدكه بأن أجزاء من القرآن قد ضاعت، وهذا ما أرجف به دائماً المستشرقون، فالمستشرق الألماني نولدكه يضع هذا العنوان الواضح في كتابه "تاريخ القرآن" "الوحي الذي نزل على محمد ولم يحفظ في

(٣) انظر: الخياط. الانتصار ص ١٢ وأبو الفرج بن الجوزي - المنتظم في تاريخ الأمم حوادث ٢٩٨ هـ والإمام أحمد بن حنبل - الرد على الزنادقة والجهمية - ضمن عقائد السلف ص ٥٣ وما بعدها.

(٤) عبد الرحمن بدوي. تاريخ الإلحاد في الإسلام القاهرة مكتبة النهضة ١٩٤٥. ص ١٢١. وعبد الله سلوم السمرائي الغالية في الحضارة الإسلامية. العراق. دار واسط للنشر بدون تاريخ ص ١٨٢.

(١) انظر: ابن السندم. الفهرست. الملحق ص ٤، ٥ وأبو المعالي الحسيني بيان الأديان ص ٤١، ٤٢ والنقل عن السمرائي ص ١٨٠.

القرآن" وهذا هو ما خرج به كاتب مادة القرآن بدائرة المعارف الإسلامية والذي تناقشه في هذا البحث إذ يقول: "إنه مما لا شك فيه أن هناك فقرات من القرآن قد ضاعت".

وهذا الزعم نفسه يكرره بألفاظ مختلفة كاتب مادة القرآن في دائرة المعارف البريطانية الذي يقول بأن (القرآن غير كامل الأجزاء)؛ والذي فتح الباب على مصراعيه لمثل هذه المزاعم وأعطى لأصحابها الفرصة للطعن في القرآن بالإضافة إلى مواقفهم المتشددة ضد الإسلام، ما ورد في بعض المصادر الإسلامية من روايات ضعيفة وأقوال غير محققة.

لقد ذهب علماء الشيعة وعامتهم للأسف هذا المذهب الباطل، فابن شاذان (ت: ٢٦٠هـ) وهو صاحب "الرضا" عليه السلام، والشيعة تكثر النقل عنه، يضع هذا العنوان الفج "ذكر ما ذهب من القرآن" ^(١)؛ وهو العنوان الذي وجدته المستشرقون معبراً عما في نفوسهم وموصلاً إلى أغراضهم تماماً.

قال المحدث النووي في كتاب "فصل الخطاب" في أول المقدمة الثالثة منه، وهو يسرد أسماء القائلين بضياح جزء من القرآن ووقوع التبديل والتغيير فيه "ومن ذهب إلى هذا القول الثقة الشيخ الجليل الأقدم فضل بن شاذان في مواضع من كتاب الإيضاح. ويظهر كتابه أن ضياح طائفة من القرآن من المسلمات عند العامة" ^(٢) يعنى العامة من الشيعة لا غيرهم.

ويحتج ابن شاذان لمذهبه بما جاء في الكتب من روايات ضعيفة وأقوال رديئة حول سقوط أجزاء من القرآن وضياحها، مما هو داخل في باب الإسرائيليات؛ فيروى أن عمر كان يرفض الآية إذا جاء بها رجل واحد سمعها من النبي ﷺ، وكان يقبلها إذا جاء بها اثنان. وهذا كذب محض، فالقرآن كان محفوظاً في الصدور؛ وإنما كان عمر يطلب شهادة عدلين على القرآن المكتوب، من باب الحيلة، وإلا فالقرآن كان من الشيوع بحيث لا يمكن أن تنحرم الثقة فيه.

وادعى ابن شاذان على أهل السنة أنهم كانوا يقولون إن عثمان بن عفان قد وضع صحيفة فيها القرآن ليكتبوا منها فجاءت شاة فأكلتها، فذهب من القرآن ما كان في هذه

(١) انظر: أبو الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري كتاب الإيضاح بيروت. مؤسسة الأعلمى ١٤٠٢ - ١٩٨٢ ص ١١٢ - ١١٦

(٢) انظر: المصدر نفسه ص ١١٢، ١١٣ وموسى جاد الله - الوشيعة في نقد عقائد الشيعة - ص ١١٦.

الصحيفة. هذا الكلام من تلفيقات الزنادقة وفعل الملاحدة، أوردوه في موضع آخر مسنداً إلى السيدة عائشة التي زعموا أنها وضعت القرآن تحت السرير فجاءت داجن فأكلت الصحيفة فضاع ما فيها^(١).

ثم إنه لم يكن مع عثمان صحف غير صحف حفصة التي كتب فيها القرآن على عهد أبي بكر، ثم طلبها عثمان منها عند كتابة المصحف الإمام، هذا ولم يرد بشأها شيء كهذا الذي يدعيه ابن شاذان البتة، بل إنه من المعروف أنهم نسخوا منها ثم ردها إليها^(٢) بأمر عثمان رضي الله عنه، وبقيت عندها حتى ماتت رضي الله عنها، فأرسل عثمان إلى عبد الله بن عمر في طلبها إليه فأخذها وأحرقها وفي رواية فغسلها غسلًا^(٣).

ثم أشار ابن شاذان إلى ما قيل من أن صدر سورة براءة قد ضاع ولذلك سقطت منه البسملة، وأما وسورة الأحزاب كانت قريبة من سورة البقرة في عدد آياتها فذهب مها مثل ما بقي في أيدينا؛ وأن سورة "لم يكن" أو "البينة" كانت في حجم سورة البقرة.

وأن أبا موسى الأشعري لمّا ولّاه عمر بن الخطاب البصرة جمّع القراء، فكانوا ثلاثمائة رجل، فقال لهم: "أنتم قراء أهل البصرة"، قالوا: "نعم"، قال "والله لقد كنا نقرأ سورة على عهد رسول الله ﷺ، كنا نشبهها براءة تغليظاً وتشديداً فنسيناها، غير أني أحفظ حرفاً واحداً منها أو حرفين (لو كان لابن آدم وادياً من ذهب لابتغى إليه ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب)"^(٤)؛ وقد عد بعض العلماء للأسف مثل هذا الكلام قرآناً منسوخاً، ففتحوا من ثمّ باباً للشك في القرآن والطعن في مبدأ الإعجاز، وعدم إمكان المعارضة. ومعطالعة سريعة لما أورده البعض على أنه قرآن منسوخ يظهر الفرق الشاسع بين ما عدوه، خطأ، قرآناً، وبين القرآن المثبت في المصحف المستقر، والمجموع في الصدور، مع أن الفرق بين هذا المدعو قرآناً منسوخاً وبين القرآن الذي هو كلام الله، هو كالفرق بين القرآن وبين سائر كلام البشر، وهذا الموضوع يحتاج منا إلى بعض البسط وبعض التحليل.

(١) المصدر نفسه ١١٤.

(٢) انظر: كتاب المصاحف ص ٢٠.

(٣) مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٢.

(٤) ابن شاذان ص ١١٤ ومقدمتان في علوم القرآن ص ٨٤ - ٨٥.

يلاحظ أولاً على روايات القرآن المزعوم، الاضطراب، والوهن وضعف الرواة؛ هذا بالإضافة إلى الاختلاف الواقع بين هؤلاء الذين أسندت إليهم هذه الأقوال من الصحابة^(٤) ناهيك عن مخالفته في نفسه لإجماع المسلمين حول مفهوم القرآن وطبيعته.

ولننظر الآن إلى حديث أبي بن كعب ووادي الذهب الذي رواه الإمام أحمد في مسنده (في الجزء الخامس منه) عن أبي بن كعب قال رسول الله ﷺ: "إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن قال فقرأ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (سورة رقم ٩٨ في المصحف وعدد آياتها ثمان)، فقرأ فيها (لو أن ابن آدم سأل وادياً من مال فأعطيه لسأل ثانياً فلو سأل ثانياً وأعطيه لسأل ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب، وإن ذلك الدين القيم عند الله الحنيفية غير المشركة، ولا اليهودية، ولا النصرانية ومن يعمل خيراً فلن يكفره). وفي رواية البخاري (باب التفسير) أن النبي ﷺ قرأ عليه عنده سورة البينة فحسب فأما هذه الزيادة فليست عند البخاري.

وفي رواية الحاكم في المستدرک "أن ذات الدين عند الله الحنيفية لا المشركة" وفي رواية "غير المشركة" بدلاً من عبارة المسند "وإن ذلك الدين القيم غير المشركة ولا اليهودية".

وفي جامع الأصول لابن الأثير الجزري وردت الرواية بهذه الصيغة "إن الدين عند الله الحنيفية المسلمة، لا اليهودية ولا النصرانية ولا المجوسية" بإسقاط كلمة "المشركة" وزيادة كلمة "المجوسية" هذا بالإضافة إلى اختلاف العبارة في هذه النصوص، وننبه على أن عبارة (إن الدين عند الله الحنيفية المسلمة) موافقة لقراءة عبد الله بن مسعود لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. مما يدل على أنها جملة تفسيرية لمعنى كلمة "إسلام"؛ وليست قرآناً.

وهناك رواية أوردها صاحب المسند عن أبي واقد الليثي قال كنا نأتى النبي ﷺ فيحدثنا فقال ذات يوم إن الله عز وجل يقول: (إنا أنزلنا المال لإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ولو كان لابن آدم واد (هكذا بالإطلاق) لأحب أن يكون له ثان، ولو كان له واديان

(٤) انظر مثلاً ابن شاذان ١٤ الذي أسند هذا القول إلى أبي موسى الأشعري وقارنه بالرواية التي ساقها صاحب كتاب المبادئ (مقدمتان في علوم القرآن ص ٨٤ وغيره الذين أسندوها إلى أبي بن كعب.

لأحب أن يكون هما ثالثاً. ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ويتوب الله على من تاب).

وجاء الحديث في المسند (في الجزء السادس منه) بشكل آخر روى الإمام أحمد عن مسروق قال قلت لعائشة: هل كان رسول الله ﷺ يقول شيئاً إذا دخل البيت قالت: كان إذا دخل البيت تمثل "لو كان لابن آدم وادياً من مال لا يبغي وادياً ثانياً، ولو كان له واديان لا يبغي وادياً ثالثاً ولا يملأ فمه إلا التراب، وما جعلنا المال إلا لإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ويتوب الله على من تاب"، قال الكرمانى "لا يبغي لهما ثالثاً" بزيادة "لهما"؛ عجبية هذه الرواية وعجيب شأنها؛ هل ضاق القرآن بما فيه من حكمٍ عاليةٍ حتى يتمثل رسول الله ﷺ بهذا الكلام الذى ليس قرآناً ولا يرقى أن يكون كذلك؟ وأين كان دعاء دخول المنزل الذى اعتاد النبي ﷺ أن يقرأه كلما دخل بيته؟ هل شغله مثل هذا الكلام عنه؟ هذه لمحة على طريق استعراض الأحاديث الخاصة بدعوى ضياع أجزاء من القرآن؛ ونعود مرة أخرى لنشير إلى رواية الإمام أحمد بإسناده عن جابر قال سئل جابر هل قال رسول الله ﷺ: (لو كان لابن آدم واد من نخل تمنى مثله حتى يتمنى أودية، لا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب). هذه الروايات وغيرها تختلف في عدد الكلمات ونوعها وفي عدد الأودية وأنواعها وفي تحديد الشيء الذى لا يملؤه إلا التراب في ابن آدم فقد جاءت بهذه العبارات المختلفة (ولا يملأ جوف ابن آدم) وفي رواية أخرى (ولا يسد) مكان (ولا يملأ).

وفي رواية (ولا يملأ عين ابن آدم) وفي غيرها (ولا يملأ نفس ابن آدم أيضاً)؛ وجاء الاختلاف أيضاً في نوع الدين حيث جاء في بعضها (الحنيفية) وفي أخرى (المجوسية).

وفي بعض الروايات (إن الدين) مكان (ذات الدين) وقد اختلفوا أيضاً في تحديد نوع الوادى ففي بعضها هو (واد من الذهب) وفي أخرى (واد من مال)، وفي ثالثة (واد من النخل)، بهذا التفاوت الكبير في قيمة ما يشتمل عليه الوادى. وهكذا وهذا يتنافى مع

طبيعة القرآن الذى يقول الله فيه: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢)^(١).

نقول إن هذا الكلام الذى وردت به الروايات المختلفة لو جمعناه بحيث شكلنا منه نصاً واحداً كان هذا النص متناقضاً مضطرباً، وقلقاً شاذاً، لا ينسجم فى نفسه كالقرآن، ولا ينسجم فى موضعه من سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فالسورة يبدو عليها أنها تامة فى معانيها ومبانيها، كاملة فى موضوعها ابتداءً وانتهاءً، لا تحتاج إلى مزيد من الألفاظ أو المعانى.

هذا فضلاً عن أن الكلام الذى جاء بالحديث لا ينسجم مع المعانى الكلية للسورة؛ فموضوع إنزال المال، وموضوع الطمع الإنسانى، كل هذا، لا موضع له فى السورة ولا تمت بأدنى سبب إلى موضوع السورة، ثم إن عبارة القرآن ﴿وَذَلِكَ دِينَ الْقِيَمَةِ﴾ أرقى وأنصع وأبين وأوقع من العبارات الملفقة (الحنيفية المسلمة غير المشركة) ذلك الكلام الذى يتفصد سذاجة، وهو إلى التفسير البسيط أقرب منه حتى إلى حديث رسول الله ﷺ ثم إن عبارة (إنزال المال لإقام الصلاة) كما فى إحدى الروايات "وإيتاء الزكاة" كما فى الرواية الأخرى كلام ساذج فالمال لم ينزله الله تعالى، وليس فى القرآن شيء من ذلك ألبتة؛ والذى جاء فى القرآن أن الله (يؤتى المال) والصواب أن الله ينزل الممول لا المال، وأن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والمال إنما جعل لعمارة الحياة وإقامة الدنيا والدين معاً. وربما كان المال أكثر أهمية لإدارة شؤون الدنيا، وأما الدين والصلاة فيقامان بالعمل الصالح لا بالمال؛ بل إن المال إذا تجرد صاحبه من التقوى يقعد به عن الدين، ويثبطه عن الصلاة وعن سائر الفروض والتكاليف الشرعية.

والشيء نفسه يقال بالنسبة للزكاة فالمال لم ينزل ولم يؤت لإخراج الزكاة بل للعمل والاستثمار ثم إن إخراج الزكاة مترتب على نماء المال. والمال ينفق فى جميع أنواع البر والقربات وفى قضاء المصالح والحاجات، وليس فى إخراج الزكاة فقط وهذا هو أئبى

(١) أبو الفضل بن الحسن الطبرى مجمع البيان فى تفسير القرآن ٢١/١. ومقدمتان فى علوم القرآن ص ٨٥. وعبد الوهاب حمودة القراءات واللهجات ٧٨، ٧٩.

نفسه يُسأل عن هذا الكلام فيقول: "فلا أدري شيء من القرآن هو أم لا" فهو لم يحققه^(١).

وفي رواية أنس عن أبي قال: "كنا نرى هذا من القرآن حتى نزلت ألهاكم التكاثر" فهو هنا يقرر أن الأمر كان محمولاً على الظن عنده، وليس على اليقين وأنه غير رأيه بعد نزول سورة ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾.

وربما ظن بعضهم أن هذا الكلام من القرآن لأن بعض معانيه جاءت في القرآن، على سبيل المثال، ذم الحرص والجشع، وربما سمعه بعضهم من النبي ﷺ عقيب قراءة سورة البينة، كما في حديث أبي، فظنوه منها أو حسبوه قرآناً، ولم يرجعوا في ذلك إلى الرسول ﷺ ليصححوا موقفهم وظلوا هكذا حتى نزلت سورة ﴿أَلْهَنَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾ على منوال القرآن فبان لهم أن ما ظنوه قرآناً ليس بقرآن^(٢).

وأخيراً نقول إن تمنى الغنى لا يتعارض مع الدين ولا التقوى؛ بل إن المسلم مطالب أن يسعى ويجتهد في تحصيل المال ويتوسع في الثراء ما أمكنه؛ ولكن بالشروط والآداب التي حددها الإسلام في حالة الكسب وفي حالة الإنفاق، والإنسان القادر يعمل كخليفة عن الله ليحصل رزقه ويعين غير القادرين على تحصيل أرزاقهم ويكفيهم باجتهاده ذل المترتبة والمسألة التي لا يمكنهم دفعها باجتهادهم. وقد لا تتوفر لديهم أسباب الاجتهاد في تحصيل وسائل العيش ألبتة.

وعلى هذا المحك نفسه نعرض ما يسمى بآية الرجم (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة) تسند الرواية التي جاءت بهذه العبارات إلى زيد بن ثابت، وهو من هو في الحفظ والتثبت والثقة، يقول (كنا نقرأ آية الرجم) الخ وعن أبي أن سورة الأحزاب كانت تضاهي سورة البقرة، وهي أطول منها، وأن فيها أو في أواخرها "آية الرجم" ونص الآية على هذه الرواية (الشيخ والشيخة فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم).

هذا مع أن سورة الأحزاب كاملة وتنتهي نهاية طبيعية شأنها في ذلك شأن أى سورة

(١) ابن حجر العسقلاني فتح الباري ١١ / ٢١٣.

(٢) انظر: العيني على البخاري ٤٧/٢٣. النووي على مسلم ١٣٨/٧. ومقدمتان في علوم القرآن ٨٥. وعبد الوهاب حمودة القراءات واللهجات ٧٨ وما بعدها.

أخرى من القرآن. ثم إن القول بأن آية الرجم كانت في آخر السورة قول معلول وغير مقبول إذ تخلو السورة من ذكر الحدود، وتشتمل فقط على ذكر الآداب والأخلاق الخاصة بالنساء وعلى بعض الإشارات إلى قواعد الطلاق، ولو كانت هذه الآية جزءاً من هذه السورة لوضعت في سياق الحديث عن آداب النساء، والعلاقة بين الرجل والمرأة في وسط السورة أو أولها لا في آخرها أو كانت قد ذكرت في سورة النور التي فرض فيها حد الجلد للزاني والزانية.

أضف إلى هذا الخلل اللغوي البين الخطأ والاضطراب في النص المنقول من الآية المزعومة، فقد جاء في رواية السيارى من الشيعة عن أبي عبد الله هذه الزيادة (بما قضيا من الشهوة) وفي رواية الموطأ والمستدرک ومسدّد وابن سعد عن عمر (الشيخ والشيخة فارجهما ألبتة)، وفي رواية أبي أمامة بن سهل أن خالته قالت "لقد أقرأنا رسول الله ﷺ آية الرجم (الشيخ والشيخة فارجهما ألبتة بما قضيا من اللذة).

هذا الاضطراب الشديد في الروايات كفيل وحده بإسقاطها، هذا مع ملاحظة أن عبارة (بما قضيا من اللذة أو الشهوة) يبدو عليها أنها تفسيرية إلحاقية، ثم إن التلفظ بها هكذا غير لائق بمقام السيدة عائشة الدينى، وأمير المؤمنين عمر رضي الله عنهما؛ آخذين في الاعتبار أن العقوبة إنما شرعت لانتهاك العرف وتعدى حدود الله لا بسبب الشهوة أو اللذة في نفسها أخرج الحاكم وابن جرير وصححه أن عمر قال: لما نزلت (أى هذه الآية المزعومة) أتيت رسول الله ﷺ فقلت أكتبها، وفي نسخة كنز العمال "أكتبها". فكانه كره ذلك. وفي الإتقان بتخريج النسائي أن مروان قال لزيد بن ثابت ألا تكتبها في المصحف قال ألا ترى أن شاين اثنين يرجهان؟ وقد ذكرنا ذلك لعمر فقال أنا أكفيكم فقال يا رسول الله ﷺ اكتب لى آية الرجم، فقال "لا تستطيع"، وفي رواية كنز العمال "لا أستطيع"؛ وقال عمر: "ألا ترى أن الشيخ إذا زنى ولم يحصن جلد، وإن الشاب إذا زنى وقد أحصن رجم"؛ كيف بتردد عمر في هذا الشأن؛ ويكون تعليقه على الآية هكذا حسب الرواية؟ ثم كيف يرفض النبى ﷺ أن يملئها على عمر ليكتبها أو يأذن له في كتابتها مع أنه ﷺ كان حريصاً جد الحرص على كتابة ما ينزل عليه من الوحي؟ وكيف يجروا ابن الخطاب على الإدلاء بهذا التصريح الخطير بعد أن لم يأذن له

رسول الله ﷺ في كتابة الآية المزعومة فيقول حسبما أسندوه إليه (في الموطأ، والمستدرک) أنه قال قبل موته بأقل من عشرين يوماً: "لولا أن يقول الناس زاد عمر في كتاب الله لكتبته" وبرواية الترمذی عن سعید بن المسيب عن عمر "رجم رسول الله ﷺ ورجم أبو بكر ورجعت ولولا أني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبته في المصحف".

هذا مع أن القرآن كان قد استقر عليه الصحابة بالإجماع وكان عمر نفسه أحد الأعمدة المعدودة في جمعه وحفظه. فهل كان عمر يعتقد في قرآنيتهما ومنعه الخوف فقط وهو الشجاع الجسور في الله تعالى وفي الحق، أن يضمها لكلام الله في المصحف؟ هذا غير معقول لو كان عمر يعتقد ذلك لعرضها على زيد بن ثابت أثناء جمع القرآن لا بعده، وكيف ينتظر خليفة المسلمين حتى يحضره الأجل فيصرح به مع أن روايات جمع القرآن تخلو من الإشارة إلى هذه الفقرة إلا ما كان من رواية النسائي المذكورة والتي لا ترقى إلى رتبة الدليل، هذا فضلاً عما تتضمنه من إنكار قرآنية آية الرجم.

وكلام عمر يفيد بوضوح أنه كان متيقناً أن آية الرجم لم تكن من كلام الله بدليل قوله نصاً "لولا أني أكره أن أزيد في كتاب الله لكتبته في المصحف". فآية الرجم إذن زائدة على كلام الله، وليست من كتاب الله بنص كلام عمر، وإذن فكيف توضع في المصحف؟، ثم إن كلمة "لولا أن يقول الناس" في الرواية الأولى و"لولا أني أكره أن أزيد في كتاب الله" في الرواية الثانية متناقض، ففي الأولى كانت خشية الناس هي المانع وفي الثانية علق عمر الامتناع على كراهيته هو شخصياً للفعل أي أنه لم يبال بالناس، وهذا تناقض.

وعمر - ولا شك - يعلم علم اليقين ما قال الله عن محمد ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾﴾، وقول عمر: "لولا أن يقال زاد عمر في المصحف لكتبته"، كما زعم رواها قد يوهم أيضاً أنه لم ينسخ لفظها، وإلا فكيف يدخل عمر على القرآن ما ليس منه كما لاحظ بحق الدكتور مصطفى زيد^(١) لماذا هذا التنطع من واضع الحديث، ألا تكفي السنة في إثبات الرجم، كما يكفي القرآن في إثبات الجلد، وفي تقييح شأن الزاني والزانية؛ والسنة هي أحد المصدرين الرئيسيين

(١) انظر: كتابه النسخ في القرآن. دار الفكر. ١٣٨٣ - ١٩٦٣ ج ١ ص ٢٨١ - ٢٨٢.

للتشريع الإسلامى، وليس كل ما سكت عنه القرآن ونطقت به السنة لا يؤخذ به ولا يثبت حكمه؟

على أنه يمكن أن يقال أيضاً في توجيه مثل هذه الروايات أن بعض الصحابة ربما سمع النبي ﷺ يقول قال الله تبارك وتعالى كذا، يقصد في الحديث القدسي مثلاً^(١) ففظنوه قرآناً، وكان ذلك في أول الوحى وما قلناه في آية الرجم وآية "وادی الذهب" ينطبق أيضاً على ما جاءت به بعض الروايات الغريبة بشأن شهداء بئر معونة من الحفاظ في السنة الرابعة من الهجرة، وحزن النبي ﷺ عليهم، وما وضع على ألسنتهم من هذا القول: "بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضى عنا ورضينا عنه" رواه البخارى ومسلم في عدة مواضع باختلاف في ألفاظ الحديث، وقال السهيلي في "الروض الأنف" عدّ بعض العلماء أن مثل هذا الكلام كان قرآنًا ثم نسخ. ولسنا ندري إذا كان هذا الكلام قرآنًا لماذا نسخ؟ هل كان النسخ لأن قرآنيته قد ذهبت؟ أم لأن الرأى اختلف في قتلى بئر معونة، فلم يعد الله راضياً عنهم ولم يعودوا هم راضين عن الله؟ قال ابن عباس "فلا أدري من القرآن هو أم لا" وفي رواية زهير قال "فلا أدري أمن القرآن هو أم لا" نقول: مثل هذا الكلام فيه تشويش وتهويش على القرآن؛ ولولا أن الله تعالى تكفل بحفظه، واستقر ذلك في أذهان الأمة وقلوب المسلمين قرونًا، لأضرت مثل هذه الروايات المشبوهة بالقرآن، ومن ثم بالإسلام والمسلمين.

روى عن عائشة قولها: "وكان فيما أنزل الله عشر رضعات معلومات يحرم من" ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة وقد رده علماء أفذاذ كالجصاص^(٢)، على سبيل المثال، وذلك لأسباب قوية ذكرها.

وأما حديث عائشة فغير جائز اعتقاد صحته على ما ورد، وذلك لأنها ذكرت أنه "كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات فنسخن بخمس، وأن رسول الله ﷺ توفي وهن مما يتلى".

كيف يجوز ذلك والنص على العشر أو الخمس، أعني الناسخ والمنسوخ كلاهما ليس له وجود في القرآن؟ وأهم من ذلك وأخطر على عصمة القرآن أن هذا الكلام يجوز

(١) انظر الطبرسى. مجمع البيان ١ / ١٨ - ٢٠، وابن شاذان كتاب الإيضاح ١١٢، ومصطفى زيد النسخ في القرآن ٢٨١/١.

(٢) انظر: كتاب الخصائص ٢ / ١٢٥.

النسخ بعد موت النبي ﷺ ولا أحد من المسلمين يقول بذلك أبداً، لأن الله - وهو المشرع - هو الذى ينسخ حكم نفسه أو أمره بحكم نفسه أو أمره؛ ولا يكون هذا إلا فى حياة النبي ﷺ. ويذكر الطحاوى فى "مشكل الآثار" أن أحداً لم يورد هذا الحديث غير عبد الله بن أبى بكر وهو وهم منه^(١)؛ وبهذا يكون الطحاوى قد اقتلع بقوة الدليل هذه المشكلة من أساسها.

وعند الحارث بن أسد المحاسبى "أن كلام الله الذى جاء بالحكم الأول هو كلامه، (لا غير) وواجب على العباد أن يؤمنوا به أنه حق وأنه من القرآن، من كفر به فهو كافر ومن آمن به فهو مؤمن وأن عليهم ألا يخرجوا جميعاً من حفظه، ولا يجوز له أن يسقط من القرآن، فلا يقرأ ولا يتلى، وإنما سقط فرض الآية، ولم يطل النص. ولا يقول مؤمن: قد أبطل الله عز وجل الآيات التى كانت هذه الأحكام كلها فيها واجبات، فيكون كلاماً باطلاً. فالكلام الذى نسخ منه الحكم، والكلام الذى ثبت به الحكم الثانى كلام الله حق وصدق، لا باطل ولا كذب"^(٢).

وإذن فما نُسب إلى السيدة عائشة من قولها "كان فيما أنزل الله عشر رضعات معلومات يحرمن فنسخن بخمس معلومات، فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ قرآناً"، غير صحيح على الإطلاق.

وفوق هذا كله، فإن مثل هذا الكلام ليس فيه نور القرآن ولا حلاوته ولا طلاوته، ثم إنه روى من طرق عدة، وباختلاف فى العبارات والروايات، وليس فى القرآن لا عشر رضعات، ولا خمس رضعات؛ ثم ما الداعى أن يعطى الحكم فى القرآن ثم ينسخ، والنص نفسه محفوظ مع أن السنة لها القوة نفسها فى التحليل والتحریم كالقرآن؟ ثم إن تحديد عدد الرضعات بعدد معين، من التفصيلات التى اختصت بها السنة وليس القرآن. ولو فتحنا الباب أمام مثل هذه الدعاوى لأدخل على القرآن ما ليس منه وخرج منه ما هو منه؛ على أنه لو كان مثل هذا الكلام قرآناً لأمكن معارضته والإتيان بمثله؛ وقد جعل الله ذلك ممتنعاً على الإنس والجن معا أو منفردين، يضاف إلى ذلك، أن آية الرضاعة المنسوبة إلى السيدة

(١) الطحاوى مشكل الآثار ٦/٣ والنووى على مسلم ٢٩/١٠.

(٢) العقل أو فهم القرآن ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

عائشة لم تظهر في صُحُفها ولم تحفظ في مصحف أى من الصحابة كذلك^(١)؛ ولو كانت قرأناً لما تركت أبداً؛ هذا مع مراعاة أن التفصيل في قاعدة التحريم ليست من خصائص القرآن كما نوهنا فالله يقول: ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضْعَةِ﴾، وللسنة أن تبين بعد ذلك كم رضة تُحرّم.

ونحن مع صاحب "كشف الأسرار على أصول البزدوى" (ت: ٩٠٩هـ) كما أشرنا إليه توأ، في أن حديث عائشة غير صحيح، ولا أصل له؛ وبالتالي يُزال الإشكال أصلاً.

ومن المفيد أن نشير إلى رسالة "الهادي" إلى "الحق أبو الحسين يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم الرسى" (٢٢٠ - ٢٩٨هـ - ٨٣٥ / ٩١١م) التي هي بعنوان "الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه"^(٢) وهو ما اهتبله المستشرقون لتأييد دعواهم في تحريف القرآن، فقد نقلوا رواية أنس رضي الله عنه بشأن الرجل الذي كان يكتب لرسول الله ﷺ ثم ادعى أنه كان يكتب كلاماً من عند نفسه. مكان كلام الله حسيماً كان يترأى له. لقد نقلوا من الرواية ما يخدم غرضهم في دعوى التحريف؛ مع أن أصل الحديث يكذبهم ويدمغ باطلهم. وننقل هنا ما جاء في كتب الحديث: "حدثني محمد بن رافع، حدثنا أبو النضر، حدثنا سليمان (وهو ابن المغيرة) عن ثابت بن قيس، عن أنس بن مالك قال: كان منا رجل من بني النجار قد قرأ البقرة وآل عمران وكان يكتب لرسول الله ﷺ فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب، قال: فرفعوه. قالوا: كان هذا يكتب لمحمد، فأعجبوا به، فما لبث أن قصم الله عنقه فيهم فحفروا له، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، ثم عادوا فحفروا له فواروه، فأصبحت الأرض قد نبذته على وجهها، فتركوه منبوذاً"^(٣).

وعن حميد الطويل عن أنس أن رجلاً كان يكتب للنبي ﷺ، وكان قد قرأ سورة البقرة، وكان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جدّ، فكان النبي ﷺ يملئ عليه "غفوراً

(١) انظر: ابن أبي داود كتاب المصاحف ٨١ - ٨٨.

(٢) بالمتحف البريطاني في الملحق ٢٠٦ مخطوطات شرقية ٣٧٩٨ / ٢٠ الأوراق ٦٩ - ٧٣. تاريخ المخطوط ١١٧٢هـ.

وانظر: فهرس معهد المخطوطات العربية وفواد سزكين تاريخ التراث العربي الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨/٢ / ٢٠.

(٣) صحيح مسلم كتاب (صفات المنافقين) رقم (٢٧٨١) دار إحياء الكتب - جدة

رحيماً"، فيقول: أكتب "عليماً حكيماً"؟ فيقول له النبي ﷺ: "اكتب كيف شئت"، وعكس "عليماً حكيماً". فيقول: أكتب "سعيماً بصيراً"؟ فيقول له النبي ﷺ: "اكتب ما شئت"؛ فارتد ذلك الرجل عن الإسلام، ولحق بالمشركين، فقال أنا أعلمكم بمحمد، إني كنت لأكتب كيف شئت؛ فمات ذلك الرجل فقال النبي : "إن الأرض لا تقبله"، قال أنس فحدثني أبوطليحة أنه أتى الأرض التي مات فيها فوجده منبوذاً، فقال أبوطليحة ما بال هذا الرجل؟ قالوا دفناه مراراً فلم تقبله الأرض^(١).

ومن تحدوا القرآن ولم يُمهلوا الوليد بن يزيد، وكان يسمى بخليع بن مروان، قرأ ذات يوم قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾﴾ (إبراهيم : ١٥-١٦) ، فدعا بالمصحف فنصبه غرضاً للشباب (النبال) وأقبل يرميه وهو يقول:

أَتُوْعِدُ كُلَّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ فَهَـأَنـَا ذَاكَ جَبَّارٍ عَنِيدٍ

إِذَا مَا جِئْتَ رَبِّكَ يَوْمَ حَشْرِ فَقُلْ يَا رَبَّ خَرَقْتَنِي الْوَلِيدُ

وذكر محمد بن يزيد المبرد (النحوي) أن الوليد ألحد في شعر له، ذكر فيه النبي ﷺ أن الوحي لم يأته عن ربه كذب وأخزاه الله من ذلك الشعر.

تَلْعَبُ بِالْخِلَافَةِ هَاشِمِي بِلَا وَحْيٍ أَتَاهُ وَلَا كِتَابٍ

فَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُنِي طَعَامِي وَقُلْ لِلَّهِ يَمْنَعُنِي شَرَابِي^(٢)

وهكذا صدق رسول الله ﷺ في وصفه للقرآن "ما تحداه من جبار إلا قصمه الله".

(١) المصدر نفسه ٢٩٤ - ٢٩٥. وكتاب المصاحف ص ٣ وعلاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندى الرهان فورى (ت: ٩٧٥). كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال تحقيق الشيخ بكرى حياتى والشيخ صفوة السقا مؤسسة الرسالة ج ١ ص ٥ / ١٤٠٥-١٩٩٥ ج ٢ ص ٢٩٤. وجموده. القراءات واللهجات ص ٨٥.
(٢) المسعودى أبو الحسن على بن الحسين. مروج الذهب ومعادن الجوهر تحقيق محمد عى الدين عبد الحميد (بيروت المكتبة العصرية (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م) ج ٣ ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

الفصل الرابع

الحروف المقطعة

بعد هذا نعود مرة أخرى إلى موضوع الحروف المقطعة ونظرة المستشرقين إليها. يقول ويلش: "إن التاريخ لم يسجل لنا أي اختلاف في طريقة النطق بالحروف المقطعة وإنه من الملاحظ أنها تستند على قاعدة صلبة من المعتقدات الإسلامية ومع هذا تبقى عدة تساؤلات غير محاب عليها، ولكن يبدو أن مؤشر الدليل يتجه لتأييد لوث ونولدكه وإسكواللي، وألن جوننس في اعتبارهم الحروف المقطعة جزءاً من الوحي، ويبدو أن رأى بل كذلك صائب في اعتبار الحروف والجمل التمهيدية في القرآن جزءاً من النسخ المنقحة التي كتبت في بداية العهد المدني والتي أثبتت في أوائل السور في النسخ المكتوبة التي كان محمد ﷺ يعدها بنفسه، وإنه ليس من غير المحتمل أن السور التي ذكرت فيها الحروف المفرقة كانت هي السور التي أعدها محمد ﷺ لكتاب الوحي، ومن وجهة نظرهم (أي هؤلاء المستشرقين الأربعة) فإن هذه الحروف لها أهميتها الكبرى في فهم تاريخ النص القرآني، وفي معرفة الترتيب الزمني لهذا النص المقدس، والذي له أهميته هو أيضاً في فهم معاني هذه الحروف نفسها"^(١).

هذه هي العبارات التي ختم بها الكاتب كلامه عن الحروف المقطعة. وسوف نتناول موضوع هذه الحروف بدراسة مفصلة هنا ثم نتبعها بالحديث عن مدى عناية المسلمين بدراسة هذه الحروف.

الحروف المقطعة من الأسرار العظيمة في القرآن، فقد اعتبرها الإمام علي كرم الله وجهه، صفوة القرآن. وقال الشعبي: هي سر القرآن^(٢).

يقول الباقلاني: "وكثير من هذه السور - أي التي تبدأ بالحروف المقطعة - إذا تأملته فهو من أوله إلى آخره مبني على لزوم حجة القرآن، والتنبيه على وجه معجزته"^(٣).

قال ابن عباس: "هي أقسام قيل أقسم الله تعالى بهذه الحروف لشرفها وفضلها لأنها مباني كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنی وصفاته العليا"^(٤).

(١) انظر: دائرة المعارف ص ٤١٤.

(٢) الطبرسي. البيان ١/١٢٢.

(٣) محمد الخليلي الشافعي - فتاوى القاهرة مطبعة محمد أفندي شاهين ١٢٨٤ ص ٢٧.

(٤) إعجاز القرآن. ص ٣٢ وما بعدها.

وعلى هذا يمكن أن نقول إن هذه الحروف المنيزلة يصح أن نعتبرها دلالات على اللغة الإلهية الأم التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام، والتي تفرعت عنها جميع اللغات في العالم، وكما أن آدم هو أصل الجنس البشري، الذي اختلف لونه ولسانه، ولكنه ينتمي إلى أصل واحد هو آدم؛ والحروف المقطعة وإن خفي عنا معناها، فإن كل حرف منها يحمل بطاقة هائلة من المعاني الربانية والألطف الروحانية، ولا يدركها، ولا يشعر بها إلا أولو النهى والبصائر؛ تأتي هذه الحروف في ابتداء تسع وعشرين سورة من سور القرآن بعد الفاتحة، وتسمى هذه الحروف أحياناً، بأوائل السور، وأحياناً بفواتح السور، وأخرى بالحروف المقطعة؛ وذلك لأنها لا تأتي إلا في أوائل السور فقط؛ وقد عرفت هذه الحروف في اللغات الأوروبية، بصفة عامة، بالحروف الغامضة أو الملعونة؛ وهذا التعبير الأخير هو الذي اختاره الكاتب ويلش عنواناً لهذا الموضوع.

والحروف المقطعة متنوعة بين الحرف، والحرفين، والثلاث، والأربع، والخمس؛ يقول ويلش "لأربعة عشر قرناً ظلت هذه الحروف موضع غموض وحيرة لعلماء المسلمين، إذ يرى بعض العلماء أن فيها اختصاراً لعبارات ما، على سبيل المثال "آلر"، اختصار للرحمن، "آلم" للرحيم، "حم" للرحمن الرحيم، "ص" صادي يا محمد، "يس" يا سيد المرسلين ... الخ.

وروى عكرمة وغيره عن ابن عباس أن "آلر"، و"حم"، و"ن" معاً رموزٌ لقوله: "الرحمن"، استعرض الكاتب آراء العلماء الاجتهادية في معنى هذه الحروف، كما أوردها السيوطي؛ واعتمد ويلش ما قرره الأخير بأن علم هذه الحروف غير معروف حق المعرفة إلا لله تعالى. وسوف نستعرض هذه الآراء وغيرها مما لم يقف عليه الكاتب من أسرارها ومعانيها، أو ما رأى هو الاستغناء عنه على الرغم من أهميته للبحث.

ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن فواتح السور قد كتبت على صورة الحروف أنفسها، لا على صورة النطق بها، فلم تكتب مثلاً "ن" صوتياً هكذا "نون" ولم تكتب "آلم" بحسب نطقنا لها "ألف لام ميم" وقطعت ﴿حم﴾ عسق ﴿﴾ ولم تقطع ﴿المص﴾ و﴿كهيعص﴾^(١) وذلك إما لسر يعلمه الله، وإما لشهرتها وقراءتها توقيفاً.

يعرض المستشرق ويلش للكتاب المحدثين من المسلمين ليتعرف على آرائهم في تفسير الحروف المقطعة ويقرر أنهم على الرغم من تسليمتهم بما انتهى إليه السيوطي وجمهور علماء المسلمين من تفويض العلم الكامل بأسرار هذه الحروف إلى الله تعالى، فإنهم حاولوا اكتشاف أسرارها، فأمير علي، كمثال على ذلك، يرى أن جميع هذه الحروف بمثابة النداء على النبي ﷺ^(١) والتأهيل له لتلقى ما يرد بعدها من الوحي.

وعلى النصوص الطاهر يزعم أن هناك علاقة عددية أو حسابية بين عدد آي السور المبدوءة بالحروف المقطعة، وبين القيمة العددية لهذه الحروف؛ ولكي يصل هذا الأخير إلى غرضه نراه يتصور على القرآن ويستنتج أموراً غريبة وعجيبة لم تخف على المستشرق نفسه بل ولم تسلم من اعتراضه.

على سبيل المثال فإن الطاهر يدعي أن سورة الأعراف وهي رقم ٧ في المصحف وآياتها تبلغ ٢٠٦ آية، كانت في الأصل تضم ١٦١ آية فقط؛ وذلك لأن هذا الرقم هو الذي يوافق القيمة العددية للحروف (أ ل م ص) المذكورة في بداية السورة (١ + ٣٠ + ٤٠ + ٩٠ = ١٦١).

ولسنا ندري على أي أساس بنى الطاهر زعمه هذا؟ ومن أي طريق جلب هذا العار على نفسه، هذا فضلاً عن مصادمة آرائه للدين، الذي يفترض أنه يدين به، اللهم إلا إذا كان شيعياً غالياً، أو بهائياً قالياً، أو أحمدياً غاوياً؛ ولقد أجمع العلماء على أن الأعراف من السور الطول وأنها هكذا منذ نزلت، بالنسبة لعدد آياتها، وبالنسبة لترتيبها في المصحف، وليس في سورة الأعراف منسوخ أثبتة. وعلى هذا الخط المعوج نفسه، راح هذا الكاتب يضم سورة لسورة وآيات لآيات حتى يجعلها صالحة لتأييد فكرته الرعناء في التوافق بين القيمة العددية للحروف، وعدد آيات السورة، وكما يذكر المستشرق، فإنه لم يستطع، ولو في حالة واحدة، أن يؤيد زعمه في اتفاق القيمة العددية للحروف مع العدد الحقيقي لآي أي سورة على ما هو موجود في المصحف الذي بين أيدينا.

ويرى المستشرق أن هذا دليل على النظرة العشوائية من قبل بعض الكتاب للحروف المقطعة، وتنكب الطريق لتفسيرها.

(١) راجع مصادر ويلش في آخر البحث.

إن الكاتب منصف في عَرَضِهِ وفي رَدِّه هنا، ولكننا بتسليط بعض الضوء على ما بين السطور اكتشفنا أن الكاتب يريد أن يعطى القارئ انطباعاً مؤداه أن القرآن كتاب طلاس غير مفهوم للمسلمين قديمهم وحديثهم؛ وهذا الفكرة في حد ذاتها تمثل عصب الدراسات الاستشراقية بوجه عام؛ وأمر المستشرقين في هذا أغرب مما يُتَعَجَّب منه، فالقرآن قد أوجد أمة عظيمة وشكلها تشكيلاً فريداً، وقاد مسيرتها إلى القوة، والخير، والعدل، والمجد، والحضارة؛ ومن القرآن انبعثت علوم المسلمين ومعارفهم؛ وبهذه الآيات الإلهية حكموا وسادوا، وتعلموا وعلموا، وأسسوا قواعد المنهج والعلوم التجريبية. ومهما يكن الأمر فإن الغموض الذى يحيط بالحروف المفرقة لا يترتب عليه ضياع تكليف شرعى، أو إسقاط قاعدة عقديّة يكون الجهل بها ضاراً بالمتكلمين، أو مثاراً لتشككهم في الدين.

وهنا نتناول آراء المستشرقين ومن نهج فهمهم في طبيعة الحروف المقطعة وأسرارها؛ إن مقولة المستشرق "لوث" في أن الحروف المقطعة قد تأثرت في أصل وضعها "بالكبالا" (التصوف اليهودى) يعد أكثر عشوائية ذهنية من مقالة الطاهر الآنف الذكر، ما للقرآن والكبالا؟؟ ما علاقة الحروف المقطعة باليهود، وأين يا ترى هو الدليل على هذه الدعاوى العريضة؟ إن هذه الحروف جزء من الوحي، ومعانيها المحددة كانت وستظل موضع خلاف بين علماء المسلمين؛ فهى من أسرار القرآن ومتشابهة، ولنا أن نجتهد في التعرف على معانيها؛ ولكننا لا نقطع أبداً بأن ما توصلنا إليه باجتهادنا أو توصل إليه غيرنا هو مراد الله تعالى منها على القطع؛ على أنه من اللافت للنظر حقاً، أن هذه الحروف موزعة على تسع وعشرين سورة، سبعة وعشرين منها مكية، واثنين فقط مدنية، بخلاف ما زعم "لوث". هذه السور منها الطويل، ومنها القصير، ومنها المتوسط؛ ومنها المذكور في أول القرآن والمذكور في وسطه والمذكور في آخره؛ ومن العجيب أننا لم نجد أحداً من المسلمين ولا نقاد القرآن قبل لوث زعم هذا الزعم. وقد أنصف حقاً إف. إسكواللى في رفضه لرأى لوث ووصفه له بأنه عشوائي جداً. لكنه مع ذلك قد أثنى على طريقته ومنهجه في البحث في كتابه "تاريخ الآداب أو العلوم". حتى سنة ١٩١٩، ورفض إسكواللى بالتالى تفسير نولدكه الأخير للحروف المقطعة، والمبنى أساساً على رأى لوث السابق واعتبر إسكواللى بحق أن رأى نولدكه يحوطه الشك.

وعلى الرغم من هذا فإن إسكواللى يرى أن هذه الحروف لها معاني رمزية لا تزال لها صلة على نحو ما بتنقيح السور القرآنية التي تنصدرها، وإسكواللى، ولكنه هو الآخر مخطئ في زعمه بأن الحروف لها علاقة ما بتنقيح السور القرآنية؛ إنه للأسف رفض الرأى الذى وصفه بالعشوائية؛ فى الوقت الذى تبنى هو رأياً أكثر عشوائية وأشد فحشاً منه، إنه للأسف أوسع فى الدعوى، وأمعن فى البعد عن الدليل. تُرى من نقح القرآن وهو كلام الله المنزل بحروفه ومعانيه وترتيب سورته وآياته؟ ومتى وقع هذا التنقيح ومن هم الشهود عليه؟ إن هذا الزعم جـد مـمعن فى الغرابة، وهل تنقيح القرآن يتم بوضع مجموعة من الحروف الهجائية فى أوائل بعض السور لا كلها؛ هذه الحروف لا يقطع أحد من علماء المسلمين بحقيقة معانيها على وجه الدقة واليقين. ويفوض جمهور علماء الأمة علم معانيها إلى الله تعالى؟

كيف ساغ للمستشرق هذا الادعاء بالنسبة للقرآن؛ وكيف اعتبر أن تصدير بعض سور القرآن بالحروف المقطعة التى يزعم أنها غير مفهومة المعنى تنقيحاً؟ وما رأى المستشرق فى السور التى تخلو من مثل هذه الحروف؟ هل تركت غير منقحة؟ أم نقحت بطريقة أخرى لم يعرفها المستشرقون أو عرفوها ولم يفصحوا عنها؟!

لقد اطرَّح المستشرقون كل ما توصل إليه المسلمون باجتهادهم فى فهم معانى الحروف المقطعة، وافترضوا هم مفاهيم من وحى خيالهم لا تُمتُّ إلى القرآن بأدى صلة. إنهم لم يقتنعوا بطبيعية التركيب القرآنى الذى يقتضى نفسه- من وجهة نظرنا- على الأقل وجود الحروف المقطعة قبل الآية أو الآيات التى تليها، ولم يكتفوا كذلك بأقوال الصحابة أو بأقوال أهل العلم فيها؛ بل اخترعوا تفسيرات من عند أنفسهم رضوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعُتواً.

قال المستشرق بعد أن عدَّد آراء المسلمين فى تفسير معانى هذه الحروف، بأنها ليست جزءاً من القرآن وإنما هى رموز وإشارات حروفية إلى أصحاب تلك النسخ من القرآن، ومنذ أن قدم نولدكه هذا الزعم حاول عدد كبير من المستشرقين تدعيمه والتدليل عليه، فهم يقولون إن هذه الحروف إنما هى إشارات ورموز كانت تومئ إلى أسماء أصحاب هذه النسخ من المصاحف التى جمعها زيد بن ثابت فيما بعد واستعملها فى إخراج نسخته التى كلف بجمعها، فمثلاً "أل" رمز للزبير بن العوام، و"أل م ر" للمغيرة (ابن شعبة)، و"حم" لعبد الرحمن؛ ويزعم نولدكه بأن هذه الحروف المقطعة وجدت طريقها إلى القرآن بمحض الصدفة، بمعنى أنهم ضموها إلى القرآن ظناً منهم أنها جزء من التنزيل. هذا الرأى تبناه

هيرشفيلد ونشره في كتاب له. ولكن صاحب الرأي الأول- أعني نولدكه- لم يلبث أن غير رأيه وتبني رأياً آخر بدلاً منه كما سنذكره فيما بعد. ولكن قبل أن نطرح الرأي الآخر مشفقوياً بمحاولة صاحبه في التدليل عليه نود أن نبين ثغافت رأى نولدكه وهيرشفيلد، إنهما يدعيان أن هذه الحروف يرمز بها إلى أسماء الأشخاص الذين كانوا يمتلكون المخطوطات التي اعتمد عليها زيد بن ثابت في جمع القرآن.

وهذا مردود لعدة أمور، منها:

أولاً: أن زيدا كان يجمع القرآن ليس من نسخ كاملة، وإنما من مواد مختلفة كالعظام والجريد والخفاف والقباطى... إلخ؛ فأى ورقة أو أى جريدة أو أى عظمة يا ترى كانت تحمل هذه الحروف؟

ثانياً: إننا لم نسمع عن شيء كهذا من قبل ولا قرأناه في المصادر التي بين أيدينا التي حملت إلينا التفاصيل المتصلة بجمع القرآن، حتى تلك الروايات الضعيفة التي أولع جامعوها بإثبات بعض الروايات الغريبة والمتناقضة لم تذكر شيئاً كذلك لا تصريحاً ولا تلميحاً.

ثالثاً: لماذا وضعت هذه الحروف في أوائل هذه السور المعروفة بعينها وليس في غيرها؟ ولماذا كانت لهذا العدد من السور بالتحديد؟ ولماذا لم تأت في سورة متتالية وليست متقطعة؟

رابعاً: وليس أقل أهمية من ذلك أن وضع الحروف المقطعة بحيثاً التي هي عليها لا يتطابق مع الأسماء التي اقترحها المستشرق؟ فمثلاً "الزبير" لا يرمز له بـ"الر"، كذلك الحال بالنسبة للأسماء الأخرى التي حملها عليها، والحروف التي اقترحها لها، لذلك وجدنا ويلش يضع حرف (Z) بين قوسين هكذا بدلاً من حرف (R) الذي وضعه نولدكه وهيرشفيلد في دعوى أن الحروف "الر" ترمز إلى "الزبير"؛ ثم إن الأسماء التي اقترحها المستشرقون لم تكن معروفة بحيازة مصاحف. هذا في الوقت الذي أهمل فيه هؤلاء المستشرقون ذكر أشهر المصحفين والقرآنيين كعبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب وغيرهم.

خامساً: ليس من عادة العرب استعمال مثل هذه الطريقة في توثيق أشعارهم أو خطبهم. لقد تبين من هذا العرض عدم فاعلية سلاح الاستشراق في معركته ضد القرآن؛ لذا فقد فكر ويلش في أن يستعمل سلاحاً آخر غيره. وعلى الرغم من ضعف نظرية نولدكه، فإنها للأسف قد وجدت ترحيباً كبيراً في الأوساط الاستشراقية وظلت هي السائدة في الكتابات

H. الغربية لوقت طويل، ولقد تبين هذا التفسير الخاطئ للحروف المقطعة هيرشفيلد. Hirschfeld في الكتاب (بحوث جديدة ص ١٤١-١٤٣) (New Researches) إذ اعتبر كل حرف من هذه الحروف رمزاً لاسم الشخص الذي كان يمتلك المخطوطة، والعجيب مع ذلك أن المستشرقين يصرون على أن القرآن لم يكتب في حياة محمد ﷺ. على أي حال فقد لاحظ هيرشفيلد ثغافت نظريته، والخلل الذي يكمن في جرثومتها عندما قال: "إننا إذا قلنا بأن هذه الحروف ترجع إلى محمد نفسه، وجب أن نسلم بأنه، أي محمد، لا بد وأن يكون قد شارك بقسط كبير في ترتيب السور، وهذا يتناقض مع كل ما نعرف عن جمع القرآن".

لم يمض وقت طويل على تفسير هيرشفيلد وتعليقه الذي ضمنه كتاباً له، حتى أعلن أستاذه صاحب النظرية، أعني نولدكه، تخلياً عن زعمه في تفسير الحروف المقطعة، وتبنى موقفاً آخر مغايراً تماماً لرأيه الأول، وذلك عندما نشر O.Loeth مقالته عن الطبرى كمفسر^(١). ومن وجهة نظر لوث، فإن هذه الحروف تظهر فقط في أواخر العهد المكي، وبداية العهد المدني، عندما كان محمد يقترب من اليهودية. وفي بعض الحالات تضمنت بعض الآيات القرآنية إشارات إلى الحروف المقطعة رموز كبالية Cabalistic Symbols؛ هذه الرموز ربما أخذت شكل كلمات وعبارات أساسية حقيقية، تصدرت بعض سور القرآن.

كان هذا الرأي كافياً في جعل نولدكه يتخلى عن نظريته بالنسبة لدلالة الحروف المرفقة أو صفتها، وقبول هذا الاعتقاد السائد والمدعم بالأدلة في أن هذه الحروف تعد جزءاً من الوحى، وأنها من ثم تحمل معاني خاصة هي أبعد بكثير من أن تكون معاني صوفية أو باطنية فقط.

في هذه القرينة نقول إن الكبالات معناها في العبرية التلقى أو التحصيل؛ وتعني اصطلاحاً مجموع الفلسفة الصوفية والروحية لليهود. ولسنا نرى أي علاقة بين الكبالات وبين الحروف المقطعة.

الفصل الخامس

عناية علماء المسلمين بالحروف المقطعة

أعطى اللغويون العظام أهمية كبيرة للحروف فقد وضع الخليل بن أحمد وابن السكيت والرازي كتباً في أسرارها وأهميتها^(١)؛ وابن جني في سر صناعة الإعراب وابن الأنباري له "زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء" حققه رمضان عبد التواب في معنى الحروف.

لقد ذكرت هذه الحروف في أوائل تسع وعشرين سورة هي البقرة، وآل عمران، والأعراف، ويونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، ومريم، وطه، والشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة، ويس، وص، وغافر، وحـم (السجدة)، والشورى، والزخرف، والدخان، والجن، والأحقاف، و"ق"، و"ن" - كلها سبعة وسبعون حرفاً. الذي لم يتكرر منها حرفان "ك" و"ن"، والذي تكرر مرتين أربعة "ع، ق، هـ، ي"، والذي تكرر ثلاث مرات حرف واحد "ص"، والذي تكرر أربع مرات حرف واحد "ط"، والذي تكرر خمس مرات هو حرف واحد "س"، والذي تكرر ست مرات حرف واحد "ر"، والذي تكرر سبع مرات حرف واحد "ح"، والذي تكرر ثلاث عشرة مرة حرفان الحرف "أ" والحرف "ل"، والذي تكرر سبع عشرة مرة حرف واحد "م".

والمنقوط منها ثلاثة: "ق، ن، ي"؛ وغير المنقوط أحد عشر: "أ، ح، ر، س، ص، ط، ع، ك، ل، م، هـ".

مدار الكل نصف حروف المعجم أربعة عشر "أ، ح، ر، س، ص، ط، ع، ق، ك، ل، م، ن، هـ، ي"؛ وعدد سورها عدد حروف المعجم.

وتشتمل الحروف المقطعة على نصف الحروف المهموسة وهي "ص، ك، هـ، س، ح". ومن المجهورة تشتمل على نصفها: "أ، ل، م، ر، ع، ط، ق، ي، ن".

(١) حول الحروف انظر. ثلاث كتب في الحروف للخليل بن أحمد وابن السكيت والرازي. تحقيق د. رمضان عبد التواب القاهرة والرياض. الخانجي والرفاعي ١٤٠٢ - ١٩٨٢.

ومن الشديدة نصفها: "أ، ل، م، ر، ك، هـ، ي، س، ح، ن"؛ ومن المستعلية نصفها وهي: "ق، ض، ط".

ومن المنخفضة نصفها "أ، ل، م، ر، ك، هـ، س، س، ح، ن".

ومن حروف القلقة نصفها: "ق، ط".

ويلاحظ أن هذه الحروف من حيث العدد تضم، الواحدان، والثلاثي والرباعي والخماسي، وهي كالاتي على الترتيب:

ص، ق، ن.

طه طس، يسن حم، حم، حم، حم، حم، [٩].

الم - الم - الم - الم - الم - الم، الر - الر - الر - الر - الر، طسم، طسم [١٣].

والرباعي: المص، المر [٢].

والخماسي: ك هـ ي ع ص؛ ح م ع س ق.

سبعة من هذه الحروف المقطعة تعد آية وهي:

كهيعص، المص، ألم، طسم، طه، يسن، حم.

ومجموعها في القرآن ثمان عشرة آية.

وستة من هذه الحروف آية: المر، الر، طس، ص، ق، ن.

وواحدة فقط من هذه المجموعة تعد آيتان وهي حم، عسق؛ وعند الرازي أنه يمكن

تخريج كلام مفهوم ومعلوم من هذه الحروف^(١). وعدد الحروف المقطعة ٦٩٣ حرفاً. وقد

استنتج بعضهم من هذا العدد مدة بقاء الأمة الإسلامية^(٢)؛ ولكن مثل هذا الكلام لا طائل

تحتة، ولا دليل عليه، ولم يُعطِ القرآن ولا السنة قيمةً لمثل هذه الشطحات؛ وقد استعمل

بعض الشعراء هذه الحروف المقطعة في أشعارهم من هذا قول شريح:

يذكرني حميماً والرمح شاجر فهلا تلا حم والرمح شاجر^(٣)

(١) انظر: تفسير الرازي تفسير أول سورة البقرة ج ١ والمصدر السابق ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه ١٥٩.

(٣) ابن منظور. لسان العرب ج ١ ص ٣٨ وج ٣ ص ٣٥٦.

وأنشد أبو عبيدة:

إذا اجتمعوا علي ألف وواو ويا هاج بينهما قتال^(١)

ومن المفيد ذكره في قرينة الحروف المقطعة، الإشارة إلى ما أثاره خصوم اللغة العربية في تركيا، بشأن الحروف العربية التي كانت مستخدمة في الكتابة باللغة التركية في تركيا.

ففي هذا البلد المسلم مثلاً ثار جدل حول الأبجدية، إذ ادعى أعداء اللغة العربية أنها غير صالحة للتقدم، وأن طريقة كتابة حروفها صعبة، وأنها بالتالي، هي السبب في أمية الفلاح التركي وتأخره؛ ناسين كما يقول الأمير شكيب أرسلان أن سبب تأخر الفلاح هو الظلم الاجتماعي والانحطاط الاقتصادي^(٢)؛ بل إننا نقول إن الظلم الاجتماعي هو سبب تأخر مجتمعات المسلمين جميعاً، وليس المجتمع التركي وحده. ورد أنصار اللغة العربية بأنها أوفق من اللغة التركية وغيرها، فإن شكل حروفها يمكن للبصر أن يميزه بسهولة وذلك بمجرد وقوع العين عليها، ثم إنها مريحة للناظر، وأصح للنظر عند القراءة والكتابة من الحروف اللاتينية.

وأخيراً نقول إن للحروف المقطعة في القرآن الكريم أسراراً ومعاني، لا يعرفها على الوجه الأكمل سوى الله تعالى، وهذه الحروف ليست مجموعة من الحروف الجامدة ضم بعضها إلى بعض لغیر معنى، ولغير غاية، إنها ليست شكلاً بلا جوهر أو رسماً بلا معلم. إن القرآن الكريم، كتاب علم من أوله إلى آخره، والحروف المقطعة، التي وضعت على هذا النحو في أوائل بعض السور لها معاني كسائر آيات القرآن بلا شك؛ ولو أنها وضعت كرمز صامت، أو شكل خالٍ من المعنى لما تنوعت من الحرف إلى الحرفين، إلى الثلاثة، والأربعة، والخمسة، ولما لازمت أوائل السور التي أنزلها الله تعالى فيما أنزل من القرآن، ولما أعطى الله تعالى بعض الإشارات إلى معانيها في الآيات التي تليها، وترك للعقل أن يبحث ويتأمل، وما ذلك إلا لأن القرآن قد استهدف العقل الغافل فنبهه واستثاره ليتفكر ويستدير في القرآن ومادته من حروف وكلمات ومعاني، وبيان ونظم، وفي الكون ومادته، من سماء وأرض وأهوار وبحار ومعادن وزروع وإنسان وحيوان، وطيور، وهام.

(١) نسبه الميرد في المقتضب لأبي النجم (٣٧/١) ونسبه صاحب مجاز القرآن لكعب بن جريز (انظر: لسان العرب مادة حم).

(٢) انظر: لوثروب ستودارد. حاضر العالم الإسلامي. ترجمة عجاج نويهض. مع تعليقات لأمر البيان شكيب أرسلان بيروت. دار الفكر ١٣٩٤ - ١٩٧٢ ج ٢ ص ٣٩٢.

الباب الخامس

الحوادث والمناسبات التاريخية

فى النص القرآنى

تمهيد

الفصل الأول ... الإشارات القرآنية فى القرآن

الفصل الثانى ... التأريخ الإسلامى المعتمد للقرآن

الفصل الثالث ... التأريخ الغربى الحديث لسور القرآن وآياته

1888. 1889. 1890. 1891. 1892.

1893. 1894. 1895. 1896. 1897. 1898. 1899. 1900.

1901. 1902. 1903. 1904. 1905.

1906. 1907.

1908. 1909.

1910. 1911. 1912. 1913. 1914. 1915. 1916.

1917. 1918. 1919. 1920. 1921. 1922. 1923.

1924. 1925. 1926. 1927. 1928. 1929. 1930. 1931. 1932.

مَهَيِّدٌ

في هذا الموضوع من البحث يستعرض الكاتب سلسلة الأحداث التاريخية والتسلسل الزمني لآيات القرآن كما وردت في الكتاب العزيز نصًّا أو إشارة وكما فهمها علماء الإسلام والمستشرقون.

يقول ويلش: "هذا الموضوع صعب وشائك ولا يمكن أن نخرج منه بقائمة مفصلة ودقيقة لأوقات النزول، وتواريخ الآيات والسور وذلك لأن القرآن ليس كتاب تاريخ أو سجلًا يوميًا للأحداث التي شاهدت نزوله". هذا الجانب من العلم التفصيلي يطلب من السُّنة لا من القرآن، إذ يكمن اهتمام القرآن في الحوادث نفسها التي تؤثر في البشر وبالأفعال والأقوال البشرية التي تؤثر في التاريخ بمعناه الدقيق.

توجد في القرآن إشارات عامة أو خاصة إلى أحداث تاريخية معروفة سواء كانت قد وقعت في الماضي، أو في حاضر القرآن، ولكن يظل القرآن مع هذا، كتاب عقيدة وشرعية، وقواعد وسلوك، وأخلاق ومعاملات، ودستور واجتماع، واقتصاد وعلاقات وصلات إنسانية على مستوى الجماعة المؤمنة والدولة الإسلامية الكبرى، وكذلك على مستوى الإنسانية كلها والمجتمع الدولي بأكمله؛ وذلك لأن القرآن يتوجه بخطابه ودعوته إلى عموم البشر من حيث البلاغ، وإلى عموم جماعة المؤمنين من حيث التكليف.

ليس في القرآن تلك التفاصيل التاريخية المذكورة في كتب اليهود، والتي جعلتها لا تعدو غالباً أن تكون كتباً قومية أو سجلًا يوميًا لشعب معين، تحمل تواريخه، وأسماء قبائله وتحركاتهم في حِلِّهم وترحالهم وحُرُوبهم وصراعاتهم؛ أراد اليهود الذين كتبوا هذه الكتب أن يجعلوا تاريخ اليهود كله، تاريخاً دينياً يحصر اهتمام الله فيهم وحدهم، وتصور الله تعالى أنه لا يقيم أى علاقة بعباده إلا على أساس علاقتهم باليهود... إلخ؛ ولما كانت كتب اليهود كذلك فإنها عندما خضعت للتحقق النقدي والمراجعة التاريخية ظهرت فيها الأخطاء والمخالفات والتناقضات العديدة. ولقد أخطأ المستشرقون خطأً ذريعاً عندما استعملوا المعايير النقدية التي طبقوها على كتب العهد القديم، والعهد الجديد نفسها، على القرآن؛ متجاهلين كل هذه الخصائص التي تميز القرآن عن جميع هذه الكتب، والتي أَلَحْنَا إليها هنا وهناك في ثنايا هذا الكتاب.

ينبغي أن ندرك تماماً أن ميزان البهار لا يصلح في تقدير قيمة النَّصَار. ذكر القرآن الكريم أن الله أنزل هذا الوحي على محمد ﷺ مفرقاً ليكون أدعى لتثبيته ﷺ بدوام تلقيه

وتعزيته وتسليته ﷺ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكُثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ۝﴾ (الإسراء: ١٠٦)، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ۝﴾ (الفرقان: ٣٢)، ومعنى لنثبت به فؤادك أى نقويه به، أو نمكن القرآن فى قلبك فلا يتفلت منه.

ولكن ينبغى أن نعرف أن القرآن ليس كتاب مناسبات، وأن آياته لا ترتبط بأحوال محمد النفسية والعملية، أو بظروف الدعوة وبموقف الرسول ﷺ من المشركين أو من المجتمع الجاهلي بأسره كما يحاول أن يقرره المستشرقون. القرآن ليس كتاب مناسبات أو وقائع بل هو كلام الله القديم الذى جاء لإصلاح الإنسان وصلاح العالم، وهو أوسع من أن تحده مناسبة أو يحيط به ظرف، فكل المناسبات والظروف والأحوال تنتهى، والقرآن باق أبداً ما بقيت السماوات والأرض، حكم عدل وشاهد أمين على التاريخ والإنسان معاً، إنه إذن ليس من عمل محمد، ولا هو صورةً نفسيةً له ﷺ ولا صدى للبيئة التى عاش فيها ﷺ^(١)؛ وليس هو منتج ثقافي؛ ولا مرآة عصر أو مصر بعينه، كما يزعم المستشرقون والمتحررون من المسلمين؛ ممن وهما أنهم يجدون، وهم فى الحقيقة مقلدون دوارون فى فلك الغربيين.

اهتم المسلمون، لا محالة، برصد بعض المناسبات القرآنية ودراستها، وتكلم علماءهم عما نزل من القرآن بمكة ابتداءً ووسطاً وانتهاءً، وما نزل بالمدينة، وما نزل بمكة وله حكم المدين والعكس، وما نزل بمكة فى أهل المدينة، والعكس، وما نزل بالجحفة، وما نزل ببيت المقدس، وما نزل بالطائف، وما نزل بالمدينة، وما نزل ليلاً وما نزل نهاراً، وما نزل صيفاً، وما نزل شتاءً، وما نزل والنبي ﷺ فى فراشه، أو فى أسفاره وتكلموا كذلك فى ترتيب السور، وعن أسباب النزول العامة والخاصة، وعن أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن، وهكذا^(٢).

(١) انظر على سبيل المثال أ. منجانا "القرآن" فى دائرة معارف الدين والأخلاق ٥٣٩/١٠. يزعم هذا المستشرق أن القرآن ما هو إلا انعكاس لحالات الحب والبغض وسائر الانفعالات الحادة التى كان يعانى منها محمد.

(٢) انظر على سبيل المثال أ. منجانا "القرآن" فى دائرة معارف الدين والأخلاق ٥٣٩/ ١٠. يزعم هذا المستشرق أن القرآن ما هو إلا انعكاس لحالات الحب والبغض وسائر الانفعالات الحادة التى كان يعانى منها محمد. انظر فى ذلك السيوطى الإتقان ٣٢٠/١ وما بعدها.

الفصل الأول

الإشارات التاريخية في القرآن

بعد هذا التمهيد ننتقل إلى ما قاله الكاتب في هذا الموضوع، يقرر ويلش: "أن القرآن يتجاوب باطراد وثبات، وفي حالات كثيرة بوضوح مع الموقف التاريخي لمحمد ﷺ يمدّه بالشجاعة في أوقات المحنة والاضطهاد، يجيب على أسئلة أتباعه وخصومه على السواء، يعلق على حوادث معاصرة، يقدم العقائد والقواعد الأساسية للجماعة المسلمة؛ والسبب لم تظهر في القرآن وفق نظام التسلسل التاريخي للأحداث أو التشريعات، وإنما في أوقات متراخية وعلى مراحل غير واضحة دائماً (من حيث ظرفها الزمني). إذ أن هناك تعارض وعدم اتساق ظاهرين، في عرض مجموعة العقائد، ومجموعة التشريعات القرآنية كليهما؛ على أن العقائد والتشريعات تغير وتبدل أحياناً في القرآن، وذلك لجرد المجازة لموقف جديد، لذا وجب أن نعرف التواريخ التقريبية أو الأوضاع التاريخية لبعض الآيات، أو على الأقل معرفة التسلسل الزمني لآيات أخرى إذا كان فهمها فهماً كاملاً أمراً ممكناً"

إن هذه المشكلة، أي مشكلة التعرف على تواريخ الآيات أدركها علماء المسلمين المتقدمين وأولوها أهمية كبرى وتكلموا فيها في القرون القليلة الأولى؛ من بداية الإسلام حتى ظهر واستقر ذلك النظام الصارم (إلى حد بعيد) لتاريخ القرآن وحصل على موافقة أو رضا الأصولية".

ويستمر ويلش في عرض وجهة نظره قائلاً: "يرجع الفضل في تطوير هذه الدراسة في العصر الحديث إلى الباحثين الغربيين الذين لم يستطيعوا بدورهم أن يصلوا من خلال دراساتهم إلى درجة الإجماع في وضع نسق تاريخي ثابت للقرآن أو حتى إلى احتمالات يمكن معها وضع مثل هذا النسق".

تتفق مع الكاتب في هذا التقرير، بشكل عام؛ إذ أننا لا يمكن أن نتجاهل ما قام به المستشرقون من جهود في جمع المخطوطات وتصنيفها أو تحقيقها ودراساتها، ولا

دورهم كذلك في البحث في تاريخ القرآن، ولكننا نتحفظ على هذا الكلام من حيث النتائج التي يسعى ويلش إلى تقريرها من خلال هذه المقدمات. وقد تكلمنا ببعض التفصيل عن طبيعة القرآن، في موضع آخر من هذا الكتاب؛ وقلنا إنه ليس كتاباً تاريخياً، وإنه يختلف عن كتب اليهود والنصارى التي اهتمت بالتأريخ ورصد الوقائع التاريخية التي ثبت خطؤها بالدراسة والبحث في العصر الوسيط على أيدي علماء الدين المقارن المسلمين وعلى أيدي المفكرين الأحرار في الغرب في العصر الحديث.

حقاً إن في القرآن إشارات تاريخية، على سبيل المثال، الحرب بين الروم والفرس، قصص الأنبياء وأخبار الأمم السابقة، اضطهاد المسلمين في مكة، موقف قريش من الدعوة، وطعنهم في القرآن والرسول ﷺ، الحديث عن الهجرة، تحويل القبلة من بيت المقدس إلى بيت الله الحرام بمكة، غزوة بدر، غزوة الأحزاب، موقعة حنين وغير ذلك. كما يتضمن القرآن إشارات تاريخية أخرى كثيرة تتعلق بالنبي ﷺ أو بالدعوة أو بالأمّة الإسلامية وشؤونها المختلفة. ومثل هذه الحوادث وبخاصة ما وقع منها قبل الهجرة، أي في العهد المكي يصعب إن لم يتعذر وضع تاريخ محدد لها؛ إلا أن هذه الأحداث لم تقصد لذاتها، وإنما لما وراءها من عبر ونذر، ولما تنطق من عظمة منشئ الدول ومزيلها، ومقلب التاريخ، ومصرف الأحوال.

الفصل الثانى

التأريخ الإسلامى المعتمد للقرآن

يستعرض الكاتب بعد ذلك وجهة النظر الإسلامية فى التأريخ للآيات، مدعياً أن عدداً من الآيات القرآنية، قد وظف لتأييد حوادث خاصة فى حياة النبى ﷺ، وبخاصة فيما يتصل بحياته فى مكة، على سبيل المثال سورة "عبس وتولى" فإنها نزلت عندما كان النبى ﷺ يدعو كبار المشركين، وجاءه آنذاك ابن أم مكتوم يريد أن يتعلم من الرسول ﷺ فأعرض عنه هُنيئَةً، حرصاً على استمالة قلوب المدعويين من الكفار. وسورة "ألم نشرح"، على أنها إشارة إلى حادثة شق صدره ﷺ التى يعتبرها الكاتب أسطورة، وأول سورة الإسراء أو بنى إسرائيل التى تحمل الإشارة إلى حادثة تاريخية مهمة هى حادثة الإسراء والمعراج.

وآية المجادلة أو المحاورة نزلت فى واقعة خاصة بخولة بنت ثعلبة، وزوجها أوس بن الصامت^(١). يعتبر الكاتب أن تحميل مثل هذه الحوادث على القرآن غير واقعي، ويزعم أن أقوال علماء أسباب النزول فيها متعارضة، على سبيل المثال فى تحديد أول الآيات وآخرها نزولاً، إذ أن بعضهم يقول: "إن أول ما نزل من القرآن هى الآيات الأولى من سورة ﴿أَقْرَأْ﴾ وبعضهم يقول إنها هى ﴿يَتَأْتِيَ الْمُدَّثِّرُ﴾ مع أن إجماع المسلمين على أن "اقرأ" هى أول ما نزل من القرآن؛ على أنه يمكن أن يكون قصد القائلين بأن سورة المدثر هى أول ما نزل يعنى بالأمر بالتبليغ، لأن اقرأ لم يطلب فيها من النبى ﷺ غير القراءة^(٢).

يزعم الكاتب أيضاً أن بعض الحوادث القرآنية ربما كان لها قيمة تاريخية، ولكن مع هذا ينبغي أن نشك فيما يحاك حولها من تفصيلات، ولقد اختلطت (هذا من وجهة نظره هو لا غير) الحوادث التى لها قيمة تاريخية أو شبه تاريخية بالحوادث الخيالية أو الأسطورية بدرجة لا يمكن التمييز بينها.

ويقول: "ولأن المسلمين يعتقدون أن القرآن هو مصدر التشريع الأول فقد قام اعتقادهم هذا بدور مهم فى ترتيب الآيات والصور زمنياً، وبخاصة عندما قال الفقهاء بنظرية الناسخ والمنسوخ. وكمثال جوهري على ذلك، ما جاء فى السورة الخامسة

(١) انظر: السيوطى. أسباب النزول ص ٢٠٦.

(٢) انظر: الزركشى. البرهان ١ / ١٩٣ والسيوطى. الاتقان ١ / ٢٥ - ٢٧.

(المائدة: ٩٠) بخصوص الخمر: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَّا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١)، والتي تكلمت بلهجة حادة عن الخمر ومن ثم قررت تحريمها. ولقد فسرها العلماء على أنها ناسخة للآية ٢١٩ من السورة الثانية (البقرة): ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْعَفَةٌ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَّفْعِهِمَا﴾^(٢)، والآية ٤٣ من السورة الرابعة النساء: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾^(٣)؛ "فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى أن لا يقربن الصلاة سكران"^(٤).

ولقد نسج الفقهاء والمفسرون على نظرية النسخ كثيراً من مسائلهم مع أن النسخ لا دليل عليه؛ ولم يذكر في القرآن إلا في موضع واحد: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥) (البقرة: ١٠٦).

ولقد ازدادت عملية الترتيب الزمني للقرآن تعقيداً عندما زعم علماء المسلمين أن السور الحالية كانت هي الوحدات الأصلية للوحي، يعني أنه باستثناء بعض الآيات في السور؛ كانت كل سورة قد نزلت مرة واحدة وفي فترة وجيزة بعد نهاية السورة السابقة عليها^(٦). هذا الادعاء ساعد على تصنيف السور إلى مكية ومدنية (أى ما نزل قبل الهجرة وما نزل بعدها). وهنا نتوقف مع الكاتب هنيهة لننشر السر الذى طواه فى كلامه بالنسبة للناسخ والمنسوخ فى آيات الخمر، والخمر مأخوذ من خمر إذا ستر ومنه قوله ﷺ: "خمروا الآنيسة وأوكوا الأسقية" الحديث أخرجه البخارى ومسلم واللفظ للبخارى؛ ومنه خمار المرأة وهو ساترها والخمر ما وارك من شجر ونحوه.

ويقال دخل فلان فى غمار الناس وخمارهم، يعنى استتر وخفى مكانه. وهى خمر لأنها تستر وتغطى على عقل الإنسان وحكمته، وعلى فضائله ومصالحه. وكل ما أسكر وأثر على العقل، وأخرج الإنسان عن سواء الفطرة، محرم شرعاً؛ قال ﷺ: "كل مسكر

(١) انظر: أبو جعفر النحاس. الناسخ والمنسوخ. القاهرة الأنوار المحمدية ص ٤٥ وما بعدها. والحاسنى. العقل وفهم القرآن

٤٥٦ - ٤٥٨.

(٢) انظر: دائرة المعارف ٤١٦.

خمر وكل خمر حرام وما أسكر كثيره فقليله حرام" رواه أصحاب السنن.

وروى مسلم "كل مسكر خمر وكل خمر حرام" وقد بين ابن عطية التدرج الزمني في تحريم الخمر "وروى أن آية البقرة هي أول آية تنطرق إلى تحريم الخمر ثم جاءت الآية الرابعة من سورة النساء ﴿لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾، ثم آية سورة المائدة: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الآية، فقال رسول الله ﷺ عقيها "حرمت الخمر"^(١)؛ وعن عثمان بن عفان عن أبيه: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ قال: نسختها آية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ يعنى لا تقربوا المساجد وأنتم على هذه الحالة ثم أنزل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ (النحل: ٦٧)، ثم نزلت: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة: ٩٠).

ومن حديث عمر "اللهم بين لنا في الخمر"، فنزلت: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ فقرئت عليه، فقال: "اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا فإنها تذهب العقل والمال فنزلت" ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾، فقال عمر: انتهينا". بعد أن ساق النحاس هذا وغيره قال "فهذا يدل أن الآية ناسخة"^(٢).

إن الترتيب النسقي للقرآن، ومعرفة أسباب نزول الآيات وأماكنها، معروف في الأغلب؛ ولقد اهتم المسلمون برصده وتسجيله، صحيح إنه لا يمكن أن نضع قائمة دقيقة للقرآن آية آية وسورة سورة، ولكننا في الوقت نفسه، وفي ظل ما لدينا من معلومات وإشارات نستطيع أن نتعرف على ثبت تاريخي كاف لآيات القرآن. وقد قلنا إن القرآن ليس كتاب تاريخ ولا هو من وضع بشر ولا هو بمثابة السجل اليومي لسيرة الرسول ﷺ أو حياة الأمة، وأحوال المجتمع، وإنما هو رسالة ربانية، جاءت إلى العالم من وراء الزمان والمكان، لإصلاح أهل الزمان والمكان.

ألا يكفي أن يعرف المسلمون المكي والمدني، وما نزل بين مكة والمدينة، وما نزل

(١) ابن عطية. المحرر الوجيز ٢ / ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) الناسخ والمنسوخ ٤٥ - ٤٧.

نهاراً وما نزل ليلاً، وما نزل صيفاً وما نزل شتاءً، وما نزل أولاً وما نزل وسطاً، وآخرًا؛ وأسماء من نزل فيهم القرآن، رجالاً ونساءً، وكذلك الآيات المكية في السورة المدنية، والآيات المدنية في السورة المكية؛ وليس يقدح في ذلك كون بعض الصحابة كابن عباس وغيره، اختلفوا في تحديد أماكن نزول بعض السور هل هي مكية أو مدنية؟.

ومن بعض الأمثلة، التي سنطرحها هنا مع التعليق عليها، يتبين مبالغة الكاتب في تفسير الاختلاف، بين الصحابة والعلماء في وجهات النظر فيما يخص تأريخ القرآن.

روى عمن أبي هريرة بإسناد جيد أن سورة الفاتحة نزلت بالمدينة؛ وقال غيره إنها نزلت بمكة. وقد أراح العلماء هذا الاختلاف بقولهم إنها نزلت مرتين لشرفها، مرة بمكة ومرة بالمدينة، وزعم النحاس أن سورة النساء مكية؛ وهذا غير صحيح؛ لأنه لا يلزم من نزول آية أو آيات من سورة طويلة نزل معظمها بالمدينة أن تكون بأكملها مكية. وقد رجّح العلماء أن ما نزل بعد الهجرة فهو مدني. ويقول السيوطي إن من راجع أسباب نزول آيات سورة النساء تأكد له ذلك؛ ومن البراهين على نزول سورة النساء بالمدينة ما أخرجه البخاري عن عائشة قالت: "ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده"، ودخول عائشة عليه ﷺ كان بعد الهجرة اتفاقاً، وقيل: إن سورة النساء نزلت عند الهجرة^(١)؛ والخلاف في تحديد مكان نزول الآية، لا يعدو أن يكون بمثابة رأيين، وردا عن ابن عباس يرجح الموافق منهما لباقي الآثار، وبالتالي يزول الخلاف.

أشار الكاتب إلى الاختلاف اليسير الواقع بين المصاحف في ترتيب السور؛ وقد تكلمنا عنه باستفاضة في موضع سابق، فليراجع هناك.

(١) انظر: الإتيان ١ / ٣١.

الفصل الثالث

التأريخ الغربى الحديث لسور القرآن وآياته

يقول ويلش: منذ منتصف القرن التاسع عشر والباحثون الغربيون يطبقون طرقاً نقدية على القرآن تختلف فيما بينها فى الدرجة. وقد توصلوا من خلال هذه الدراسات النقدية إلى نظم أو ترتيبات زمنية مقترحة، منها هذا الترتيب الذى يمكن أن يطلق عليه "المدرسة ذات الأربع فترات" الذى أسسه المستشرق جوستاف-ويل فى كتابه:

(Historisch - Kritische Einleitung in der Koran) (1844 – 1878)

حيث استخدم ويل ثلاثة معايير فى وضع ترتيب زمنى لسور القرآن^(١):

أولاً- الإشارات التاريخية لحوادث عرفت من مصادر أخرى.

ثانياً- طبيعة الوحي الذى يعكس موقف محمد ومبادئه الصغيرة.

ثالثاً- المظهر أو الشكل الخارجى للوحي^(٢).

وينبغى أن يلاحظ أن أهم ما ساهم به جوستاف ويل فى تطوير هذا الموضوع وإبرازه هو تقسيمه للسور المكية إلى ثلاث مجموعات؛ وهكذا قد استكمل عدد الأربعة عهود التى تم فيها نزول القرآن من وجهة نظره.

وقبل أن نعرض قائمة جوستاف ويل، والتى تابعه فيها نولدكه، فيما يخص التقسيم الثلاثى لسور العهد المكي، ينبغى أن نلفت النظر إلى أن هذا التقسيم قد اقترحه أبو القاسم محمد بن حبيب النيسابوري حيث يقول فى كتابه "التنبيه إلى فضل علوم القرآن": "من أشرف علوم القرآن علم نزوله وجهاته وترتيب ما نزل بمكة ابتداءً، ووسطاً، وانتهاءً، وترتيب ما نزل بالمدينة كذلك، ثم ما نزل بمكة وحكمه مدنى، وما نزل بالمدينة وحكمه مكى، وما نزل بمكة فى أهل المدينة، وما نزل بالمدينة فى أهل مكة، ثم ما يشبه نزول المكى فى المدنى، وما يشبه نزول المدنى فى المكى..." وذكر النيسابوري خمسة وعشرين وجهاً،

(١) انظر: جوستاف ويل. النقد التاريخى للقرآن ص ٥٤ والنقل عن مادة قرآن. دائرة المعارف الإسلامية: ٤١٦

(٢) انظر كتابه ص ٥٤ وما بعدها.

ثم قال: "من لم يعرفها ويميز بينها لم يحل له أن يتكلم في كتاب الله تعالى"^(١) يتبين من هذا أن جوستاف ويل ونولدكه لم يأتيا بجديد في هذا الصدد؛ أمّا القائمة فهي كالتالي:

أولاً- من بداية الدعوة حتى وقت الهجرة إلى الحبشة حوالي سنة ٦١٥ م.

ثانياً- عودة محمد ﷺ من الطائف حوالي ٦٢٠ م.

ثالثاً- والهجرة النبوية إلى المدينة في سبتمبر ٦٢٢ م.

هذا الترتيب الزمني الذي قدمه جوستاف - ويل، تبناه كل من ثيودور - نولدكه في سنة ١٨٦٠ م، وإف إسكواللي في ١٩٠٩ م، في كتابيهما عن القرآن، مع إدخال شيء من التعديل عليه^(٢)؛ فقد رتب ويل السور المكية المبكرة، والتي لاحظ أن آياتها تميل إلى القصر وتتميز بجمال الجرس والوقع، وأنها في نظره تشبه سجع الكهان، ويتقدمها عادة قسم، واللغة كما قيل تتميز بالصور الخيالية والقوى التأثيرية.

ولقد اعتمد ويل على أقوال علماء الإسلام في حكمه على الآيات المكية كما بيناه في المثال السابق، حيث جمع السور التي من هذا النوع، وضمها معاً ورتبها ترتيباً زمنياً، راعى فيه الترتيب الإسلامي فيما يخص سورة اقرأ، والمدثر، ثم المزمل، بشكل عام؛ ثم عرض بعد ذلك السور رقم ١٠٦، ١١١، ٥٣ إلخ بهذا الترتيب؛ على أن نولدكه يتفق معه في الأولى والثانية (اقرأ و المدثر)، لكنه يخالفه في ترتيب السور الأخرى هكذا رقم ١١١، ١٠٦، ١٠٨ إلخ فهو هنا قد وضع السورة رقم ١٠٦ بعد السورة رقم ١١١، والسورة ١٠٨ بعد السورة ١٠٦، في الترتيب؛ وهكذا دواليك. وعلى سبيل المقارنة نشير إلى ترتيب عكرمة والحسن بن أبي الحسن الذي جاء على هذا النحو: اقرأ، ن، المزمل، المدثر، تبت يدا الخ، وسورة لإيلاف قريش، على سبيل المثال، تأخذ في ترتيب جوستاف ويل رقم ٢٨ عند عكرمة والحسن بن أبي الحسن^(٣).

(١) الزركشي. البرهان في علوم القرآن ١/ ١٩٢

(٢) انظر: مقدمة بلاشير على ترجمته الفرنسية للقرآن Le Coran في عام ١٩٤٩ - ١٩٥٠ ص ٦٦ وويلش بدائرة المعارف الإسلامية ص ٤١٦.

(٣) انظر: السيوطي. الإتقان ١ / ٢٥ - ٢٧ ومقدمستان في علوم القرآن ص ٨ - ١٦ وقارن بما ساقه ويلش عن جوستاف ويل في دائرة المعارف الإسلامية ص ٤١٦.

أما سور الفترة الثانية أو المرحلة المكية المتوسطة فتتميز سورها بأنها أطول من سور الفترة الأولى، ومع كونها تميل إلى الشكل النثري في تركيبها فإنها لا تخلو تماماً من القيم الشعرية. يعتبر ويل أن سور هذه الفترة تقف وسطاً بين سور المرحلة الأولى والمرحلة الثالثة من العهد المكي، وهي تتميز أيضاً بالحديث عن الله وصفاته وبخاصة صفة الرحمة (الرحمن الرحيم)، وبالوصف الحي للجنة والنار، وقصص العذاب التي كتبت بطريقة بارزة كالكتابة بحروف مائلة أو في جمل اعتراضية^(١).

وأما سور الفترة الثالثة من فترات العهد المكي حسب تقسيم جوستاف ويل فإنها أطول من حيث الحجم وأكثر نثرية من حيث الشكل، من آيات الفترتين السابقتين، أضف إلى ذلك أن "القوة الشعرية" قد اختفت منها تماماً، وفي هذه السور يتخذ الوحي شكل الحديث أو الموعظة، وتكرر قصص الأنبياء، وقصص العقوبات في هذه السور بتفاصيل أطول كثيراً مما هي في غيرها. ويضيف "نولدكه" بطريقة تأكيدية إلى هذا القول عملية تغيير الألفاظ والمصطلحات في هذه السور مع الاحتفاظ بالشكل نفسه بين سور آخر العهد المكي وسور العهد المدني^(٢).

لا ضير في أن يجتهد الباحثون الغربيون من أجل وضع ثبت تاريخي مفصل، ما أمكن، لسور القرآن الكريم. وإذا كان المسلمون أنفسهم لم يحاولوا هذا الشيء نفسه بهذا الشكل المحدد، فإنهم ربما رأوا أن القرآن لا يخضع في نزوله بالضرورة للحوادث التاريخية، ولكن مكنم الخطورة في محاولة المستشرقين يتمثل في الإيحاء تصريحاً أو تلميحاً بأن القرآن خاضع لحوادث التاريخ، وأنه من ثم مرآة للحياة العربية وترجمان عن شخصية محمد- النبي ﷺ الذي هو في اعتقادهم مؤلف القرآن، وصاحبه، وهذا غير معقول وغير مقبول بالمرّة. وقد سقط في هذه الهوة كُتّاب مسلمون للأسف في طور مراهمتهم الفكرية كالدكتور طه حسين مثلاً كما يتجلى في كتابه "في الشعر الجاهلي"^(٣)؛ الذي نرى أنه طَبَّقَ الشك فيه على الشعر الجاهلي فيما لا شك فيه، محاولاً أن يُسقط أدب فترة كاملة من حساب

(١) انظر دائرة المعارف ص ٤١٦ وما بعدها.

(٢) انظر على سبيل المثال السور ٧، ٧٢، ٣٥، ٣٧، ٢٨، ١٧، ٢٠، ١١، ١٢، ١٦.

(٣) أحدث كتاب طه حسين هذا سنخ واعتراض علماء مصر ومن أبرز من رد عليه مصطفى صادق الرافعي في كتابه

تحت راية القرآن. القاهرة. المكتبة التجارية ١٣٨٣ - ١٩٦٣

التاريخ لا لشيء إلا ليكون مُجَدِّدًا، غفر الله له.

وزَعَمَ المستشرق "ويل" بأن العهد المكي تتميز آياته بالسجع، ليس صحيحاً؛ والصحيح أن السجع إنما هو طريقة من طرق الأداء القرآني بشكل عام؛ والقرآن نزل بلغة العرب، وعلى عُرفهم في اللغة وعادتهم في التدقيق الأدبي، حتى لقد كان الفصيح منهم لا يكون كلامه كله مسجوعاً، لما في ذلك من أمارات التكلف والاستكراه؛ لاستماع طول الكلام، فلم يرد كله مسجوعاً جرياً منهم على عُرفهم في الطبيعة الغالبة من كلامهم. ولم يخل القرآن كذلك من السجع لأنه يحسن في بعض الكلام^(١).

وقد تحَفَّظَ بعضُ العلماء في إطلاق هذه التسمية أعني "سجع" على القرآن فسموها "فواصل" تفادياً لتسمية الفواصل القرآنية بالأسجاع. قال الرماني في إعجاز القرآن إن الأشعرية يمنعون أن يقال: في القرآن سجع؛ وفرقوا بين السجع والفاصلة، بأن السجع هو الذي يقصد في نفسه، ثم يحال المعنى عليه، والواصل هي التي تتبّع المعاني، وغَلَطَ الخفاجيُّ الأشعرية في هذا القول في كتابه "سر الفصاحة"، وذلك لأن ما يمكن أن يقال في السجع، يقال أيضاً في الفواصل، وعلى أية حال فالتكلف في كلا الاثنين عيبٌ، والقرآن خالٍ من كل عيب. وواضح أن حجة الرافضين لتسمية ما في القرآن من توافق آخر الكلمات سجعاً، هو رغبتهم في تنزيه القرآن عن الوصف اللاحق بغيره من الكلام المروي عن الكهان^(٢).

ولما ألف السيوطي كتابه الضخم "معترك الأقران في إعجاز القرآن" ضمنه وجوه الإعجاز في الكتاب العزيز، وكان أول وجه للإعجاز ذكره السيوطي، "هو كثرة علوم القرآن ومعارفه التي لم يجمعها كتاب واحد قط؛ والوجه الثاني: كونه محفوظاً ضد الزيادة والنقصان ممنوعاً من التبديل والتغيير على تطاول الأزمان، بخلاف سائر الكتب المقدسة. والثالث من وجوه الإعجاز في القرآن: الذي هو من صميم موضوعنا "حسن تأليفه والتثام كَلِمِهِ وفصاحتها، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة لعادة العرب، الذين هم فرسان الكلام

(١) السيوطي. معترك الأقران في إعجاز القرآن بيروت. دار الكتب العلمية ١٤٠٨هـ / ١٩٦٨، ١/ ٢٦.

(٢) المصدر نفسه ١/ ٢٦ وأيضاً الباقلاق. إعجاز القرآن ص ٧٥.

وأرباب هذا الشأن، فجاء نظمه العجيب وأسلوبه الغريب، مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها، الذى جرت عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصل كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له^(١).

وعلى أى حال فإن هناك على خريطة الدراسات الاستشرافية لموضوع الترتيب الزمني للقرآن ثلاثة أنظمة تاريخية أخرى طرحها المستشرقون على امتداد العشر سنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر على سبيل المثال؛ جرم وكتابه "محمد ١٨٩٢ - ١٨٩٥ م"^(٢)، السير وليم موير فى كتاب "القرآن، كتابته وتعاليمه" ١٨٤٧ - ١٨٩٦ م. ثم "بل" و"وات" اللذان درسا القرآن آية آية ليكتشفا أن ما توصلت إليه الدراسات الغربية القديمة، فيما يخص جدولة القرآن زمنياً، كانت غير كافية؛ وإن وضع السور فى هذه الجداول، يعد أكثر تعقيداً، وذلك لأن النص القرآنى كان قد خضع لتغييرات كثيرة فى زعمهما. هذه التغييرات التى تعرض لها القرآن حدثت بواقع الرغبة فى توسيع النص، أو تغيير مواضع بعض الآيات بغرض وضع مادة جديدة، تراعى الإيقاع أو الجرس فى النص القرآنى... إلخ.

ويزعم المستشرق "بل" أن عملية تحقيق النص القرآنى قد أقحمت وثائق نصية مكتوبة أخرى فى القرآن، تم ذلك أثناء حياة محمد ﷺ وبإشرافه، ومع أننا نختلف مع "بل" و"وات" فى اجتهاداهما غير الصائبة فى دعوى إقحام نصوص جديدة على النص القرآنى بغرض تطويله أو توسيعه؛ فإننا نلاحظ أنهما لم يأتيا بجديد ولا أمكنهما كذلك، وضع ثبت تاريخي لسور القرآن.

ولذلك فقد أساء فهمها الكتاب اللاحقون؛ بل تجاهلوهما، وربما رجع ذلك إلى ملحوظات "بل" بالذات وتعليقاته الكثيرة على ترجمته للقرآن التى لم تنشر بعد، والتى لم تجد حتى من العلماء من يقدمها أو يعرف ما بها. وعلى أى حال فإن وات يختلف مع بل فى حكمه بأن القرآن مفكك السور والآيات وأنه يعوزه الترابط^(٣).

ومن الأخطاء الشنيعة التى وقع فيها "بل" تسرعه فى استبعاد بعض الآيات أو

(١) انظر: معترك الأقران ١/ ١٢، ٢٢، ودائرة المعارف الإسلامية ٤١٧.

(٢) الكتاب ٢/ ٢٥ وما بعدها.

(٣) انظر: دائرة المعارف. ٤١٧ - ٤١٨.

الفقرات القرآنية التي لم تخضع لمعياره، بحجة أنها كانت "مسودات" أو "كتابات أوليّة"، وجدت طريقها إلى القرآن بطريق الخطأ، هذا حكم متعسف ليس عليه دليل ولا يقبله العقل السليم. وقد تكلمنا من قبل عن تشدد الصحابة في جمع المصحف وتجميع مواده من الصحف والصدور، واتفاقهم جميعاً على سلامة هذا الجمع، وليس من الهين أن يدعى الكاتب أن ذلك الخطأ قد ارتكب في حياة النبي ﷺ إذ كان الرسول ﷺ يحفظ ما يوحى إليه، ثم يدعو بالكتابة ويملئ عليهم، ثم يطلب منهم أن يقرءوا عليه ما أملاه عليهم ليستأكد من سلامة النقل، ثم ما يلبث المنزل من الآيات أن يجد مكانه الآمن في صدور الرجال من حفظة القرآن.

بالإضافة إلى ما ذكرناه نلفت النظر أيضاً إلى أن بل قد أخطأ في فهم بعض السور، أو الأشكال الأدبية في القرآن كما سنذكره فيما بعد. وعلى الرغم من هذا فإن "ويلش" يعتبر "بل" رائداً في هذا الحقل من الدراسة وذلك بسبب محاولته أن يتعرف على كل المواضع التي يمكن القول بانقطاع السياق فيها في النص القرآني.

وهذا ليس صحيحاً على الجملة فإن معظم ما عينه بل من المواضع المقترحة كأمشلة على انقطاع السياق في القرآن كنص، ليست حقيقية؛ أو على الأقل، فإنها غير نهائية في حكمها؛ وأن بعض هذه الفرضيات التي قدّمها بل لا يمكن تحصيلها أو إثباتها عن طريق البحوث المستقبلية، ومع هذا فقد وجد من يؤيد النتائج المشهة التي توصل إليها هذا المستشرق من أمثال ك. وجتن دُونك في كتابه (الصوم في القرآن) ليدن ١٩٦٨^(١)، وولتش في كتابه "الله والآلهة الأخرى"^(٢).

ويقول ويلش إن هناك مواضع كثيرة للاختلاف، تختلف فيها مع بل وإسكواللي؛ ولكننا نستطيع أن نقرر مع قليل من الشك أنه يمكن القول بأن بل مصيب في استنتاجه، الذي توصل إليه، وهو أن القرآن يضم مقطوعات أو آيات - نزلت في تواريخ مختلفة

(١) انظر: الدائرة ٤١٨.

(٢) انظر: كتاب وجتن دونك ص ٤٧ - ٨١. انظر: دائرة المعارف ص ٤١٨.

جُمِعَتْ ووُضِعَتْ معاً لتكونَ السور بوضعها الحالى فى المصحف، وبغض النظر عن الدافع من وراء هذا القول، فإن المسلمين لم ينكروا وجود آيات مدنية فى سور مكية أو العكس، كما قرره العلماء المهتمون بالقرآن وعلومه. ونكرر أنه ليس من خطة القرآن قط الالتزام بالترتيب الزمنى للآيات والسور، فالآية أو السورة، وإن نزلت فى وقت معين، وفى مناسبة بعينها؛ فإن موضوعها بلا شك يتعدى الوقت والمناسبة الخاصة التى نزلت من أجلها، إنما تغطى بخطابها ومفهومها ودعوتها، الزمن كله، وتستغرق جميع المناسبات إلى يوم الدين.

على أن بل، وبعد أن استعرض محاولات مُوير، وجريم، وهيرشفيلد، وريجيس بلاشير، اعترف أنه من الممكن الشك فى إمكانية ترتيب كامل للقرآن بحسب النزول^(١) وأنه أفضل ما يمكن التوصل إليه من قرار بشأن وضع ترتيب تاريخي للقرآن هو عرض مبادئ عامة، ووضع تصور يمكن أن يدمج فيه نظم القرآن. ويقول بل إنه فى غياب المرجعية التاريخية للأحداث، فإن الأسلوب يمكن أن يكون معياراً مفيداً لتحديد تاريخ تقريري، لكنه يعود فيعترف بأن هذا المعيار صعب استعماله، ويبدو أن بل لم يقتنع بعدم جدوى محاولته فى التعرف على ترتيب تاريخي لسور القرآن من جهة الأسلوب، فذهب ينظر من جهة تركيب الجمل؛ ولكنه هنا أيضاً لم يجد الطريق معبراً على طول الخط، إذ أن الجمل القرآنية تشتمل على متماثلات، ومتغايرات، يمكن أن تقود إلى نتائج خاطئة. وينبغي أن نعرف أن القرآن كتابٌ فريدٌ ليس من تأليف بشر يمكن أن نتبع أسلوبه، وجملته، ومضامينه لتتعرف من خلالها على تاريخ كل عمل وظروفه على حدة، فى ضوء حياة صاحبه وأحواله. إن القرآن كالحجرة يبدو فى نفسه كلاً منسجماً، وإن كان يحوى أجزاءً فى داخله، كل جزء منها لم يميزه فى محيطه اللغوي المترامي.

والعجيب أن بل بالرغم من هذا الإخفاق الذي مُني به يعود فيجازف بالقول بأن الآيات الأولى لسورتي العلق، وسورة القلم ليست مما نزل فى الوقت الذي يقول به المسلمون، أي فى أول فترات نزول الوحي، يقول: "إن طريقة الحديث فى هاتين السورتين

(١) مقدمة بل ووات ص ١٠٣.

تتفق أكثر مع المفهوم اللاحق لبعثة النبي أكثر ما تتفق مع التصورات البدائية لمحمد، حيث إنه لم يكن عنده في البداية أية فكرة عن الملائكة".

يقول عبد الرحمن بدوي في الرد على هذا الكلام: " هذا خطأ محض؛ لأن عقيدة الألوهية قبل الإسلام كانت تتركز حول الملائكة"^(١). من الواضح أن بل، انطلاقاً من العقيدة الاستشراقية في أن القرآن من وضع محمد ﷺ يستكثر أن يكون أول الوحي الذي جاء به النبي ﷺ دعوة إلى العلم وتمجيداً للسان (اقرأ)، والقلم (علم بالقلم) وربط الدعوة إلى العلم بالنظر في أهل الخلق، خلق الإنسان وهذه الآيات نفسها تثبت عالمية الإسلام منذ البداية، فالآيات الأولى تخاطب الإنسان وتدعوه إلى القلم والنظر وتربطه بالمربي الأعلى ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾.

حاول المستشرقون أن يشككوا في التقسيم الإسلامي المعروف للصور القرآنية، أعني إلى مكى ومدني؛ فهم يزعمون أن هناك عدة أحداث ووقائع وصراعات يمكن معرفتها إعادة ترتيب القرآن، من سلسلة هذه الحوادث، على سبيل المثال، فإنهم يعدون غزوة بدر (أو الجهاد)، دعوة محمد لمقاطعة اليهود، وهكذا؛ ومن الواضح الجلي أن المستشرقين يفرضون دائماً إلى إخضاع النص القرآني لأحوال محمد وصراعاته ومواقفه، وكأن القرآن هو التصوير الأدبي والانعكاس المباشر لحياته ﷺ ومواقفه النفسية والعملية؛ وقد بينا بكل وضوح عَوَارِ هذا المذهب من قبل ولا داعي لتكراره هنا.

(١) عبد الرحمن بدوي- دفاع عن القرآن ضد منتقديه القاهرة، الدار العالمية للكتب والنشر- ١٩٩٩- ص ١٢٥- ١٢٦.

الباب السادس

لغة القرآن وأسلوبه

الفصل الأول ... لغة القرآن

الفصل الثانى ... الألفاظ الأعجمية فى القرآن

الفصل الثالث ... الأسجاع والفواصل المتكررة فى القرآن

الفصل الرابع ... الشكل التخطيطى للقرآن والقصص التى يتضمنها

الفصل الأول

لغة القرآن

ينتقل الكاتب إلى موضوع آخر شديد الأهمية والحساسية في آن واحد، ألا وهو لغة القرآن وأسلوبه. ولغة القرآن هنا تعني اللهجة العربية التي كُتِبَ بها القرآن، جرياً على عادة علماء اللغة الأقدمين في تسمية اللهجة أو اللحن لغة؛ وأسلوب القرآن يعني طريقته ومنهجه في سَوِّق الكلام، ونظم العبارات، وتركيب الألفاظ، واختيار المعاني المناسبة للموضوع. يعتقد المسلمون جميعاً اعتقاداً جازماً أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، وأن لغة القرآن وأسلوبه ومعانيه ومبانيه معجزة كالقرآن في علومه ومعارفه، وفي الآثار التي يُحْدِثُها في النفس ويثيرها في الضمير، إنه ليس في مقدور البشر الإتيان، بمثل هذا الكتاب كله أو بعضه؛ وقد تحداهم الله تعالى جماعات، أو فرادى، إنساً وحيّاً أن يأتوا بمثله فسمعوا التحدى وتكرر عليهم النداء به والدعوة إليه، فلم ينهضوا إلى تحقيقه، وهم أهل الفصاحة وأهل البيان والاستشارة وأبناء اللغة، وفيهم أساطين البلاغة وفطاحل الشعراء والخطباء والحكماء، من العرب ومن الوثنيين واليهود والنصارى العرب على السواء ممن مهروا بالعربية وأبدعوا فيها شعراً ونثراً وقد عرف الجميع بما فيهم الجن القرآن فاستسهلوا حرب النبي ﷺ والتشهير به ومكايده، وضحوا بالدماء والثروات، ولم يلجأوا إلى قبول التحدى، أو حتى يفتحوا له باباً أو يبدعوا فيه لمجرد المحاولة؛ بل إن مَنْ خاطر منهم بادعاء النبوة ومحاكاة كتاب الله كمسيلم الكذاب، لم يكن معروفاً بينهم بالبلاغة، أو مشتهراً عندهم بالإبداع الأدبي، ولم يَعُدُّوا هذا الذي قاله إلا أضحوكات وهزليات كلها رثاء وغثاء؛ ولقد قال أبو بكر الصديق بالفطرة لأصحاب مسيلم الكذاب عندما سمع هذيانه: "وَيَحْكُمُ أَيْنَ يُذْهَبُ بِعَقُولِكُمْ؟ إِنْ هَذَا كَلَاماً لَا يَخْرُجُ مِنْ إِلٍّ" يعني من إله أو رب "(١)". فكيف يكون هذا وحياً أو إلهاماً؟". قال أبو بكر ذلك بفطرته، ومن وحى حسه اللغوى والدينى. يقول الباقلانى "وصاحب العقل لا يشتبه عليه سخف كلام مسيلم"(٢).

(١) انظر ابن تيمية، رسائل وفتاوى تحقيق محمد رشيد رضا ومحمد البلتاچى. القاهرة. مكتبة وهبة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م ج٣ ص ١٧٢ - ١٧٦.

(٢) الباقلانى إعجاز القرآن ص ١٧٤.

وبمراجعة بسيطة واستعراض سريع لما خرج من هذا المتنبي الكذاب من روث وخبث نتبين أنه كان صريع هوس وضحية لوث، وأنه لو كان ما هذى به مسيلمة بليغاً لكان ذلك كافياً في التدليل على انحطاط اللغة العربية وتأخرها وتأخر أهلها، وبوارهم اللغوي والفكري؛ ولو أن العرب كانوا قد استجادوا ما قاله الكذاب لجمعوه وكتبوه في الأباطى، وعلقوه في جوف الكعبة مع ما استجادوه وعلقوه من قصائد كبار شعرائهم، فكتبوه وعلقوه بالكعبة ولكن مسيلمة لم يجد لكلامه تالياً ولا راوياً ولولا أن بعض المسلمين سجله ليكون آية على مصير المدعين لما اهتم به أحد ولما سمع به حاضر وباد من العالمين.

وكما يقول مصطفى صادق الرافعى في نقد أحد الكتاب المعاصرين له: "وتلك سنة لن تخطئها في أعداء الإسلام إذا أنت استعرضتهم وميزتهم فلا تتبدل ولا تتغير، ولولا ذلك لما هلكوا وبقي الدين، ولا ذهبت كتبهم وبقي القرآن"^(١).

يشير ويلش إلى قول علماء المسلمين بأن القرآن مكتوب باللغة التي كان النبي ﷺ يتكلمها، يعنى لسان قريش أو لهجتها، والتي كانت هى اللغة التقليدية الممتازة لكتابة الشعر على عصر محمد ﷺ وأن الشعر كان قد تملك ناصية اللغة الصافية والراقية، لغة البدو أو الأعراب، ولتدعيم وجهة النظر هذه تأسست النظرية التي هى لاهوتية أو عقائدية أكثر منها لغوية، حول القرآن، والتي تقرر بوضوح أن القرآن نزل بلسان عربى مبين^(٢).

هذا اللسان العربى المبين فُسر على أنه لسان قريش، ويقصد المستشرق من هذا أن يشكك في طبيعة اللهجة التي كُتب بها القرآن، وفي كونها لهجة قريش وهو ما حاول تأسيسه المستشرقون الذين ساهموا في الدراسات القرآنية بوجه عام، ولقد بنى هؤلاء تشكيكهم على روايات أوردها المفسرون وكتاب علوم القرآن؛ والتي جاء فيها أن هذا القرآن الكريم لم يقتصر على لهجة قريش فحسب، وإنما دخلت في لغته لهجات عربية أخرى بل لقد دخلت فيه ألفاظ غير عربية أيضاً.

فابن النقيب يصرح بأن القرآن قد "احتوى على جميع لغات العرب وأنه نزل فيه

(١) تحت راية القرآن. القاهرة. المكتبة التجارية الكبرى ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م، ص ٢٦٢.

(٢) انظر (النحل: ١٠٣، الشعراء: ١٩٥، فصلت: ٤٤).

بلغات غيرهم من الروم والفرس والحبشة شيء كثير^(١)؛ وبالنسبة للمفردات غير العربية في القرآن، فإننا سنعالجها قريباً في هذه الدراسة وبحسب موقعها في ترتيب المستشرق ويلش للموضوعات.

ينبغي أن يكون واضحاً أن أساس لغة القرآن هي لغة قريش وأهل منطقة الحجاز وهي أنقى وأرقى، وأصفى وأوفى من جميع لغات العرب؛ وقد كانت هذه اللغة أكثر انتشاراً من لغات العرب أو لهجاتهم جميعاً؛ كما أنها كانت هي اللغة التي يتكلم بها النبي ﷺ، فقد كان ﷺ يعرف سائر لغات العرب الأخرى كما وردت به الآثار.

يقول القاضي عياض إن النبي ﷺ أوتي جوامع الكلم وخُصَّ ببديع الحكم، وعلمَ ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويأريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثيرٌ من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه، وتفسير قوله. وينقل لنا القاضي عياض نص كتاب رسول الله ﷺ إلى همدان "قبيلة يمنية" إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها، وترعون عضاءها، لنا من دفتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلب والتاب والفصيل، والفارص الداجن، والكبش الحواري، وعليهم فيها الصالغ والقارح..."، وقوله ﷺ لنهد: "اللهم بارك لهم في محضها ومحضها ومذقها، وابعث راعيها في الدثر، وافجر له الثمد، وبارك لهم في المال والولد. من أقام الصلاة كان مسلماً، ومن آتى الزكاة كان محسناً، ومن شهد أن لا إله إلا الله كان مخلصاً، لكم يا بني هُد ودائع الشريك، ووضائع الملك، لا تُلطط في الزكاة، ولا تلحد في الحياة، ولا تتناقل عن الصلاة."^(٢) ونحن لا نمنع وجود ألفاظ غير قرشية في كتاب الله، فلغة القرآن واسعة لا يحيط بها إلا نبى،

(١) المصدر نفسه.

(٢) فراعها: ما ارتفع عن الأرض. هاطها: الأرض المطمئنة. عزازها: ماخِشٌ وجد منها. علافها: ما تأكله الماشية. عفاءها: ما ليس لأحد فيه ملك. الدفاء: نتاج الإبل وألبانها. والأظهر أنه كناية عن النعام. صرامهم: نخيلهم. سلموا: استسلموا. بالميثاق: الإسلام. الثلب: بكسر المثلثة: الهرم من الإبل. التاب: أنقى الإبل التي طال ناهها. الفصيل: ولد الإبل السدي فصل عن أمه. الفرض: المسن من الإبل أو البقرة. الداجن: ما يألف البيوت ولا يذهب إلى المرعى. الكبش الحواري: الذي يتخذ من جلده نطع (فراشاً) أو الجلد الأحمر وقيل الأبيض. الصالغ: ما دخل في السنة السادسة من البقر والغنم. القارح: ما دخل من الخيل في السنة الخامسة. هُد: قبيلة باليمن أرسلت وفدها إلى رسول الله ﷺ برئاسة طهفة النهدي. محضها: لبنها الذي لم يخالط الماء. محضها: ما خض من لبنها وأخذ زبدة. مذقها: ما خلط من لبنها بالماء. الدثر: المال الكثير. الثمد: الماء القليل. دائع: جمع وديع أي العهد والميثاق. وضائع: الوظائف. تلطط: تمنع. تلحد: تميل.

انظر الشفا: ١/١٦٧، ١٦٨.

ولكن ينبغي أن يسبقها في الذهن أن لغة قريش كانت هي الأساس في تشكيل النص القرآني، وذلك لما اقتصت به من كمال وجمال، وجلال بالمقارنة إلى غيرها، وقد أثني كثير من العلماء على لهجة قريش^(١)؛ بل ربما بالغوا في الثناء عليها لأنها كانت لغة النبي ﷺ.

فقد ورد عن عثمان أنه قال للرهط القرشيين الثلاثة الذين انتدبهم لكتابة القرآن وهم: زيد بن ثابت، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وعبد الله بن الزبير. أنهم "إذا اختلفوا مع زيد بن ثابت في شيء من القرآن أن يكتبوه بلسان قريش فإنما نزل بلسانهم ففعلوا"^(٢).

ومن رواية ابن التين ندرك أن عثمان كان قد اقتصر في جمع القرآن من سائر اللغات، على لغة قريش، محتجاً على ذلك بأنه نزل بلغتهم. وإن كان قد وسّع في قراءته بلغة غيرهم، رفعاً للحرج والمشقة في ابتداء الأمر فرأى أن الحاجة إلى ذلك قد انتهت، فاقصر على لغة واحدة هي لغة قريش"^(٣).

ووردت روايات أخرى فيها أقوال لعثمان، تقضي بأن القرآن نزل على وجوه لحون أو لهجات أخرى في القرآن^(٤).

وذكر أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (ت: ٣٧٠هـ) في التهذيب قولاً آخر مؤداه أن القرآن نزل على سبع لغات وبعضه نزل بلغة قريش، وبعضه بلغة هذيل، وبعضه بلغة تميم وبعضه بلغة أزد وربيعة وبعض منه بلغة هوازن وسعد بن بكر وكذلك سائر اللغات. وعزز الأزهرى ذلك محتجاً عليه بقول عثمان حين أمر الرهط الثلاثة بكتب المصاحف: "وما اختلفتم أنتم وزيد فاكتبوه بلغة قريش، فإن أكثر ما نزل بلسانهم". اختاره الأزهرى وصححه البيهقي في شعب الإيمان^(٥) ولما اختلف كتاب المصحف في كلمة "تابوت" هو "التابوه" أو "التابوت" احتكموا إلى عثمان ﷺ فقال: اكتبوها

(١) مقدمة ابن عطية على المحرر الوجيز ٢٧٧.

(٢) انظر السيوطي. الإتقان ١ / ١٦٩ وابن أبي داود. كتاب المصاحف ص ١٩ وانظر: أيضاً مناقشتنا لهذه الرواية وردنا على المستشرقين في الباب الأول من رسالتنا للدكتوراه المشار إليها سابقاً.

(٣) الإتقان ١ / ١٧١.

(٤) الزركشي. البرهان في علوم القرآن ١ / ٢١٧.

(٥) المصدر نفسه ١ / ٢١٨.

"التابوت" فإنما نزل القرآن على لسان قريش^(١). وهذا في حد ذاته يدل على كون الكلمة عربية في أصل وضعها.

وكلام عثمان الذي جاءت به هذه الرواية يفيد أن معظم القرآن، لا كله، نزل بلغة قريش بخلاف الرواية الأولى التي أوردناها عنه، والتي تقرر أن القرآن كله نزل بلهجة قريش، الشيء نفسه يؤكد ابن قتيبة وغيره ممن قالوا إن القرآن لم ينزل إلا بهذه اللغة لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤) وقد أسندوا أيضاً قولاً ثالثاً إلى عثمان وهو قوله: "نزل القرآن بلغة مضر"^(٢).

وهذه الرواية الأخيرة، معارضة بما سبق أن ذكرناه من قول عثمان إن القرآن "نزل بلغة قريش" وهي أقوى لأنها من رواية ثقة أهل المدينة.

وقال فريق آخر من العلماء: "أصل ذلك أن لغة القرآن وقاعدته لسان قريش، ثم بنو سعد لأن النبي ﷺ استرضع فيهم، ونشأ وترعرع وهو مخالط في اللسان لهم، وهذياناً، وثقيفاً، وخزاعة وأسدّاً أو ضبة وحلفاءها لقربهم من مكة وتكرارهم عليها؛ وقد ذكرنا أن النبي ﷺ كان يعرف لغات العرب ويخاطبهم ويحاورهم بها، وضربنا على ذلك الأمثال. وفي الإتيان للإمام السيوطي باب بعنوان "فيما وقع (أى في القرآن) بغير لغة الحجاز"^(٣) ومن الثبت الذي قدمه السيوطي^(٤) يمكن أن نستخلص أن في القرآن ألفاظاً من جميع لغات العرب، لذلك كان الجميع يفهم ما في القرآن. ومن القراء من ذكروا ذلك أيضاً في معرض شرح حديث "أُنزل القرآن على سبعة أحرف". لكنهم اختلفوا في تحديد معنى السبع المشار إليها في هذا الحديث كما اختلفوا في تعيين السبعة حروف ما هي؟ وهل هي لهجات أم قراءات؟ وباستعراض ما اعتبره بعض العلماء من الحروف السبعة، واستعراض روايات الباب نجد أنفسنا مطمئنين إلى القول بأن القرآن لم ينص على لهجة بعينها لا لهجة قريش ولا غيرها^(٥).

(١) أبو عمرو بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ) "المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار مع كتاب النقط" تحقيق محمد أحمد دهمان. دمشق. دار الفكر ط ١/ ١٤٠٤ ص ٤.

(٢) انظر: المصدر نفسه ص ٢١٩.

(٣) انظر السيوطي. الإتيان: ٢/ ٨٩ - ١٠٤، ٢٢٠.

(٤) المصدر نفسه ١٩، ٢٠.

(٥) الإتيان ١/ ٢٥٦.

بل لقد أطلق القرآن القول في وصف لغة القرآن بأنها "بلسان عربي مبين"؛ ومن التضييق أن نقول إن اللسان العربي المبين هو لهجة قريش، أو بالتعبير القديم لغة قريش؛ مع ملاحظة أن القرآن قد استعمل لفظة "لسان"، ولم يستعمل لفظة "لغة" التي هي بمعنى اللهجة في تعبيراتنا الحديثة. واللسان يعني مجموع هذه اللهجات، والتي كان يعرفها العرب على اختلاف قبائلهم.

وقد ساهمت كل اللغات أو اللهجات العربية وأكثرها نصيباً لغة قريش في تشكيل ألفاظ القرآن ومفرداته التي جاءت في أحسن أسلوب وأسمى بيان وأحكم بناء. وإضافة إلى ذلك يمكن أن نقول إن عبارة: ﴿يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ وصف للقرآن على معنى التركيب الإلهي له الذي ميزه عن سائر أنظمة كلام البشر وتراكيبه. وليس وصفاً للغة العربية نفسها.

ناهيك بأن اللهجات العربية كانت مستعملة في شئون الحياة العامة أيضاً إلى جانب اللغة الواحدة التي كانت تجمع العرب جميعاً على الأدب والشعر والحكمة، ولم يكن الأدب والإبداع الأدبي في الجزيرة العربية مقصوراً على شعراء قريش وخطبائها وحدهم؛ فالشاعر العربي كان يكتب للعرب جميعاً، وكذلك الخطيب وصاحب الأقاصيص كلهم لهج بهذه اللغة الواحدة وأسمع وأمتع قومه بها.

والذي نريد أن نعرفه الكاتب الغربي وغيره من المستشرقين هو أن القرآن يمثل ذروة البيان في اللغة العربية، وأنه جاء للعرب بما يفهمون، وخاطبهم بما يعرفون وبه يحسون سواء على وجه التفصيل أو الإجمال أو التقريب، أو التمثيل، وأن لغة القرآن عربية فائقة ورائقة. وأن النبي ﷺ كان يتكلم بهذا اللسان المبين وأنه لم يكن يتكلم لهجة محلية إلا مع أهلها، كما ذكرنا من قبل، ولم يكن ﷺ كذلك يتكلم بلغة مخلطة أو مهجورة، وأن الصحابة لم يكونوا بالذين يخطئون في إعراب الكلمات كما زعم ويلش بل إنهم على العكس من ذلك تماماً فإنهم يعتبرون حجة في اللغة وقولهم هو القول الفصل عند الاختلاف على شيء منها. يذكر الكاتب أن نظرية (هكذا يسميها) "اللسان العربي المبين" كإشارة إلى لهجة قريش قد هاجمها كارل فولرز في سلسلة من المقالات المدعومة بالأدلة والتي ظهرت ابتداء من ١٨٩٤م ميلادية وانتهت بعمله الكلاسيكي:

"Volkssprache und Schriftsprache im alten Arabien (1906)"

في هذه البحوث ادعى فولرز أن محمداً ﷺ كان يقرأ الأجزاء الأولى من القرآن في بداية الوحي بلهجة عربية عامية، وبدون إعراب، وهكذا خالف محمد بين القرآن وبين الشعر الذي كان يكتب بالعربية الفصحى الممتازة، وبالتالي فإن القرآن الذي بين أيدينا الآن ليس هو القرآن الذي كان يقرؤه محمد؛ بل هو من صنع اللغويين وتلفيقاتهم، ومن صنع اللاحقين لهم، كذلك فعل هؤلاء الذين حالوا كتابة الوحي باللغة العربية الفصحى، بالطبع ليضمنوا له البقاء ويخلعوا عليه أزهى رواء، ويمضى فولرز في زعمه قُدماً فيقول "إن اللغة الأصلية التي نزل بها القرآن بقيت فقط في بعض الأشكال أو الأنواع الإملائية الغربية والقليلة كحذف الألف، على سبيل المثال، من بعض الكلمات أو زيادتها عليها والتي بقيت في القراءات الشاذة"!!.

عجيب أمر فولرز إنه يجعل من نفسه قاضياً ومحامياً في قضية لا يعرفها، ولا يلم بها ولا بلغتها، إماماً كافياً. ويبدو أن هذا المستشرق مغرم بقلب الحقائق، فمحمداً ﷺ خير من نطق بالضاد وتربي بين أعزة أهلها وتغرب طفلاً في سبيلها، يتكلم العامية ولا يفقه فصحى العربية !!. والوحي المتحدى به والذي عرف قدره الكافرون به ودانوا لفصاحته كان مكتوباً باللغة العامية !!. وأن اللغويين الذين كانوا لا هم لهم إلا معرفة القواعد ودراستها هم الذين يكتبون القرآن بالفصحى في زعم هذا المستشرق فولرز وأى عربي يا ترى كان أفصح من محمد بن عبد الله؟ وبماذا تحدى الله العرب، إنساً وجنأ أن يأتوا بمثل هذا القرآن؟ هل كان الله يتحداهم أن يأتوا بقرآن عامي؟ وماذا يقول الكاتب في هذه الأعمال التي تضم أدلة كالتلال والجبال؛ منها الأدلة العقلية والنقلية المتواترة بلا انقطاع في سمو لغة القرآن وإعجاز القرآن في معانيه ومراميه، في نظمه وبلاغته، في علومه ومعارفه التي لا تنفد على كثرة الرد.

وهل في العجب من مجال أوسع من أن يجعل فولرز القراءات الشاذة هي أصل القرآن؟ مع أن العلماء قد اختلفوا في شأنها اختلافاً كبيراً واعتبروها رواية آحاد لا يؤخذ بها ولا يحكم بقرآنيتهما، وفي هذه القرينة لا يفوتنا أن نسأل فولرز، أي لغة عامية كانت تستعمل في مكة؟ والعرب لم يكونوا يعرفون ما نسميه نحن في عصرنا الحديث بالعامية التي روج لها الاستعمار وأجناداه في بلادنا، لضرب اللغة العربية والوحدة اللغوية بين العرب

للتفريق بينهم وعزلهم عن ماضيهم، وتمهيد لفرض اللغات الغربية والنماذج الغربية عليهم. ولكي نستوفي ردنا على مزاعم فولرز لا ينبغي أن تغفل التنبيه على ما قاله بالنسبة للرسم العثماني وعلى الطريقة الإملائية التي تميز بها. أفرد هذا الموضوع بالتصنيف جماعة من المسلمين، من المتقدمين، ومن المتأخرين منهم أبو عمرو الداني، وأبو العباس المراكشي المعروف بابن البناء (٧٢١هـ)، ألف الأخير كتابا سماه "عنوان الدليل في مرسوم خط التنزيل"؛ يبين فيه أن الأحرف التي كُتِبَ بها القرآن، إنما اختلف حالها في الخط بحسب اختلاف أحوال معاني كلماتها. ويفهم من كلام ابن أبي أشته على ما نقله السيوطي في الإتيان أن آدم كان هو أول من وضع الخط العربي والرسم الإملائي الذي استعمل في كتابة المصحف.

وأخرج ابن أبي أشته من طريق عكرمة عن أبي عباس قال: "أول من وضع الكتاب العربي إسماعيل، وضع الكتاب كله على لفظه ومنطقه، ثم جعله كتابا واحدا، مثل الموصول، حتى فرق بينه ولده من بعده. وذهب ابن فارس إلى أن الخط توقيفي، لقوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ٤ - ٥). وقوله تعالى: ﴿رَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (القلم: ١ - ٢)

قال: "إن هذه الحروف داخلة في الأسماء التي علم الله تعالى آدم" (١) ويخبرنا السيوطي أنه ألف كتابا مفردا في الأبجدية (٢)، من المعروف أن خط المصحف الإمام قد خالف الحروف الهجائية في بعض الحروف. وقد اتفق علماء الأمة على ضرورة الالتزام بالرسم العثماني في كتابة المصحف، وعدم الأخذ بما استحدثه الناس في طريقة الكتابة.

ومن أمثلة ما اختص به المصحف الإمام من الرسم، حذف الألف من ياء النداء نحو: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، ﴿يَقَادِمُ﴾، ﴿يَرْبُ﴾، ﴿يَعْبَادِي﴾، ﴿أُولَئِكَ﴾، ﴿لَكِنِ﴾، ﴿خَلِيفَ﴾، ﴿خَلَفَ﴾، وفي كسل كلمة زائدة على ثلاثة حروف مثل: ﴿صَلِحًا﴾، ﴿خَلِئَكُمْ﴾، وتحذف الألف من ﴿مَلِكٍ﴾، و﴿ذُرِّيَّةً ضِعَفًا﴾.

(١) كتاب فقه اللغة، والإتيان ٤ / ١٤٨، ١٤٩.

(٢) المصدر السابق ١٤٩.

ويمكن أن يكون الاختلاف بالحذف كحذف الواو من: ﴿وَيَدْعُ﴾، و﴿وَيَمْنَحُ﴾، ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾، وهذا الحذف له سره؛ وهو كما يقول المراكشي فيه تنبيه على سرعة وقوع الفعل وسهولته على الفاعل، وشدة وقوع المنفعل المتأثر به في الوجود، أما ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَنُ بِالْشَرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ فيدل على أنه سهل عليه، ويسارع فيه كما يسارع في الخير؛ بل إثبات الشر إليه من جهة ذاته أقرب إليه من الخير. وأما ﴿وَيَمْنَحُ اللَّهُ الْبَطْلَ﴾ فلإشارة إلى سرعة ذهابه، واضمحلاله، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، و"زهق" معناه اضمحل بسرعة؛ وأما قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ﴾ ففيه إشارة إلى سرعة الدعاء عند شدة الخوف والاضطراب، وسرعة إجابة المدعوين؛ وحذفت الواو من ﴿سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ فلإشارة إلى سرعة الاستجابة من قبل الله تعالى وسرعة تنفيذ أمر الله من جهة الزبانية، أى ملائكة العذاب، وشدة البطش؛ وزيدت ألف بعد الواو، كما في: ﴿مُلْقُوا رَبَّهُمْ﴾ و﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾، و﴿تَفْتَوُوا﴾، و﴿مَائَةً﴾، و﴿مَائَتَيْنِ﴾، و﴿الْظُّنُونَا﴾، و﴿الرُّسُولَا﴾، و﴿وَجَاءَ﴾، و﴿بَنِي﴾؛ قال المراكشي: زيدت هذه الأحرف في هذه الكلمات: ﴿وَجَاءَ﴾، و﴿بَنِي﴾ ونحوها، للتهويل والتفخيم، والتهديد، والوعيد؛ كما زيدت في ﴿بِأَيِّدٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيِّدٍ﴾ تعظيما لقوة الله تعالى التي بني بها السماء التي لا تشابهها قوة^(١).

وتكتب ألف الصلاة في المصحف "واوا" للتفخيم وتكتب كذلك في ﴿الصَّلَاةِ﴾،

كما زيدت في ﴿الزُّكُوةِ﴾، و﴿الْحَيَوةِ﴾، ﴿الزُّبُونَا﴾ بشرط أن تكون غير مضافات^(٢).

بيّنا بالأمثلة الواضحة ما يختص به الرسم العثماني في المصحف الإمام، وبيننا أنه توقيفي لا سبيل إلى الخروج عنه؛ وأنه ليس بمجرد اختلاف في الرسم المحائي فحسب؛ بل إنه يحمل بعض المعاني والإشارات بحسب القرائن والمناسبات.

(١) الإتقان ٤/١٤٩: ١٥١

(٢) المصدر السابق ١٥٤

بعد هذا التوضيح ننظر في دعوى أخرى أثارها المستشرق "فولرز" ضمن مزاعمه بالنسبة لمرسوم المصحف الإمام ، إذ يقول إن عملية الزيادة أو النقصان بالنسبة لبعض الحروف في بعض كلمات القرآن الكريم تظهر فقط في القراءة الشاذة فإنه قول سطحي بخاف للحقيقة فإن هناك بعض الكلمات بالرسم العثماني جاءت موافقة لقراءة شاذة (أى غير متواترة) من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة: ٧٠)، ﴿ أَوْكُلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا نَبْدَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٠٠)، ﴿ فَلَقَتَلُوهُمْ ﴾ (النساء: ٩٠)، ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ﴾ (الإسراء: ١٣)، ﴿ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رُطْبًا خَبِيثًا ﴾ (مريم: ٢٥)، ﴿ وَفَصَّلُوهُ فِي عَامَيْنِ ﴾ (لقمان: ١٤)، ﴿ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ﴾ (الإنسان: ٢١) ﴿ خَتَمُهُ مِسْكٌ ﴾ (المطففين: ٢٦) ^(١)

وقد قدمنا أمثلة كثيرة لهذه الاختلافات في رسم المصحف العثماني، وإذن فإن القراءة الشاذة ليست هى وحدها التى حفظت لنا هذه الاختلافات الإملائية فى رسم الكلمة القرآنية فى المصحف الإمام، كما زعم الكاتب المذكور.

إن رأي فولرز فيه مجازفة شديدة وتجروء على العلم عجيب وتعت فى قلب الحقائق مريب، وعدوان على التاريخ صارخ، ولسنا نأبه بمن لا يحترم للبحث العلمى أصوله ومناهجه. وعلى أى حال فقد أدرك معاصرو فولرز من المستشرقين المعنيين بالدراسات القرآنية تفاهة آرائه وتجردها من الدليل، ومن حسن التعليل وعلى الرغم من أنهما قد قوبلت بمناقشات كثيرة فإنهما لم تصادف تأييداً داخل ألمانيا نفسها، ولكنها للأسف قد وجدت بعض التأييد خارج حدود ألمانيا، ووراء كل زاعق ناعق.

هذا باستثناء بعض المقالات التى كتبها بول كال (Paul Kahle) الذى تمخض اجتهاده عن دعوى أخرى عجيبة هى أن القرآن كان يقرأ دون التزام بالإعراب حتى القرن الثانى للهجرة، وهذا عنده دليل على أن القرآن كان يقرأ بالعامية، ولكن نظرية كال قد أخفقت تماماً كنظرية سلفه فولرز حتى فى إقناع الكتاب الغربيين أنفسهم.

إن مناقشة نظرية فولرز جاءت بشكل تفصيلي فى استعراض د. جيتز، ونولدكه وقد حازت للأسف على قبول الباحثين الغربيين بشكل عام، حيث زعم إسكواللى أن لغة

القرآن لم تكن مستعملة من أى من القبائل العربية ولكنها كانت إلى حد ما صناعية ملفقة
Hochsprache مفهومة فقط لأهل منطقة الحجاز، ومن ناحية أخرى فإنه مما أصبح
موضع اتفاق أن اللغة العربية الفصحى أو العربية "الكلاسيكية" المستعملة على عصر محمد
ﷺ لم تكن هى لغة الشعراء أو اللهجة أو اللغة الخاصة بقبيلة ما بعينها، ولكنها كانت لغة
أدبية خالصة تستعملها جميع القبائل. ولسنا ندرى ما هو المانع يا ترى من وجود هذه
اللغة العربية الفصحى الممتازة على عهد محمد ﷺ ووجود اللهجات المتعددة الأخرى التى
تختص بها كل قبيلة على حدة؟ كما أوضحنا من قبل.

وما أرى هؤلاء المستشرقين يرمون إلا فى عماية، لا يفرقون بين ذهب وحطب ولا
نضار ولا غبار، والله لو أنهم يكتبون هذه المعلومات ويقررون هذه النتائج فى أمر يهمهم
أو يخدم ثقافتهم وحضارتهم لما قبل العامة فضلاً عن أهل العلم منهم ذلك ولردوه عليهم
ولرموهم بالجهل والسذاجة والفجاجة.

أما عن إعراب القرآن فقد بدأت حركة الإعراب فى القرآن بتنقيط المصحف على
يد أبى الأسود الدؤلى^(١) "وإن حس العرب بالإعراب وإكرامهم له دعاهم أن يضبطوا
بالنقط آخر الكلمات فى القرآن حين يكتبونه وإن ممارسة النحاة لهذا الضبط هدتهم إلى
كشف علل الإعراب فكان علم النحو".

أشار "عبد العال سالم مكرم" فى دراسته عن علم النحو والقرآن إلى رأى كارل
فولرز الذى زعم فيه "أن القرآن قد نزل فى الأصل بلهجة محلية (التعبير الأكثر دقة
"عامية") من اللهجات العربية وأنه لم يكن معرباً ثم أدخل الإعراب عليه على وفق قواعد
لغة الشعر" كما نقلنا ذلك عنه^(٢).

ردد هذا رأى من المستشرقين كال، وحاييم رين، وقد زاد الأمر اشتباهاً على
المستشرقين عثور كال على مخطوطين فى لندن ورد فيهما أحاديث تحت على ضرورة
الالتزام بقواعد الإعراب فى قراءة الكتاب العزيز، استدل منهما الكاتب على أن الناس لم

(١) انظر الفهرست ص ٦٠ - ٦٥ و طه الراوى. الخليل بن أحمد مقال بمجلة الرسالة. السنة الحادية عشر. ص ٥٥٠
وعبد العال سالم مكرم. القرآن وأثره فى الدراسات النحوية - القاهرة. دار المعارف ١٩٦٨ ص ٢٦٧ وأيضاً محمد خلف
الله أحمد. الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (بمجموعة بحوث مقدمة إلى مؤتمر برنستون للثقافة الإسلامية. القاهرة. مكتبة
النهضة المصرية ص ٣٢٨.

(٢) عبد العال سالم مكرم. القرآن وأثره فى الدراسات النحوية - ص ٢٦٧.

يكونوا يلتزمون بالإعراب في قراءتهم للقرآن في بادئ الأمر ثم روعي ذلك نزولاً على قواعد النطق المضبوطة في الشعر التي دونها علم النحو فيما بعد^(١).

على عكس ما يزعمه كمال، ومن نَحج نَحجه من المستشرقين يقول "فيوهان فك" "لقد احتفظت العربية الفصحى في ظاهرة التصرف في الإعراب بسمة من أقدم السمات اللغوية التي فقدتها جميع اللغات السامية". وإن أشعار عرب البادية من قبل العهد الإسلامي ومن بعده ترينا علامات الإعراب مطردة، كاملة السلطان".

ويقول أيضاً والنقل عن مكرم: "أما أن أقدم أثر من آثار النثر العربي وهو القرآن- وقد حافظ أيضاً على غاية التصرف الإعرابي فهذا أمر إن لم يكن من الوضوح والجلاء بدرجة الشعر الذي لا تترك أساليب العروض والقافية مجالاً للشك في إعراب كلماته، إلا أن موقع كلام القرآن الاختيارية لا تترك أثراً للشك فيه كذلك"^(٢).

نعم إن هناك أحاديث وآثاراً تحض على تعلم إعراب القرآن منها ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: "أعربوا القرآن"^(٣) وهذا الحديث يقرر أن عملية إعراب القرآن بالمعنى الذي فهمه المستشرقين فولرز وكال كانت مبكرة ومواكبة لنزول القرآن وتعني كذلك أن الإعراب قديم في العربية وإلا لما فهم المخاطبون معناه، ولما سألوا عنه رسول الله ﷺ ولو كانوا قد فعلوا ذلك لوصل إلينا.

وقال عمر بن الخطاب "تعلموا إعراب القرآن كما تتعلمون حفظه"^(٤) وأخرج من حديث ابن عمر مرفوعاً: "من قرأ القرآن فأعربه، كان له بكل حرف عشرون حسنة، ومن قرأه بغير إعراب كان له بكل حرف عشر حسنة".

يقول السيوطي في الإتقان "المراد بإعرابه معرفة معاني ألفاظه وليس المراد به الإعراب المصطلح عليه عند النحاة وهو ما يقابل اللحن، لأن القراءة مع فقدته ليست قراءة ولا ثواب فيها"^(٥) ومعنى الإعراب هنا الإبانة والتوضيح وهو ضد المهجنة والعجمة أي

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٨.

(٣) نص الحديث (أعربوا القرآن واتبعوا غرائبه) كنز العمال ٢٧٨١، ٢٨٠٦، ٢٨٧٢، مشكاة الأنوار: ٢١٦٥.

(٤) كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية ١١٧ - ١١٨.

(٥) السيوطي الإتقان ٢ / ٥.

استغلاق الكلام وصعوبة فهمه. وقد كان بعض العرب يستجيد اللحن من نسائه، يقول مالك بن أسماء:

منطق صائب وتلحنُ أحيا . نا وأحلى الحديث ما كانَ لَحْنًا^(١)

ومعنى الإعراب المقصود مرة أخرى هو الإفصاح، روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: "قريش هم أوسط العرب في العرب داراً، وأحسنهم جواراً وأعربهم ألسنة"^(٢). قال الأزهري من أئمة اللغة "الإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو الإبانة يقال أعرب عنه لسانه، وعرب أي أبان وأفصح عما في نفسه وأعرب عن الشخص أي تولى البيان عنه وعرب عنه أي تكلم بحجته، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: "الشب يعرب عنها لسانها، والبكر تُستأمر في نفسها" أي تفصح. وفي حديث آخر "الشب يعرب عنها لسانها، والبكر تُستأمر في نفسها". وفي الحديث "فإنما كان يعرب عما في قلبه لسانه". ومنه حديث التيمي: "كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبي حين يعرب أن يقول: لا إله إلا الله سبع مرات"، ومعنى حين يعرب أي ينطق ويتكلم. وفي حديث السقيفة: "أعربهم أحساباً" أي أبينهم وأوضحهم. وأعرب الكلام وأعرب به أي بينه، أنشد أبو زياد:

وإني لأكني عن قدور بغيرها وأعرب أحيانا بما فأصارع

وقال عقيل وعربيه كأعربه؛ وأعرب بحجته أي أظهرها لم يتق أحداً فيها،

قال الكمي شاعر آل البيت:

وجدنا لكم، في آل حم، آية تأولها منا تقي معرب

التقي الذي يتوقى ويحذر ويتذرع بالتقية؛ والمعرب الذي يصدع بالحق ولا

يتوقى خصومه. والخطاب في هذا البيت لبني هاشم حين ظهرُوا على بني أمية.

ومن بيت للخولاني ... (كمقالة التمتام ليس معرب)^(٣) و"عرب منطقته" بتشديد

الراء أي هذبه وأخلاه من اللحن.

(١) الجاحظ. البيان والتبيين. تحقيق عبد السلام هارون. القاهرة ١ / ٨٢.

(٢) ابن منظور. لسان العرب. مادة عرب ١ / ٥٨٨ وانظر: أيضاً المسائل الخلافية في النحو للعلامة محفوز بدار الكتب المصرية

رقم ١٢ والنقل عن عبد الغال مكرم ٢٦٨ والجرجاني الشافعية. ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٣) لسان العرب ١ / ٥٨٩.

والإعراب- الذى هو النحو- إنما هو الإبانة عن المعانى بالألفاظ؛ وأعرّب كلامه إذا استعمل فيه قواعد النحو، ولم يلحن فى الإعراب؛ ومن الكلام "معرب ومبني"؛ والإعراب كعلم قد ظهر فيما بعد. وليس يعنى ظهور علم النحو- ومنه الإعراب- فى مرحلة متأخرة، خلو القرآن واللغة العربية منه. إن اللغة العربية سليقة ولم يكن بين العرب من يلحن فيها، بمعنى الخطأ فى نطق الألفاظ والعبارات، ولم يكن لأحد منهم لهجة عامية وأخرى فصحي، كذلك اللهجات العامية أو العمياء التى انطلقت شرارتها فيما بعد، عند احتكاك العرب بغير العرب، إذ أن العرب لم تعرف اللحن إلا بعد دخول الموالى فى الإسلام، وتأثر بعض المخالطين لهم من العرب بلكنتهم ولحونهم؛ ثم ازداد ذلك مع اتساع الفتوحات الإسلامية ودخول الكثير من غير العرب فى الإسلام، واندماجهم مع العرب^(١)؛ وبخاصة استعمالهم للغة العربية التى هى لغة القرآن والسنة، مما جعل وضع علم النحو ضرورة للحفاظ على صفاء اللغة كلغة. أما القرآن فكان يقرأ هكذا تلقينا، سواء قبل وضع علم النحو والإعراب أم بعده^(٢)؛ وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون غريب القرآن عن طريق إعرابه.

ودعوى المستشرقين ومن تأثر بهم من بنى قومنا، أن الصحابة كانوا يلحنون فى القرآن، ولا يهتدون لإعرابه فى عهد النبى ﷺ، دعوى جاهلة وباطلة قال: عمر وأبو بكر "حفظ إعراب القرآن أحب إلينا من حفظ بعض حروفه"^(٣). وقد تكلم العلماء فى إعراب القرآن، ووضعوا فيه آثاراً عظيمة أهمها "إعراب القرآن" للزجاج (ت : ٣١١هـ)، و"إعراب القرآن" للنحاس (ت : ٣٣٨هـ)، و"إعراب القرآن" لابن خالويه؛ ومما ينبغى معرفته أيضاً أن كون القرآن كان مجرداً من النقط والشكل، لا يدل على الجهل بالإعراب ولا بالقرآن أبداً.

إن علماء المسلمين كما حثوا على إعراب القرآن لمعرفة معانيه وللتوصل إلى أسرارهِ المذكورة، حثوا أيضاً على تجويد القرآن، وتجويد كتابته، وتفخيم خطه لإظهار جلالته وسموه، شكلاً وموضوعاً.

قال السيِّهقي: "من آداب القرآن أن يفخم، فيكتب مفرجاً بأحسن خط، فلا يصغر ولا ترمط حروفه (أى لا يقارب بينها)، ولا يخلط به ما ليس منه...".

وقال النووى: "نقط المصحف وشكله مستحب، لأنه صيانة له من اللحن والتحريف".

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢١.

(٢) رسائل وفتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ٣ / ١٨٨ نفسه يقول ابن تيمية "والمكتوب فى مصاحف هو كلام الله القرآن العربى الذى أنزل على نبيه ﷺ سواء كتب ونقط ولفظ أو بغير شكل".

(٣) انظر ابن الجزرى. كتاب النشر فى القراءات العشر ١ / ٣٢.

وقد منع الدّاني أن ينقط المصحف بالسواد لأنه يغير رسم الكلمة؛ ولم يستجز كذلك جمع قراءات شتى في مصحف واحد بألوان مختلفة، لأنه من أعظم التخليط والتغير للمرسوم.

وقال الجرجاني إنه من المذموم كتابة تفسير كلمات القرآن بين أسطره.^(١)

وهذا يُبين مدى عناية المسلمين بالقرآن من الجهتين، الصوتية والإملائية.

روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقرأ القرآن على جبريل عليه السلام في كل عام مرة قال فقرأ عليه القرآن في العام الذي قبض فيه النبي ﷺ مرتين فشهد عبد الله بن مسعود ما نسخ منه وما بدل فقراءة عبد الله الأخيرة اختلفت لذلك أما سائر الصحابة فقد كتبوا في هذه المصاحف ما تحققوا أنه قرآن، وما علموه استوفى شروط النقل عن النبي ﷺ.

لذلك اختلفت المصاحف بعض الاختلاف إذ لو سقطت العرضة الأخيرة لم تختلف المصاحف. يقول السيوطي بأن القراءات التي تواترت عن عثمان وعن ابن مسعود وأبي وغيرهم من الصحابة لم يكن بينهم فيها إلا الخلاف اليسير المحفوظ بين القراء. ثم إن الصحابة لما كتبوا المصاحف جردوها من النقط والشكل ليحمله المعنى، ما لم يكن في العرضة الأخيرة. فعلوا ذلك لتكون دلالة الخط الواحد على كلا اللفظين المنقولين المسموعين المتلوين شبيهاً بدلالة اللفظ الواحد على كلا المعنيين المعقولين المفهومين. لأن الصحابة تلقوا القرآن لفظاً ومعنى عن النبي ﷺ وما كانوا لیسقطوا شيئاً منه ألبتة^(٢).

(١) الإتيان ٤ / ١٦٢، ١٩٠.

(٢) الإتيان ١ / ٣٣.

الفصل الثاني

الألفاظ الأعجمية في القرآن

على سبيل التمهيد لهذا الموضوع، نقول:

يرجع الكلام في موضوع القرآن والألفاظ الأعجمية إلى القرن الأول الهجري، السابع الميلادي حيث اختلف الفقهاء والمفسرون وعلماء اللغة حول هذه المسألة فقال فريق منهم بناء على الآيات الصريحة في القرآن بأنه لا يوجد ألفاظ غير عربية في الكتاب الكريم؛ من هؤلاء العلماء الفقيه الأصولي الإمام محمد بن إدريس الشافعي (٢٠٤ هـ / ٨٢٠ م)، وإمام فقه اللغة أبو عبيدة (٢١٠ هـ / ٢٨٥ م)، والمفسر والمؤرخ الكبير ابن جرير الطبري (٣١٠ هـ / ٩٢٣ م)، والفقيه الأشعري والمتكلم أبو بكر بن الطيب الباقلاني صاحب كتاب المجاز القرآن وكتاب التمهيد، واللغوي الأشهر ابن فارس صاحب معجم مقاييس اللغة (٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م) بنى هؤلاء العلماء رفضهم لوجود ألفاظ أعجمية في القرآن على قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ ءَايَاتُهُ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت: ٤٤)^(١)، والآية الأخيرة في أنه لا يجوز خلط ما هو عجمي وعربي في القرآن.

وقد استنكر أبو عبيدة بشدة أن يكون في القرآن العربي ألفاظاً غير عربية يقول: "إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين، فمن زعم أنه فيه غير العربية فقد أعظم القول، ومن زعم أنه كذا بالنبطية فقد أكبر القول"، كما شدد الإمام الشافعي النكير على القائلين بذلك، كما علل ابن فارس رفضه لمقولة وجود ألفاظ أعجمية في القرآن بسعة اللغة العربية واكتفائها بذاتها عن أي لغة أخرى، وبعدم معرفة العرب باللغات فكيف إذن يأتيهم القرآن بما لا يفهمون دون ما ضرورة. وأما الفريق القائل بوجود بعض الألفاظ الأعجمية في القرآن فإنه يعتمد على وجود ألفاظ يبدو على ظاهرها أنها غير عربية.

ربما التقطتها العرب في بعض أسفارها من أهل اللغات الأخرى أو بحكم احتكاكها بغير العرب على أي نحو، ثم تبنتها واستعملتها في لغتها قبل نزول القرآن، فأصبحت من ثم عربية؛ ومن هؤلاء القائلين بالألفاظ الأعجمية ابن عباس (ت: ٦٨ هـ / ٦٨٨ م)، وتلميذه عكرمة (ت: ١٠٥ هـ / ٧٢٣ م)، وأبو موسى الأشعري (ت: ٤٢ هـ / ٦٦٢ م).

وقد قدم هؤلاء العلماء قائمة بالألفاظ التي عدوها أعجمية في القرآن. ومما يثير العجب أن ابن عباس وعكرمة و أبو موسى الأشعري لم يكونوا يعرفون لغة غير العربية، ولم يُعرف عنهم أنهم درسوا لغات أخرى، ولا مانع عندنا أن يكونوا قد سألوا في ذلك من يعرف هذه اللغات التي ذكروها.

أما بالنسبة للمستشرقين، فقد عُني بالكتابة في هذا الموضوع دفوراك: "حول الكلمة الأجنبية في القرآن" صدر في فيينا ١٨٨٥، و"مساهمة حول مشكلة الكلمات الأجنبية في القرآن" ميونخ ١٨٨٤؛ وس. فرانكل: "المفردات العربية القديمة الأصلية والمحولة عن الأصل في القرآن" ليدن ١٨٨٠؛ "الكلمات الأجنبية الآرامية في اللغة العربية" ليدن ١٨٨٦. "الخليط في القرآن" مجلة (Z D M G) ٥٦، ٧١؛ وجرم "حول بعض أنواع الكلمات المسندة إلى جنوب الجزيرة العربية في القرآن" Z A، ١٦، ١٩١٢. آرثر جيفري: "الكلمات الأجنبية في القرآن" نشره المعهد الشرقي بارود ١/ ١٩٣٨؛ وأ. منجانا: "التأثير السرياني على أسلوب القرآن" نشره رينالدز في عام ١٩٢٧^(١)

ومما يلفت النظر في عنوان مقالة منجانا أنه استعمل كلمة "أسلوب القرآن" بدلاً من ألفاظ القرآن، وهذا يعني أن القرآن لم يكتف فيه باستخدام ألفاظ غير عربية بل دخله أيضاً أساليب غير عربية؛ وهذا الكلام لا مبرر له ولا شاهد عليه يؤيده، فالقرآن كلام الله تعالى وليس من صنع البشر ولا من أساليبهم.

تناول ويلش في هذا الموضع دعوى أن القرآن يحتوي على ألفاظ غير عربية وهذه دعوى قديمة قدم القرآن نفسه، فهي من الدعاوى التي أثارها خصوم الإسلام الأولين ضد القرآن الكريم وسجلها الكتاب العزيز مصحوبة بالرد عليها يقول تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۚ﴾ (فصلت: ٤٤).

يقول ابن عطية في التعليق على هذه الآية: إنها نزلت بسبب تخليط قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن وهي مما عرب من كلام العجم كالسجين، والإستبرق ونحوه فقال ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا لولا بينت آياته^(٢).

(١) عبدالرحمن بدوى . دفاع عن القرآن ص ١٤٥، ١٤٦

(٢) المحرر الوجيز ١٣/١٢٥.

يفهم من عبارة ابن عطية أنه كان ممن يجزم بوجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم، هذا أولاً، وأما ثانياً فإن قول خصوم القرآن بأن بعض كلماته أعجمية لا دليل عليه، وذلك لأنهم لم يكونوا من أهل اللغات، ولا لهم اطلاع على آداب الأغيار حتى يكونوا مؤهلين لإطلاق مثل هذا الحكم، ولا كان محمد كذلك ممن يعرف لغات أجنبية حتى توجه له مثل هذه التهمة، إن هناك أدلة من الشعر العربي على وجود مثل هذه الألفاظ التي تعلقوا بها في اللغة العربية فلماذا إذن لم يوجهوا الاعتراض نفسه للشعراء الذين استعملوها قبل نزول القرآن، إذا كانت المسألة مسألة غيرة على اللغة أو ادعاء عدم فهم بعض مفردات القرآن؟

واضح من كلام ابن عطية ومن الإحصاء الذي قدمه السيوطي في الإتيان أن القرآن، إذا صحت دعوى الأخذ من لغات أخرى، إنما استعمل ألفاظاً، مجرد ألفاظ، من بعض اللغات غير العربية والتي كانت مستعملة بلا شك بين العرب، ولو اعتمدنا ما سجله علماء المسلمين أنفسهم من ألفاظ غير عربية لما تجاوزت هذه الألفاظ المائة. وهذه نسبة ضئيلة جداً إذا قورنت بمجموع ألفاظ القرآن البالغة ٩٧٤٣٩ لفظة. وقد بالغ المستشرقون كثيراً في الحكم على كثير من ألفاظ القرآن بأنها أعجمية، وذلك لمجرد وجود تشابه حرفي أو صوتي بين بعض ألفاظ القرآن وألفاظ لغات أخرى، حتى لقد جعلوا كلمة الإسلام نفسها آرامية مشتقة (Taryumic Aramico) والتي تعني في أصل وضعها السلام أو تحقيق السلام. كما زعموا أن محمداً لحرصه على تميز رسالته عن اليهودية والنصرانية قد أعطى للكلمة معنى آخر، قالوا ذلك انطلاقاً من دعوى أعجمية بعض ألفاظ القرآن التي روج لها خصوم الوحي بمسكة، ورد القرآن عليهم في ذلك كما مر بنا؛ ولأن بعض الروايات جاءت بأقوال لبعض الصحابة تفيد وجود بعض ألفاظ غير عربية في القرآن، اجتهد علماء المسلمين في دراسة مفردات الكتاب العزيز وتتبّع غرائبها ومصادرها سواء من حيث لهجات العرب أو من حيث لغات الشعوب غير العربية فقد ألف السيوطي كتاباً بعنوان "المهذب فيما وقع في القرآن من العرب" اختصره في كتابه "الإتيان في علوم القرآن" (١).

ومن قبله كتب أبو حاتم الرازي كتاب "الزينة في الألفاظ الإسلامية"، وألف الجواليقي كتاب "المعرب". وقد استفاد السيوطي من هذين الكتابين كثيراً في "الإتيان"؛

وألف الراغب الأصفهاني كتاب "المفردات"؛ كذلك ألف العلماء في غريب القرآن ويقصد بغريب القرآن تلك الألفاظ أو التراكيب التي تحتاج إلى إعمال الذهن والغوص على المعنى البعيد، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة: "أعربوا القرآن، والتمسوا غرائبه"؛ ومن أشهر المؤلفين في ألفاظ غريب القرآن أبو عبيدة والعُزَيْرِيُّ الذي عكف على تأليف كتابه مع شيخه، ابن الأنباري خمس عشرة سنة^(١).

بدأ الكاتب حديثه بالإشارة إلى آراء العلماء المسلمين في موضوع اشتغال القرآن على ألفاظ غير عربية، حيث انقسم علماء المسلمين في هذا الصدد إلى فريقين: الأول ينكر إنكاراً جازماً أن يكون في القرآن ألفاظٌ غير عربية، ومنهم الإمام الشافعي الذي ينتصر للغة العربية ويعتبرها أوسع اللغات التي لا يمكن أن يحيط بها إلا نبي مرسل، ويقول "إن القرآن يدل على أنه ليس فيه من غير لغة العرب وأن القائلين بهذا وجدوا من يتلقفه عنهم"^(٢).

ومن هذا الفريق أبو عبيدة والقاضي أبو بكر وابن فارس، وشاهد هؤلاء العلماء على عربية القرآن الخالصة قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢) وغيرها من الآيات التي أشرنا إليها في مواضع أخرى من هذا البحث ولا داعي لتكرارها.

شدد هؤلاء العلماء في النكير على من قال إن في القرآن ألفاظاً أعجمية، ووجه ابن جرير ما ورد عن ابن عباس وغيره من ردّ بعض ألفاظ القرآن إلى أصول فارسية أو حبشية أو نبطية أو نحوها بأن هذا إنما وقع فيه الاتفاق بين اللغات، فتكلمت بلفظه بعض الشعوب.

وعلى غير الطبري اشتراك بعض اللغات في بعض الألفاظ مع العربية بأن العرب العاربة التي نزل القرآن بلغتهم كانوا يحتكون ببعض الشعوب غير العربية في أشعارهم وربما خالطوا بعضهم فعلقوا من لغاتهم ألفاظاً غيروا بعضها بالنقص من حروفها واستعملتها في أشعارها ومحاوراتها حتى جرت مجرى العربي الفصحى، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل القرآن.

وفريق ثالث يقول إن كل ألفاظ القرآن عربية صرفة ولكن ربما غابت بعض

(١) السيوطي. الإتقان ٣/٢ وما بعدها.

(٢) انظر: الرسالة ٢٦ - ٢٧.

معانيها أو بعض أصولها عن بعض العلماء فابن عباس وهو من هو في تفسير القرآن قد خفى عليه معنى بعض الكلمات مثل "فاطر" و"فاتح" كما خفيت كلمة "أباً" عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

نقول إن ابن عباس وعمر بن الخطاب ربما تطلبا معنى زائداً في اللفظة لكنهما كانا يعرفان بلا شك المعنى اللغوي العام للكلمة والذي يعرفه أهل اللغة. وفي قرينة هذا الكلام نجد من المفيد أن نشير إلى قول ابن جني في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَنْمُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ خَنُ الْمُؤَلِّقِينَ ﴾ (الأعراف: ١١٥) إنا نعلم أن السحرة لم يكونوا أهل لسان (أى أهل بلاغة) فنذهب بهم هذا المذهب "أى في البلاغة لقولهم "إما أن تلقى" بدلاً من "إما أن تلقى"، ثم قال "بأن جميع ما ورد في القرآن حكاية عن أهل اللسان غير العربي لم تجر على لغة المعجم إنما هو معرب عن معانيهم وليس بحقيقة ألفاظهم^(١). ويعلل القائلون بوجود ألفاظ غير عربية في القرآن الكريم بقولهم إن ذلك لا يصادم قوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف: ٢) وقوله: ﴿ يَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ (الشعراء: ١٩٥)، وقوله: ﴿ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ (النحل: ١٠٣)، وقوله: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ؕ أَعَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (فصلت: ٤٤)، وذلك لأن وجود كلمات يسيرة غير عربية في القرآن لا يجعله غير عربي، كما أن القصيدة الفارسية لا تخرج عن كونها كذلك لوجود لفظة أو لفظتين عربيتين فيها.

ولقد ذهب بعض العلماء إلى أوسع من ذلك حيث يقول ميسرة التابعي الجليل فيما أخرجه ابن جرير أن "في القرآن من كل لسان". وروى مثلاً هذا الكلام ابن جبير ووهب بن منبه، وحجة هذين الأخيرين أن القرآن قد حوى علوم الأولين والآخرين وأخبار كل شيء، وكان ولا بد أن تقع فيه الإشارة إلى أنواع اللغات والألسن لتتم له هذه الإحاطة؛ لذلك اختير له من كل لغة أعذبها وأخفها وأقربها إلى استعمال العرب.

وصرح ابن النقيب بأن اشتغال القرآن على ألفاظ غير عربية يعتبر من خصائصه التي تميزه على سائر الكتب المنزلة حيث كانت هذه الكتب تنزل بلغة واحدة هي لغة المخاطبين لكن القرآن قد احتوى على جميع لهجات العرب ولغات غير العرب كالروم والفرس والأبشاش وغيرهم.

ونرى أن أصحاب هذا الرأي قد توسعوا وبالغوا فيه فجعلوا القرآن معرضاً للغات وهو مالا تتفق معهم فيه، فالقرآن إذا عرض على غير العرب لم يفهموه ولم يستطيعوا أن

يتبينوا حتى معاني بعض ألفاظه بما فيها تلك الألفاظ التي يدعى أنها غير عربية. وكون القرآن حاوياً لكل شيء لا يستدعى اشتماله على ألفاظ غير عربية وإلا لوجب أن يضم أيضاً ألفاظاً هندية وصينية وغيرها مما قد يعد بالآلاف من لغات العالم ولهجاته.

ثم إن اللفظ القرآني في بعض الحالات يعتبر لفظاً متحولاً بمعنى أنه يحمل معنى جديداً ويعطى مفهوماً جديداً بحسب السياق في الآية أو مجموعة الآيات.

إن هذا الأمر على فرض وقوعه لا يحتاج في نظرنا إلى مثل هذه التعليلات فإله أعلم حيث يجعل رسالته، وحيث يختار لغة هذه الرسالة. ويذهب الخوئي أيضاً إلى وجود ألفاظ غير عربية في القرآن، ويرد على القائلين بأن الألفاظ الأعجمية ليست في فصاحة الألفاظ العربية، قائلاً بأنه إذا اجتمع فصحاء العالم ورغبوا في أن يستبدلوا لفظ "إِسْتَبْرَقَ" بكلمة أخرى لكاعوا وما استطاعوا؛ وذلك لأنه أطف في موضعه وأخف وأرق في أذن سامعه. وليس في لغة العرب ما يقوم مقام لفظه، ولو عبرنا عنه بالكلمات بدل اللفظ الواحد ذهبت عنه الفصاحة جملة، لأن الثياب المصنوعة من الحرير عرفها العرب من الفرس. ولم يكونوا يعرفونها ولا يصنعونها ولا وضعوا للدجاج الثخين اسماً، وإنما عربوا ما سمعوا من العجم، واستغنوا به عن الوضع لقلة وجوده عندهم وندرة جريانه على ألسنتهم^(١). ومن المهم أن نلفت النظر إلى أن كلمة "إِسْتَبْرَقَ" اسم لمادة معينة ويقابلها لفظة حرير في اللغة العربية وقد استعملها القرآن أيضاً في وصف لباس أهل الجنة في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (الحج: ٢٣)، إلا أن العرب قد تركوا كلمة "إِسْتَبْرَقَ" على ما هي عليه في أصلها كدلالة على نوع خاص من الحرير وهذا لا يعنى خلو العربية من مثلها.

وبعد أن استعرض أبو عبيد القاسم بن سلام أقوال العلماء في المسألة توسط في الأمر فقال إن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء (يعنى بعضهم)، لكنها وقعت للعرب فحربتها بألسنتها، وحولتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق ومن قال أعجمية فصادق أخذ بهذا القول الجوالقي في "المعرب"، وابن الجوزي في "المدهش"، وآخرون غيرهم^(٢).

(١) الإتيان جـ ١٠٧، ١٠٨ ووردت كلمة إستبرق في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُم جَنَّاتُ عَدْنٍ يَخْرُجُ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُخَلِّدُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ (الكهف: ٣١).

(٢) السيوطي. الإتيان ١٠٨/٢.

ومهما قيل فإن القرآن لا يمكن أن يفهم إلا من جهة لغة العرب ولا سبيل إلى طلب فهمه من غير هذه الجهة، وكونه يشتمل على ألفاظ أعجمية أو لا يشتمل أمر ينبغي أن لا نتوقف عنده، وبخاصة إذا كان العرب قد تكلمت بهذه الألفاظ وجرت في خطابها وفهمت معناها وصيرتها من كلامها من قبل أن ينزل القرآن الذي جاء كله على أساليب العرب ومعانيهم وقواعد لغتهم^(١).

على أنه يمكن القول بالإضافة إلى ما سبق، أن هذه الألفاظ المشتركة بين العربية وبعض اللغات الأخرى من غير العربية إنما جاءت من اللغة الأولى التي علمها الله تعالى لآدم عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١) يتضح هذا غاية الوضوح إذا عرفنا أن الألفاظ العربية في القرآن والتي قال البعض بأعجميتها كلها أسماء أشياء أو أشخاص، وأنه من المحتمل والمعقول أيضاً أن تكون هذه الأسماء أو الألفاظ عربية في الأصل ثم انتقلت منها إلى هذه اللغات ثم عادت فيما بعد إلى أصلها.

والعجيب أن بعض الروايات ترد علينا بالحكاية عن توقف ابن عباس في معنى لفظة ما. وفي الوقت نفسه تحيء روايات أخرى عنه بتفسير هذه اللفظة بعينها، ومسائل نافع بن الأزرق خير شاهد على ذلك.

وقبل أن نأخذ أمثلة من هذه الألفاظ التي قيل بأنها أعجمية نحب أن نذكر أن علماء المسلمين قد وصلوا بهذه الألفاظ إلى نحو مائة وتسع عشرة كلمة، وقد عدّها الزركشي خمسة وعشرين لفظاً، وأمّا اللغات التي جاءت منها هذه الألفاظ فهي اليونانية، والفارسية، والعبرية، والأمهرية، والهندية، والقبطية؛ وعدّ السيوطي مائة وتسع عشرة كلمة؛ ولكن المستشرق ويلش يصل بها إلى مائتين وخمسة وسبعين لفظاً!

نستعرض الآن بعض الألفاظ التي يقال أنها أعجمية. ثم نبين بالدليل وجودها في اللغة العربية قبل نزول القرآن واستعمال الشعراء و الأدباء لها.

لفظة "آية" على سبيل المثال التي ردها المستشرق إلى أصل غير عربي كما مر بنا استعملها النابغة الذبياني في شعره، يقول من قصيدة له.

توهمت آيات لها فعرفتها لستة أعوام وذا العام سابع^(٢)

وكلمة "حناناً" تعرفها العرب؛ استعملها ورقة بن نوفل بمعنى "البركة أو الرمز

(١) الشاطبي. الموافقات ٤٩/٢، ٥٠.

(٢) شيخ رضي الدين بن الحسن الأشثرا باذى النحوى (ت: ٦٨٦) شرح شافىة ابن الحاجب. مع شرح شواهد لهبد القسادر البغدادى صاحب خزانة الأدب تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفراف ومحمد محى الدين عبد الحميد دار الفكر ١٣٩٥ - ١٩٧٥ ص ١٠٨.

الطيب"؛ حدث ابن إسحق عن هشام عن عروة عن أبيه قال: "كان ورقة بن نوفل يمر ببلال وهو يعذب، ويقول أحد، أحد، فيقول "أحد" والله يا بلال ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بني جمح فيقول، أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً"^(١).

وليس يُعترض على ذلك بأن ورقة كان نصرانياً وربما كان يعرف لغة غير العربية فأخذ منها هذه اللفظة إذ أنه لم يرد البتة أن ورقة كان يعرف لغة غير اللغة العربية. وعلى فرض معرفته، وهو افتراض بعيد للغة غير عربية، فإن ذلك لم يشتهر عنه ثم إنه كان يتكلم مع عرب لا يفهمون غير لغتهم والمرء إنما يتكلم ليفهم، واللغة إذا لم تستعمل ماتت واندثرت، سواء بالنسبة للفرد أو الأمة.

والحنان هو العطف والرحمة قال عكرمة "وحنانا من لدنا" أى رحمة من عندنا؛ وقال مجاهد هو تعظيم من الله ﷻ. حنانك حنانيك والعرب تقول "وحنانك يا رب وحنانيك" وهما لغتان من حنانيك. قال الكميت:

حنانيك رب الناس من أن يغربي كما غرهم شرب الحياة المنضب

وقال أبو عبيدة ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ أى رحمة من لدنا؛ وأنشد لامرئ القيس:

ويمنحها بنو شمعى بن جرّم معيزهم حنانك ذا الحنان

ومن شعر الطرماح أو طرفة بن العبد:

ويؤذيهم على فتاء سنى حنانك يا ذا الحنان

أبا منذر أفنيت فاستيق بعضنا حنانيك بعض الشر أهون من بعض^(٢)

والوارد منها عن ابن عباس روايتان قال فى إحداها لا أدرى؛ وفى الأخرى أنها بمعنى الرحمة. وأوردوا عنه أنه كان يقول: "كل القرآن أعلمه إلا أربعاً ﴿غَسِيلِينَ﴾"^(٣)، و﴿وَحَنَانًا﴾^(٤)، و﴿أَوَاهٍ﴾^(٥)، و﴿الرَّقِيمِ﴾"^(٦). وتوقف ابن عباس فى معانى هذه الكلمات ربما كان فى أول الأمر، وربما كان ذلك احتياطاً زائداً منه لئلا يقع فى محذور أو يقول

(١) سيرة ابن هشام ١ / ٢٧٧ ومعنى قول ورقة "لأتخذنه حناناً" أى لأتبركن بغيره إذا مات شهيداً .

(٢) ابن أبى حاتم. كتاب الزينة ١ / ١٢١.

(٣) الخاقعة: ٣٦.

(٤) مريم: ١٣.

(٥) التوبة: ١١٤، هود: ٧٥.

(٦) الكهف: ٩.

شيئا بخلاف مراد الله تبارك وتعالى كما ذكرنا من قبل، هذا مع أنه فسرهما على ما جاء في إحدى الروايتين وينبغي أن نأخذ في الاعتبار أن توقّف ابن عباس فيها ليس معناه أن الكلمة غير عربية؛ فقد أورد ابن الصلاح في مقدمته بإسناده عن علي كرم الله وجهه أنه سئل عن معنى "الحنان المنان"، فقال: "الحنان من يُقْبَلُ على من أعرض عنه، والمنان الذى يبدأ بالنوال"^(١) وأثبت علماء اللغة أن لفظة "حنان" وجود في اللغة العربية والسريانية والعربية الجنوبية القديمة^(٢).

كلمة "تحت" قالوا هى بالنبطية بمعنى بطنى؛ ولما وجدوا الكلمة بهذا المعنى تنطبق أكثر على الآية ﴿فَنَادَيْنَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ أى من داخل بطنها تكلفوا القول بأن الكلمة نبطية وقالوا أن الذى ناداها هو عيسى عليه السلام وهو فى بطنها، وبالتالى صرفوا هذا الكلام عن جبريل عليه السلام، ومن هنا قالوا إن مريم لم تكن نبية ولم يخاطبها جبريل وفى هذا تكلف أيضا. ففى السورة نفسها أن جبريل كما كان يخاطب الأنبياء بالوحي، تَمَثَّلَ لمريم بشرا سوياً وكَلَمَهَا وَبَشَّرَهَا وَرَاجَعْتُهُ وَطَمَأْنَنَهَا؛ ثم إن كلمة "تحت" إذا فسرت بطن لا يستقيم المعنى، إذ لم يعرف أن المسيح تكلم وهو فى بطن أمه، والذى يثبت له القرآن وكذلك السنة هو معجزة الكلام فى المهد، لا فى البطن. ومما تفيد معرفته فى هذه القرينة، أن النصارى لا يعتقدون فى أن المسيح تكلم فى المهد، كما جاء فى القرآن، ويقولون إنه لا يوجد شئ يثبت ذلك فى كتبهم، مع أن كتبهم لا تحتوى إلا على القليل من حياة المسيح عليه السلام، وهذا القليل لا يمكن أن يثبت فى حد ذاته الوجود التاريخى للمسيح، لذلك فقد شكك كثير من الكتاب الغربيين فى وجود السيد المسيح عليه السلام.

وهذا ما يقرره ابن عباس. ثم إن كلمة "تحت" لا تفيد غير الجهة التى هى أسفل والمنادى الذى كان ينادى على مريم أنه كان إما هو الملاك جبريل والذى كان فى مكان أخفض من مكانها^(٣) أو كان عيسى عليه السلام هو الذى ناداها يطمئنها، وهذا غير ممتنع وقوعه قبل معجزة المهد إذ أن إشارة مريم، عند تغيير أهلها لها، كانت إلى عيسى، وفى كلام عيسى فى المهد ما يوحى بأن حادثة مماثلة قد وقعت للطفل، وقد كانت مريم متأكدة أنه عندما أشارت لهم إليه انه سينطق ببراءتها كما نطق بتسليتها.

أما كلمة ﴿قَطَّنَا﴾ (ص: ١٦) فقد عدها القاسم أبو عبيد بن سلام نبطية وهى

(١) انظر ص ٥٤٤. وانظر ابن عطية المحرر الوجيز ٤٣٧/٩ والإتقان ٨٥/١ وديوان طرفة قافية الضاد.

(٢) انظر عبد الصبور شاهين القراءات القرآنية ص ٣٥١.

(٣) المحرر الوجيز ٤٥٧/٩.

عربية استشهد عليها ابن عباس بقول الأعشى شعراً:

ولا الملك النعمان يوم لقيته بنعمته يعطى القطوط ويطلق^(١)

فقد جاءت الكلمة بصيغة الجمع في شعر الأعشى ومعنى ذلك أنها عربية أصيلة.

وكلمة "سنا" في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنًا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ (النور: ٤٣)،

قال ابن عباس هي في العربية بمعنى الضوء واستشهد على ذلك بشعر أبي سفيان بن الحارث:

يدعو إلى الحق لا يبغي به حولاً يجلو بضوء سناه داجي الظلم^(٢)

وعلى الرغم من هذا فقد عدّها ابن حجر في منظومته من الألفاظ غير العربية^(٣).

وكلمة ﴿أَلِيمٌ﴾ قال ابن الجوزي معناها بالزنجية موجه وقال شيزلة هو بهذا المعنى

في العبرانية، وقال ابن عباس هي عربية مستشهداً بقول الشاعر:

نام من كان خلياً من ألم وبقيت الليل طويلاً لم أنم^(٤)

وكلمة ﴿وَزَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (القيامة: ١١) عربية ليس إلا،

استشهد ابن عباس على عربيته بقول الشاعر:

ما في السماء من الرحمن مرمد إلا إليه وما في الأرض من وزر

والوزر الملحق على أى نحو كان؛ قال ابن الجوزي في فنون الألفاظ من المعرب لفظه.

وقال الواسطي معنى ﴿رَمَزًا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ ءَابِتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ

أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ (آل عمران: ٤١) تحريك الشفتين بالعبرية^(٥)؛ وذكر عن ابن عباس أنه

بمعنى الإيماء في العبرية، وهو أدق تأدية في اللغة العربية في المعنى، لأن الإشارة تكون

بالشفتين وباليدين ونحو ذلك، بحسب اصطلاح الناس وتعارفهم فيما بينهم؛ ولعل

الواسطي تكلف رد الكلمة إلى العبرية، لأنها جاءت في الحديث عن نبي الله زكريا الذي

كان يعمل بين اليهود، فظن لذلك أن الكلمة عبرية.

ومن الألفاظ التي قيل فيها أيضاً أنها غير عربية ﴿ءَانٍ﴾^(٦)

(١) ديوان الأعشى قافية القاف وكتاب الزينة ٦٣.

(٢) الزينة ٦٣.

(٣) الإتقان ١١٣/٢.

(٤) كتاب الزينة ٦٤.

(٥) ابن الجوزي. فنون الألفاظ ص ١١.

(٦) الرحمن: ٤٤.

﴿ءَايَاتِهِ﴾^(١) و﴿إِنْتَهُ﴾^(٢).

ذكر أبو القاسم أن لفظ "إنه" معناه الشيء الذي انتهى حره وقال ابن عباس اللفظة عربية بمعنى كل ما انتهى طبعه وحره واستدل عليه من شعر العرب بقول النابغة:

ويخضب لحية غدرت ونحانت بأحمر من نجيع الجحون آن^(٣)

وكلمة "القسط" و"قسطاس" التي أوردها السيوطي بين الكلمات التي قيل إنها أعجمية، وقال إن معناها العدل بالرومية^(٤)؛ نرى أنها عربية وقد استعملها أبو طالب قبل الإسلام في شعر له^(٥) وفي هذه القرينة نذكر أن فولر (Vollers) قد اقترح أن الكلمة مأخوذة من أصل يوناني، وهما مشتقان من كلمة "dikartes" (ZDMG, 63)؛ واقترح منجانا (Mingana) أنها مشتقة من الكلمة اليونانية "extes" بمعنى مكيال؛ وقد خطأ عبد الرحمن بدوي هذين المستشرقين فيما ذهبوا إليه وقال الأصح هو أن الكلمتين مشتقتان من الأصل اللاتيني (Justitia or Justus) (العاذل أو العدالة)^(٦).

وهكذا يقال في هذه الألفاظ التي يقال أنها غير عربية مثل "درست" و"نور" مثل على أنه يمكن أن نفسر هذا التشابه بين بعض الألفاظ القرآنية والألفاظ الأعجمية، بأن هذه الألفاظ ربما وصلت إلى اللغة العربية من وقت طويل حتى استحالت بالتقادم والشيوع والاستعمال عربية وإذا فقول القرآن عن نفسه أنه نزل بلسان عربي مبين صادق كل الصدق. وحقيق على كل دارس منصف، أن لا يقول في القرآن غير ما قال القرآن في لغته وعن نفسه.

ويمكن كذلك أن يقال إن ما في القرآن مما يظن أعجميته قد يكون مما تشابه في اللغات كما يقع التشابه بين المخلوقات، ويجب أن يكون واضحاً هنا أن القرآن لم ينقل فقرات وتراكيب أو أساليب لغة أخرى؛ وإنما نقل مجرد ألفاظ إذا صح ذلك؛ وقد رأينا أن هذه الألفاظ كلها يمكن بسهولة أن ترد إلى مصدرها في اللغة العربية وأن الذين قالوا أن في القرآن من كل اللغات ربما قصدوا بذلك اللهجات العربية وقد بينا أن العرب يسمون اللهجة باسم اللغة.

وربما كان قول القرآن ﴿ءَاْعَجَمِيٌّ وَعَرَقِيٌّ﴾، وقول بعضهم بأن القرآن أعجمي

(١) الغاشية: ٥

(٢) الأحزاب: ٥٣

(٣) ديوان النابغة قافية النون.

(٤) الإتيان ١١٥/٢.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام ٢٢٦/١، ٢٤٩.

(٦) دفاع عن القرآن ١٤٧-١٤٨

أنهم عنوا بذلك أن القرآن كان يشتمل على الغريب غير المفهوم بداهة على سبيل المثال فإن كلمة تحت استعملت في مواضع أخرى في القرآن، وليس في سورة مريم فقط وهي في كل هذه المواضع تحمل معنى يخالف معنى الكلمة في النبطية. ثم إن علماء اللغات الذين لاحظوا هذا التماثل الحرفي أو الصوتي بين الكلمتين لم يقدموا لنا دليلاً على جواز استعارة العربية لهذه الكلمة أو تلك، وتبقى نقطة أخرى مهمة ينبغي أن لا تفوتنا ونحن على طريق الخروج من هذا الموضوع وهي أنه، كيف يجوز لنا أن نفسر كلمة "تحت" بمعنيين مختلفين، وهما مذكورتان في آية واحدة وسياق واحد وقرينة واحدة: ﴿فَنَادَاهُمَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْتَفِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ (مريم: ٢٤).

فكلمة "تحت" في الآية تفيد التحتية في المكان في كلا الموضعين؛ وهو كقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَهَئِذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ (الزخرف: ٥١). وكلمة "عير" قالوا هي الحمار في العرية؛ وهي في العربية الجمل، والقرآن أدق في استعمال كلمة "عير"، إذ استعملها بمعنى الجمل، وهو ما يناسب الإسرائيليين البدو الرُّحَّل؛ أما كلمة "حمار" التي فضلها كُتَّاب العهد القديم كبديل للكلمة "عير" فخطأ تاريخي لأن "الحمار" حيوان حضري، وليس هو من حيوانات الصحراء^(١). وكلمة "يَم" ليست إلا عربية من "يَمَمْتُ، وَتَيَمَّمْتُ" أى قصدت^(٢)؛ ومنها "التيَم" ، وأطلق اليَم على الجهة والناحية؛ واليَمَّة بمعنى الناحية، وربما سمي النيل باليم لهذا المعنى لأن المصريين كانوا يسكنون على ضفافه، ويؤمونه أى يقصدونه دائماً، فمنه ماؤهم، ومنه زرعهم، ومنه مرعاهم وبعض طعامهم؛ وكل مظاهر حياتهم إنما ارتبطت بالنيل ودارت حوله؛ ولعل ذلك مما اتفقت في جرسه أو بعض حروفه بعض اللغات الإنسانية فكلمة "park" "بَارْك" مثلاً تعني حديقة، أو موقف للسيارات في الإنجليزية؛ وهي في العربية تعني بَرَك الجمال، أو المكان الذي تَبَرَك فيه الجمال؛ وكلمة (near) تعني "قريب" في اللغة الإنجليزية، وهي لو كتبت حسب رسمها الصوتي بالحروف العربية، تعني عبودية أو ضغط، يقال خلع نير الاستعمار؛ وكلمة "jop" "جُب" بضم الجيم القحطانية تعني "بئر" في العربية، ولكنها تعني "وظيفة" بالإنجليزية؛ وكلمة "fan" "فان" تعني في العربية زائل أو مُنتَه، وفي الإنجليزية تعني صوتياً "مروحة"؛ وكلمة "kill" "كِل" معناها في الإنجليزية "اقتل"، وفي العربية "فوض أمرك إلى الله" وهذا كثير لو تُتبع في اللغات الأخرى.

(١) ابن حيان. البحر المحيط جـ ٥ ص ٣٢٦.

(٢) الراغب. مفردات ٨٩٣.

الفصل الثالث

الأسجاع والفواصل المتكررة فى القرآن

تعرض وبلش هنا لنهايات الآيات القرآنية أو مقاطعها لما لها من وظيفة حيوية فى إبراز الشكل الخارجى للعبارة القرآنية، وهذه الظاهرة كما لاحظ الكاتب بحق من الخصائص المميزة للأسلوب القرآنى، وهى ترتبط ارتباطاً وثيقاً بطبيعة القرآن الشفهية والاستعمال الشعائرى أو النسكى، للقرآن. إن أواخر الآيات تأتى دائماً مسجوعة. ويضيف الكاتب "إنه لا توجد أى محاولة من جهة (واضع القرآن) لالتزام الصفة الشعرية من الوزن والقافية، فبعض قصار السور، ومقاطع من السور الطول تحتوى بقدر كاف على سجع متصل، هذا فى حالة عدم مراعاة حركات الإعراب عند نطق الكلمات التى تتفق أواخر حروفها". يعنى الكاتب بهذا أنه إذا سُكِّت أواخر هذه الكلمات كما هو الحال عند قراءة سورة الكوثر مثلاً على هذا النحو: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأَخَّرَ ﴿ إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ بتسكين الراءات الثلاث ظهر عندئذ السجع، أما إذا أجرينها فيها عملية الإعراب وقرأناها هكذا: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ ﴾ فَصَلَ لِرَبِّكَ وَأَخَّرَ ﴿ إِنَّ شَأْنَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ بفتح الراء الأولى وتسكين الثانية وضم الثالثة اختفى هذا السجع. وكما فى سورة الإخلاص: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾ ﴿ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴾ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ فإننا لو نطقنا الكلمات أحداً، الصمد، وأحد الأخيرة جرياً على القاعدة السابقة لاختفى السجع أيضاً.

والكلام نفسه يقال فى الآيات الخمس والخمسين التى هى مجموع سورة القمر والى تنتهى كلها إما بـ "راء" مفردة أو راء مضعفة".

ويلاحظ الكاتب أيضاً أن معظم أسجاع القرآن تختتم بـ "إين" أو "أون" كما فى "نستعين"، "وعالمون" أو "عالين" و"يحافظون" بالتبادل.

وتتبع الكاتب وبلش أشكال السجع فى الكلمات القرآنية فوجد أن معظمها يسير على النحو الذى أشرنا إليه تواءم، ثم إن منه ما ينتهى بالجرس "ان" وهو ما يتكرر فى سورة

آيتين آيتين كما في سورة الرحمن: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ۝ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾؛ (١٤ : ١٦)؛ ﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝ ﴾ (١٩ : ٢١).

ويعتبر الكاتب عبارة "فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ" التي يتكرر بعضها عقب العدد نفسه من الآيات، أو أقل، أو أكثر، "بالقرار" أو "الجملة المترددة"، ومن هذا النوع عبارة: ﴿ وَيَلُومُنِي لَمَكُذِّبِينَ ﴾ التي تكررت بالطريقة نفسها تقريباً في سورة المرسلات. ويرى أن هذه الجملة المترددة ليس لها إلا صلة ضعيفة، بالمعنى المذكور في الآيات الأخرى، إلى حد أنه من الصعب أن نحكم بأن الآية التالية يجب أن تقرأ كمقدمة أو كنتيجة لما سبقها. بعد هذا التلخيص الموجز لكلام المستشرق ويلش نعرض باختصار شديد أيضاً لآراء علماء المسلمين حتى نوضح ما أهمه، ونصحح ما أخطأ فيه أو ضل في شعا به ووهم في شكل أو جوهر خطابه.

قال السيوطي في تعريف الفاصلة: "الفاصلة كلمة آخر الآية كقافية الشعر، وقرينة السجع"^(١).

وقال أبو عثمان الداني (ت: ٤٤٤هـ) "كلمة آخر الجملة". وقال القاضي أبو بكر: "الفواصل حروف متشابهة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني".

وذكر الجعبري (إبراهيم بن عمر ت: ٧٣٢هـ) أن الفواصل تعرف بطريقتين توقيفي وسماعي، أما الأول فما ثبت أن النبي ﷺ وقف عليه فهذا بالتحقيق فاصلة، وأما الثاني فقيما وصله النبي ﷺ دائماً، وما وقف عليه مرة ووصله أخرى جاز أن يكون الوقف فيه لتعريف الفاصلة، أو لتعريف الوقف التام أو للاستراحة.

وأما القياس فما ألحق من المحتمل غير المنصوص بالمنصوص لمناسبة^(٢).

(١) الإتيان ١ / ٢٩٠.

(٢) المصدر نفسه ٢٩١.

وأما السجع فمعناه عند أهل اللغة "موالاة الكلام على حد واحد"^(١) وقال ابن دريد: سجعت الحمامة أى ردّدت صوتها وانشد.

طربت فأبكتك الحمام السواجع تميل بها صحواً غصوناً نوائع

ومعنى "نوائع" موائل^(٢).

اعترض القاضى أبو بكر الباقلانى على القائلين بالسجع فى القرآن محتجاً عليهم بأنه لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلام العرب ولو كان مثلها ومعدوداً فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال القرآن سجع معجز لجاز لهم أن يقولوا هو شعر معجز، كيف والسجع كان من صناعة الكهان وقد نفاه الله تعالى هو والشعر عن النبى ﷺ وعن القرآن، وقد رده النبى ﷺ ولم يستحسنه من القوم إذ قال: "أسجع كسجع الجاهلية" أو "أسجاعة كسجاعة الجاهلية" فى رواية أخرى.

يقول الباقلانى "إن الذى يعتبره هؤلاء سجعاً ليس بسجع. وإنما هو شىء على مثاله، لأن السجع من الكلام يكون فيه المعنى تابعاً للفظ الذى يؤدى السجع، والقرآن ليس كذلك لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى"^(٣).

ويضيف الباقلانى إنه لو كان الذى فى القرآن سجعاً لكان مذموماً مردولاً لأن السجع له منهج مرتب محفوظ وطريق مضبوط إذا أخل به المتحدث اختل كلامه واعتل حديثه، وجانب الفصاحة، ويكون حينئذ خروج عن قاعدة السجع كخروج الشعر على حكم الوزن والقافية.

والمراجع لما يعتبر سجعاً فى القرآن من وجهة نظر القاضى يجده كلاماً متقارب الفواصل، متقارب المقاطع، بعضها يمتد حتى يتضاعف طوله إلى درجة تجعل الفاصلة موافقة للوزن الأول بعد كلام طويل وهذا غير مقبول عند السجاعين، ولا هو محمود منهم. ثم يرد القاضى على المعارضين استشهادهم بأن القرآن يقدم موسى على هارون فى موضع ويقدم الثانى على الأول فى موضع آخر مراعاة للسجع وتساوى مقاطع

(١) المصدر نفسه ٢٩٢، ٢٩٣ والتاج ٣٧٥/٥ والجمهرة ٩٣/٢ والباقلانى إعجاز القرآن ٨٣.

(٢) السيوطى الإتقان ١ / ٢٩٣.

(٣) الباقلانى إعجاز القرآن ٨٣، ٨٤.

الكلام. فيقول "إن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة، تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذى تظهر به الفصاحة وتبين به البلاغة"^(١).

ونحن مع الباقين فى حرصه على تفرد القرآن فى المفاهيم والأساليب وفى الشكل وعلى إبعاد أى فكرة قد توحى بصناعته أو التقدم عليه فى القيمة الأدبية أو المماثلة له؛ ونفى مع القاضى أن يكون الله تعالى قد ذكر موسى أولاً فى موضع، وهارون سابقاً عليه فى موضع آخر بغرض المحافظة على وضع السجع من الكلام فقط؛ ولكننا لا يمكن أن نفى السجع عن القرآن، أو نثبت ونسميه بغير اسمه، لأن السجع من ذخائر اللغة العربية وسماتها الصوتية، وهو دليل على سعة هذه اللغة ووفرة ألفاظها وتضاعف مفرداتها؛ ثم إنه لا تكاد لغة من لغات العالم تُهمَل هذا الجانب الجمالى الظاهرى فى الكلام تحت أى اعتبار؛ فالسجع منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، يُحمد السجع إذا أدى المعنى ولم يجرى متكلفاً، ولا مبالغاً فيه، أو مقصوداً لذاته؛ ويُذم إذا كان مجرد التلاعب بالألفاظ أو التشديق بالعبارات؛ وإذا كان القرآن قد نفى عن نفسه أن يكون من قبيل كلام الكهان، وأن النبى ﷺ لم يطب له سماع كلام الذين خاطبوه بشأن الطفل القليل لما فيه من سجع، وأنه ﷺ شبهه بسجع الكهان، فليس معنى هذا أن السجع كله مذموم وأن ذمه يكون هكذا مقصوداً لذاته على الإطلاق؛ وإنه لمن الرشد أن لا نعمم اعتراض النبى ﷺ على المتكلمين بالسجع بحضرته إذ قد يكون السبب خاصاً بمؤلاء المتحدثين ويكون اعتراضه عليه السلام بسبب عدم وضوحهم وعدم مراعاتهم لمقتضى الحال أو لتشرفهم بحضرة النبى ﷺ. وأياً كان الأمر فإن الفواصل السجعية فى القرآن من تمام جمال كلام الله تعالى، وقد نوع الله عز وجل فى نهاياتها ومقاديرها بطريقة إعجازية جعلت السجع محموداً، بل تكاد الطريقة القرآنية فى استعمال السجع تختلف عما تواضع العرب عليه واستنوه فى كلامهم ولقد كان السجع القرآنى ولا يزال عاملاً مهماً من عوامل حفظ القرآن الكريم، وتيسير ذكره، وتحبيب قراءته إلى القلوب وسماعه إلى الآذان والوجدان.

(١) الباقين. إعجاز القرآن ٨٧.

قال أهل البديع: أحسن السجع ونحوه ما تساوت قرائته، (اقرأ الطور: ١ - ٢)،
ويليه ما طالت قرينته الثانية (النجم: ١ - ٢ والحاقة: ٣ : ٣٢).

وقال ابن الأثير: الأحسن في الثانية المساواة؛ وإلا فأطول قليلاً؛ وفي الثالثة أن تكون أطول.

وقال بعضهم أحسن السجع ما كان قصيراً لدلالته على قوة المنشئ، وأقله
كلمتان نحو قوله تعالى: ﴿يَتَأَيَّأُ الْمُمَدِّثُ﴾ ﴿فَعَزَّ فَاذْدَرَّ﴾ ﴿وَرَبَّكَ فَكَبَّرَ﴾ ﴿وَتَبَّابَكَ فَطَهَّرَ﴾
﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرَ﴾ ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرَ﴾ ﴿﴾ ﴿وَالْمُرْسَلَتِ عُرْفًا﴾
﴿فَالْعَصْفَتِ عَصْفًا﴾ ﴿وَالنَّبْشَرَتِ ذَنْبًا﴾ ﴿فَالْفَرْقَتِ فَرْقًا﴾ ﴿فَالْمُلْقَتِ ذِكْرًا﴾ ﴿عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا﴾ ﴿﴾ ﴿وَالذَّارِبَتِ ذَرْوًا﴾ ﴿فَالْحَمِلَتِ وَقْرًا﴾ ﴿فَالْجَرِيَتِ يُسْرًا﴾ ﴿فَالْمُقْسِمَتِ أَمْرًا﴾ ﴿﴾
﴿وَالْعَنَدِيَتِ صَبْحًا﴾ ﴿فَالْمُورِيَتِ قَدْحًا﴾ ﴿فَالْغَيْرَتِ صُبْحًا﴾ ﴿فَأَثَرُنَ بِهِ نَقْعًا﴾ ﴿فَوْسَطَنَ
بِهِ جَمْعًا﴾ ﴿﴾ والطويل ما زاد عن العشر كمعظم الآيات؛ وما بينهما متوسط كآيات
سورة القمر. وكل هذا أخذه من القرآن وقاسوه عليه.

أما عن تقديم هارون على موسى في بعض المواضع فسيبه - والله أعلم - أن
السحرة أرادوا أن يقولوا لفرعون إن الله هو الذي ربَّى موسى، لا أنت؛ بدليل مساواة
هارون أخيه له في الأدب والقيام بواجب الحق، وفي حسن السمات؛ وهارون لم يدخل
قصره، ولم يدرج في عشكه؛ هذا من ناحية؛ ومن ناحية أخرى، فإنك يا فرعون قد
ركزت في عدائك وتعديك على موسى فاتهمته بعمل السحر، وتعلم السحر وتعليمه؛
ولسنا نرى نحن في فعله إلا قوة الله تعالى، تتحدى قوى البشر، وتبطل ما تعلمناه
واعتمدنا عليه من سحر مصطنع، أخضعنا لك به رقاب العباد، وزينا لهم به أقوالك
وأفعالك حتى قلت أنا ربكم الأعلى، وما علمت لكم من إله غيري.

وقد أخضعنا الله لقوته التي ظهرت على يد هارون الذي لم تحسن به ظناً
وأهملة في كل أحاديثك، وعلى يد موسى الذي صورته ساحراً قديراً ماهراً ينازعك
الملك والسلطان فناسب لذلك تقديم هارون على موسى في هذا الموضع بالذات.

وقد يكون السحرة أرادوا تكريم هارون في موقف من مواقف التحدى بين
المؤمنين من جانب وفرعون وحاشيته من جانب آخر.

وذكر الزمخشري في الكشف القديم أن الفواصل لا تكون جميلة لمجرد الإتقان اللفظي في أواخر الكلمات، لكنها تكون كذلك ببقاء المعاني على سردها، حسب المنهج الذي يقتضيه حسن النظم والتثامه، أما إذا أهملت المعاني وانصب الاهتمام على الألفاظ فقط فلا يكون ذلك من ضروب البلاغة في شيء^(١).

ولذلك يقول الزمخشري إن تغيير نسق الكلام لا يكون لمراعاة السجعة؛ وإنما يكون التغيير لها ولشيء غيرها يصاحبها، وقد يكون الأخير هو المراد لذاته وهو ما ذكره أيضاً ابن الصائغ، الذي يقول: "إن التقسيم في ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ (البقرة: ٤) ليس لمجرد الفاصلة بل لرعاية الاختصاص"^(٢).

ونلاحظ أن الفواصل قد ثبتت على الوقف مع عدم إعمال عوامل الإعراب وهو ما أشرنا إليه من قبل، ولهذا ساغ مقابلة المرفوع بالجرور وبالعكس كما في قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَّازِبٍ﴾ (الصافات: ١١) مع قوله قبلها: ﴿دُحُورًا وَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ﴾، ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

ومن أنواع السجع، وهو كثير في القرآن، ختم الفواصل بحروف المد واللين في إلحاق النون؛ قال سيبويه وحكمة ذلك، وجود التمكن من التطريب عند قراءة القرآن؛ والتطريب عند قراءة القرآن أعون على حفظه والتأثر به. وإن الممعن في قراءة المشايخ من أصحاب الأصوات الحسنة يحس وكأن الله تعالى، قد وضع شيئاً من إعجاز القرآن في أصواتهم، فهم يستولون به على الأبواب بمجرد قراءتهم؛ ويمكن أن نسمى هذا بالإعجاز الصوتي أو النغمي للقرآن الكريم؛ وقد كان النبي ﷺ يجب أن يسمع القرآن الكريم من غيره ربما لهذا السبب؛ كما أثبت على الصحابة الذين مهروا بقراءة القرآن الكريم وجودوا في أدائه، وزينوه تطريفاً وتثويلاً (أي طربوا ورجعوا فيه)^(٣).

وحروف الفواصل إما متماثلة كما في قوله: ﴿وَالطُّورِ﴾ و﴿كَتَبَ مَسْطُورٍ﴾ في رَقٍّ مَشُورٍ وَالْيَبِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (الطور: ١: ٦).

(١) الإتقان ١ / ٣١٤.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣١٤.

(٣) انظر بحثنا عن القرآن الكريم بمريدة "المسلمون" الدولية الصادرة في لندن عام ١٩٨٦ صفحة الدراسة.

وإما مقارنة كما في آيات سورة الفاتحة: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وفي سورة ق: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾.

قال الإمام فخر الدين وغيره إن فواصل القرآن كلها منحصرة في هذين النوعين أعني المتماثلة والمقاربة^(١).

أما بالنسبة لأحكام الآي أو السبب الذي من أجله جاء التسجيع في أواخر الكلمات فإن شمس الدين ابن الصائغ الحنبلي المعروف بابن الغرس (ت: ٧٧٦هـ) قد ألف فيه كتاباً سماه "إحكام الراي في أحكام الآي" ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون، وأخذ منه السيوطي في الإتقان^(٢). ومن خلال هذا الكتاب الأخير اطلعنا على أقوال ابن الغرس.

يرى الشيخ ابن الصائغ أن مخالفة أصول اللغة من زيادة حرف أو حذف ياء الفعل غير المحزوم أو تقديم العامل على المعمول، أو إيراد أحد القسمين غير مطابق للآخر في القرآن، لا بد له من مناسبة أو علة، هذا أمر تتطلبه اللغة العربية وقد تتبع ابن الصائغ مثل هذه الأحكام في القرآن فوجدها نيفاً وأربعين حكماً.

على سبيل المثال لا الحصر، تقدم المعمول على العامل في قوله: ﴿أَهْتُولَاءِ يُبَاكِرُ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ: ٤٠) أو على معمول آخر الأصل فيه التقدم كما في قوله: ﴿لِنُرِيكَ مِنْ أَتَيْنَا الْكُبْرَى﴾ (طه: ٢٣) إذا أغربت "الكبرى" مفعولاً "لنرى".

أو تقدم خبر كان على اسمها، نحو: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ٤). تقدم المتأخر في الزمان على المتقدم فيه، مثاله: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ (النجم: ٢٥). جاءت لمناسبة السجعات قبلها وبعدها ومنها تقديم الضمير على ما يفسره مثاله: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ (طه: ٦٧).

حذف ياء المنقوص المعرف، نحو: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ (الرعد: ٩)؛ ﴿يَوْمَ التَّنَادِ﴾ (غافر: ٣٢).

(١) المصدر نفسه ٣١٤/١، ٣١٥.

(٢) ٣٠٢، ٢٩٦/١.

حذف ياء الفعل غير المجزوم كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّهُ﴾ (الفجر: ٤).

حذف ياء الإضافة كما في قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَدَاؤِي وَتُدْرِي﴾ (القمر: ١٦)؛ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي﴾ (الرعد: ٣٢).

زيادة حرف المد مثل: ﴿الظُّنُونُ﴾ (الأحزاب: ١٠)، ﴿الرُّسُولَا﴾ (الأحزاب: ٦٦)؛ ﴿السَّيْلَا﴾ (الأحزاب: ٦٧)، وصرف ما لا ينصرف نحو: ﴿قَوَارِيرَا﴾ (قوارير)؛ (الإنسان: ١٥-١٦)؛ وإيثار تأنيث اسم الجنس كقوله تعالى: ﴿أَعْمَاجُ نَخْلِ مُنْقَعِرٍ﴾ (القمر: ٢٠)؛ أو إيثار تأنيثه كقوله تعالى: ﴿أَعْمَاجُ نَخْلِ مُنْقَعِرٍ﴾ (الحاقة: ٧).

إيثار أغرب اللفظتين في قوله تعالى: ﴿قِسْمَةُ ضِرَى﴾ (النجم: ٢٢) ولم يقل جائرة، وقوله: ﴿لَيُبَدِّلَنَّ فِي السَّحَابِ﴾ (الهمزة: ٤)، ولم يقل النار أو جهنم أو سقر أو لظى أو هاوية مثلاً، كما ذكر ذلك في سور أخرى لمناسبة الفواصل والأسجاع.

ومنه الاستغناء بالإفراد عن التثنية نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ (طه: ١١٧) والمقصود فتشقى؛ والكلام لآدم وحواء وهما في الشقاء في الدنيا شريكان؛ ولكننا نقول بالنسبة لهذه النقطة الأخيرة إن الجمع بين آدم وحواء في الخروج من الجنة متساوٍ في الخروج عن النعيم وحياة الراحة والخلود إلى حياة التعب والمشاق وإفراد آدم بالشقاء في قوله "فتشقى" معنى أكبر من مراعاة السجعة، والمعنى المقصود من وجهة نظرنا أن آدم لما سمع لحواء وتأثر بقولها وأكل من الشجرة كان عليه أن يتحمل عبء العمل الشاق وحده في الدنيا، هذا بالإضافة إلى أن الله كلف الرجل بالمغامرة وتحمل الصعاب والمشاق في سبيل توفير ضرورات الحياة فشقاء العمل لتحصيل الرزق مسئولية آدم لذا ناسب أن يقول "فتشقى" وليس فتشقى، وإن كانت حواء تشقى مع آدم من لون آخر لكن هذا هو المعنى المراد والله أعلم بالصواب.

ومنه الاستغناء بالتثنية عن الإفراد كقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (الرحمن: ٤٦)، قال الفراء "جنة واحدة وثناها لأجل الفاصلة"؛ وهذا التوجيه يحيك في صدرى منه شيء؛ إذ لا يمكن جعل الشيء الواحد اثنين من أجل الفاصلة، هذا سبب واهٍ وكيف والمتحدث هو رب العالمين، إن المقصود هنا "جنتان" وقد أكد القرآن هذا

العدد في الآيات التالية التي اتصل فيها الحديث عن أوصاف جنتين لاجنة واحدة ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ ﴿وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّخَتَانِ﴾؛ فالحديث كله في سورة الرحمن عن جنتين وجنتين دون الجنتين.

ولولا أن الله فصل في وصف الجنتين بما يتناسب مع أوصافجنة الجنة الخلد، لقلنا أن إحدى الجنتين تكون في الدنيا إذ في هذه الدارجنة من لم يدخلها لا يدخلجنة الخلد، وهيجنة الرضا ونعيم الحب لذات الله والإخلاص في العمل الذي أمر به رب العالمين، وهناكجنة البرزخ وهكذا، ولأمر ما تتي الله تعالى الجنة هنا في قرينة ذكر الرحمن والتذكير بآلائه ونعمائه وأيضاً في قرينة الخوف من مقامه: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ والخوف يوصل أصحابه إلى أعلى الدرجات ويتحفهم بجنتين تقابلان الخوف والرجاء في النفس، والخوف والرجاء هما الجناحان الموصلان إلى حضرة القدس وإلى النعيم المقيم. وليس معنى "مقام ربه" أن الله مقاماً وموضعاً كما للعبد، وإنما هو مقام طاعته وموضع حرمة.

على أن هناك لطيفة يمكن أن نتعرف بها على السبب الذي من أجله قال الله في سورة الرحمن ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ وفي سورة النازعات: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنْ أَهْوَىٰ ۖ فَلِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ (٤٠ - ٤١)، نقول ليس السبب في الأفراد هنا والتثنية هناك، هو مجرد التزام السجع فقط؛ ولكننا إذا أمعنا النظر في الآيتين وفي السياق الذي ذكرت فيه كل آية، اتضح لنا السبب، فآية النازعات أفردت الجنة، لأن الآية التي قبلها أفردت النار ﴿فَلِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانِ﴾ (الرحمن: ٤٤) فإن فيه ما يوحي بالاثنيية فجهم شيء والحميم الآن، أي الماء المشتعل، شيء آخر. وإن كانا من جنس واحد، والغرض منهما واحد لذلك ناسب أن يقول جنتان وهما أيضاً من جنس واحد وذلك للمقابلة بين "حَمِيمٍ ءَانِ" و"جَنَّتَانِ".

أضف إلى ذلك ظهور كلمة "زوجان" أو ما في معناها في أغلب آيات السورة

على سبيل المثال "الشمس والقمر"، "النجم والشجر"، "فاكهة والنخل"، و"الحب ذو العصف والريحان"، "الإنسان والجان"، "صلصال كالفخار ومارج من نار"، "المشرقين والمغربين"، "البحرين"، "السموات والأرض"، "الثقلان"، "الجن والإنس"، "شواظ من نار ونحاس"، "النواصي والأقدام"، "جنتان ذوات أفنان"، "عينان تجريان"، "من كل فاكهة زوجان"، "وجنى الجنتين دان"، "الياقوت والمرجان"، "اللؤلؤ والمرجان".

هذه الصيغة الثنائية اللغوية التي تتميز بها "سورة الرحمن" قد أحدثت ثنائية عقلية ووجدانية مماثلة في الإنسان نفسه، ملكت عليه فكره واستبدت بمشاعره، وجعلته يتصور الأضداد والمتقابلات والمتعادلات، والمتكاملات في هذا الوجود، جعلته يفقه سر الاثنينية الوجودية، والاثنينية في الخلق والخلق، ويستبطن قدرة الله وحكمته في هذه المخلوقات؛ وفي طريقة إيجاد الكائنات والقدرة على التنوع في الحادثات، ودلالة الكل على الخالق المدير تبارك وتعالى. إن ذلك كله إنما يتجلى بأكبر قسط وأوفاه في السر المعنوي الذي أودعه الله تعالى في الأبنية والتراكيب القرآنية، وبما نفخ الله فيها من روحه، حتى سمت جمالاً، وفاقته جلالاً، وتمت كمالاً؛ ولا ننسى أن هناك في القرآن بعض المحاورات أو القصص التي تكاد تخلو من السجع أو إيقاع الفواصل، ومع هذا فقد وصلت إلى الكمال اللفظي والمعنوي وبلغت الدرجة نفسها من التأثير والقوة.

وكلامنا هذا يتفق في جوهره مع ما ذكره ابن قتيبة في اعتراضه على توجيه الفراء المذكور^(١).

على أن ابن الصائغ قد نقل عن الفراء أيضاً أن الله أراد "جنات" فأطلق الاثنين على الجمع لأجل الفاصلة لكن يرد على ذلك ما أوردناه في الرد على قوله بالجنة الواحدة.

ومن أنواع الفواصل ما أثبت فيه "ها" السكت كقوله تعالى: ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي

مَالِيَةَ ۖ هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ۖ ﴾ (الحاقة: ٢٨ - ٢٩).

(١) انظر: الإتيان ١ / ٢٩٩.

والجمع بين المجزئات: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ (الإسراء: ٦٩)^(١)

فإن الأحسن الفصل بينها، إلا أن مراعاة الفاصلة اقتضت عدمه وتأخير "تبيعاً". ومعنى "تبيعاً" أى ناصراً يتبعنا فيمنعكم أو ينتصر لكم منا^(٢). لا بد إذن أن هناك معنى يتجاوز في سموه مجرد مراعاة الجمال الظاهري للعبارة القرآنية، ولعل ابن الصائغ وهَم في الآية، فلم يفتن للضمير "نا" الفاصل بين حرفي الجر "على" والياء في "به".

ثم إن في المتابعة بين ذكر عبارة "لكم" و"علينا" وتأخير "به" العائد على النصير الْمُتَوَهَّم، بلاغة ما بعدها بلاغة؛ إذ أنه يحمل في طياته ما يناسب الكلام في موقف التحدى، والمقارنة بين قوة الله، والقوة المزعومة لغير الله؛ وأيضاً فإن في تأخير حرف الجر ومتعلقه ما فيه من اللفت إلى ضالة شأن كل ما عدا الله تعالى، ولذلك ذكره تعالى بالضمير أيضاً؛ وشدد في تنكير أمره.

ومن أنواع الفواصل أيضاً تغيير بنية الكلمة كما في قوله: ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾^(٣) (التين: ١). والأصل سينا أو سيناء^(٤). على أن هذا قد يكون اسماً آخر للجبل نفسه أو هو مما كانت تسميه به بعض القبائل أو الشعوب المحيطة به. وعلى أية حال فهذا من مشكل القرآن؛ ذكره الأخفش وقال: ﴿وَطُورٍ سِينِينَ﴾^(٥) واحدها السنينية^(٦).

وأخيراً نقول إن القرآن يحتوي على ما اصْطُلِحَ على تسميته بالسجع؛ إلا أن استعمال هذه الأسجاع في القرآن لم يكن هو الغاية في حد ذاته، وجمال القرآن لم يأت لكون الكثير من آياته جاءت مسجوعة؛ ولكن جماله ينبثق من كونه كلام رب العالمين، زَيْنُهُ الذى زَيْنَ السَّمَاءَ الدنيا بزينة الكواكب، وأودع فيه من الأسرار الكثيرة اللغوية، والبيانية، والعلمية كما أودع في هذا الكون من أسرار ومعجزات؛ ونظَّمه الذى نظَّم السماوات سبعاً طباقاً، ما ترى فيها من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير، طبق بنفسك ذات المنهاج

(١) كتبت هذه الآية خطأ في الإتيان هكذا: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا تَبِيعًا﴾، والصواب كما في المصحف: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾.

(٢) المصدر نفسه ١ / ٣٠١.

(٣) المصدر نفسه ١ / ٣٠١.

(٤) انظر: معاني القرآن. بيروت. عالم الكتب ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م ج ٢ ص ٧٤٠ وابن حيان البحر المحيط ٨ / ٤٩٠.

وقلب بصرك وبصيرتك في القرآن ثم أمعن فيه النظر ثانية وثالثة، وفكر هل ترى فيه من خلل، أو تطلع منه على علة أو زلة. ليس جمال القرآن إذاً في الأسجاع أو الأوزان التي تمثل القشرة أو الغلاف الخارجي للقرآن فحسب، وإنما في الروح التي تتخلل ثناياه تخللاً طبيعياً لا تكلف فيه^(١). إن كل كلمة في القرآن تعرج بروحك إلى الجمال الإلهي الذي انبثقت عنه وتنزلت من عنده، وتسمو بِسِرِّكَ إلى ربك، فتطلع هناك من أقرب الحضرات على مجالس أنوار القدس الأعلى في مملكة الآيات النورانية ذات الجلال الأبدي والكمال السرمدى.

إن جمال القرآن جمال روحاني، ومعرفي لَدُنِّي، وحسنه حسن إلهي علوي، يسمو على كل أنواع الجمال؛ إنه أسمى من الأسجاع، وأدق من الأوزان الشعرية، وأروع من المحسنات البديعية، وأوقع في النفس من فعل القوافي، وأنصع في الناظرين من الدرر الخوافي. إنه أرق من النسيم، وآتق من رُوءِ السَّوْسَنِ، وأصفى من ماء السماء، وأنفذ تأثيراً من شذاً الريحان، وأجلى في الأبصار والبصائر من نور البدر التمام؛ وفوق كل ذلك ودونه، فإن القرآن يحتوى على ذلك الجمال الإلهي الخالد والسر السرمدى الباقي، الذي يعانقه ولا يفارقه، ويلازمه ولا يخاصمه. ولو أن الأسجاع تأتي بهذا الإبداع، لجاز أن يقاس القرآن بأسجاع خطباء العرب وكُهاها، أو بتخليطات الأنبياء الأدعياء الكذبة كمسيلمة الكذاب، وكهؤلاء الذين كانوا يقلدون السجاعين، فيصفون كلاماً طناناً يتوهمون أنه آية في الصنعة وغاية في البدعة وأنه من جنس ما جاء به محمد بن عبد الله فما كان لهم إلا الهوان على مر الزمان، وما كان لكلامهم من حظ غير النسيان؛ لقد ذهب كل كلامهم الأجوف وبقي القرآن آيةً في الكلام، ومعجزةً في عالم اللغات، وإماماً في العلوم والآداب، والأخلاق والمعاملات، وفي السياسة والاجتماع وهادٍ لأهل الدنيا إلى الحياة الطيبة لأهل الدنيا الحافلة بالأمن والأمان والقيم الفاضلة الراسخة، وبالسعادة الدائمة في الحياة الآخرة.

(١) انظر: للرحماني دلائل الإعجاز ص ٣٧.

الفصل الرابع

الشكل التخطيطي للقرآن والقصص التي يتضمنها

بعد أن ناقش ويلش الفاصلة أو الجملة المتكررة في القرآن كما عرضناه وحللناه، يتناول هنا النظام الداخلي للنص القرآني، وقصص الأنبياء في الكتاب فيلاحظ عليها ما يلي:

أولاً- تكرار بعض الجمل بعينها مما أجراه القرآن على السنة الأنبياء.

ثانياً- تكرار هذه القصص في السور المختلفة ببعض الاختلافات بالزيادة أو النقصان.

من النوع الأول يشير ويلش إلى القصص الخمس التي تدور موضوعاتها حول عقاب الله لبعض الأمم الماضية، كما وردت في سورة الشعراء، حيث يستعمل القرآن في المواضع الخمسة الجملة التمهيدية نفسها، إلى جانب الفواصل أو المقاطع المسجوعة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ اجْتَرَىٰ عَلَىٰ رَبِّ لَعَلَمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ (الشعراء: ١٠٦ : ١٠٩)، والفرق الوحيد في الأربع صيغ الباقية يتمثل في أشخاص هؤلاء الذين توجّه إليهم الخطاب الإلهي، كعاد، وغمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

وكتعليق سريع على هذه النقطة نقول إنه لا ضير في تكرار جمل بعينها على السنة الأنبياء، فدعوات الأنبياء كلها واحدة وبخاصة دعوتهم إلى الله، وإلى الوحدانية وأصول الاعتقادات والنبوات وإرشاد الناس إلى التقوى ومكارم الأخلاق وتعريف النبي بنفسه ومنهجه كمنبلغ عن الله، وغايته ومقصده، وبتجرده وإخلاصه، فمنهج يتفق فيه جميع الأنبياء ولهذا جاء كلامهم بالعبارات نفسها تقريباً.

يشير الكاتب بعد ذلك إلى سورة (الأعراف) ويقول إن نظاماً جديداً قد ظهر هنا في إيراد القصة إذ أن حوالى ثلثي العبارات أو المعلومات التي أجريت على لسان نوح عليه السلام قد أجراها القرآن هي نفسها على لسان هود: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُوتُوا عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٦١﴾﴾ قَالَ أَلْمَأْلَأُ مِنْ قَوْمِي عِبَادَتِي

إِنَّا لَنَزَّلْنَا فِي ضُلَلٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٢﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مَنَ اللَّهُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴿ (الأعراف: ٥٩ : ٦٢) وقارن ذلك بهذه الآيات: ﴿ وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُم هُودًا ۖ قَالَ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾ قَالَ أَلَمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِي إِنَّا لَنَزَّلْنَا فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٥﴾ قَالَ يَنْقُورُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٧﴾ ﴿ (الأعراف: ٦٥ : ٧٢).

ولقد تكرر هذا الكلام نفسه مع الأنبياء صالح، ولوط وشعيب، وإلى جانب هذا توجد مجموعات أخرى لروايات متوازية أو متساوية في القرآن تحتوى على غط معين من هذين النمطين للشكل التخطيطي للقرآن.

إن اتساع مدى التكرار بين هذه القصص المتقاربة أو المتشابهة أمر له دلالاته المهمة في فهم طبيعة هذه القصص وهدفها، بمعنى أن الله لم يقصد بهذه القصص الإخبار عن أحداث تاريخية.

وهناك ظاهرة أخرى تفهم من هذه المجموعة من قصص العقاب الإلهي للأمم السابقة، وهذه الظاهرة تتمثل في التطور المعقد للأحداث الكثيرة في العلاقة المتغيرة التي تجمع بينها وبين أحداث القصص الأخرى في القرآن الكريم؛ حيث توجد قصص أخرى كثيرة تتكرر بصور مختلفة في سورتين أو أكثر من القرآن. والعجيب أن المستشرقين بل ووات يتفقان مع ويلش في تسمية هذه المجموعة "بقصص العقوبات أو العقاب" وكأن العقاب فيها مقصود لذاته لتخويف الناس وإرهابهم، وكأنها لا تحتوى على أى شيء آخر سوى أنها تروى ما حل بالأقوام الماضية من عقاب الله؛ وجهل هؤلاء الثلاثة أو تجاهلوا الغرض الحقيقي من وراء حكاية هذه القصص في القرآن الكريم؛ وكأنني بهم يلمحون إلى ما صرح به غيرهم من المنصرين وبعض المستشرقين، وهو أن الإسلام يصور الله على أنه إله جبار، وقهار، محب للقتل والترويع والانتقام، بخلاف ما تُصوره به النصرانية من الحبة والرحمة والفداء؛ وقد فندنا هذه المزاعم في بحث آخر لنا؛ والمقام هنا يضيق عن التوسع في هذا الموضوع.

أما المقصد الأسمى لقصص أحوال الأمم السابقة وما نزل بهم من عقاب الله تعالى،

فهو مقصد تربوى تعليمى. والقصة من أسس الدعوة فى المنهج القرآنى؛ وكل قصة فى القرآن تحتوى على علاج نفسى قوى ومؤثر، لأمراض نفسية واجتماعية ودينية خطيرة، يعانى منها الإنسان أى إنسان فى أى مكان وأى زمان.

أشار الكاتب بعد ذلك إلى قصص نوح، وهود، وصالح، ولوط، وإبراهيم، وحكاية زيارة الملائكة له، وقصة آدم وخلق الكون، وسقوط إبليس، وحكاية يحيى أو يوحنا، والمسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، وقصة ميلادهما الإعجازي، وإلى قصة شعيب حمى موسى عليه السلام الذى قيل إنه جثرو Jethro ، وقصة موسى وهارون التى جاء ذكرها فى مواضع متفرقة فى القرآن وباختلافات متفاوتة فى العبارة؛ يعتبر الكاتب أن بعض هذه القصص تاريخية، أى أنها تحتوى على أحداث ووقائع لها وجود تاريخى، هذا بينما يوجد نوع آخر من النص القرآنى لا يراد به أكثر من مجرد السرد التاريخى، وقد أشرنا إليه بالفعل فى مقدمة هذه المسألة. يقول ويلش: " إن مجموعة القصص غير التاريخية (كتبت خطأ بالملوسوعة (The historical groups) والصواب (The non historical groups)؛ هذه المجموعة تمثل أو تحمل الطابع نفسه الذى أسماه بل "عصر القرآن"؛ بينما تمثل القصص أو الأخبار التاريخية "فترة الكتاب أو الكتابة"، تلك الفترة التى نرى أن قصصاً ما، قد جمعت فيها وضم بعضها إلى بعض لتشكل فى مجموعها رواية طويلة ذات حلقات إخبارية، لتؤسس هى بدورها بداية نشأة التاريخ الدينى للمسلمين؛ والذى يرجع فى بدايته إلى بداية خلق الكون وظهور الخليقة".

قبل مناقشة هذا الكلام ينبغى أن يكون واضحاً فى الأذهان أن قصص الأنبياء فى القرآن، سواء منها القصيرة أو الطويلة، المقصود منها العبرة وإبراز دور القدوة الطيبة وأهميتها، وحكاية التاريخ الدينى للعالم، كما جاءت فى القرآن المعرفة الأكيدة والمتواصلة لقصة الصراع بين الخير والشر، والإيمان والكفر، والحق والباطل، والشك واليقين والهدى والضلال، والتواضع والاستكبار، كما أنها تظهر قوة الحق وصلابته فى مواجهة الباطل وأهله ودور الأنبياء وأتباعهم فى التصدى للباطل والانتصار للحق.

إن هذه القصص القرآنية جاءت لتعريف محمد الأمى ﷺ بسلسلة الأنبياء السابقين وما جرى لهم مع أمهم ليثبت الله بذلك فؤاده. ويهدئ روعه، فيشد بذلك عزم النبى ﷺ

ويقوى في مواجهة الباطل وأهله، وحتى يعرف أنه ليس وحيداً في ساحة الدفاع عن الحق والدفاع عن الخلق. ولكي يعرف أيضاً أن النبوة لا ترتبط بالقومية، ولا تنعزل عن التيار العام والمتدفق للفضل الإلهي الذي يؤتيه الله لمن شاء من عباده.

وفي هذه القرينة نقول إن هذه القصص القرآنية تحتوي على دروس وعظات كثيرة تفيد في معالجة القضايا الحاضرة والمتجددة للبشرية، كما أنها تصل الماضي بالحاضر وتربط بين الأجيال الحاضرة والغابرة برباط ديني وحضاري عظيمين متينين.

وليست هذه القصص ملفقة أو مصممة لتأدية هذا الغرض النفسى البحت، كما يزعم المستشرقون، كلاً فالأنبياء المذكورون في القرآن لهم وجودهم التاريخي وأماكن عملهم معروفة وأصول دعواتهم معلومة وليس يشك في ذلك إلا ملحد كافر بالدين، وإذا كان القرآن قد ركز على الجوانب الخلقية في حياة الأنبياء فهذا ليس معناه إهمال الجانب التاريخي أو الحوادث التاريخية في حياتهم وحياة أمهم. وينبغي أن نلاحظ نقطة أخرى مهمة وهي أن هذا التقارب الشديد الذي قد يصل إلى حد التماثل التام في عبارات بعض الأنبياء لا يدل على الخلط أو التكرار أو إجراء الكلام نفسه على السنة شخصيات مختلفة مما قد يوهم أنها من صنع الخيال، هذا غير جائز أثبتة، فإن تكرار القصة بعينها في القرآن الكريم، مرة مختصرة ومرة موسعة، ومرة منشورة وأخرى مطوية له غرضه التعليمي والتهديبي والتدوقي هذا إلى جانب الغرض التاريخي. إن هذا التكرار أشبه بتكرار الصباح بعد المساء وبتعاقب الفصول المختلفة الصيف والشتاء والربيع والخريف، وتكرار نور القمر وضوء الشمس على العيون الناضرة. ووجه الحق لقد اعتبر القرآن في هذا اللون من القصص أذواق المخاطبين المختلفة وطباعهم المتباينة وقواهم ومداركهم العقلية والنفسية المتفاوتة فيما بينها، فقدم لكل ما ينشده، ويؤثره ويتأثر به، ويؤثر فيه قيل لحمد بن سعيد ما هذا التردد للقصص في القرآن؟ قال: "ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظ في الاعتبار"^(١).

فمن الناس من يفضل القصة القصيرة ومنهم المغرم بالأحداث الطويلة والمتشعبة، ثم إن القصص القرآني قد توزع في سور كثيرة وذلك حتى يجد من يقرأ بعض القرآن

(١) ابن عطية المحرر الوجيز ١ / ١٥٠.

النموذج القرآني كاملاً فيما قرأ القصة، والأمر والنهي، والترغيب والترهيب، والدعوة وما ذكر لأول مرة وما ثنى الله ذكره. وهكذا. قيل لجعفر بن محمد الصادق لم صار الشعر والخطب يمل ما أعيد منها، والقرآن لا يمل؟ فقال: لأن القرآن حجة على أهل الدهر الثاني كما أنه حجة على أهل الدهر الأول، فكل طائفة تتلقاه غضاً جديداً ولأن كل امرئ في نفسه متى أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مرة علوماً غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب^(١).

يزعم بل بأن فترة نزول القرآن، ويعني بها العهد المكي، جاءت القصص فيها غير تاريخية، وذلك لأن محمداً، من وجهة نظره، لم يكن قد احتك باليهود بعد وأخذ عنهم، وهذا زعم باطل؛ فسورة يوسف، وهي من أطول قصص القرآن وأبلغها، مكية إلا الآيات (١، ٢، ٣، ٧) فمدنية؛ وسورة مريم مكية وتحمل قصة العذراء ويحيى والمسيح وإبراهيم؛ وسورة طه وفيها قصة موسى مفصلة هي أيضاً مكية؛ والشعراء، والنمل، والقصص كلها سور مكيات، وكلها تحمل تفاصيل دقيقة عن أنبياء الرحمن عليهم السلام.

وزعم بل أيضاً بالنسبة لما أسماه بـ "فترة الكتاب" يعني تسمية القرآن "كتاباً"؛ أنه إنما كان تقليداً لليهود وكتبهم كما ذكرناه في قرينة لحديث عن أسماء القرآن وأبطالناه بالدليل. ويزعم هذا الكاتب أيضاً أن محمداً قد جمع هذه القصص القصيرة التي كتبت في العهد المكي وشكل منها هذه القصص الطوال بغرض صنع بداية لتاريخ فقهى أو ديني متميز للمسلمين يبتدئ من أول الخليفة.

لقد أخطأ الكاتب هنا وأساء في الوقت نفسه؛ لم يكن جمع القصص من عمل محمد ولا من أغراضه ألبتة، وإن قصص القرآن قصيرها وطويلها، وحى منزل من عند الله تعالى، وما كان محمد ألبتة بالمؤرخ ولا بالقصاص ولا بالراوي لقصص الآخرين.

ليس في هذا الكلام جديد إلا في الشكل والرواء، أما جوهره فقديم. قاله خصوم القرآن، كما سجله القرآن نفسه، وقاله بعض اليهود والنصارى من بعد كما نقله علماء المسلمين كابن حزم الأندلسي، وابن تيمية، وابن كمنونة والسموأل بن عدى كما سيتبينه القارئ في مواضعه من هذا البحث^(٢).

(١) المصدر نفسه والموضع.

(٢) المصدر السابق.

تلقى رسول الله ﷺ هذه القصص من الله تعالى على فترات وحسب قياسات وتقديرات إلهية بحتة. وهذا أمر واضح في القرآن نفسه، وتتميز قصص القرآن بالإمتاع والإشباع وإثارة العقل في غير سرف وإطلاق للفكر دون شطط، ولقد أورد القرآن قصص الأنبياء مصفاة من العكر والقذر اللذين علقا بها في كتب اليهود نتيجة التحريف الذي أصابها والتبديل الذي شوهها وחדش طابعها الإلهي.

القرآن ليس كتاباً تاريخياً يُعنى فقط بما يُعنى به المؤرخون من أحداث ووقائع وأسباب ومسببات ومقدمات ونتائج، ولكنه مع ذلك إذا قدم معلومات تاريخية قدمها صحيحة وفاصلة ومن أصدق من الله قيلاً،

﴿ تَحْنُ نَقْصٌ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ ﴾ ﴿٣﴾ (يوسف: ٣).

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ ﴿١٠٢﴾ (يوسف: ١٠٢).

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ﴿٤٤﴾ (آل عمران: ٤٤).

﴿ فَأَقْصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ﴿١٧٦﴾ (الأعراف: ١٧٦).

فالقصص القرآني وحي من عند الله تعالى حق، جاء بحق من عند الحق لتأسيس الحق والعدل على الأرض.

الباب السابع

الأشكال الأدبية والموضوعات الرئيسة للقرآن

تمهيد

الفصل الأول ... صيغ القسم فى القرآن

الفصل الثانى ... آيات الإعجاز العلمى فى القرآن

الفصل الثالث ... آيات الأمر بصيغة "قل"

الفصل الرابع ... الأمثال فى القرآن

الفصل الخامس ... آيات الأحكام فى القرآن

الفصل السادس ... آيات العبادات والشعائر

الفصل السابع ... موضوعات قرآنية أخرى

تمهيد

نقول في التمهيد لكلام المستشرق ويلش في هذا الموضوع إن للقرآن نظامه الخاص وتركيبه المنفرد، وأساليبه العجيبة وموضوعاته الرائعة والمتنوعة وإنما يعرف قيمة القرآن وفضله من كثر فيه إمعانه وازدادت فيه معارفه، واتسع علمه، وثقف بالعربية لسانه، وفهم مذاهب العرب ولهجاتها ومواقع كلامها ورموزها وإشاراتها، وافتتحتها في الأساليب، وما اختص الله به لغتها دون جميع لغات العالمين من فضل، فإنه ليس في جميع لغات الأمم، أمة أوتيت من العارضة (قوة الكلام والقدرة على تنقيحه) والبيان، واتساع المجال، ما أوتيته العرب خصيصاً من الله لما أرهصه (أثبت به) من الرسول ﷺ، وأرادته من إقامة الدليل على نبوته بالكتاب، فجعله علماً، كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور بما في زمانه المبعوث فيه^(١).

وكتاب المسلمين قاطع وكلمتهم متفقة على أن القرآن معجز؛ وأنه بعد أن تحدى الله تعالى به الإنس والجن فعجزوا، ولا يزالون، لا يمكن لأحد من البشر أن يأتي بمثله ولا جذله. تأليف القرآن ونظمه مستحيل من العباد كاستحالة الجواهر أن تصير أعراضاً، أو الأعراض جواهرًا، كان القرآن ولا يزال هو دليل نبوة محمد ﷺ ومصدر دعوته، وكان النبي ﷺ يعلن أن الله خصه بهذا القرآن وأظهر ذلك لقومه واضحاً، وأن جبريل عليه السلام كان ينزل عليه به وذلك معلوم ضرورة، ولا يمكن لأحد دفعه، وهذا غاية التحدى في المعنى، وفيه حث واستثارة على إظهار معارضته إن كانت مقدورة لأحد، وأيضاً فإن النبي ﷺ ادعى النبوة ودعا الناس إلى تصديقه، ونبذ ما هم عليه من دين ألفوه وعادات اعتادوها وآثروها، ومن ادعى ذلك ودعا إليه الناس وجب بحكم العقل والمنطق أن يقدم لهم دليلاً على صحة دعواه حتى يفحصوه ويتأملوه، قبلوه أو ردوه، وكان القرآن هو حجة النبي ﷺ ودليله الدائم والباقي، وقد تحداهم به ودعاهم إلى معارضته لا خائفاً من بلغائهم ولا

(١) ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن تحقيق السيد أحمد صقر. القاهرة. دار التراث ١٣٩٣ - ١٩٧٣ ص ١٢.

متحفظاً من استنهاض همم فصحاءهم مع أن العرب أهل تحَدٍّ وعصبية، فلم يعارض القرآن أحدٌ منهم، ولو عارض هذا الكتاب معارض لُنُقِلَ إلينا كما نُقِلَ القرآن نفسه، وكما نقلت مواقف الكفار وأقوالهم ضد رسول الله ﷺ بل كما نقل إلينا كلام مسيلمة والأسود العنسي وظليحة مع ركاكته وسخافته، وقصوره البالغ عن مواجهة القرآن فضلاً عن معارضته، ولا يمكن أن يقال إن القادرين على المعارضة من العرب كانوا قد امتنعوا منها خوفاً على أنفسهم من بطش محمد وأتباعه، فإن العرب لم يكونوا يخافون أحداً أو يُخَفُّونَ عداءهم خوفاً من أحد؛ بل لقد واجهوا محمداً وطاردوه وعذبوا أتباعه وشردوا بهم؛ كما لا يمكن أن يقال إن الذين كانوا أهلاً لمعارضة القرآن قد تواطؤوا مع محمد، فهذا افتراض ساقط لم يصل إلينا مثله، فإن العرب جميعاً عامهم وخاصهم قد تواطؤوا لا مع محمد ﷺ بل ضده، ولم تجتمع العرب جميعاً على شيء ألبتة كما اجتمعوا على عداوة محمد ﷺ ومناهضته والظعن فيما جاء به عن الله. ولقد كان البلغاء والفصحاء العرب أكثر من أن يحصوا كالأعشى الكبير وهو من الطبقة الأولى ومثله ممن مات على كفره، وكعب بن زهير وهو في آخر العمر وهو في الطبقة الثانية وقد أسلم واتبع محمداً ﷺ بعد عداوة لدود ولجاجة عنود؛ ولقد كان لبيد والنابغة الجعدي من أهل الطبقة الثالثة، وقد أسلموا بعد زمن طويل، ولو تواطأ هؤلاء الأقربون مع محمد ﷺ فكيف بفصحاء العرب الآخرين المنبئين في الأنحاء المختلفة والأرجاء المتعددة؛ بل كيف يتأتى ذلك من بلغاء اليهود وشعراء النصرانية المناوئين^(١).

ثم لأي شيء كان تواطؤهم، أَلَمَال محمد الفقير؟ أم لقوته التي لم تكن لتحمل أصحابه المعذنين في مكة؟ أم لأنهم وجدوا أن في القرآن ما أعجبهم وأطربهم وألزمهم الحجة وألجأهم إلى التسليم فسكتوا^(٢) وكنتموا وهل يسمى ذلك تواطؤاً مع محمد أم تواطؤاً

(١) انظر: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي (٣١٩ - ٣٨٨هـ) بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن. دار المعارف ١٩٥٦ ص ٣٥.

(٢) في ثابيا كلامنا تخللت عبارات من كلام الشيخ محمد بن الحسن الطبرسي ت: ٤٦٠هـ النجف ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م ص ٢٦٩ وما بعدها.

مع النفس من أجل الحق وتوطينا لها على الصدق؟! وإذا قيل إنهم لم يعارضوه لرأى كان أقوى في نفوسهم وأجدى لهم في تقديرهم وهو مناجزتهم إياه الحرب والسعي في هلاكه ليستريحوا منه، وكراهة منهم للدخول معه في حوار يقتضى طول الكلام فيتمادى الزمان وتكثر دعاوى الفريقين، ويخفى موضع الفضل بين الكلامين؛ أو ربما اشتد النزاع وانحاز المحكمون فرأوا لهذا أن يجهزوا عليه وعلى دعوته بالقوة التي كانت في أيديهم، نقول ما هذا برأى يمكن أن يصدر عنهم أو يُتَحَيَّلَ منهم، فقد تحداهم القرآن لا أن يأتوا بمثله كله وإنما ببعضه، حتى ولو بسورة منه، فاختصر لهم الطريق وقرب لهم الهدف، بل لقد تحداهم الله بما يستثير حماسهم ويلهب عصبيتهم فلم ينتهضوا للتحدي، وكان شعراؤهم وخطبائهم إذا استثيروا أتوا بالبدائع والروائع، وكان ذلك منهم طبعاً وخليقة؛ ولقد بلغ شعراء شعر النقائض في ذلك الشأو البعيد وحازوا فيه قصب السبق.

ذكر أبو حيان التوحيدي أن أبندار الفارسي سئل عن موضع الإعجاز في القرآن فقال: "هذه مسألة فيها حيف على المعنى وذلك أنه شبيه بقولكم موضع الإنسان من الإنسان، بل متى أشرت إلى جملته فقدت حقيقته ودلت على ذاته، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شيء منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه، ومعجزة لمُحاوِلِه، وأهدى لقائله، وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كتابه، ولذلك حارت العقول، وتاهت البصائر عنده"^(١).

تجادل الجبائي وهو من علماء النظر مع ابن الراوندى الزنديق^(٢) في نظم القرآن وأسلوب القرآن وليس في هذا فقط سر إعجاز القرآن من حيث النظم والأسلوب، والسبب في تركيز الجبائي على هذه المعاني فقط هو أنه اعتبر حال المخاطب، فهو لا يقدر

(١) السيوطي معترك الأقران في إعجاز القرآن ١/ ١٠، ١١، وانظر: الجرجاني دلائل الإعجاز ص ٣٧ والزرقاتي مناهل العرفان في علوم القرآن ٢/ ٣٥٥.

(٢) توفي ابن الراوندى على أرجح الأقوال سنة ٢٩٣ هـ ويتوقع أنه من أصل فارسي، ولد في أوائل القرن الثالث الهجري ونشأ في بغداد، وكان من أتباع بشر بن المعتز في أول أمره وكان مثله معتزلياً، ولكنه لما أظهر كفرياته طردته المعتزلة فلجأ إلى الشيعة فلم يجد فيهم ظهراً يحميه أو نصيراً يؤيه فأنهى أمره إلى الزندقة والإلحاد مقتفياً أثر ابن عيسى الوراق الزنديق. لجأ هذا الكافر إلى ابن لاوى اليهودي وألف بمشورته كتبه التي يطعن فيها في الإسلام والقرآن ويروج فيها للإلحاد. يقال إن الفاقة والشعور بالمهانة كانا من وراء إلحاده.

على أن يدعى في المعارضة أكثر من محاكاة القشرة الخارجية للقرآن أما ما حواه القرآن من علوم ومعارف فليس يستطيعها إنسان ألبتة، بل ولا مجموع العالمين، في الأولين والآخرين. ومع هذا فقد أعلن الزنديق ابن الراوندى عجزه وسلم بإعجاز القرآن كما صرح به للجبائي^(١). وإذا صح هذا الخبر فإن القول باحتمال توبته ورجوعه يصبح ممكناً، ولكنه على أى حال فإن ابن الراوندى كان مريضاً عقلياً، ومصائباً بأزمة نفسية حادة أفقدته الثقة في نفسه، وبالتالي في دينه، فراح يطعن في القرآن والنبي ﷺ والأنبياء ويهدف على الله بكلام ككلام الممرورين، وهكذا ينبغي أن نأخذ كتاباته على أنها أعراض أمراض ليس فيها علم يستفاد، ولا فكر يستجاد، هذا مع ما قيل من أنه فزع من دعواه، وعاد لدينه الذى قلاه، ومات على الإيمان بإعجاز القرآن؛ وقد زعموا أيضاً أن ابن المقفع حاول معارضة القرآن وعاناه مدة ثم استحيا من إظهار ما لفقه فمزقه. وقد رُمي ابن المقفع كذلك في دينه وأتهم في عقيدته، وأيا كان الأمر فهذه هى آثاره، "كليلة ودمنة" والأدب الكبير والأدب الصغير خدشا فاقراها وأمعن النظر فيها وتأملها، ثم انظر في القرآن، وقارن، فسوف تجدّها لا تصل في بلاغتها وفصاحتها إلى ما تصل إليه ذبالة شمعة تحت ضوء الشمس الساطعة في رائحة النهار بالنسبة للقرآن.

ولقد زعم بعض المرجفين أن أبا الطيب المتنبي (ت: ٣٥٤هـ) قد حاول معارضة القرآن؛ ونحن لم نطلع للمتنبي على كلام في معارضة القرآن لا شعراً ولا نثراً، أما عن ادعاء أبي الطيب النبوة فهو أمر محتمل، إذ أن له أشعاراً تدل على رقة دينه، وتجروءه على الأنبياء، على سبيل المثال قوله في مدح سيف الدولة:

إن كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام

ولقد اجتمع للمتنبي مع ضعف الوازع الديني وجوده في بيئة كانت تتلاطم فيها الأفكار الطائفية للشيعنة القرامطة، والإسماعيلية، وآراء الفلاسفة والملاحدة، هذا فضلاً عن التيارات السياسية.^(٢)

(١) انظر عبد الرحمن العباسي. معاهد التصييص القاهرة. بولاق ١٢٧٤هـ - ٧٦١/١ والخياط. كتاب الانتصار مقدمة الناشر ص ٢، ٣.

(٢) انظر عباس محمود العقاد. مطالعات في الكتب والحياة. القاهرة. دار المعارف ط ٤، ١٩٨٧ ص ١٢١ - ١٢٥.

وقيل أيضاً أن أبا العلاء المعري (ت: ٤٤٩هـ)، قد حاول ذلك، ولكن لا يوجد لدينا دليل يؤكد. ومن المفيد في هذه القرينة، أن نقبس كلام مصطفى صادق الرافعي، بشأن تحدى القرآن لخصوم القرآن الذى يقول فيه: "المعارضة نصف الحق وإن هى لم تكن حقاً لأنها تبينه وتجלוه وتقطع عنه الألسنة وتنفى عنه الظنة، ومن هنا يظهر لك السر المعجز الغريب البالغ منتهى الدقة فى القرآن الكريم، فإن هذا الكتاب من دون الكتب السماوية والأرضية هو وحده الذى انفرد بتحدى الخلق وإثبات هذا التحدى فيه ؛ وبذلك قرر أسمى قواعد الحق الإنسانى ووضع الأساس الدستورى الحر لإيجاد المعارضة وحمايتها، وأقام البرهان لمن آمنوا على من كفروا، وكان العجز عنه حجة دامغة معها من القوة كالذى مع الحجة الأخرى فى إعجازه، فسما بالحجتين جميعاً وذلك هو المبدأ الذى لا استقلال ولا حرية بغيره، وما الصواب إذا حققت إلا انتصار فى معركة الآراء، ولا الخطأ إلا اندحار فيها لا أقل ولا أكثر ؛ وبهذا وحده يقوم الميزان العقلى فى هذه الإنسانية"^(١).

ويقول ابن قتيبة فى تحليل مفهوم البلاغة القرآنية : "والخطيب إذا ارتجل كلاماً فى نكاح أو حِمَالَة (دية، أو غرامة) أو تحريض، أو صلح، أو ما أشبه ذلك، لم يأت به من وادٍ واحد؛ بل يفتن، فيختصر تارة، إرادة التخفيف، ويطيل تارة، إرادة الإفهام، ويكرر أخرى، إرادة التوكيد، ويخفى بعض معانيه، حتى يغمض على أكثر السامعين، ويكشف بعضها حتى يفهمه بعض الأعجمين، ويشير إلى الشيء، ويكنى عن الشيء؛ وتكون عنايته بالكلام على حسب الحال وقدر الحفل، وكثرة الحشد وجلالة اللقاء. ثم لا يأتى بالكلام كله مهذباً كل التهذيب، ومصفى كل التصفية. بل تجده يمزج ويشوب (يخلط) ليدل بالناقص على الوافر، وبالغث على الثمين، ولو جعله كله نجراً (لوثاً) واحداً لبخسه بماءه وسلبه ماءه. ومثال ذلك الشهاب من القبس تُبرزه للشعاع، والكوكبان يقتربان، فينقص النوران، والسحاب (القلادة) ينظم بالياقوت والمرجان والعقيق والعقيان ولا يحمل كله

(١) تحت راية القرآن ص ٢١٣.

جنسًا واحدا من الرفيع الثمين، ولا النفيس المصون"^(١).

بعد هذه المقدمة اللازمة نعود إلى ويلش لنرى كيف عرض هذا الموضوع وكيف عاجله، يقول إن طبيعة ترتيب القرآن وطريقته تجعل من الصعب علينا أن نضع أشكاله الأدبية في نظام محدد، أو نصنفه موضوعيًا من حيث المواد الرئيسة التي يتضمنها، وأى محاولة لتصنيف أجزاء القرآن بحسب المعيار الفني المتعارف عليه للأشكال الأدبية يعنى الأسطورة، الخرافة، الرواية الملحمة، القصة القصيرة، المثل أو الحكاية .. الخ، سوف تنهار سريعًا. أمثلة قليلة يمكن أن نعرضها هنا، ولكنها في مجموعها لا تمثل إلا نسبة ضئيلة من النص القرآني، لأن هذه النماذج كانت قد استعملت إلى حد كبير جدًا لتعزيز أسلوب القرآن ودعوته، وبالتالي فهي كأشكال أو موضوعات متميزة في تركيبها وسياقها، لها مغزى ضئيل. وفي سياق حديثه عن النص القرآني يشير الكاتب بعد ذلك إلى المستشرقين بل، ووات اللذان يقولان- ما دام القرآن قد نفى عن محمد أن يكون شاعرًا، وما دامت رسالة محمد ﷺ كتي هي نقل تعاليم الله لمعاصريه (في الحقيقة لهم ولغيرهم إلى قيام الساعة) ينبغى علينا أن نبحث عن أشكال تعليمية وعظمية أكثر منها شعرية أو فنية في القرآن^(٢).

نتوقف هنا لنقول شيئًا بالنسبة لكلام ويلش ومن أخذ عنهم وتأثر بهم، إنه يزعم أن تصنيف القرآن موضوعيًا أمر صعب؛ وهذا باطل. نعم إن للقرآن أسلوبه الخاص ومنهجه الخاص الذي يميزه عن الكتب الأخرى والذي يجعله بحق معجزًا، ولكن هذا الأسلوب وهذا المنهج القرآني له في الوقت نفسه، نظامه المحكم والصارم وإن بدا أنه لا يخضع لقاعدة الوحدة الفنية للشكل الأدبي المعتاد للبشر، وذلك لسبب بسيط هو أن القرآن ليس تأليفًا بشريًا ولا عملاً إنسانيًا أثبتته حتى يخضع الخضوع التام للقواعد والمعايير الأدبية الإنسانية المتعارف عليها، ومع ذلك فإنه يمكن أن تصنف موضوعات القرآن

(١) ابن قتيبة. تأويل مشكل القرآن ص ١٢، ١٣ وأيضًا الباقلان. إعجاز القرآن ١٣١.

(٢) بل ووات p. 75.

تصنيفاً موضوعياً بسهولة، والقرآن في عصرنا الحاضر يدرس من هذه الناحية تحت ما يسمى بـ "التفسير الموضوعي" فهناك آيات تتحدث عن الله، ذاته وصفاته، ووحدانيته، وعجائبه في الكون، عن الإيمان والكفر، والنفاق، وعن أركان الإسلام الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، وسائر الفروض والتكاليف الشرعية؛ وفيه آيات تتحدث عن الإعجاز العلمي، وعن مكانة العلم والعلماء، كما أنه يشتمل على آيات التدبير والتأمل والنظر، والأخلاق والفضائل، والمعاملات، والبيع والشراء والتجارة، ويتضمن القرآن كذلك آيات حول القرآن نفسه نزوله وأحكامه وفي الكتب السابقة وأهل الكتاب والكفار والمشركين والمنافقين وفي حياة الرسول ﷺ؛ ودعوته وهجرته وعن الجهاد ومنهج الدعوة إلى الله وعن السلام والحرب، والأخوة الإنسانية والأخوة الإيمانية وعن الزواج والطلاق والعدة، والنفقة وتربية الأولاد، وعن المرأة والأسرة وما يتعلق بهما. عن قصة الخلق وقصص الأنبياء وفيه كذلك الأمثال والقصص والمواعظ والآيات التي تتحدث عن الخير والشر، والشك واليقين والخوف والرجاء، وعن الحياة، والموت، والبعث والحساب والعقاب، والجنة والنار؛ بل وعن أحاديث القلوب، وخلجات النفوس، عن المخلصين والمنافقين، والطائعين والعصاة والأتقياء والفسقة ... إلخ.

وبالنسبة لما يقوله بل بخصوص طبيعة القرآن فإننا نوافق في أن القرآن قد نفى أن يكون محمد شاعراً، ولكننا نختلف معه فيما ذهب إليه من أن طبيعة القرآن تعليمية وليست أدبية ولا فنية بحتة في أشكالها المختلفة، نقول إن هذا تعميم في الحكم وهو خطأ منهجي كبير؛ إذ أنه مجرد القرآن من أعظم وجه من وجوه إعجازه وأجلاله، وهو الشكل الأدبي والتركيب الإبداعي العجيب، وهو أمر مرفوض عقلاً واعتقاداً.

الفصل الأول

صيغ القسم في القرآن

يتناول المستشرق ويلش موضوع الأقسام في القرآن وهو من الموضوعات المهمة والحساسة، وقبل أن نعرض لآرائه، نقدم نبذة مختصرة للأقسام القرآنية تكون بمثابة القاعدة والمعيار للمناقشة. اهتمت كتب التفسير بهذا الموضوع في المواضع والقرائن المتفرقة التي ذكرت فيها الأقسام، وقد أفرد الإمام ابن القيم الحنبلي (ت: ٧٥١هـ) بمؤلف سماه "التيبان في أقسام القرآن".

وينبغي أن نعرف أن القصد من "القسم" في القرآن هو تحقيق الخير وتوكيده، والأقسام تختلف في صيغها ومواضعها في القرآن الكريم، وكما سنرى فإنها ليست قاصرة على السور القصيرة ولا السورة المنسزة في بداية الوحي. والقسم لا يكون إلا باسم معظم أو بشيء عظمه الخالق تبارك وتعالى ودل على نفسه به فيكون القسم من ثم تأكيداً للكلام وعقداً للبر والصلة بين الخالف والمخولف له، وحرصاً من الله على هداية خلقه بكل سبيل لأن من حلف لك وهو أقوى منك وأجل وأعظم وهو مالك رقبته، ومنه مبتدك ومنتهك، فقد عظم قدرك ورفعك فوق مكانتك. وإن في القسم كذلك تنبيه على فضل المقسم به، وخطر المقسم عليه فقد أقسم الله تعالى بنفسه في سبعة مواضع من القرآن، قوله تعالى: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (يونس: ٥٣) ويونس ليست سورة قصيرة ولا هي من أوائل ما نزل من القرآن وهذا مما يحسن التنبيه عليه لتعلقه بزعم الكاتب، كما سنرى قريباً، وقوله: ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (التغابن: ٧) وهذه السورة كلها مدنية؛ والمقسم عليه في السورتين هو البعث أو المعاد؛ وهو أمر واضح كل الوضوح، وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا﴾ (مریم: ٦٨) وهذه السورة مكية ولكنها ليست من أوائل ما نزل من القرآن أيضاً، وهي واضحة من حيث الموضوع الذي هو الحشر والإعادة الذي ينازع فيه الكفار والملاحدة في كل عصر وفي كل مصر، وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء: ٦٥) وهذه السورة كلها مدنية، وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ إِنَّا لَقَدِرُونَ﴾ (على أن نبدل خيراً منهم

وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤٠﴾ (المعارج : ٤٠ - ٤١) ثم إن تعبير "قصص العقوبات" الذي اختاره المعارض تعبير انجيزي، إذ أنه يوحي للقارئ بأن قصص القرآن إنما جاءت للتخويف والردع وهذا في حد ذاته يصور الإسلام على أنه دين العنف والقسوة وهذا محض افتراء وجهل بالقرآن وبرسالة الإسلام جملة.

ونضيف إلى هذه الأقسام السبعة قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ (الذاريات : ٢٣) وقد ضم بعضهم ما تضمن لفظ الشهادة في القرآن لهذه الأقسام؛ كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون: ١)^(١) وذلك لأن الشهادة إنما سبقت لتوكيد الخير وهو عمل القسم، لذا سمي قسماً، وهذه الأقسام انعقدت بذات الله تعالى في ستة مواضع منها توجه القسم لرسول ﷺ، وفي السابعة جاء القسم مباشرة من الله تعالى. والمقسوم عليه في ستة مواضع هو البعث والنشور، وواحد منها لتأكيد نبوة محمد ﷺ وضرورة قبول حكمه والنزول على قضائه (كما في النساء: ٦٥) وباقي صور القسم الأخرى، أقسم الله عز وجل فيها بمخلوقاته، ويجب أن يكون معلوماً أن الله أن يعظم ما شاء ومن شاء من خلقه وأن يقسم بما شاء منها ولكن ليس لأحد من البشر أن يقسم بغير الله تعالى كما قال الحسن ﷺ وقال ابن أبي الأصبع في "أسرار الفتاوح" في تعليل القسم بالمخلوقات، "القسم بالمصنوعات يستلزم القسم بالصانع".

يقول ابن عطية أن الله أقسم ببعض مخلوقاته (تنبيهاً منه وتثريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى)^(٢).

قال أبو القاسم القشيري: القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين إما لفضيلة أو لمنفعة فالفضيلة كقوله: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ ﴿وَهَذَا أَلْبَدُ الْأَمِينِ﴾؛ والمنفعة نحو قوله: ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾، ونستدرك على إيماننا الجليل، إن المنفعة والفضيلة قد توجدان معاً في الشيء المقسم به نفسه كما في القسم بالطور وهو الجبل المعروف فقد اجتمعت فيه الفضيلة والمنفعة معاً أقسم الله به لفضله على الجبال فهو مهبط وحى الله، ولأن له دوراً في حفظ توازن الأرض والاحتواء على بعض المعادن والمواد النافعة، ونلفت النظر هنا إلى نقطة مهمة وهي أن القسم

(١) السيوطي. الإتيان. ٤٦ / ٤.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ٤٧/١٤.

قد يكون مطويًا في الكلام معلومًا من قرينة الخطاب كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِّنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١). إذ تقديره: "والله". وقد تأتي اللام في الكلام لتدل على القسم كما في: ﴿لَتَبْلُوثٌ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ (آل عمران: ١٨٦).

يتضح من هذا أن الله تعالى يقسم إما بذاته لإثبات غرض عظيم الشأن كالبعث والجزاء وإما بإحدى مخلوقاته لعظم قدرها وعظيم فائدتها. وأن الله تعالى لم يقسم في القرآن بحياة أحد من عباده إلا بحياة نبيه محمد ﷺ وذلك لإظهار فضله وتعريف الناس بقدره عند الله تعالى ومكانته لديه عز وجل يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الحجر: ٧٢)، ومعنى لعمرك أى وحياتك وعمرك في هذه الدنيا، ومعنى السكرة الضلالة والحيرة، ويعمهون، أى يترددون عميًا لاهين.

ومن لطائف القسم قوله تعالى: ﴿وَالْضُّحَى﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ (الضحى: ١ : ٣) أقسم بآيتين عظيمتين من خلقه وأمعن في مطابقة هذا القسم لواقع عالم رسول الله ﷺ الداخلي فعبر تعالى بالضحى والليل يعنى ببداية النور وطلعة الليل بنور الوحي الذى احتبس ثم انجس وهو نور الوحي الذى عاد ظهوره للنبي ﷺ بعد فترة واحتباس، وحيرة والتباس، حتى قال أعداؤه شامتين ودَّعَ محمدًا ربُّه، فأقسم الله تعالى بإشراق نور الصبح اللاتخ بعد ظلمة الليل الدامس، على نور الوحي الذى عاود النبي ﷺ بعد انقطاع وفترة. وكما هو واضح فإن أدوات القسم تتنوع بين الواو والفاء والتاء^(١) وبين صيغ "لا أقسم"، وأساليب توجيه اللوم وصب الويل والشبور كما أشار إليه الكاتب نفسه.

بعد أن أوضحنا موضوع الأقسام القرآنية من الوجهة الإسلامية، نرى الآن ماذا يقول المستشرق ويلش فيها؛ يزعم ويلش أن هذه الأقسام لا تظهر إلا في السور القصصار، والتي نزلت في بدء الوحي، أو في مرحلة قريبة من هذا التوقيت، بوجه خاص، ويرى كذلك أن هذه الأقسام من الغموض بحيث يصعب التوصل إلى معرفة معانيها أو كشف غوامضها وأسرارها، لهذا غامر الكاتب بالمنهج العلمى فادعى أنها سجع كسجع الكهان الذى كانت العرب تلهج به. ونذكر القارئ بما سبق أن قلناه سابقًا من أن السور التى فيها : أقسام تتنوع في الطول والقصر، وفي أوقات ومواطن النزول وأنها واضحة المعاني ليس فيها غموض ولا تسجيع ولا شيء ألبتة مما يشبه سجع الكهان، بل ولا يوجد شيء في القرآن كله من هذا النوع؛ كما أوضحناه في موضعه وقرينته.

يختتم المؤلف كلامه عن الأقسام القرآنية بقوله: "في الحقيقة أن القرآن نفسه يؤكد أن محمداً كان قد أقام بأنه كاهن (Sooth Sayar)، وهذا يجعلنا نقترح أن معاصريه قد رأوا أن هناك مشابحة بين ما قاله وما قد سمعوه هم من الكهان"^(١). ونسأل أين هم هؤلاء القائلين بأن القرآن كهانة وما هي أسماؤهم ومؤهلاتهم؟ وماذا عما قاله غيرهم في إعجاز القرآن ومخالفته لمعهود ما يصدر عنه الكهان والرجاز والسجاعون والشعراء والخطباء؟- لماذا اعتمد الكتاب شهادة الطاعنين رغم الجهالة التي تحوطها وتحوطهم، وأغفل شهادة فحول اللغة والبيان المعاصرين للرسول ﷺ بتبريز القرآن على كل ما عدها مما أنتجته عقول البشر في كل زمان ومكان؟؟ وماذا عن شهادة هذا الناقد الحبر الوليد بن المغيرة عندما التقى برسول الله ﷺ وسمع منه بعض آيات من القرآن فقال فيما قال: "فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني، لا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول لخلوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته"^(٢). هذا هو قول الناقد العربي البصير، في القرآن وهو بحق صدق كله.

نعم إن الوليد لما أحس بغضب قومه عاد فقال لهم على ما حكاه القرآن "إن هذا إلا سحر يؤثر إن هذا إلا قول البشر"، بالله عليك هل يستطيع السحرة معاناة الشعر وتدييح النثر الصالح وهم بمنأى عن الناس، لا يأنسون إليهم، بل إلى الشياطين؟ ولا يكتبون إن هم كتبوا إلا طلاسماً وألغازاً، وأحاجي لا تقرأ بل ولا يطلع عليها غيرهم، فكلام السحرة وتعاويذهم يطلب لها الخلوات والخرائب والمواضع النجسة. وهذه كتب السحرة لا يزال بعضها يتداول إلى اليوم فهل يروق لعاقل أن ينسب شيئاً منها إلى القرآن؟ وهل يمكن لأحد أن يشتبه عليه الوحي الذي جاء به محمد بقول الكاهن أو الساحر؟ أضف إلى ذلك أن السحرة لا يعملون إلا للتكسب والارتزاق؛ هذا هو داؤهم وداؤهم وديدهم، كما حكاه القرآن عنهم، وهو بلا شك واقعهم بالأمس واليوم: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ۝ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ۝ ﴾ (الشعراء: ٤١ - ٤٢).

إن السحرة يسعون دائماً إلى الكسب الحرام وإلى تقويض العمران والتفريق بين الأزواج والخلان، والتسلط على الأموال والأنفس والثمرات، فهل وجد واجد عيباً من هذه العيوب أو رذيلة من هذه الرذائل في شخص محمد ﷺ وهل طلب محمد على ما دعا الناس إليه أجراً؟ وبعد ذلك كله فإن القرآن لا يحتوى إلا على ما يطهر النفوس ويصفى القلوب والضمائر، ويقوى الإيمان ويدعو إلى التمسك بالفضائل ومكارم الأخلاق.

(١) دائرة المعارف الإسلامية ص ٤٢١ وانظر كتابنا. محمد بين الحقيقة والافتراء في الرد على الكاتب اليهودي الفرنسي مكسيم رودينسون. القاهرة - دار النشر للجامعات ١٩٩٩ م.

(٢) الإتيقان ٥ / ٢.

الفصل الثانى

آيات الإعجاز العلمى فى القرآن

لاحظ ويلش أن هناك آيات مكية تتحدث عن آيات الله فى الكون، فى السماء والأرض، وفى الإنسان، والحيوان، والعقل والفكر والنظر، وعن بعض الظواهر الطبيعية، كالشمس والقمر والنار والرعد والبرق والزلازل والمطر والسحاب والماء وعن الجبال والأنهار والزرع والطير والحيوان الخ، وعن اختلاف الليل والنهار وجريان الرياح، وعن خلق الإنسان ومراحل خلقه وعن اللقاح والتكاثر. والأمثلة على ذلك كثيرة بل تكاد تستغرق معظم آيات القرآن يقول تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾ ﴿ ١١٠ 〉 أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿ ١١١ 〉 ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿ ١١٢ 〉 فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿ ١١٣ 〉 وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿ ١١٤ 〉 وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿ ١١٥ 〉 وَحَدَاقٍ غَلْبًا ﴿ ١١٦ 〉 وَفَكْهَةً وَأَبًّا ﴿ ١١٧ 〉 مَتَّعًا لَّكُمْ وَلِتَعْمَكُنَّ ﴾ ﴿ ١١٨ 〉 ﴾ (عبس: ٢٤ : ٣٢)، ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿ ١١٩ 〉 وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿ ١٢٠ 〉 وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿ ١٢١ 〉 ﴾ (البلد: ٨ : ١٠)، هذه لغة إلهية سامية يدعو الله بها عباده إليه عن طريق التأمل والتفكير فى هذه المخلوقات التى تحمل الدلائل والبراهين الكافية والشافية على وجوده ووحدانيته وعظمته وأزليته وأبديته وقيوميته؛ ﴿ أَنْظِرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ ﴿ ١٢٢ 〉 ﴾ (الأنعام: ٩٩)، ﴿ أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا ﴿ ١٢٣ 〉 وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿ ١٢٤ 〉 وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿ ١٢٥ 〉 وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴿ ١٢٦ 〉 وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿ ١٢٧ 〉 وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴿ ١٢٨ 〉 كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿ ١٢٩ 〉 ﴾ (الأنبياء: ٣٠ : ٣٣)، ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاذْكُمُو لَهُ ؕ إِنَّ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ ﴿ ١٣٠ 〉 ﴾ (الحج: ٧٢)، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿ ١٣١ 〉 ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ ﴿ ١٣٢ 〉 ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ﴾

فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّا كَرَّمْنَا بَعْدَ ذَلِكَ لَمَعَتُونَ ﴿١٦﴾ ﴿المؤمنون: ١٢: ١٥﴾، ﴿وَمِنْ
 ءَايَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾
 (الشورى: ٢٩)، ﴿وَأَيُّهُ هُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (يس: ٣٧)،
 ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
 وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُظِلَّوهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٩﴾﴾ (الروم: ٩) ﴿فَسُبْحَنَّ اللَّهَ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ
 تُصْبِحُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٢١﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
 الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُلْهِمُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ نُخْرِجُكَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ
 أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ
 أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ
 ءَايَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتَكُمْ وَالْوَنُكْمُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٥﴾
 وَمِنْ ءَايَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ
 ﴿٢٦﴾ وَمِنْ ءَايَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ
 مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الروم: ١٧ - ٢٤)، ﴿وَمَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿٢٨﴾﴾ (الدخان: ٣٨)، ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٢٩﴾
 خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٣٠﴾ يُخْرِجُ مِنْ بَيْنِ الْأُصْلَبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٣١﴾﴾ (الطارق: ٥: ٧)، ﴿وَالسَّمَاءِ
 ذَاتِ الرُّجْعِ ﴿٣٢﴾ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿٣٣﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَضْلٍ ﴿٣٤﴾ وَمَا هُوَ بِأَهْزَلٍ ﴿٣٥﴾﴾
 (الطارق: ١١: ١٤)، ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٣٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوِّكَ
 فَعَدَلَكَ ﴿٣٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٣٨﴾﴾ (الانفطار: ٦: ٨) ^(١)

توقف الكاتب عند هذا الحد؛ أعني مجرد الرصد لبعض آيات الأنفس والآفاق دون
 أن يُنَوِّهَ بعظمة الإسلام في جانب احترام العقل، والحض على التفكير والتدبر والبحث

(١) وانظر أيضاً الآيات الروم ٢٨، ٤٦، ٥١؛ غافر ٦١، ٦٤، ٨٢، فصلت: ٩، ١٢، ٣٢، الشورى: ١٠، ١٢، ٣١؛
 الزحرف: ١١ - ١٣ سبأ ٩؛ النبا ٦: ١٦؛ النحل ٣: ١٧.

والاكتشاف؛ وهو مما تميز به القرآن الكريم عن جميع الكتب المقدسة في العالم. ولم يلفت نظره كذلك تلك الحقائق العلمية الباهرة التي جاءت في القرآن، وعرفها المسلمون إجمالاً، أو على سبيل التعريف، وذلك قبل أن يتوصل إليها العلماء المحدثون منذ وقت يُعَدُّ بالعقود، وليس بالقرون، على سبيل المثال المراحل التي يمر بها الحيوان المنوي من النطفة، إلى المضغة، إلى العلقة، إلى تكوين العظام، إلى كسوة العظام لحماً، ثم نفخ الروح فيه، وطرء الحياة عليه، وانفصال الأرض عن السماء، ووصف السماء بأنها ذات الرجوع، والأرض بأنها ذات الصدع، يعني التشققات التي تكون تحت مياه المحيطات والبحار وتمتد بعشرات، بل بمئات الآلاف من الأمتار، ويصل عمقها إلى مسافة تتراوح ما بين الستين إلى المائة والخمسين من الكيلو مترات، وكيف تتصل هذه الصدوع بعضها ببعض برغم تباعدها وتشابكها، وكأنها صدع واحد ممتد ومنتشر؛ ولذلك عبر عنها الله تعالى بالمفرد (الصدع) ولم يقل "والأرض ذات الصدوع" ولولا هذه الصدوع لما صلحت الحياة على الأرض ولما ثبتت الكرة الأرضية.

هذه الحقائق العلمية التي جاء بها القرآن لأَكْبَرُ برهان، وأدمغُ حجةٍ على صدق النبي ﷺ، وعلى أن القرآن كتابُ الله تعالى، إذ كيف يتأتى لمحمد أو لأي بشر في زمانه، بل وبعد زمانه، أن يُظهر هذه الحقائق العلمية الباهرة التي احتاجت من الإنسان أن يدرس ويتعلم ويجرب ويخترع الآلات وينفق الأموال الطائلة لكي يصل إلى اكتشافها؛ ونضيف أن القرآن لو كان من صنع محمد لاستطاع من هو مثله أو من هو قريب منه أن يأتي بمثل هذا القرآن؛ وهذا لم يحدث أبته، وانطلاقاً من الحقائق القرآنية، والأوامر الإلهية بالنظر والتدبر في الملكوتات في عالم المادة وفي عالم الروح، انطلق المسلمون إلى التعلم وإلى النظر حتى ساروا أئمة في العلوم الدينية والعلوم الإنسانية وفي العلوم التطبيقية، سواءً بسواء، لم يكتفوا بعلومهم بل رحلوا إلى مختلف البقاع لتحصيل علوم الأمم الأخرى، كما استجلب خلفاؤهم المخطوطات المختلفة في سائر العلوم وفي الفلسفة وفي غير ذلك.

وقد أعطى المسلمون للعالم في جميع صنوف المعرفة أضعافاً ما أخذوه من بعض الأمم؛ وهذه الحقيقة عادت اليوم من المسلّمات بين علماء الشرق والغرب؛ فعلى سبيل المثال، يقول "جوستاف لوبون" الذي ألف كتاباً كبير الحجم بعنوان "حضارة العرب"

"ويعزى إلى بيكون- على العموم- أنه أول من أقام التجربة، والملاحظة، اللتين هما أساس المناهج العلمية الحديثة، مقام الأستاذ؛ ولكنه يجب أن تعترف قبل كل شيء بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم".

ويقول همبولد: "إن ما قام على التجربة والملاحظة هو أرفع درجة في العلوم أن العرب ارتفعوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يشغلها القدماء"^(١)

يقول المفكر الفرنسي المسلم جرينيه، الذي كان عضواً بمجلس النواب الفرنسي، عن سبب إسلامه: "إني تتبعت كل الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتي درستها من صغري وأعلمها جيداً، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمت لأني تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة، من قبل أن يكون معلم أو مدرس من البشر؛ ولو أن كل صاحب فن من الفنون أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيداً، كما قارنت أنا... لأسلم بلا شك، إن كان عاقلاً خالياً من الأغراض"^(٢)

ويقول الفنان الفرنسي ألفونس إيتين دينيه ١٨٦١م: "إن العرب هم الذين يرجع إليهم الفضل على سادات أوروبا وفرسائها في القرون الوسطى، في تعديل عاداتهم الخشنة، وتلطيفها، ثم تعليمهم رقة العاطفة وتهذيب نفوسهم... ويخطئ من يظن أن هذا راجع إلى المسيحية وحدها، على الرغم مما فيها من المزايا والفضل، ثم يقول إنهم يفخرون بالعالم "بستور" الفرنسي، ويجعلونه درة في تاج الحضارة الحديثة ولكن فاتهم أن جابر بن حيان، وأبو بكر الرازي لا يقلان عنه في مرتبة العلماء والمفكرين، فهما المؤسسان الحقيقيان لعلم الكيمياء بفضل ما كشفاه من طرق التقطير، ومن الكحول، ومن حمض الكبريتيك"^(٣)

ويقول باسنتا كومر بوس Basenta Coomar Base في كتابه "Muhammadism" "المحمدية"^(٤): "لم يكن هناك مجال لأي تزيف أو خداع يمليه

(١) أوروبا والإسلام ص ١٤٦-١٤٧

(٢) السيد محمود سالم. مجلة المنار- مجلد ١٤ ص ٥١٨، والنقل عن عبد الحليم محمود. أوروبا والإسلام. (القاهرة دار المعارف ١٩٩٣) ص ٨٧، ٨٨.

(٣) أوروبا والإسلام. للإمام الدكتور الشيخ عبد الحليم محمود.

(٤) (كالكانام ١٩٣١ ص ٤)

الشعور الديني ليدخل على القرآن ما ليس منه ألبتة. وإن القرآن ليميز بهذا عن سائر الكتب الدينية المهمة في العصور القديمة. وإنه لشيء مستغرق بالغرابة أن شخصاً أميناً لا يستطيع أن يقرأ أو يكتب يُمكنه أن يكتب أعظم كتاب في اللغة الإنسانية".

ويؤكد ما سبق "هاري جاي لورد مان" في كتابه "نحو فهم صحيح للإسلام" - نيويورك - ١٩٤٨ ص ٣: "إن المعلومات الصحيحة في القرآن والنبوءات الصادقة التي يحتوي عليها بما لا يدع مجالاً للشك أن محمداً لم يكن ليتوصل إليها نفسه. ولو كان القرآن من وضع محمد لاستطاع غيره من البشر أن ينافسه في ذلك وهو شيء لم يحدث"^(١)

إذا تأملنا هذه الآيات وغيرها كثير مما هو مثلها، من حيث الموضوع والغاية، وقسمناها إلى مجموعات بحسب موضوعاتها نلاحظ أنها تأتي أحياناً إما مسبقة بعبارة تمهيدية كما في سورة النحل (٤٧، ٦٥، ٦٧)؛ أو تختم بسلسلة من الآيات، وربما تواردت عدة آيات قرآنية على وصف معجزة كونية واحدة بالدعوة إلى التفكير والتدبر كما في (سورة النحل مثلاً الآيتين ١٠، ١٣) وقد تأتي على هذه الأنحاء: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١١)، أو ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (النحل: ١٣)، وأحياناً تبدأ بصيغة "أفلم" كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦)، وكلمة "آية" ترد بمعنى آية قرآنية وآية كونية، وقد بينا معنى اللفظة بالمفهوم الأول في قرينة حديثنا عن القرآن، والآية هنا بمعنى الظاهرة أو الخلق العجيب أو الصنع الإلهي المعجز، فالقرآن معجز بآياته من حيث المعاني والكلمات، والكون معجز بظواهره الطبيعية وأسراره الكونية من حيث التسوية والإيجاد إن القرآن في أصل تركيبه معجز باهر وفي ما تنطوي عليه آياته معجزات كثيرة ذاهرة ومتجددة. وقد درس العلماء المسلمون الأوائل موضوع الإعجاز العلمي في هذا الكتاب المبين فركزوا أولاً على جانب الإعجاز اللغوي، وقد أبدع في هذا الجانب المفسرون، والبلاغيون كالباقلائي والجرجاني والزمخشري، وبمضي الأيام والسنين، وعكوف المسلمين على دراسة القرآن، والتمعن في أسرارهِ تكشفت لهم وجوه جديدة من الإعجاز حتى أن أبا بكر بن العربي يرى أن في القرآن معجزات بعدد آياته مضروبة في

(1) Islam, An Introduction. Begum Aisha Bawany Wakf, Karachi Bakistan.

أربع، لأن كل آية عنده لها حدّ ومطلع وظاهر وباطن.

وقد تكلم السيوطي في كتابه "معترك الأقران" في الباب الأول منه فذكر أن القرآن يحتوي على ثلاثين نوعاً من الإعجاز العلمي، وقد قرر السيوطي والشاطبي في "الموافقات" أن الإعجاز في القرآن لا يقتصر على الجوانب البلاغية أو اللغوية فحسب، وإنما يشمل أيضاً على الجوانب العلمية الأخرى، يعنى العلوم التي كانت سائدة على عصرهم.

وذكر كلاهما أن في القرآن مسائل طبية وإشارات هندسية، وجبر وحساب وعدد، وفلك، وتجارة، وجزارة، وطبخ وحياسة، وصباغة. كما أنه يشتمل على كثير من علوم الأوائل، يعنون بذلك علوم اليونان تلك العلوم التي لم تكن تترجمت إلى اللغة العربية إلا بعد قرون من نزول القرآن، وعلى الرغم من هذا فإن الشاطبي يقرر أن القرآن لم يخاطب العرب بغير ما كانوا يفهمونه من المعارف البسيطة فهم أمة أمية لا إمام لها بالعلوم المتعمقة والفلسفات المتشعبة. وإنما لنعجب من كلام هذا الإمام الأصولي الكبير وهو من علماء الأندلس التي كانت منارة أوروبا والعالم كله في العلوم والحضارة كيف يقول الإمام إن القرآن لم يجهى للعرب بغير ما يفهمونه؛ والقرآن إنما جاء بأصول العلوم كلها، وبقاعدة العلم الركينة من البحث والنظر والمنهج العلمي، وقد جاء للعالم كله، وليس للعرب وحدهم؛ بل لقد جاء لكل زمان، وليس لزمان بعينه، ولكل مكان، وليس لمكان بذاته.

ولا يفوتنا أن ننوه هنا بالبحوث القيمة الكثيرة التي قدمها علماء مسلمون وغير مسلمين عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وقد استمعت إلى أمثلة كثيرة منها في مؤتمر الإعجاز العلمي للقرآن، وفي المؤتمر الكبير الذي عقد بمدينة باندونج بإندونيسيا في صيف ١٩٩٤. وهناك لجنة خاصة بالإعجاز العلمي في القرآن ضمن لجان رابطة العالم الإسلامي، ولجنة مصرية للإعجاز العلمي بالقاهرة تضم أساتذة في جميع التخصصات، وتنظم هذه الجمعية محاضرات نصف شهرية، تقدم الجديد في موضوع الإعجاز العلمي للقرآن الكريم، وتعمل على طبعه ونشره، وقد منحت شهادات جامعية أيضاً في هذا المجال.

الفصل الثالث

آيات الأمر بصيغة "قل"

هذا جانب من البحث جيد؛ تتبع فيه ويلش الآيات القرآنية التي افتتحت بصيغة فعل الأمر "قل" أو "قولوا" الخ، وهي منتشرة في ثنايا القرآن كله، وآيات هذا النوع تأتي إما بتقرير أمر ما، من خلال عبارات قصيرة، أو ببيان مسألة ما بياناً قاطعاً؛ وأحياناً تأتي بالأمر للرسول ﷺ أن يقدم الإجابة على سؤال وجه بالفعل إليه ﷺ؛ أو يحتمل أن يوجه إليه، على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (البقرة: ١٨٩)^(١)، وقوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَلَةِ﴾ (النساء: ١٧٦)، وقوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ (المائدة: ٤)، وقوله تعالى: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥)، وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِهُوا إِنَّ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (يونس: ١٨)، وقوله: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ (الأحزاب: ٦٣)، وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِلُهَا﴾ (النازعات: ٤٢)، ؛ الفتوى في الحلال والحرام، لله رب العالمين أصلاً، وهكذا الحال بالنسبة لمجموع آيات "قل" التي نزلت بالتشريع دائماً، وأعطت الإجابة على الأسئلة الخاصة بالحلال والحرام بطريقة مباشرة.

وينبغي أن يكون واضحاً أن الكلام الذي يعقب فعل الأمر "قل" إنما هو كلام الله تعالى وإن أمر محمد بقوله وأجراه الله على لسانه، فلا محل إذا لتوهم الكاتب بأنه من كلام محمد ﷺ كما حاول أن يبيته من خلال تعليقه على آيات (٢٠ : ٢٨) من سورة الجن. وقد زعم كاتب مجهول على شبكة المعلومات الدولية أن الفعل "قل" إلحافي؛ أضافه المسلمون ليوهمو أن القرآن وحى، وليس من عمل محمد ﷺ؛ ويلاحظ أن الأمر بعبارة "قل" أو "قولاً" أو "قلن" أو "قولى" يأتي في القرآن أيضاً مشفوعاً بالتوجيه إلى السلوك الفاضل، أو الأمر بلزومه إن كان موجوداً بالفعل: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ (الأحزاب: ٣٢)، ﴿فَلَا تَقُلْ هُمَا أَفِي وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (الإسراء: ٢٣)، ﴿وَمَا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ

(١) وعن صيغة "قل" في القرآن انظر أيضاً البقرة ٢١٧، ٢١٩، ٢٢٢.

أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ (الإسراء: ٢٨)، ﴿ قَالَتْ
 الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ (الحجرات: ١٤)، ﴿ فَإِنَّمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ
 أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَن أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ (مریم: ٢٦)، ﴿ فَقُولَا لَهُ
 قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه: ٤٤)، ﴿ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ (طه: ٤٧)
 ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤)، ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ
 صِدْقٍ وَأَجْعَلْ لِي مِّن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴾ (الإسراء: ٨٠)، ﴿ قُلْ يَتَاهَلْ أَلِكُتِّبَ تَعَالَوْا إِلَى
 كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا تَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
 مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤).

كل هذه الصيغ والأشكال، سواء جاءت مباشرة عن الله أم جرت على لسان النبي
 ﷺ أو وردت كأمر أو كإجابة عن سؤال؛ كل ذلك هو كلام الله تبارك وتعالى، وكله قرآن،
 لا شك ألَبَتَ في شيء من هذا.

يقول الإمام البيهقي: "والإيمان بالقرآن يتشعب شعباً: فأولها وأهمها أنه: بأنه كلام الله
 تبارك وتعالى وليس هو كلام محمد ﷺ، ولا من وضعه ولا من وضع جبريل عليه السلام؛ وثانيها:
 الاعتراف بأن القرآن معجزة النظم لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله أو ببعض ما
 يماثله لم يقدروا عليه أبداً؛ والثالثة: اعتقاد أن جميع القرآن الذي توفى النبي ﷺ عنه هو الذي
 في مصاحف المسلمين لم يفت منه شيء، ولم يضع بنسيان ناس، ولا ضلال صحيفة، ولا
 موت قارئ، ولا كتمان كاتب، ولم يُحرف منه شيء، ولم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه
 حرف" (١). وعن عمر رضي الله عنه: "القرآن كلام الله عز وجل".

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: "لو أن قلوبنا طهرت، لما شيعنا من كلام الله تعالى".
 وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "ما حكمتُ مخلوقاً إنما حكمت القرآن".
 وعن ابن عباس رضي الله عنه: "أنه صلى على جنازة فقال رجل: اللهم رب القرآن العظيم
 اغفر له؛ فقال ابن عباس: "تكلتكم أمك! إن القرآن منه. إن القرآن منه" (٢).

(١) الإمام أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي. شعب الإيمان. تحقيق أبي هاجر محمد السعيد بسيوني زغلول بيروت -
 دار الكتب العلمية ط أولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م ١/ ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه.

الفصل الرابع

الأمثال في القرآن

الأمثال من الوسائل القرآنية في إيصال التعاليم الإلهية والدروس الربانية إلى قلوب المخاطبين بالقرآن، وتجسيد المعاني اللطيفة المراد غرسها في النفوس أو تقريرها للأذهان. وقبل أن نعرض لكلام الكاتب في هذا الصدد، نود أن نعرف المثل أو المثل ما هو!

أصل المَثَل من المَثول يعني الانتصاب والاستواء؛ والممثل، المصور على مثال غيره. يقال مثُل الشيء، أي انتصب أو تصور؛ ومنه قوله ﷺ: "من أحب أن تَمَثَّلَ له الرجال فليتبوأ مقعده من النار"^(١)، والممثل الشيء المصور على هيئة مخصوصة، سمي كذلك لأنه يتمثل للعين أو يمثل شيئاً ما ويكون على مثاله، فهو ليس أصلاً، أو يقال تَمَثَّلَ كذا أي تصوره في ذهنه، أو ظهر له على شكل كذا؛ قال تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مریم: ١٧) أي بدا لها الملاك جبريل عليه السلام كذلك على هذه الصورة البشرية، ولو جاءها على أصل خَلَقَتِهَا الملائكية لما تَحَمَّلَتْ رؤيته، وتمثل البيت من الشعر أي أنشده في موقف يشسبه الموقف الذي قيل فيه هذا البيت. وامثل لكذا أي خضع له، وامثل مثال فلان، احتذى حذوه، والتزم طريقه وسلوكها وتبعها فلم يجد عنها^(٢).

ومَثَلُ الشيء صفته قاله الجوهري وقال ابن سيدة وقوله عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (محمد: ١٥) أي صفتها، وقد تعنى خبرها وحكايتها أو تمثيلها.

ومَثَلٌ يَمَثُلُ يعني زال عن موضعه، وبمعنى ذهب أيضاً، ومَثَلٌ بالرجل يُمَثَلُ مثلاً ومُثْلَةً، كلاهما نَكْلٌ به، وهو المُثْلَةُ والمُثْلَةُ بفتح الثاء وتسكينها؛ وهى في قوله تعالى: ﴿وَسَتَعْلَمُونَكَ بِالْسَيِّفَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ (الرعد: ٦) ومعناها يستعجلونك بالعقاب الذى تهددناهم به وتوعدناهم عليه ولم نعالجهم به، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأمم الخالية فلم يعتبروا بهم، وكأن المثل مأخوذ من المثل لأنه إذا شنع في عقوبته جعله مثلاً وعلمًا.

ومنهُ مَثَلٌ بفلان أى عبث بجثته وشوهها؛ وفي الحديث أن رسول الله ﷺ: "نَهَى أَنْ يُمَثَّلَ بالدواب وَأَنْ تُوَكَّلَ المَثُولُ بِهَا"^(٣). وامثل منه اقتص، والمثال القصاص.

والمثال الفراش في الحديث أنه دخل على سعد وفي البيت مثال رث أى فراش

(١) الترمذى . أدب ١٣ وهو بلفظ "من سره أن يتمثل له الرجال قياماً..." الحديث
(٢) ومنه شعراً: رُبَاعٌ لها مُدُّ أَوْرَقِ العُودِ عِنْدَهُ خُمَاشَاتُ دَحْلٍ ما يَرَادُ امْتِنَانُهَا
قاله ذُو الرِّمَّةِ في وصف الخمار والأُنْثَى [لسان العرب ١١/ ٦١٤].
(٣) الحديث بتغيير لفظي يسير ابن ماجة - ذبايح وفي مسند أحمد (٢) - ٩٨-١٣٧-١٥٦.

خَلَقَ قَلَمٌ. وروى عن أم موسى، أم ولد الحسن بن علي، قالت زَوْجَ علي بن أبي طالب شابين وابني منهما فاشترى لكل واحد منهما مثالين، أى فراشين من الصوف الملونة، وفي حديث عكرمة: أن رجلاً من أهل الجنة كان مستلقياً على مثله أى فرشه جمع فراش^(١).

والمثل يعبر به عن الشخص الشبيه بالأفاضل، والأقرب إلى الخير، وأمائل القوم كناية عن خيارهم ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ مُثَلِّمُ طَرِيقَهُ إِنْ لَبِثْتُ إِلَّا يَوْمًا﴾ (طه: ١٠٤)؛ ﴿وَيَذَّهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ (طه: ٦٣). والطريقة المثلى أى الطريق الأفضل والسلوك الأقوم.

"والمثل عبارة عن قول فى شىء يشبه قولاً فى شىء آخر بينهما مشابة لبيان أحدهما الآخر، وبصورة أوضح"^(٢).

قال الزمخشري: "التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من الشاهد، فإن كان المتمثل له عظيماً، كان المتمثل به مثله، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك". وعند الأصفهاني أن ضرب الأمثال عند العرب يؤدى دوراً مهماً "فى إبراز خفيات الدقائق، ورفع الأسرار عن الحقائق، إنما تريك التخيل فى صورة المتحقق، والمتوهم فى معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة، وقمع لسورة الجامح الأبي، فإنه - أى المثل - يؤثر فى القلوب ما لا يؤثر فى وصف الشىء فى نفسه، ولذلك أكثر الله تعالى من ذكره فى كتابه، وفى سائر كتبه تعالى؛ ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال، وفشت - أى الأمثال - فى كلام النبى ﷺ، وكلام الأنبياء"^(٣).

ونلفت النظر هنا إلى خطأ وقع فى كلام الأصفهاني، فى قوله: "إن فى الإنجيل سورة تسمى سورة الأمثال"؛ وهذا ليس صحيحاً فكتاب الأمثال من كتب العهد القديم، وهو منسوب إلى سليمان الحكيم، أو هكذا ينسب إليه، وعلى الرغم من هذا فإن العلامة الأصفهاني لم يخطئ كثيراً وربما كان الصواب معه إذ يمكن أن يكون قد عني أن الأناجيل تحتوى على كثير من الأمثال ولعله أشار بالتحديد إلى الإصحاح الثالث عشر من إنجيل متى الذى كلم فيه المسيح تلامذته بأمثال كما ورد فى الإصحاح نفسه.

ونعود إلى سياقنا الأول فنقول الأمثال من خصائص القرآن ومن أهم وسائله فى تعليم الدين والتبصير بعواقب الأمور وفى تحليل نفسية الإنسان وطبيعة المجتمع، وحركة التاريخ الدينى والإنسانى؛ وقد ورد ذكر المثل فى القرآن فى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا

(١) المصدر نفسه ١١ / ٦١٥ - ٦١٦.

(٢) الراغب الأصفهاني. مفردات: ٧٥٩.

(٣) الإتيان فى علوم القرآن ٣٩/٤.

يَعْقِلُهَا إِلَّا آلْعَلِمُونَ ﴿٤٣﴾ (العنكبوت: ٤٣)، وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّتْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا
الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (الزمر: ٢٧).

وسوف تمر بنا آيات كثيرة يظهر فيها المثل القصير، والمثل الطويل، والمثل الواقعي،
والمثل ممكن الوقوع، والمثل التاريخي، والمثل التعليمي التربوي، والمنترع من البيئة، والمثل
المفرد، والمركب، والبسيط والمعقد في تركيبه والمثل الظاهر الصريح، والكامن المستور
الذي لم يصرح فيه باسم المثل، وهكذا.

أخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن القرآن نزل على
خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاعملوا بالحلال، واجتنبوا
الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال".

ينص هذا الحديث على أن القرآن جاء بالشرعية الوافية، وأن فيه المحكم المفهوم
بذاته، والمتشابه الذي يحتاج إلى العلم الراسخ والاجتهاد الخالص والتوسع في الفهم
والإدراك لتحصيل معناه والوقوف عند حده^(١). يقول أبو الحسن الماوردي (على بن محمد
بن حبيب ٤٥٠هـ). من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم
بالأمثال (أى بالجانب الأدبي، والحكائي فيها) وإغفالهم الأمثالات (يعني العبر والعواقب)،
والمثل بلا مثل كالفرس بلا لجام، والناقبة بلا زمام^(٢). وقد شدد الإمام الشافعي رحمه الله في
وجوب تعلم الأمثال على المجتهد^(٣).

بعد هذا التعريف الوافي بالمثل، ننظر فيما كتبه ويلش عن أمثال القرآن فنجده ينوه
سلفاً بالأمثال الكثيرة في القرآن الكريم ويذكر أن لفظة "مثل" تستعمل هنا بمعناها العام
لتضم أي نوع من القصص والحوادث الحقيقية أو الخيالية، وعلى هذا الأساس فإنه يمكن
اعتبار أجزاء كثيرة من القرآن أمثالاً، وعلى الرغم من وجود إشارات تاريخية متعددة
ضمن هذه الحوادث فإن معظم الأمثال القرآنية تعتبر نسخاً مكررة من القصص السائدة
التي يمكن أن تُصادَفَ في ثقافات شعوب الشرق الأدنى، والتي تبناها القرآن ليعزز بها
نظرتهم للعالم ويشري بها تعاليمه الدينية؛ ويذهب الكاتب إلى أبعد من ذلك فيقول إن العديد
من الأساطير والأفكار الأسطورية لها وجود واضح في القرآن، فعلى سبيل المثال، مسألة
خلق العالم في ستة أيام، والعرش الذي من فوقه يُحكم الكون، قد ذكرت عدة مرات في
هذا الكتاب- أي القرآن- من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

(١) الإنشقاق ٤ / ٣٨، والبرهان ١ / ٤٨٦.

(٢) المصدر نفسه والموضع.

(٣) نفسه.

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ (الأعراف: ٥٤).

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝﴾ (البقرة: ٢٥٥).

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝﴾ (التوبة: ١٢٩).

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۚ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ۚ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝﴾ (الرعد: ٢).

﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝﴾ (طه: ٥).

نلاحظ أن الكاتب أراد بطول تحليقه حول آيات العرش وكأنه - وهو كذلك - يريد أن يقول إن تصوير الله جالساً على عرش يفعل كذا وكذا شأن ملوك الأرض خرافة أو أسطورة؛ وهذا تعسف من الكاتب في الحكم على شيء لم يفهمه، فضلاً عن أن يحسه.

إن آية الكرسي هي أعظم آية في القرآن، وهي ملاك القرآن وسنامه، وفيها أسرار تُعنى وتُربي وتُحفظ وتُشفي، وترقى؛ والمسلمون إذ يعتقدون في أن الله عرشاً، وأنه، سبحانه وتعالى، على العرش استوى، فإنهم لا يُشبّهون، ولا يُكَيَّفون، ولا يُمَثَّلون ولا يُعْطَلون؛ تعالى الله عن كل ذلك علواً كبيراً: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝﴾ (الشورى: ١١) قال الإمام مالك لما سئل عن الاستواء: "الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة" (١).

على العكس تماماً من كلام ويلش؛ لقد جاء القرآن سيفاً مسلطاً على الأساطير والخرافات والأوهام والترهات التي غطت على العقل، وجمّدت طاقة الفكر عند الإنسان؛ لقد جاء القرآن بالوحدانية المطلقة وبعقيدة التوحيد الصرف، وتنزيه الذات الإلهية عن

(١) انظر ابن عطية. المحرر الوجيز ٤/١٠، وأيضاً أبو الحسن الأشعري (٣٢٤هـ / ٩٣٩م) الإبانة عن أصول الديانة تحقيق فؤادية حسين. القاهرة. دار الأنصار ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧، ٢ / ١١٦ والإمام أحمد بن حنبل كتاب الرد على الزنادقة والجهمية هي ٩٢ - ٩٤ والإمام أبو سعيد الدارمي. كتاب الرد على الجهمية ص ٢٦٣. والإمام عثمان بن سعيد الدارمي كتاب الرد على المريسي العنيد ص ٣٨١.

مشاهدة الحوادث، كما قرر القرآن عصمة الأنبياء، وسلامة الكتاب العزيز من التحريف، وجاء القرآن كذلك بالقول الفصل في عملية الخلق والتدبير، والقضاء والتقدير، فقد احترم الإسلام العقل فخطبه بأرقى لغة، وحاوره بأبلغ أسلوب وأعظمه، وجادله بالتي هي أحسن وحاجه بالبراهين، ولم يكلفه المستحيل، ولم يقبل منه الشطح الباطل أو التعطيل الكاذب أو الاستغراق في الخيال والأوهام والبعد عن الواقع المعاش. لقد جعل الإسلام استنباط العقل السليم دليلاً صالحاً وبرهاناً واضحاً وحجة قاطعة إلى جانب الوحي، كما جعل العقل مناط التكليف ومدار الثواب والعقاب. فمن أين يا ثرى تأتي تلك الخرافات إلى القرآن؟ وأين موضعها يا ثرى من كتاب اعتبر العلم آيته والعقل قاعدته وحجته وأعلن أن طلب العلم فريضة، وسأوى بين مداد العلماء ودماء الشهداء، وحذر من اتباع الظن أو القول بغير علم أو التصديق دون برهان أو التسليم بشيء دون حجة.

إن هذا الموضوع واسع لا يمكن أن تستوفيه هذه الدراسة ولكننا سوف نقدم فيه قولاً مختصراً نرد به على الكاتب، ونبين للقارئ كذلك خطأه فيما ذهب إليه؛ إننا لن نحتج على الكاتب بما جاء في كتبهم اليهودية والنصرانية من تحسيد وتشبيه وصل إلى حد إثبات الجسم والجهة والمساحة والذراع والإصبع، والعين والحدقة، والنقلة والحركة لله تعالى، وإلى تمثيل الله بالشيخ العجوز، وبالنار الحطوم وغير ذلك مما تكتظ به كتب اليهود، ولن نحتج عليه كذلك بما ورد في كتب النصارى من تثليث الذات الواحدة أى جعل الله ثلاثة، أب وابن وروح قدس، ولا بخرافة التجسد، وابن الله الوحيد، ولا بما يعتقدون من نزول الله وتجسده وتحمله لللبس واللعن والبصق، وموته على الصليب ثم قيامته من بين الأموات وأكله وشربه بعد قيامته ثم صعوده وجلوسه على يمين الرب^(١)، وغير ذلك الأنماط الخرافية والأسطورية القديمة التي هي ظاهرة مشتركة بين النصرانية وديانات مصر القديمة وديانات الهند. وما قلناه في موضوع الله والعرش والتدبير نقوله أيضاً بالنسبة لقصص الأنبياء وقصة الطوفان والخلق، ومعصية إبليس وطرده من الجنة وفي خروج آدم وحواء منها، تلك القصص التي أشار إليها ويلش نفسه.

من بين ما اعتبره المعارض من قبيل الخرافات قذف الشياطين التي حاولت استراق السمع كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ (١٧-١٨) بشأن ضرب الشياطين.

إذ يعتبر أن هذا العمل خرافة؛ هذا مع أن العلم الحديث قد أثبت حركة النيازك وسقوطها وانفجار بعض الكواكب في الفضاء، وعلى أية حال فإن الله سبحانه وتعالى قد

(١) انظر ابن حزم كتاب الفصل الجزئين الأول والثاني وكتابنا "النصرانية من وجهة النظر الإسلامية" بالإنجليزية، رسالة دكتوراة بالإنجليزية، إكستر، إنجلترا ١٩٨٤، والقرآن والأنجيل للمؤلف. دار الفلاح. القاهرة. ١٩٩٨ م

رتب لكل فعل يتجاوز مداه أو يخرج عن مداره لوئاً من رد الفعل يكون له بمثابة العقوبة أو الحاجز والمانع ضد الخروج عن المنهج أو التمرد على النظام.

أشار الكاتب إلى سورة يوسف عليه السلام، والتي ورد فيها أطول قصة في القرآن - قصة يوسف عليه السلام - حيث تستغرق القصة الآيات (١: ١٠١) من السورة، والتي يمكن أن يطلق عليها "قصة قصيرة" وهي أكثر قصص القرآن شبهاً بما أورده الكتاب المقدس عن يوسف عليه السلام. هذا صحيح على وجه الإجمال إلا أننا نرفض زعم الكاتب بأن "القصة تحتوي على دليل يبين أنها خضعت للتعديل أو التغيير، وأن الكلام الذي في أول السورة يبدو عليه وكأنه مقدمتان منفصلتان للسورة"^(١).

يقصد الكاتب بهذا أن الآيات من قوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ تعتبر مقدمة أول للسورة؛ وأن الآيات (٤: ٦) تعتبر مقدمة ثانية لها؛ وأن القصة الحقيقية أو الأصلية تبدأ من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٌ لِّلسَّالِّينَ﴾ من الآية السابقة إلى الآية (١٠١) من السورة وحتى نهاية القصة. وهذا زعمٌ من يصّر على اكتشاف أخطاء ومخالفات في القرآن بأية طريقة كانت، فإن لم يجدها في الواقع توهمها في الخيال، ولو أن القرآن كان نصاً مجهولاً لا نعلم عنه شيئاً ألبتة ثم اكتشفناه وأخضعناه للفحص والتحليل العلميين أو حتى عرضناه للفرض والتخمين؛ لربما ساغ مثل هذا الافتراض الذي تخيله الكاتب من عند نفسه ثم نسيه إلى القرآن؛ ولكن القرآن لحسن الحظ كتابٌ منقولٌ نقلٌ تواتر، محفوظٌ حفظاً إلهياً وإنسانياً بالغ العناية؛ وجميع المخطوطات التي لدينا، وكل الحفاظ وعلماء القرآن والقراءات يُجمعون على أن سورة يوسف تامة وكاملة كما هي موجودة الآن في المصحف لم يدخل عليها ما ليس منها؛ وكذلك لم يسقط منها شيء ألبتة، كما أن السياق القرآني ذاته وتُسلسل أحداث القصة يرفضان رياضة التخمين هذه التي يمارسها ويلش؛ هذا مع وجوب العلم بأن السورة أو القصة القرآنية ليست رواية إنسانية بمعنى أنه لا بد أن يكون لها مقدمة وخاتمة وعقدة وحبكة بالضوابط نفسها، والمعايير النقدية والأدبية البشرية.

وينبغي أن نراعى أننا لا نقول "مقدمة سورة البقرة"، وإنما نقول "افتتاحية" أو "مفتتح" أو "أول السورة" وهكذا، ولو كان المسلمون هم الذين يضعون ويرفعون ويثبتون ويحكون في القرآن لأثبتوا البسملة في أول براءة (سورة التوبة)، ولما وضعوها في سورة النمل، ثم إن سورة طه والقصص تقدم قصة موسى بالطريقة نفسها التي قدم بها القرآن قصة يوسف عليهم أجمعين السلام، فلماذا خص ويلش سورة يوسف بالذات بهذا التفسير التخميني!!؟

(١) الصحيح أن سورة يوسف لا تتحدث كلها عن قصة يوسف بل إن القصة تستغرق ١٠١ من مجموع آيات السورة البالغة ١١١ آية.

يستمر المستشرق ويلش في استعراضه لأمثال القرآن أو قصصه، فيشير إلى ما جاء عن النبيين يحيى وعيسى عليهما السلام، وبخاصة قصة الميلاد والبشارة وكلام جبريل عليه السلام، ما يلفت النظر إلى أن هذه المشاهدة تتجلى بين حكاية القرآن وحكاية إنجيل لوقا بوجه خاص، وقد أثبتنا في بحث آخر لنا بشرية المسيح عليه السلام، من خلال الألفاظ والعبارات المشاهدة بين القرآن وإنجيل لوقا، وليس من غرضنا هنا الدخول في هذه التفاصيل، ولكننا نقول إن الكاتب الذى لم يستطع لا هو ولا أحد من المستشرقين أن يثبتوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد تلقى شيئاً من كتبهم، أو أن كتبهم هذه كانت قد ترجمت إلى العربية حتى بعد وفاته صلى الله عليه وسلم. وتمشياً مع خطه المعوج، يزعم المستشرق أن نقاط الخلاف بين القرآن وكتب النصارى تتضمن أدلة على تطور الأفكار في القرآن؛ كيف يصح ذلك مع أن العبارات التى يشير إليها ويلش هنا خرساء لا تعبر عن هذا تماماً، وكل الأدلة التى أهمل ذكرها تأخذ بخناقها وتكذبه. إن التطور فى أى عمل أدبى يأتى على مراحل ولا بد، هذه المراحل يجب أن تكون محددة ومعلومة، فأين يا ترى هذه الأدلة التى تبرهن على وجود هذه المراحل التى مرت بها قصتي يوحنا والمسيح فى القرآن؟ وكيف ينفرد الكاتب بهذه المعلومات الخطيرة التى لم تصل إلى علم أحد من العالمين بالقرآن ولا خطرت على قلب خصم آخر معاند للكتاب العزيز. هذا على أن القرآن لا يحتوى على أفكار متطورة، ولكنه يحتوى على مبادئ وتعاليم إلهية ثابتة.

وأما ما وُجد فى القرآن مشابهاً من قريب أو من بعيد لما يسمونه بإنجيل الصبوة أو الأناجيل الشفهية غير المعتمدة من الكنيسة، فليس يصلح أن يكون حجة لهم؛ بل هو فى حقيقة الأمر حجة عليهم، فإذا كانوا لم يستطيعوا أن يثبتوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم اطلع على كتبهم القانونية المعتمدة فكيف يمكنهم أن يثبتوا أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد طالع هذه الكتب التى كانت مطاردة منهم ومجهولة من العامة والخاصة من بينهم؟ ونسألهم فى إطار هذه القرينة لم لا تكون مثل هذه الأناجيل هى الأقرب إلى إنجيل المسيح من الأناجيل التى بين أيديكم؟ وعلى أى أساس يا ترى كان رفضكم لها؟ إن ما فيها مما يوافق القرآن هو بلا شك أثر من آثار الوحي السابق الذى جاء به المسيح عليه السلام وأبقاه الله تعالى ليكون حجة للمسلمين عليهم، فموضوعات كخدمة مريم فى المعبود وطريقة تربيتهما كما جاءت فى القرآن حق لا مرية فيه وكلام المسيح فى المهدي إخباراً بوحي لا شك فى ذلك، وهو غير موجود عندكم وهل تنكرون أن كلاماً كثيراً مما قاله المسيح قد فقد وضاع، وأن الأناجيل الحالية لم تحتفظ من أقواله عليه السلام إلا باليسير، وأن ما أضيف إليها واختلط بها كثير، وأن الاختلافات والتناقضات حتى فى سلسلة نسب المسيح تحتم عليكم قبول ما قلناه، وهو ما انتهت إليه دراسات نقاد الكتاب المقدس فى الغرب؛ ناهيك عن الإشارة إلى سقوط سلسلة النسب المزعومة هذه من بعض الأناجيل.

على هذا المحك يجب أن نعرض الدعاوى، وبهذا المعيار ينبغي أن نقيس الكلام ونصدر الأحكام، ولكننا لضيق المقام نكتفى في هذا المجال بما قلناه وأوضحناه سواء بالنسبة لقصص الأنبياء والشخصيات وغيرهم من الفصوص الأخرى الواردة القرآن الكريم، وفي كتب اليهود والنصارى.

بعد أن فندنا مزاعم ويلش حول القصص القرآني، نسوق هنا بعض الأمثلة للقصص والأمثال وما يجرى مجرى المثل الواردة ذكرها في القرآن الكريم.

فمن أمثلة القرآن، قصة أصحاب الأيكة، وقصة أصحاب الكهف، وقصة الرجلين اللذين تحاورا في شأن كثرة المال وعزة النفس كما وردت في سورة الكهف وأيضاً قصة أصحاب الجنة كما في سورة القلم.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (البقرة: ١٧)،

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءٌ وَنِدَاءٌ صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة: ١٧١)،

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ٢٦١)،

﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِيبْهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧)؛ مثل إلهي مضروب في حقيقة الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة.

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ٥٨). مثل على أهمية الأصل وحسن النية أو الخبث وسوء الطوية.

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ﴾ (النحل: ٧٥)؛ ﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ

فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ^١ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ (آل عمران: ١١٧). مثل في التوحيد والشرك والمصالح والمضار المترتبة على كل.

والمنفق فيما حرم محروم، وماله الذي ينفقه في هذه الحياة الدنيا، على مظاهر الحياة الدينية هو الريح الضارة التي ستدمر كل ما لديه، تهلكه هو نفسه في النهاية.

عقد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب باباً في "ألفاظ من القرآن جارية مجرى

المثل" نأخذ منها على سبيل المثال: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ (النجم: ٥٨).

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

﴿الَّذِينَ حَصَّصُوا الْحَقَّ﴾ (يوسف: ٥١).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ^٢ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (يس: ٧٨).

﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ (يوسف: ٤١).

﴿أَلَيْسَ الْأُصْبُحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأنعام: ٦٧).

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤).

﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (التوبة: ٩١).

﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيَوْمٍ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ (الأنفال: ٢٣) وهكذا^(١).

فالأمثال كما هو واضح، وسيلة قرآنية في نقل رسالة الله تعالى إلى عباده، وأداة ربانية

لتربية نفوسهم وتهديب طباعهم، وتصفية أعمالهم ونياتهم لله عز وجل، وهدايتهم إلى طريق الحق والرشاد.

الفصل الخامس

آيات الأحكام فى القرآن

انتقل الكاتب إلى موضوع آخر حساس من موضوعات القرآن، هو آيات الأوامر والنواهي، وآيات الأخلاق والسلوك؛ وهذا الموضوع يمثل مع الآيات الخاصة بالاعتقاد مجموعة من التكليف والتعاليم الخلقية والقيمية متميزة تتوزعها الآيات القرآنية كالأمير بالإيمان وإقامة الصلاة وأداء الزكاة والصيام والحج، وباقي الفروض الدينية التى تعاقب نزولها فى تاريخ الدعوة؛ ومن وجهة نظر ويلش، فإن هذه الوصايا والتعاليم الخلقية لا تمثل نظاماً خلقياً متكاملًا فى كل شىء يحتوى على ما يهم المجتمع ويعالج قضاياها كلها؛ وهذا فهم قاصر لحرف القرآن وروحه معاً؛ وذلك لأن القرآن هو مصدر المسلمين علومهم وسلوكهم، دنيا ودين، وأنه جامعٌ لكل محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال، وأن الفروض الدينية فى الإسلام لا تفصل أبداً عن المبادئ الخلقية والأعمال السلوكية، إذ أن كل فرض يأمرنا الله بأدائه إنما يحمل قيمة خلقية وتربوية واجتماعية سامية لا بد من ظهور أثرها على العابد وعلى أهله ومجتمعه وإلا لما كان لعبادته معنى أى معنى.

إذا تبين هذا عرفنا أن التكليف الشرعية والتعاليم الخلقية مما يحتوى عليه القرآن لها نظامها الخاص الذى يتبع نظام القرآن العام ويتسق معه تماماً، وليس من المستساغ إذن أن يزعم المستشرق ويلش بأن التكليف الشرعية والتعاليم الخلقية لا يجمعها نظام ولا يشدها رباط واحد، وأنها لا تمثل فى نفسها نظاماً متكاملًا، فعلى العكس من ذلك تماماً فإن آيات القرآن كلها يتصل بعضها ببعض، وآيات الأخلاق والسلوك فى القرآن الكريم أكثر من أن تحصى ولنكتفى هنا فى إعطاء بعض الأمثلة يقول تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣١﴾﴾ (الصف: ٢-٣)، فيها نهي عن النفاق والرياء، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ؕ اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ؕ﴾ (المائدة: ٨) فيها إلزام المرء نفسه بالعدل حتى تجاه من يكرهه ولا يحبه. إن آيات الأخلاق والسلوك فى القرآن أكثر من أن تحصى وأوسع من أن تُستقصى ويكفيها منها ما يضىء الطريق للتعرف على غيرها: ﴿أَدْفَعْ بِالْأَيْمَنِ

هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ (فصلت: ٣٤).

﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيْفَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٣٥﴾ (المؤمنون: ٩٦).

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنَا ذَا فِجْءٍ مِّنْكُمْ أَتَىٰ لَكُمُ الْحَقُّ أَن تَدِينُوا بِمَا نَدِينُ وَإِنَّا كَاشِفُ الْعَذَابِ عَنْكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَافِظِينَ﴾ ﴿٣٦﴾ (المؤمنون: ٩٧).

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ هُمْ أَهْلٌ لَّكُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُّسْتَقِيمُونَ ﴿٣٧﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي آتَىٰ بِهَا اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ مِن مِّلَّةٍ لَّكُمُ اللَّهُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ يَدْرَأَ عَنْ بَنَاتِهِ مَا يَدْرَأُ عَنْ بَنَاتِ آبَائِهِ لَكُمُ اللَّهُ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٤٠﴾ وَلَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَكُمْ الَّتِي آتَىٰ بِهَا اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِمَا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾ (الأنعام: ١٥١: ١٥٣).

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ وَالْعَفِيفِ وَالْعَالِيَةِ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾ (آل عمران: ١٣٤)، ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ (الأعراف: ١٩٩)، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَجِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤٤﴾ (الإسراء: ٣٢)، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ ﴿٤٥﴾ (الإسراء: ٣٣)، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ﴿٤٦﴾ (الإسراء: ٢٣)، ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَنَابَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ ﴿٤٧﴾ (طه: ١٣٢)، ﴿وَيَلْمُظَافِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ (الَّذِينَ إِذَا أَكْنَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ) ﴿٤٩﴾ (وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَرَثَهُمْ يُخْسِرُونَ) ﴿٥٠﴾ (المطففين: ١: ٣).

أحكام وتعاليم تتقاصر دونها كلمات البشر.

الفصل السادس

آيات العبادات والشعائر

ينتقل المستشرق ويلش بعد استعراضه لآيات الأحكام إلى نقطة أخرى في هذا الباب، وهي الخاصة بآيات العبادات والشعائر الدينية في القرآن الكريم فيقول: "بينما يقرأ القرآن كله بطريقة طقسية شعائرية فإنه توجد أجزاء خاصة منه تتميز بالصيغة الطقسية (أى تلك التى تقرأ فى الطقوس والتراويل الدينية وسورة الفاتحة بالذات - من بين سور القرآن - هي التي ينطبق عليها هذا الوصف الطقسي إلى حد بعيد، حيث إنها تستخدم في كل صلاة، وهي تشتمل على سبع آيات، وتقرأ مرتين على الأقل في كل صلاة، هل كانت سورة الفاتحة جزءاً من القرآن على عهد محمد (ﷺ) أم لا؟ هذا أمرٌ لا يمكن القطع به، إن الصلاة بمعنى الدعاء تبدو في غير موضعها في نصٍّ، كسورة الفاتحة إذ أن الله لا يتحدث فيها وحده بل يتحدث معه آخرون في النص نفسه؛ وأفضل مثل على الصيغ الطقسية في القرآن ذلك الدعاء الوارد في آخر سورة البقرة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إَصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٨٦)

وهكذا يصف ويلش القرآن وبخاصة سورة الفاتحة بأنه كتاب طقوس وتراويل دينية؛ وهذا وصف كنسي لا يليق بالقرآن؛ فالقرآن ليس فيه طقوس ولا شعائر، فالقرآن كما أنه كتابٌ يتعبد بتلاوته فإنه كتاب يتعبد بالعمل به كذلك، وهو يقرأ في الصلاة وغير الصلاة كما أنه ليس كتاب عبادة فحسب بل إنه أيضاً كتاب عقائد ومعاملات وأخلاق وسياسة واجتماع واقتصاد... إلخ.

وإذا كان القرآن هو عماد الصلاة، والصلاة هي عماد الدين فإن القرآن والصلاة هما عمادا الحياة الإسلامية وجوهر وجود الإنسان المسلم في هذا الكون.

وأما تشكيك الكاتب في أن سورة الفاتحة كانت جزءاً من القرآن على عهد لنبي ﷺ فليس له محل وليس عليه دليل، بل إنه خارج عن حدود الاقناع الشعبي، بالفاتحة أو سورة الحمد بضعة من القرآن، وهي معروفة بأنها فاتحة الكتاب؛ وقد انعقد

إجماع المسلمين على قرآنية سورة الفاتحة، وبأنه لا تقبل البتة في الإسلام صلاةً بغير قراءة سورة الفاتحة.^(١) بل إنها لفضلها قد نزلت مرتين على رسول ﷺ وجمهور المسلمين على أنها هي المرادة بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ (الحجر: ٨٧)، فهي السبع المثاني؛ وهي من القرآن العظيم سميت بذلك لأنها تنفي في كل ركعة.. ولأنها مثنوية الغرض، من حيث أنها تقرأ للدنيا كما تقرأ للدين.

وزعم ويلش بوجود شخصين يتحدثان أحدهما إلى الآخر في سورة الفاتحة أضعف من أن يخدم قضيته أو يؤيد دعواه ودعوى المستشرقين في بشرية القرآن، وفي تعدد مصادره، لقد قلنا مراراً في هذا البحث أن القرآن كله كلام الله وأنه ليس لبشر ولا ملك فيه كلام البتة لا حرف ولا لفظ ولا عبارة، وهذا صحيح عندما يسند فيه الكلام أحياناً إلى الملك أو النبي أو الأشخاص المحكي عنهم في القرآن.

إن ويلش يشكك هنا في أصالة سورة الفاتحة، وفي آيات العبادات والشعائر في القرآن كما يشكك في القرآن كله: إن آفة الدارس الغربي والمتقف الغربي تتجلى في نكران الآخر والتشكيك في قيمة ما لديه من علوم وحضارة وفي اعتبار النموذج الغربي هو الأفضل وهو المحك والمعيار لكل ما عداه من النماذج الأخرى.

يمضي ويلش في هذا الاتجاه فيستعرض بعض آيات الدعاء والرجاء وآيات التنزيه للذات الإلهية عن مشاهة الحوادث فيعتبر بعضها، كآية الكرسي على سبيل المثال، خرافة، كما أنه يزعم أن صيغ الأدعية القرآنية يختلط فيها كلام الله تعالى بكلام البشر، وقد بينا خطأ هذه المقولة الواهية في أكثر من موضع في هذا الكتاب.

فسورة الفاتحة وحدها هي التي يجب قراءتها في كل صلاة، والقرآن يتضمن الكثير من الأدعية بصفة عامة؛ والدعاء في الإسلام مخ العبادة وقد أمر الله تعالى عباده أن يدعوه ووعدهم بالاستجابة.

ويتضمن القرآن دعوات دعا بها أنبياء الله كما ورد عن يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١)، هذا دعاء قدم لـ

يوسف بالإقرار بالخالقية والولاية لله عز وجل وبقطع الأسرار عن الأغيار؛ وبأنه لا يعرف له ولياً في الدارين إلا هو سبحانه وتعالى؛ وقيل في الآية: إنه لما علم نبي الله يوسف أنه ليس بعد الكمال إلا الزوال، سأل الله تعالى أن يتوفاه؛ وقيل: من أمارات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوائق؛ لم يتمنَّ يوسف الموت عندما ألقى به في غيابة الحب، ولم يقل توفني مسلماً، كذلك؛ عندما بيع كالعبيد أو عندما حبس في السجن بضع سنين؛ لكنه لما تم له المُلْك، واستقام له الأمر، ولقى الأهل ورفعهم معه على العرش، اشتاق للقاء الله فقال: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾^(١)، لأنه ليس بعد الكمال إلا الزوال والارتحال.

وقال سليمان عليه السلام: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَلَدَيْ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأُدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل: ١٩) جاء هذا الدعاء على لسان نبي الله سليمان عليه السلام؛ وكان دعاء امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (التحریم: ١١)

فالدعاء إذن طريقة من طرق الاتصال بالله تعالى، ومخاطبته عز وجل في السر والعلن، واللجوء إليه عند نزول الحاجة أو المصيبة أو المرض أو عند الاضطراب النفسي، واستحكام اليأس، وعند قلة ذات اليد.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِلَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: ١٨٦)

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

(١) الإمام عبد الكريم القشيري. لطائف الإشارات: القاهرة. الهيئة العامة للكتاب ١٩٨١/١/٢١٠.

الفصل السابع

موضوعات قرآنية أخرى

وفي فقرة صغيرة في هذا الباب أشار ويلش إلى موضوعات أخرى يحتوى عليها القرآن مثل آيات التعزية والتسلية لقلب محمد ﷺ والتي أعطته قوة وثقة في نصر الله تعالى له ولدينه وأمته، حتى صبر لحكم الله وفاز أخيراً بنصره ورضاه.

ويشير الكاتب كذلك إلى ما جاء في القرآن من آيات تتحدث عن الموت وعن يوم القيامة وتصوير القرآن للحياة الآخرة ومواقف الحساب والعقاب ومشاهد الجنة والنار، وتلك الآيات تحاطب المؤمنين بخاصة والناس كافة بمثل هذه الصيغ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ ﴿يَبْنِي ءَادَمَ﴾ ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ﴾ ... إلخ.

حقاً لقد تكلم القرآن عن الدار الآخرة كما تكلم عن الدار الدنيا وبنفس التأكيدات والإلزامات والحجج البيّنات، بل إن الحديث عن الآخرة قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً وملازماً بالحديث عن شئون الدنيا في السياق القرآني وذلك لأن الناس بطبيعتهم ميالون إلى حب الدنيا والانهماك في ملاذها ومتعتها، وقليل ما هم هؤلاء الذين يؤثرون الآخرة على الدنيا والباقي على الفاني والرخيص العاجل ذى القيمة الآجل. لقد أنكرت اليهودية الوضعية الحياة الآخرة وجهل اليهود بالتالى البعث والنشور والحساب والعقاب والجنة والنار، وآثروا الحياة الدنيا على الآخرة، والآخرة خير وأبقى. وصاروا يهتبلون الحياة المادية فهم كما وصفهم الله: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَخْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعْمَرَ﴾ (البقرة: ٩٦).

وفي كتب اليهود ما يدل على "أن الناس كالعشب، إذا ماتوا نسوا" كما في (الزمور ١٠٣: ١٣ - ١٦)، "كما يترأف الأب على البنين يترأف الرب على خائفيه لأنه يعرف جبلتنا يذكر أننا تراب نحن. الإنسان مثل العشب أيامه كزهر الحقل كذلك يزهر

لأن ريجاً تعبر عليه فلا يكون ولا يعرف موضعه بعد" (١). وجاء في سفر أيوب (١٤: ١ - ١٣): "الإنسان مولود المرأة قليل الأيام وشبعان تعباً؛ يخرج كالزهر ثم ينحسم ويرح كالظل ولا يقف. إن للشجرة رجاء إن قطعت تخلف أيضاً ولا تعدم خيراً عيها. ولو قدم في الأرض أصلها ومات في التراب جزعها، فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس. أما الرجل فيموت ويلى. الإنسان يسلم الروح فأين هو؛ قد تنفذ المياه من البحيرة، والنهر ينشف ويجف. والإنسان يضطجع ولا يقوم. ولا يستيقظون حتى لا تبقى السماوات ولا يتنبهون من نومهم".

وحق عندما اتضحت فكرة البعث عند بعض طوائف اليهود كالربانيين الذين عرفوا باعتقادهم في البعث فإنهم قد ربطوا البعث عادة بوقت ظهور المسيح المنتظر، مما يجعله أقرب في مفهومه إلى بعث مادي من نوع خاص على هذه الأرض منه إلى البعث بمعناه القرآني؛ وأحياناً ما يقصر اليهود البعث، أى العودة إلى الحياة مرة أخرى، على الصالحين دون الأشرار، أو على اليهود دون غيرهم وهم يعتقدون أيضاً بما يمكن أن نسميه بالبعث القومى وليس بعث الأشخاص (٢) بالمعنى الذى يعرفه المسلم.

ومن بعد اليهود جاء النصارى فأثبتوا البعث لكنهم قصره على البعث الروحاني لا الجسماني وأنكروا النعيم والعذاب الحسين على الرغم مما في كتبهم من بعض العبارات التي تؤكد هذه المعاني (٣) التي جاء بها الإسلام.

كذلك أنكر الفلاسفة الماديون والحسيون البعث والنشور فلم يروا وراء هذا العالم المحسوس عالماً آخر، ولا بعد هذه الحياة الواقعة حياة أخرى. وكان الدهريون يرددون ما قاله القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُلْكَئُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (الجناتية: ٢٤) والدهر هنا بمعنى الزمان.

(1) See Nurshif Rifaat, Ibn Hazm on Jews and Judaism, (ph. I). Exeter Vniversity, England 1988. p: 267.

(2) See A. M. Hyamson and A. M. Silberman Ced.) Vallentines Jewish Encyclopaedia (London, Shapiro, Valentine & Co, 1938) p. 551.

(3) See The Zondervan Pictorial Encyclopaedia of the Bible Vol., 5 pp. 70 ff.

وقد أنكر البعثَ والحياةَ الآخرةَ أصحابُ الديانات المادية والملل الوثنية كعباد الأوثان وعباد الظواهر الطبيعية والأسلاف والطواطم. من أجل ذلك جاء الحديث عن الآخرة معادلاً للحديث عن الدنيا وموازياً له تقريباً في السياق القرآن، وجاءت كذلك آيات القرآن الخاصة بما وراء الحياة الحاضرة جَدُّ مُفَصَّلَاتٍ وغاية في البيان والإيضاح. فإذا تكلم القرآن عن الغيب مثلاً صورته لك وكأنه عالم الشهود، وإذا تكلم عن الجنة جَعَلَتْ تحس وجودها وتنسم ريحها وتتصور رواءها وبهاءها وتمثل حسناتها وجمالها؛ وإذا تكلم القرآن من ناحية أخرى عن النار خلت نفسك تحس بلظاها وتلمس حرها وأذاها حتى لتكاد نارها تشوى جلدة وجهك وتنال لحمك وعظمك وتجعل دمك يجري في عروقك كأنه المهل أو الحميم الآن. ولقد رد القرآن من خلال هذه الأوصاف والمشاهد الحياة الآخرة إلى وعى الناس وإدراكهم وقرب منهم ما غاب عنهم وألزمهم الحجة فيما أنكرته عقولهم وغفلت عنه قلوبهم، وجحدته نفوسهم؛ ولقد جعل القرآن المعجز عالم الشهادة وعالم الغيب سواءً في حس المؤمن الصادق فصار المؤمن الحق يعمل لدنياه، كأنه يعيش فيها أبداً، ويعمل لآخِرته كأنه سيموت غداً، ويتحول عنها.

الباب الثامن
القرآن
في حياة المسلمين وفكرهم

الباب الثامن

القرآن في حياة المسلمين وفكرهم^(١)

يرى ويلش أن القرآن بالنسبة للمسلمين، يعتبر شيئاً أبعد بكثير جداً من أن يكون مجرد كتاب مقدس، أو نص أدبي ديني، بالمفهوم الغربي المعتاد؛ ولكننا مع هذا لا نوافقه ألبتة على أن اهتمام المسلمين، بالقرآن جعلهم يكتفون بتناقله شفهيًا فحسب طوال حياة النبي ﷺ. فالقرآن - بخلاف ما يدّعي هذا الكاتب - كان يتناقل شفهيًا وكتابيًا بعناية وضبط بالغين. وقد سبق أن عرضنا لهذه الدعوى، وناقشناه وعارضناه فيها بالدليل الدامغ، وأثبتنا للقارئ بكل وضوح سلامة النص القرآني من كل دخيل، واستحالة تحريفه بأي وجه من وجوه التحريف والتبديل؛ فقد كان مكتوباً محفوظاً في صدور المسلمين، كباراً وصغاراً، نساء ورجالاً، في حياته ﷺ، ومحفوظاً عملياً كذلك في أخلاقه ﷺ، وأخلاق أصحابه الأولين الذين كانوا قرآنيين سمتاً وسلوكاً؛ فقد اهتموا بالقرآن، وجعلوا فيه وجدهم ووكدهم، وضبطوا حيالتهم على أحكامه، وترغموا به ليلهم ونهارهم، قرعوه مراراً في صلواتهم وعباداتهم، وتلوه سرّاً وجهرًا في جماعة أو مع أنفسهم، وحكّموه في قضاياهم، وفي خصوماتهم، ومناكحتهم، وجنائزهم، وتعليمهم، ومدارساتهم، ومحاوراتهم؛ وقدموا في كل ما كتبوه دليل القرآن على دليل العقل؛ وينبغي أن يكون معلوماً أن كون الصحابة تلقوا القرآن واهتموا به وحفظوه لا يعني مطلقاً أن القرآن لم يكن مكتوباً ولا مجموعاً في الصحف؛ هذا ما لا يتصوره عاقل.

إن جميع المنافذ إلى الطعن في جمع القرآن مسدودة في وجه الكاتب، وفي وجه المستشرقين والمستغربين من المسلمين؛ وقد أثبتنا أن المصحف كان مكتوباً على صحف، وأباطى، وعظام، وجلود، وجريد نخل، وعلى الأحجار المستدقة المستطيلة، وغيرها، في حياة النبي ﷺ؛ ثم نقل إلى الصحف في عهد أبي بكر، ثم ضبطت الكتابة والقراءة على مثال قراءته ﷺ في العرصة الأخيرة في مصحف عثمان؛ هذا من المقرر الثابت.

(١) هذا الموضوع لا يحتمل التقسيم إلى فصول كالأبواب السابقة، نظراً لوحدة موضوعه.

ينتقل الكاتب بعد ذلك إلى موضوع آخر له أهميته وأثره في التاريخ الإسلامي، وفي تشكيل العقلية الجدلية أو الفلسفية عند المسلمين، ذلك هو موضوع "تأثير القرآن في علم الكلام الإسلامي وتوجيهه له"؛ والقرآن في الحقيقة وواقع الأمر يمثل قاعدة الاعتقاد والتشريع والأخلاق الإسلامية ومصدرها؛ وهو كذلك يمثل القاعدة والسناد للعقلية الإسلامية، وهو ينبوع العلوم والمعارف الإسلامية، وأُسُّ حضارة العرب والمسلمين ورأسها.

فالعرب لم يكونوا من أهل الجدل ولا من أهل الفلسفة والنظر، ولم تقم بينهم كذلك مدارس فكرية ولا مذاهب عقائدية، ولا تيارات سياسية، ولا خصومات عقلية مذهبية قائمة على البحث والتفكير والتقعيد والتنظير، والرد والمعارضة. ولقد استمر العرب على هذا الحال حتى جاء القرآن فأعاد صياغة العقلية العربية، ورأب صدعها، وعدّل اتجاهها، ووسع آفاقها، وجبرّ عجزها، وفتح أمامها عوالم جديدة، وأمدّها بفيوضات من العلوم والآداب لم تكن تعرفها، ولا تُصوّب النظر إليها، ولا تبلغها مطيها. لقد أوجد القرآن لنفسه المؤيدين له والمعارضين؛ وبَيّن التأييد والمعارضة، تفتّح أزهار الأفكار وتنطلق الآراء من أكامها، وتتلاقح العقول وتفيض العلوم وتبرز المعارف. وتاريخ الفكر الإنساني كله لا يعدو أن يكون كذلك تاريخاً للاحتكاك بين المؤيد والمعارض، بين المؤمن المسلم والجاحد الشاك، بين الباحث الوقاف على الحق والملحد المندفع إلى الإلحاد والكفر، مع الحاجة إلى غير مدى وعلى غير هدى. القرآن هو مصدر علم الكلام الإسلامي ومركز عصبه؛ وإذا رحنا نتلمس مصادر أخرى لهذا العلم المهم، والذي ولّد هو بدوره علوماً أخرى مهمة كذلك، كنا كمن يبحث عن اللآلئ في رمال الصحراء وعن النخيل في قاع المحيط. القرآن هو أصل علم الكلام، وهو أيضاً أهم موضوعاته؛ فالتكلمون قد أمعنوا فيما احتوى عليه القرآن من العقائد والنبوات، ومن الوجدانية والتّسنّيز المطلق للذات، وصفات الله تعالى، والنبوة، وعصمة الأنبياء، والوحى، وطرق الخطاب الإلهي، والقضاء والقدر، والخير والشر، والجبر والاختيار، والكبائر والصغائر، والثواب والعقاب؛ إلى آخر ما هنالك من الموضوعات التي جاء بها القرآن. لم يجد علماء الكلام مندوحة في أن يبحثوا في الأصل ذاته - أعني القرآن - وذلك باعتبار تعلقه بصفة الكلام فاختلفوا لما نظروا، هل

لله صفات، وهل الصفات بمعنى الذات؛ أم هي زائدة عليها؛ وهل هي ملازمة أم مفارقة؟ وهل كلام الله قديم؟ وهل القرآن باعتباره كلام الله مخلوق أم غير مخلوق؟ وكان أول من قال "القرآن مخلوق" هو الجعد بن درهم، مؤدب مروان بن الحكم آخر خلفاء بني أمية، وكان زنديقاً فاحش الرأى قبيح اللسان، وصاحبه الجهم بن صفوان، وهو من الزنادقة أيضاً، وقد أثارت آراؤه الفتنة بين المسلمين، في خلافة الرشيد، حتى قتله خالد القسري، بأمر هشام بن عبد الملك عام ١١٨هـ؛ ويرجع تاريخ القول بخلق القرآن أصلاً إلى لبيد بن الأعصم اليهودي الذي كان يقول: "إن التوراة مخلوقة، فالقرآن كذلك مخلوق" (١). وأول من عُرفَ بالقول بأن كلام الله تعالى قديم، هو عبد الله بن سعيد بن كلاب؛ ثم افترق أصحابه، فمنهم من قال كلام الله معنى واحداً قائماً بذات الله تعالى، ومعنى القرآن كله وكتب الأنبياء السابقين هو ذلك المعنى الواحد الذي لا يتعدد ولا يتبعض؛ وهذا كلام فاسد، لا يقوم عليه دليل نقلي أو عقلي؛ إذا كان كلام الله واحداً كما يزعم الكافر، فكيف إذن صار بعضه توراة، والبعض الآخر صحفاً وزبوراً ومزامير وإنجيلاً وقرآناً؟ وكيف تنوع فيه الخطاب بين الأمر والنهي، والجواز والوجوب، والصلاة والزكاة والصوم والحج، والأفعال والصفات، وأوصاف الجنة والنار، والتقوى والنفاق، والكفر والإيمان، والزواج والطلاق، والمتعة والنفقة، والمدح والقدح، والوعد والوعيد، والثواب والعقاب، والقصة والمثال، والناسخ، والمحكم والمتشابه (٢). إن اعتقاد السلف في القرآن أنه كلام الله، وما يسمعه الناس بأذانهم، ويقرعونه بأصواتهم، ويكتبونه بأيديهم في قراطيسهم وبأحبارهم، وما بين اللوحين كلام الله تعالى، وكلام الله غير مخلوق.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢﴾﴾ (البروج: ٢١-٢٢). فرق الله تعالى بين القرآن واللوح، وهكذا فالقرطاس، واللوح الذي يُكتب عليه القرآن، والمداد الذي يكتب به، كلها أدوات مخلوقة كائنة في زمان ومكان معينين. وكذلك صوت قارئ القرآن هو مخلوق، وصادر عنه من فمه وحنجرتة ورثته. ويتضح هذا من قول رسول الله "زينوا القرآن بأصواتكم". فنسب الأصوات إلينا لا

(١) انظر مصطفى صادق الرافعي . إعجاز القرآن والبلاغة النبوية دار الفكر العربي ١٩٢٦ ص ١٤٣ .

(٢) انظر : الإمام بن تيمية . رسائل وفتاوى . ط. الرياض ص ٢٨/٣ ، ٢٩ .

القرآن؛، وهذا التفريق له معناه، إذ القرآن كلام الباري، والصوت صوت القارئ؛ ومنه قول أبي موسى الأشعري لرسول الله ﷺ، وكان قد استمع ذات ليلة إليه وهو يقرأ القرآن في بيته، وأبو موسى لا يدرى، فلما أخبره النبي ﷺ قال: "لو علمت أنك تسمع (أى قراءتي للقرآن) لحبته لك تحبيرا". أى زينته واجتهدت في تجويده والتغنى به^(١). أما القرآن نظمه، ونقطه وحروفه، فكلام الله غير مخلوق؛ هذا هو اعتقاد المسلمين في القرآن، كما لاحظ الكاتب بحق. كان علماء الكلام- وهذا أمر طبيعي جداً- قد بدعوا يناقشون مسألة طبيعة القرآن، هل هو قديم باعتباره كلام الله تعالى الذى نزل به جبريل على محمد ﷺ؟ أم هو مخلوق، باعتبار دخوله عالم الكون والفساد؟ بدأ ذلك النقاش، إبان خلافة هارون الرشيد، واشتد الجدل فيه، في خلافة المأمون العباسي وبعده، حيث أعلن المأمون في ٢١٢ هـ / ٨٣٣ م، تحت تأثير آراء المعتزلة الذين قالوا بأن القرآن مخلوق، وليس قديماً؛ وكان هدف المأمون من وراء هذا التصريح، في الأغلب، سياسياً لا دينياً. ولذلك فقد صار مجالاً للجدل الشديد، إذ هبَّ الفقهاء، على عكس ما قَدَّرَ المأمون ودبر؛ فأنكروا القول بخلق القرآن، وقادوا حملة حامية ضده، وصلت إلى حد تكفير كل من قال بخلق القرآن؛ هذا مع أن المسألة لم تُعَدُّ أن تكون نقاشاً عقلياً، وعملاً فكرياً، لا يذهب ألبتة بعقيدة معتقديه.

بدأت الحنة منذ عام ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م، واستمرت عشرين عاماً، وكان بطلها ومجاهدها الأول من العلماء، هو الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه؛ فقد وقف في وجه الخصوم لم ينحن، ولم يشن وقد انفض الناس عنه، خوفاً أو تقيّة؛ وقد عبر الإمام أحمد عن هذا بقوله، رواية عن ابنه عبد الله: "الحمد لله الذى جعل في كل زمان فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويُصَيِّرُونَ بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا عقال الفتنة، فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجتمعون على مفارقة

الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علم، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جهال الناس بما يشبهون عليهم ...^(١) في هذه الأثناء كان القول بخلق القرآن حتماً مقضياً، فرَضته السياسة العليا للخلافة، فقد أوجبت أن يعترف به كل من يعمل في الخلافة، أو يتصل بها بسبب، وكان خصوم العقيدة السلفية، يُروّجون الفكرة بأن الله لم يتكلم؛ وكان أهل السنة يصفون هؤلاء بالجهمية.

يقول الإمام أحمد بن حنبل في معنى قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ (النجم: ١) "إن قريشاً قالوا: إن القرآن شعر؛ وقالوا: أساطير الأولين؛ وقالوا: أضغاث أحلام؛ وقالوا تقولهُ محمد من تلقاء نفسه؛ وقالوا: تعلمه من غيره؛ فأقسم الله تعالى بالنجم إذا هوى، يعني القرآن الجزء إذا نزل، أو الكوكب إذا سقط، فقال: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ، يعني محمداً، ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ يقول: إن محمداً لم يقل هذا القرآن من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُوَ﴾ يعني: ما القرآن، ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فأبطل الله أن يكون القرآن شيئاً غير الوحي، لقوله: ﴿إِنْ هُوَ﴾، تقول: ما هو ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾؛ ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ﴾، يعني علّم محمداً جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى، وهو: ﴿شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ، إلى قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ فسمى الله القرآن وحياً، ولم يُسمِّه خلقاً أو مخلوقاً^(٢).

ورداً على اعتراض الجهم بن صفوان في تعلقه بلفظة (شيء) باعتبارها إشارة إلى كل مخلوق، وما دام الله قد خلق كل شيء، فالقرآن مخلوق باعتباره داخل في عموم الأشياء المخلوقة؛ قال: فلم لا يكون القرآن مع الأشياء المخلوقة، وقد أقررتم- أى أنتم أهل السنة- أنه شيء. يقول الإمام أحمد: "فلعمري، لقد ادعى أمراً أمكنه فيه الدعوى، وليس على الناس بما ادعى، فقلنا: إن الله في القرآن لم يسم كلامه شيئاً، إنما سمى شيئاً الذي كان يقوله، ألم تسمع إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (التحل: ٤٠)؛ فالشيء ليس هو قوله؛ إنما الشيء الذي كان يقوله؛

(١) الرد على الزنادقة والجهمية ضمن كتاب عقائد السلف ص ٥٤ .

(٢) المصدر السابق

وفي آية أخرى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (يس: ٨٢)، فالشيء ليس هو أمره، إنما الشيء الذي كان بأمره. ومن الأعلام والدلالات أنه لا يعني كلامه مع الأشياء المخلوقة، قال الله للريح التي أرسلها على عاد قوم هود عليهم السلام: ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ (الأحقاف: ٢٥)، وقد أتت تلك الريح على أشياء لم تدمرها، منازلهم، ومساكنهم، ولم تدمرها، وقال: ﴿ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾، فكذلك إذا قال: ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ١٠٢) لا يعني نفسه، ولا علمه، ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة^(١). وإلا لجاز أن نقول: إن القرآن دمرته هذه الريح باعتباره شيء على قولهم السقيم المزدول.

قال أبو حامد الإسفراييني: "مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل مسموعاً من الله، والنبى ﷺ سمعه منه، والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ، وهو الذى نتلوه نحن بألستنا، وفيما بين الدفتين، وما فى صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً، وكل حرف منه، كالباء، والتاء، كله كلام الله غير مخلوق؛ ومن قال "مخلوق" فهو كافر، عليه لعائن الله والناس أجمعين"^(٢)؛ وعند الحنابلة أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وكلام له حرف، وهو منزل من السماء، والمكتوب فى المصحف كلام قديم، وكذا المقروء والمسموع، ولا فرق بين القراءة والمقروء. ونقول إضافة إلى ذلك إن القرآن لو كان حادثاً غير قديم لأمكن للإنسان الحادث أن يأتى بمثله، وهو ما نفاه القرآن نفسه عن القرآن. وذكر الإمام أبو حنيفة (ت: ١٥٠/٧١٧هـ) فى كتاب "الفقه الأكبر" أن: "القرآن كلام الله تعالى، فى المصاحف مكتوب، وفى القلوب محفوظ، وعلى الألسن مقروء، وعلى النبى ﷺ منزل؛ ولفظنا بالقرآن "مخلوق" وكتابنا له "مخلوقة"، وقراءتنا له مخلوقة، والقرآن غير مخلوق؛ وما ذكر الله تعالى فى القرآن حكاية عن موسى وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وعن فرعون، وإبليس فإن ذلك كله إخبار عنهم، وكلام الله تعالى غير مخلوق، وكلام موسى

(١) انظر كتاب الرد على الزنادقة والجهمية ضمن كتاب عقائد السلف - للأئمة أحمد بن حنبل والبخارى وابن قتيبة وعثمان الدارمي ص ٧٥، ٧٦.

(٢) ابن تيمية. رسائل وفتاوى ٣/ ٣٢، ٣٣، وانظر أيضاً الوهان محمد بن محمد الغزالي وإحياء علوم الدين، بيروت دار الكتب العلمية ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

وغيره من المخلوقين مخلوق، والقرآن كلام الله تعالى، فهو قديم لا كلامهم." (١)

هذا الكلام دافع لدعوى خصوم أبي حنيفة البطالين الذين رموه بفرية القول بخلق القرآن وهو منها براء. وفي هذا النص أيضاً تكذيب لدعوى المستشرق "ونسينك" الذى زعم متابعة لخصوم أبي حنيفة أن الإمام الورع، كان يقول بخلق القرآن^(٢)؛ ينبغي هنا أن نصحح عبارة ويلش الخاصة بـ "كتاب الفقه الأكبر" إذ قد فهم خطأ أن "ونسينك" هو الذى أسماه هكذا أى "الفقه الأكبر" كما توحى به عبارته، وهذا خطأ فالتسمية ليست لونسينك وإنما لمؤلف الكتاب نفسه، على أى حال، فقد نقل الكاتب عن ونسينك قوله بأن هذا الكلام لم يرق للإمام ابن تيمية، ولكن قبل أن نعرض لموقف ابن تيمية من هذه القضية نشير إلى ما أورده فخر الإسلام عن أبي يوسف تلميذ أبي حنيفة قال: "قد صح عن أبي يوسف أنه قال: "ناظرت أبا حنيفة فى مسألة خلق القرآن فاتفق رأيي ورأيه على أن من قال بخلق القرآن فهو كافر؛ وصح هذا القول عن محمد- رحمه الله"^(٣).

أما عن ابن تيمية فإنه يقول "إن قول القائلين بخلق القرآن خطأ ومحرم وزعم فاحش بإجماع المسلمين، وهو منكر من القول وزور، ويجب النهى عنه، وينبغى على الولاة معاقبة من يقول بذلك؛ فإن هذا القول مخالف للعقل والنقل والدين؛ مناقض للكتاب والسنة وإجماع المؤمنين؛ والقول به بدعة شنيعة لم يقلها ألبتة أحد علماء المسلمين، ولا من علماء السنة، ولا من علماء البدعة، ولا يقولها عاقل يفهم ما يقول". وبعد كلام طويل، قال الإمام ابن تيمية: "ومن المشهور فى كتاب "صريح السنة" لمحمد بن جرير الطبري، وهو متواتر عنه، لما ذكر الكلام فى أبواب السنة قال: "وأما القول فى ألفاظ العباد بالقرآن فلا أثر نعلمه عن صحابي مضى، ولا عن تابعي قفا، إلا عمن فى قوله الشفا والغنى، وفى اتباعه الرشد والهدى، ومن قام مقام الأئمة الأول أبى عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل. قال ابن جرير: سمعت جماعة من أصحابنا لا أحفظ أسماءهم يحكون عنه أنه كان يقول: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع. قال ابن جرير: القول فى ذلك عندنا لا يجوز أن يقول أحد غير قوله، إذ لم يكتبه إمام قائم به سواه، وفيه

(١) انظر على سامى النشار . نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام الإسكندرية ١٣٨٦/١٩٦٦ ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) انظر : دائرة المعارف النص الإنجليزية ٢٤٠ A

(٣) الفقه الأكبر وشرحه ص ٤٨ ، ٤٩ .

كفاية لكل متبع، وقناعة لكل مقتنع، وهو الإمام المتبع^(١).

وأفحش ما في كلام الكاتب هنا هو تفسيره الخاطئ لكلام ابن تيمية وتحمله عليه ما ليس له ولا ينسجم البتة مع عقيدته ومنهجه، حيث يزعم أن شيخ الإسلام يقرر أنه قبل أحمد بن حنبل لم يكن أحد يتكلم في موضوع القرآن من حيث كونه مخلوقاً أو غير مخلوق، إلى هذا الحد، فالكلام مستقيم في نصه، ولكنه مُلْتَوٍ بلا شك ومعوَّج في تفسيره، إذ يدعى ويلش أنه بينما قرر علماء السلف الصالح، ومنهم ابن حنبل، كون القرآن غير مخلوق، لم يثبتوا له الأبدية أو السرمدية !! كيف؟، وقد أجمع المسلمون على أن القرآن، هو كلام الله القديم فهو إذن أزلي سرمدي، هذا لا يحتاج إلى إثبات أو توقيف، وكون السلف قد سكتوا عن الخوض في هذه المسألة حتى جاء الإمام أحمد بن حنبل فانتفض للقائلين بها، لا يعني ما قصده المستشرق بالقطع وإنما كان سكوتهم سكوت اعتقاد وتسليم، إذ لم يكن هناك من الأسباب ما يضطرهم إلى الخوض فيه. ثم إن هذا السكوت لا يخدم غرض الكاتب؛ كلا، ولا يعينه على تقرير النتيجة التي يحاولها أبداً، ثم إن عبارة "غير مخلوق" لم ترد بنصها في محصل عقائد أهل السنة والجماعة إلا بعد محنة القول بخلق القرآن^(٢). وبغض النظر عن مدى صدق ونسبنا في تحديد تاريخ إطلاق عبارة "غير مخلوق" على القرآن فإن مجمل القرآن نفسه يفيد أنه غير مخلوق وغير قابل للمحاكاة. والآيات في تأكيد ذلك كثيرة.

ينقل الكاتب أيضاً، بالإضافة إلى النقطة السابقة، عن بعض المستشرقين وهو "W. Madelung" بالتحديد من كتابه أصول الجدل حول مسألة خلق القرآن؛ ومقال مونتجمري وات "W. M. watt" المبكرة في موضوع خلق القرآن؛ يزعم المستشرقون أن عبارة اللوح المحفوظ وعبارة "أم الكتاب" لم تظهر ضمن النصوص الجدلية التي أنتجتها مجادلات علماء الكلام المسلمين إلا في وقت لاحق، وبعد محنة القول بخلق القرآن، وقد فندنا هذا الزعم ودحضناه، على أن عدم استخدام عبارة "خلق القرآن" قبل المحنة لا يستدعي بالضرورة أن المسلمين كانوا لا يعتقدون بقدوم القرآن، فاللغة العربية كانت

(١) ابن تيمية. رسائل وفتاوى ٣ / ٥، و قارن بما جاء في كتاب الرد على الزنادقة والجهمية لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل. ضمن عقائد السلف ص ٧٥ - ٧٩.

(2) Muslim-Creeds pp. 103 127, 103, 127, 189.

معروفة قبل معرفة قواعدها، وكذلك الشعر عرف وسار ودار قبل معرفة علم العروض. ومهما يكن الأمر، فإن هذه المحنة قد عادت على الأمة بنتيجة إيجابية تتمثل في التمسك الأشد وبالإيمان الأقوى بالإمامة الرشيدة لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله، كما أنها أنتجت للأمة - على الجانب الآخر - آداباً سامقة، وعلومًا رفيعة، وفلسفات عميقة، وتأملات منتجة، وأفكارًا ولودًا، أثرت الجانب الفكري للإسلام وأسست له صرحاً عالياً في مجال العلم والجدل والمنهجية والتنظير والتفصيل على كل الجوانب وفي كل الاتجاهات، وتعد تلك المحنة بحق أمانة على حيوية هذا الدين وعلى قدرته الفائقة في استنهاض العقول وإثارة الأذهان مع رسوخ العقيدة وتنامي الإيمان. فالإسلام مهما تكاثرت ثماره وامتدت فروعه، ومهما حطت الطيور على أغصانه لا ينكسر جذعه، ولا يهتز ساقه، ولا يذبل عوده بل يزداد أعلاه سموًا وجنًى ونضارة، ويزداد أسفله بالاحتكاك كذلك قوة ورسوخاً وصلابة. وهذه هي عظمة القرآن، ولولا المحنة لما كان علم الكلام، ولما استوى للمسلمين حركة فكرية على قدمين. وعلم الكلام ليس بأقل أهمية من علم الفقه أو الأصول، وبخاصة عند مقارعة أهل الحضارات المادية وأصحاب الميول العقلية والاتجاهات الجدلية والفلسفية من أهل الأديان والحضارات الأخرى، ومع من كان طبعه كطبعهم وشربه كشرهم؛ ومن تقلد طريقتهم وتشبه بهم.

يقول الإمام الغزالي عن علم الكلام: "وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة"^(١)؛ وينبغي علينا أن نحمل ما ورد عن بعض السلف في ذم علم الكلام، على أنه كان نتيجة لما اقترن به أحياناً من مساوئ الجدل والخصومات، والحن والتهم بين المتجادلين. وأيضاً لما صاحب كثيراً من المتكلمين من قلة الورع، والتعصب الأعمى، والاستغناء بالتقعر في البحث، والنظر عن العمل، والتأدب بأدب الإسلام، وترجمة القرآن إلى واقع ملموس في حياة المسلمين.

(١) المسند من الضلال القاهرة . دار المعارف ص ٣٣١ . تحقيق الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود ص ٣٣١ . وقد حققناه وترجمناه إلى الإنجليزية؛ انظر: أيضاً ابن عساكر تبين كذب المقتري ص ٣٣٠ .

الباب التاسع

ترجمة القرآن

الفصل الأول ... رأي علماء السلف في الترجمة

الفصل الثانى ... الترجمات المختلفة للقرآن الكريم

[illegible][illegible]

Journal of Management Education 30(6)p. 789-804
© The Author(s) 2006. Reprints and permissions:
<http://www.sagepub.com/journalsPermissions.nav>

[illegible]

الفصل الأول

رأى علماء السلف فى ترجمة القرآن

إذا كان القرآن معجزة فى لغته، لم يستطع أحد من أرباب البيان وأحبار اللغة العربية، نثرها وشعرها أن يأتوا بمثله، كله أو بعضه. فكيف إذن نتوقع أن يُنقل القرآن إلى لغة أخرى، أى لغة كانت. إن العرب يعتزون بلغتهم، ويحتفون بها، إلى درجة يمكن معها القول بأن تاريخهم كله، وحضارتهم كلها، قامت على أساس لغوى أدبى، وكما أن الله اختار محمداً من بين خيرة الناس، اختار الله تعالى اللغة العربية كذلك من بين أحسن اللغات الإنسانية ليضمناها معانى القرآن، ويحملها مفاهيم الوحي، ومضامين الرسالة الإلهية الخالدة، ويجعلها فى الوقت نفسه رابطة أهل الإيمان وجامعة أهل القرآن.

يقول الوزير أحمد بن سعيد بن حزم والد إمام أهل الأندلس على بن حزم وشيخه: "إني لأعجب ممن يلحن فى مخاطبة أو يجيء بلفظة قلقة فى مكاتبة، لأنه ينبغي له إذا شك فى شيء يتركه، ويطلب غيره، فالكلام أوسع من هذا"^(١)؛ ويقول الباقلاني: "إننا لا نجد فى القدر الذى نعرفه من الألسنة للشيء الواحد من الأسماء ما نعرف من اللغة (أي العربية)، وكذلك لا نعرف فيها الكلمة الواحدة تتناول المعانى الكثيرة على ما تتناوله العربية، وكذلك التصرف فى الاستعارات والإشارات، ووجوه الاستعمالات البديعة"^(٢).

والكلام فى سعة لغة العرب، ووفرة مفرداتها وعجيب توليداتها، وترامى آفاقها، محل إجماع بين أئمة هذه اللغة، والمنصفين من أهل اللغات الأخرى ممن درسوا العربية.

ولذلك كان من الطبيعى أن يبقى القرآن محفوظاً ومدرّساً فى لغته التى تحدت له بطريق الوحي، والقرآن ذاته يعي جيداً عظمة ذاته، وعلو رتبة لغته على سائر اللغات، وقد وردت بسمو جماله وشموخ إعجازه الآيات الكثيرة. ولقد أقبل الناس على القرآن يحفظونه، ويدرسونه، ويعملون به، يرتلون به فى صلواتهم ومناسباتهم الدينية، وفى مجامعهم

(١) أبو عبد الله الحميدى (٤٨٨هـ) جذوة المقتبس القاهرة دار المعرفة ١٩٦٦ ص ١٢٦

(٢) الباقلاني - إعجاز القرآن ص ٥٥ .

ومحافلهم ومحافلهم، ويستنبطون منه الأحكام، ويستخرجون من بطون آياته الترياق الشافي، والنور الهادي والروح والراحة، والعزة والحمية؛ وظل القرآن هكذا عريياً مبيئاً لم يستشعر النبي الحاجة إلى ترجمة معانيه، حتى بعد دخول أهل اللغات غير العربية في الإسلام، وحتى أننا لنجد ﷺ وهو يوجه برسائله إلى ملوك ورؤساء الأرض يوجهها بلغة عربية خالصة؛ لم يتجه ﷺ إلى الترجمة، هذا على الرغم من عموم رسالته، وحرصه الشديد ﷺ على هداية البشر، ومداومة قرع أبواب قلوبهم للولوج إليها وتوجيهها إلى طريق الله رب العالمين؛ وقد كان الصحابة يحضون على تعلم اللغة العربية. فمن كلام عمر في هذا الصدد: "يا أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم"؛ وكتب إلى أبي موسى الأشعري: "أما بعد فتفقهوا في السنة، وتفقهوا في العربية، وأعربوا القرآن فإنه عربي"؛ وفي رواية "تعلموا العربية فإنها من دينكم" قال ابن تيمية: "هذا الذي أمر به عمر ﷺ من فقه العربية وفقه الشريعة يجمعها ما يحتاج إليه لأن الدين فيه أقوال وأعمال فقهية؛ الشريعة هي الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السنة هو فقه أعماله"، وقال ابن تيمية أيضاً: "إن تعلم اللغة العربية من الدين، والمعرفة وحي^(١)؛ وإنه لمن علم اليقين أن النبي ﷺ كان يعرف أن كتباً إلهية سابقة، قد نزلت بلغات أخرى، لغة القوم الذين بعث فيهم أصحاب الرسالات، والتي ترجمت فيما بعد إلى لغات أخرى، فلم يعب النبي ﷺ ذلك عليهم، ولا حاول أن يقلدهم فيه؛ ومن المعروف أيضاً أن النبي ﷺ قد أمر ثابت بن زيد أن يتعلم لغة يهود ليترجم له عنها، ويترجم عنه لأصحابها.

أضف إلى ذلك أن الله تعالى قد بعث محمداً ﷺ إلى العالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨) ولفظ "الناس" في الآية يعم جميع الخلق ويضمهم؛ والمعروف بدهاء أن الناس، فيهم العربي والعجمي الذي لا يفهم خطاب القرآن. أرسل النبي ﷺ بالوفود والجيوش لتبليغ الدعوة واقتحام مناطق الكفر، وفتح البلدان لنور الرحمن، ومع هذا لم يأمر النبي ﷺ أبنتاً بترجمة القرآن إلى لغات هذه الشعوب، لأجل هذا انتشر الإسلام وأقبل الناس على اللغة العربية يدرسونها ويمهرون فيها حتى صاروا في معرفتها من ذوى الإمامة

(١) ابن تيمية . اقتضاء الصراط المستقيم الرياض المجد التجارية ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

والمشيخة، هذا على الرغم من اختلاف اللسان وتباين اللغات واللهجات؛ وهذه الظاهرة في ذاتها دليل على عظمة القرآن، ودليل على كونه معجزة الله الخالدة. إن القرآن هو الكتاب الوحيد من بين الكتب المقدسة الذي حافظ على اللغة التي نزل بها، ولم يتخل ألبتة عن الحلل التي كساه إياها رب العالمين وخلعها عليه أحكم الحاكمين، ولا يزال القرآن على الرغم من وجود الترجمات الكثيرة إلى الآن يُقرأ بلغته الأصلية في كل بلاد المعمورة، في الجامع والجامعة؛ ولا يزال النص العربي للقرآن هو الأصل الذي يرجع إليه عند الاختلاف.

وقد ظهر دين الإسلام على جميع الأديان، وظهرت اللغة العربية على سائر اللغات التي في العالم من أجل أن القرآن أكرم كتاب أنزله الله تعالى، وأشرف كلام أحكمه، وأنه لا يقدر أحد من الأمم على اختلافهم في لغاتهم أن يحيله عما هو به من اللغة العربية إلى لغة غيرها؛ لأنه لا يمكن أن ينقل ألبتة إلى لغة على ما هو به من الاختصار والإيجاز وعلى ما فيه من أسرار وإعجاز. (١)

هذه المعاني التي أشرنا إليها تُوضَّحُ بجلاء خطأ الكاتب في دعواه بأن القرآن نزل للعرب بخاصة؛ وأنه من ثم لم يكن من أهداف صاحب الدعوة أن ينقله أو يبلغه إلى غير العرب، ولكنه (أى النبي ﷺ) بعد أن فكر في التوسع، وفي نشر الإسلام بين غير العرب، كما يزعم الكاتب، جاء بفكرة عموم الدعوة. إن هذا القول يظهر اجتهاد ويلش في البعد عن الحقيقة لا في التوصل إليها؛ ولو أن الرغبة في نشر القرآن جاءت كرد فعل للفتوحات فقط، كما يزعم، لكان ذلك أَدْعَى إلى ترجمته ليبلغه بسهولة إلى الخلق ويوصله إليهم؛ إذ ما الحكمة في أن ينتظر الفاتحون المنتصرون ويصبروا حتى يتعلم الصغير والكبير، والرجل والمرأة، اللغة العربية كي يتمكنوا من معرفة القرآن والإسلام، ويتفقهوا في الدين ثم يترجم لهم القرآن بعد ذلك إلى لغاتهم!!

ومن بدائه الأمور، فإن تعلم لغة ما، لا يُفرض على أحد بالسيف، وتعلم اللغة والمهارة فيها، لا يكون عنوة أبداً؛ ولو أن البلاد التي دخل أهلها الإسلام كانت تكره هذا الدين لكرهت اللغة العربية التي جاءهم بها هذا الدين أيضاً، ولا تُصَرَّف عنها وثبطت

(١) انظر رسائل إخوان الصفا. بيروت. دار صادر. ٣ / ١٦٤ - ١٦٥.

الناسَ دونها؛ ولكن العكس هو الصحيح. لقد دخل الناس في الإسلام أفواجا، وأقبلوا على القرآن حفظا ودراسة؛ وتبنوا لغة القرآن بشموها واتساعها في أحاديثهم، ومعاملاتهم، وفي تقيد أفكارهم، وضبط علومهم وثقافتهم وآدابهم؛ في التعبير عن آلامهم وآمالهم وأفراحهم وأتراحهم، وتخلوا طواعية عن لغات أوطانهم التي نشأوا عليها، وترعرعوا في أحضانها، وتقبلوا في فيحائها، ورضعوا أفوايقها، وحرَّ لَبَانُها، ويمكن لنا أن نفسر هذا التحول إلى اللغة العربية بأنه كان ترجمة عملية لقوة إيمان الذين دخلوا في الإسلام من غير العرب، وشدة قبولهم لما جاء في القرآن حول القرآن، ولما وجدوا في القرآن من كلام لا عهد للإنسان به من أخيه الإنسان، وبخاصة أنه كانت لبعض هذه الشعوب كتباً مقدسة كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم. بل كان منهم من يعتقدون بأن كُتِبَ أنبيائهم معجزة، كالمجوس الذين اعتقدوا أن كتاب زرادشت، وكتاب ماني معجزان^(١)؛ لذا فقد أقبل المؤمنون من غير العرب مطمئنين على لغة القرآن يتعلمونها ويتقنونها؛ ولم يفكروا البتة في نقل القرآن إلى لغاتهم ربما لأنهم قد لاحظوا فوق ما قلناه عن القرآن عجز لغاتهم عن تحمل معاني كلام الله تعالى.

وأما ما قيل من أن بعض الفرس كتبوا إلى سلمان الفارسي أن يترجم لهم الفاتحة إلى الفارسية ليُصلُّوا بها حتى تلين ألسنتهم، فكتبها لهم، فرواية ضعيفة لا يعول عليها. ثم إن الفاتحة عبارة عن أدعية جميلة تَهفوا لها الأسماع وتهش لها النفوس وتطير نحوها القلوب، وملايين أطفال المسلمين يحفظونها برغم صعوبة الكلام عليهم إذا عانوا غيرها من الحديث، وإذن فالحاجة إلى ترجمتها لم تكن ماسة حتى يكتبوا إلى بلال يطلبون ترجمتها^(٢).

وحثي لو أخذنا الرواية مأخذ القبول على ريبٍ منا، فإنه قد ورد أن بلالاً لم يترجم الفاتحة كلها، وأنه تعذر عليه نقل ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾؛ وجاء في كتاب النفحة القدسية أن سلمان ترجم لهم البسملة فقط. وهذا يعني أيضاً، إذا صح أن سلمان لم يستطع أن يترجم الفاتحة وأنه رفض ذلك.

(١) الباقلاقي. إعجاز القرآن ص ٥٥

(٢) انظر مجلّة الأزهر ١٩٠٣، ومحمد فريد وجدي "الأدلة العلمية على ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية" ملحق بالجزء الثاني من مجلّة الأزهر ١٣٥٥ ط ٢، ص ٦٤.

وذكر الشيخ رشيد رضا أن هذا الأثر إذا أُريد به أن سلمان كتب لهم ترجمة الفاتحة بلغة الفرس فكيف يكون ذلك وسيلة للين ألسنتهم (كما في الأثر)، وهم لم يقرءوا الفاتحة إلا بلغتهم، وأما إذا أُريد به أنهم طلبوا من سلمان كتابتها بالخط الفارسي، فالخط الفارسي قريب من العربي ولا دخل له أيضاً بلين الألسنة؛ والصواب أن الأثر غير صحيح^(١). يبدو أن الشيخ رشيد رضا فهمَ لَينَ الألسنة على غير وجهها وبالتالي عليه ضَعْفُ هذا الأثر، ونحن معه في أن الأثر ضعيف ومردود، ولكننا نخالفه في فهم عبارة "حتى تلين ألسنتنا"، إذ المقصود بها، حتى نتعلم العربية، ويسهل علينا النطق بها، من خلال تعلمنا لها لا من خلال قراءة الفاتحة بالفارسية، كما فهم الشيخ رضا.

وكما تعذر على الناس الإتيان بمثل القرآن، كله أو بعضه أو حتى سورة منه، تعذر عليهم أيضاً ترجمته، وتحويل معانيه عن ألفاظها التي قُدَّت لها وصيغت من أجلها. حاول كثير من الناس أن يترجم معاني القرآن، فاستحال عليهم نقله وتعذرت ترجمته، فترجموا منه شيئاً يسيراً مثل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، و(سورة الفاتحة)، كما أشرنا إليه، على استخراج شديد، ونقل بعيد، وشدة ومعاناة؛ حتى لقد قال بعض العلماء باللغة: "لو أن الناس عمدوا أن ينقلوا قول الله عز وجل: ﴿سَيَرْزُقُ أَجْمَعُ وَيُؤْتُونَ الدُّبُرَ﴾ (القمر: ٤٥)، أو قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (المائدة: ٥٤)، أو قوله تعالى: ﴿فَأَنذِرْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ (الأنفال: ٥٨)؛ لا يمكن نقله على هذا الاختصار، حتى يوسع الكلام فيه، ويكثر القول فيه بما يخرج عن معناه، ويسلب بهاءه، ومثل هذه الألفاظ كثيرة لا تنقل من لغة العرب إلى سائر اللغات، ولا توجد لها ترجمة. هذا كلام الشيخ أبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي (ت: ٣٢٢ هـ) في كتاب "الزينة في الكلمات الإسلامية العربية"^(٢). ونقل الرازي عن محمد بن عبد الله العتيبي قال عليّ كرم الله وجهه: "كلام العرب كالميزان الذي يعرف به الزيادة والنقصان، وهو أعزب من الماء، وأرق من الهواء، إن فسرته بذاته استصعب، وإن فسرته بغير معناه استحال فالعرب أشجار، وكلامهم ثمار، يثمرون والناس يجتنون، بقولهم يقولون، وإلى علمهم يصيرون".

(١) انظر محمد مصطفى الشاطر . القول السديد في حكم ترجمة القرآن المجيد . طبعة حجازي ١٣٥٥، ١٩٣٦، ص ١٢٥، ١٢٤.

(٢) الكتاب من جزأين متوسطين حققه حسين بن فيض الله الحمداني البصري الحارثي القاهرة ١٩٥٨ انظر ١/ ص ٦٦ وما بعدها.

يقول أبو حاتم الرازي فعلى هذا لغة العرب ممتنعة على سائر اللغات، واللغات كلها منقاد لها، وأقبلت الأمم كلها إليها يتعلمونها، رغبة فيها، وحرصا عليها، ومحبة لها وفضلا أبانه الله فيها للناس ليين لهم فضل محمد ﷺ على سائر الأنبياء^(١).

ويقول أبو الفتح عثمان بن جنى بعد كلام: "... على ما أودعته هذه اللغة الشريفة، من خصائص الحكمة ونيطت به من علائق الإتقان والصنعة^(٢)؛ ويقول فى الفرق بين الكلام والقول: "إن إجماع الناس على أن يقولوا إن القرآن كلام الله، ولا يقال القرآن قول الله؛ وذلك أن هذا موضع متحجر (ثابت راسخ) لا يمكن تحريفه، ولا يسوغ تبديل شيء من حروفه، فعبير لذلك عنه بالكلام الذى لا يكون إلا أصواتاً غير مفيدة، وآراءً معتقدة..."^(٣)

لا بد وأن تكون هناك محاولات لترجمة بعض آيات القرآن قام بها بعض أفراد إما من أهل الأديان الأخرى، أو من الناطقين بلغتين سواء من العرب الذين اختلطوا بالعجم، أو من بين هؤلاء العجم الذين عاشوا وسط العرب، ولكن هذه المحاولات لم تصلنا؛ ربما لأنها لم تفلح فى نقل معانى القرآن، أو لأن أصحابها لم يجدوا لها مكانا بين الجموع التى أقبلت على تعلم العربية، وحفظ القرآن بلغته الأصلية، فلم تكن هناك ثمة حاجة إلى ترجمة القرآن إلى لغات أخرى، والذى نلاحظه أن فكرة ترجمة القرآن لم تأت بغرض الترجمة لذاتها ولا بغرض نشر الإسلام، الذى هو فى حد ذاته أول الأغراض وأسمائها، وإنما جاءت لتحيب على سؤال فقهى، هل تجوز الصلاة بقرآن مترجم؟! وبخاصة إذا كان المصلي عاجزاً عاجزاً تاماً عن قراءة الفاتحة أم القرآن؟ والإجماع منعقد على عدم جواز القراءة فى الصلاة بقرآن مترجم.

جاء فى شرح النووى على مسلم (٤/ ١٠٦): "وتحرم قراءة الفاتحة بالعجمية ولا تصح الصلاة بها سواء أعرف العربية أم لا"؛ وقال الزركشى فى البحر المحيط "لا تجوز ترجمة القرآن بالفارسية ولا بغيرها بل تحب قراءته على الهيئة التى يتعلق بها الإعجاز لتقصير

(١) المصدر نفسه ١/ ٦٢، ٦٣.

(٢) الخصائص ١/ ١.

(٣) المصدر نفسه ص ١٩.

الترجمة عنه، ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به دون سائر الألسن^(١)؛ وفى المجموع نقرأ "أما الفاتحة وغيرها من القرآن، فلا يجوز ترجمته بالعجمية بلا خلاف لأنه يُذهب الإعجاز"^(٢)؛

ويقول السيوطى فى الإقتان^(٣): "ولا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً، سواء أحسن العربية أم لا، فى الصلاة أم خارجها، وعن أبى حنيفة أنه يجوز مطلقاً، وعن أبى يوسف ومحمد (أنها تجوز) لمن لا يحسن العربية؛ لكن فى بيانات شارح البردوى أن أبى حنيفة رجع عن ذلك، ووجه المنع أنه يذهب إعجازه المقصود منه".

وفى مذهب أبى حنيفة أيضاً، وهو مذهب الشافعية أنه لا تجوز قراءة القرآن بغير لسان العرب، سواء أمكنه القراءة بالعربية أم لا، وسواء كان فى صلاة أم فى غيرها، فإن أتى بترجمته فى صلاة بدلاً عنها سقطت صلاته سواء كان يحسن القراءة بالعربية أم لا، وبه قال جماهير العلماء ومنهم مالك وأحمد وأبو داود.

وعن القفال الكبير الفقيه الشافعى (ت ٣١٥ هـ) "إن القراءة الفارسية لا تتصور، قيل له فإذاً لا يقدر أحد أن يفسر القرآن؛ قال: ليس كذلك، لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض، أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله تعالى لأن الترجمة عبارة عن إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها، وذلك غير ممكن، بخلاف التفسير".

وكلام الإمام القفال صحيح فى مجمله؛ ولكننا نختلف معه فى تعريف الترجمة، بأنها "بجرد إبدال لفظة بلفظة تقوم مقامها"؛ فهذا لون من الترجمة الحرفية الجامدة التى قد تكون مستحيلة لأنه ليس بالضرورة أن تكون الألفاظ فى لغة ما لها، ما يقابلها فى لغة ما أخرى، فقد لا نجد كلمة إنجليزية مثلاً تقابل من كل الوجوه كلمة عربية.

الترجمة فن وهى نقل معانٍ ومفاهيم أكثر منها ألفاظاً وعبارات، وقد تنحط الترجمة عن الأصل، وقد تساويه، أو تتفوق عليه، بحيث يصعب التفريق بين المنقول إليه والمنقول عنه؛ وهذا يتوقف على مهارة المترجم وتمكنه، وإخلاصه أيضاً. الترجمة إبداع وليست

(١) المجموع ٢٩٩/٣.

(٢) المصدر نفسه ٣٠٧/٢.

(٣) المصدر نفسه ١٠٥/٢ وما بعدها.

بمجرد نقل كلمات أو وصف عبارات، والذي يخشى من الترجمة هو ضياع المعاني والصور والظلال والتصورات أثناء رحلة النص من لغة إلى أخرى، ومهما كانت الترجمة من الدقة والأمانة فإنها تصيب النص بشيء من التغيير، والمترجم ولا بد واضع فيها نفسه، ومسقط فيها من نفثه، وكلما كان النص أرقى في لغته كلما صعبت ترجمته، وبخاصة النصوص التي تحتوي على قيمة جمالية كبرى كالذي تحمله الفواصل والمقاطع، كما في حالة الشعر على سبيل المثال؛ فقد منع الجاحظ أو استبعد أن تنقل معانيه إلى لغة أخرى، دون أن نضحى بالكثير من معانيه وآثاره في النفس والحس، إننا يمكن أن نشبه الترجمة بعملية مضغ الطعام ليأكله من ليس له أسنان بمضغها، إن المتناول للطعام على هذا النحو يفقد بلا شك الكثير من نكهة الطعام ومذاقه، وقد يصاب بالأمراض إذا كان ماضغ الطعام مصاباً معلولاً.

وإن مما يُقوّي كلامنا هذا ما جاء عن الفقهاء في تحريم قراءة القرآن بالمعنى، ولما ورد عنه ﷺ من قوله: "اقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتها؛ وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق، فإنه سيجيء أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهبانية، لا يجاوز حناجرهم، مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم". أخرجه الطبراني والبيهقي. فالمسلم منهيٌّ عن قراءة القرآن بغير لحون العرب، فما بالك بقراءته مترجماً، ولكل لغة طريقة في النطق وأسلوب في التعبير، والترجمة ما هي إلا تعبير عن لغة بلغة أخرى. وعند المالكية أن الصلاة لا تجوز بغير القرآن العربي. وفي حاشية الدسوقي على شرح الدردير للمالكية^(١)، أنه لا يجوز قراءة القرآن بغير العربية. فإن عجز عن النطق بها خلف من يحسنها، وإذا لم يجد إماماً سقطت عنه الفاتحة. وقال إنه يجب على كل مكلف أن يتعلم الفاتحة بالعربية وأن يبذل وسعه في ذلك ويجتهد في تعلمها وما زاد عنها إلى أن يحول الموت دون ذلك، وهو بحال الاجتهاد فيعذر إذن^(٢)؛ ومن المفيد أن نشير إلى أن الإمام مالك ﷺ يتشدد في ضرورة الالتزام حتى بشكل الكتابة والخط في كتابة القرآن. وجاء في المغني^(٣) أن الحنابلة لا يجيزون القراءة بغير العربية ولا إبدال لفظ بلفظ عربي سواء أحسن

(١) انظر: ١/ ٢٣٢، ٢٣٦. وأيضاً تفسير القرطبي ١/ ١٢٦.

(٢) النقل بتصرف من محمد مصطفى الشاطر. القول السديد. ٤٨، ٤٩.

(٣) ابن قدامة المغني ١/ ٥٣٦.

قراءتها بالعربية أم لم يحسن ثم قال: "فإن لم يحسن القراءة بالعربية لزمه التعلم فإن لم يفعل مع القدرة عليه لم تصلح صلاته"؛

قال الإمام الغزالي^(١) بعد أن ذكر ضرورة التزام النشق القرآني ووجوب عدم الجمع بين متفرقه أو التفريق بين مجتمعه: "فكيف يسلط العوام في مثل ذلك على التصرف بالجمع والتفريق، والتأويل والتفسير، وأنواع التغيير، ولأجل هذه الدقائق بالغ السلف في الجمود والاختصار على موارد التوقيف، كما ورد على الوجه الذي ورد، باللفظ الذي ورد، والحق ما قالوه، والصواب ما رأوه..." وهو إذ يوصى بالإمسك عن الخوض في الأخبار الموهمة بالتشبيه يقول "فإنه لا يتصرف في تلك الألفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق إلا بذلك اللفظ، وعلى ذلك الوجه من الإيراد والإعراب والتصريف والصيغة"^(٢).

ومذهب ابن حزم الظاهري الأندلسي "أن من قرأ أم القرآن، أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله عامداً لذلك؛ أو قدم كلمة أو أخر عامداً لذلك؛ بطلت صلاته، وهو فاسق، لأن الله تعالى يقول: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (يوسف: ٢)؛ وغير العربي ليس عربياً، فليس قرآنًا، وإحالة عربية القرآن تحريف لكلام الله تعالى، وقد ذم الله تعالى قوماً فعلوا ذلك فقال: ﴿تُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (المائدة: ١٣)، ومن كان لا يحسن العربية، فليذكر الله تعالى بلغته لقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)؛ ولا يحل له أن يقرأ أم القرآن، ولا شيئاً من القرآن مترجماً، على أنه الذي افترض عليه أن يقرأه لأنه غير الذي افترض عليه كما ذكرنا فيكون مفترياً على الله تعالى"^(٣).

يتضح من هذا النص أن ابن حزم، وهو من هو، في علمه، ومعرفته، ومثانة دينه، وسعة أفقه، يعتبر الترجمة تحريفاً للقرآن، ويمنع أن تسمى الترجمة قرآنًا، ويرفض حتى أن تضمن بعض معاني القرآن ألفاظاً عربية غير ألفاظ القرآن ثم تسمى قرآنًا، وابن حزم خير

(١) إجماع العوام ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه ٥٤.

(٣) المحلى ط. القاهرة تحقيق زيدان ٥/ ٢.

بسقطات المترجمين، وما فعلته أيدى المترجمين في كتب اليهود والنصارى، فهو كثيرا ما يشير في كتاب "الفصل" أو في غيره من كتبه الأخرى إلى أخطاء المترجمين وقلة إلمامهم باللغة العربية وضعف إدراكهم لأسرارها. ومن المفيد جدًا أن نلفت النظر إلى عبارة ابن حزم (من قَدَّمَ كلمة أو أخرَّ أخرى- يعنى في النص القرآني- بطلت صلاته) والترجمة بلا شك يقع فيها التقصير والتأخير، وغير ذلك هذا أمر بدهي^(١).

أما بالنسبة للأحناف، فإن النصوص في الفقه الحنفي كثيرة في التدليل على منع كتابة المصحف بالفارسية، ومداومة قراءة القرآن بغير العربية وإن من فعل ذلك فهو مجنون أو زنديق. وللشيخ أبي الحسن المرغيناني في كتابه "التحسيس": "ويمنع من كتابة القرآن بالفارسية لأنه يؤدي إلى الإخلال بحفظ القرآن لأننا أمرنا بحفظ النظم، والمعنى وأنه دلالة على النبوة، ولأنه ربما يؤدي إلى التهاون بأمر القرآن"^(٢).

على أننا لا نكتف القارئ قِلا إذا ذكرنا أن في تركيز الفقهاء على الترجمة إلى الفارسية بخاصة من بين لغات الشعوب الأخرى التي دخلت في الإسلام كالعبرية، واللاتينية والسرانية، والهيوغليزية، وغيرها، ما يدل على أن في المسألة سرًا وهو محاولة إظهار تفوق اللغة الفارسية أو إثبات كفاءتها وحدها أمام العربية، ولعل في كلام الإمام الألوسي ما يدعم إحساسنا العلمي هذا قال: "اشتهر عن الإمام أبي حنيفة أنه أجاز القرآن في الصلاة بالفارسية وغيرها". وروى عنه تخصيص الجواز بالفارسية لأنها أشرف اللغات بعد العربية"^(٣).

في ظل هذه الأدلة والبراهين نتبين أنه لم تكن هناك حاجة إلى ترجمة القرآن، وأن الإسلام قد ظل يفتح البلاد ويدعو العباد بقرآن عربي اللسان، عربي الخط والبيان؛ حتى في العصر الذهبي للترجمة في الدولة العباسية، عندما عُيّنت الدولة بترجمة الذخائر من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية لم تظهر الدعوة إلى ترجمة القرآن، ولا حاول أحد المترجمين المحترفين ذلك لا بدافع من النفس ولا بتكليف من الغير. واستمر الحال على ذلك حتى بدأ المُنصِّرون، والمستشرقون يطلعون على القرآن ويتعلمون لغته، ويعالجون ترجمته أو قل

(١) الخلى - تحقيق أحمد محمد شاكر - دار الفكر ٥/ ٢ .

(٢) النفحة القدسية : ١١ والنقل عن الشاطر ٥٣

(٣) النقل عن الشاطر : ٥٥

يقصدون إلى تشويبه عن طريق تقديمه إلى شعوبهم بلغة تصرف قلوبهم وعقولهم عنه، وتعزز حملاتهم الكلامية الصليبية ضده، وضد النبي ﷺ الذي جاء به عن الله ﷻ. فجاءت هذه الترجمات بكلام لا يعرفه أهل القرآن، وحتى هذا الوقت لم ينهض المسلمون لترجمة القرآن، وإنما جاءت رُدودهم في شكل جدليات ومعارضات وردود تَضَمَّنَتْ أشياء من سوء فهم المنصرين للقرآن، وتَغَيَّرَ الحال رويدًا رويدًا بالنسبة لمسألة ترجمة القرآن عندما بدأ المنصرون ينظمون أنفسهم في شكل جمعيات وجماعات، وعندما أسسوا إرسالياتهم واقتحموا أوطان المسلمين وبخاصة إبان احتلال الأراضي الإسلامية ومحاربة لغة العرب، والدين، والاستعانة بالحكام المواليين للاستعمار لضرب القوى الدينية، ومحاربة الروح الإسلامية والأشكال والعوائد والطرز العربية، وبالأخص محاربة اللغة العربية الحاكمة، وبت الدعاية لإحياء اللغات القومية للشعوب الإسلامية، واستنهاض القوى المعادية للإسلام التي كانت تسعى جاهدة لإحياء التراث القومي وإحلاله محل التراث الإسلامي، الروحي والعلمي والحضاري.

من هنا بدأ تعلم العربية ينحسر، واستشعر المسلمون الخطر على القرآن فحاولوا عندئذ أن تكون لديهم ترجمات أمينة بأقلام إسلامية رشيدة لمعان القرآن تساعد المسلمين غير الناطقين باللغة العربية، وتسعفهم على الاتصال بكتاب ربهم، هذا إلى جانب معرفة الكثير منهم القرآن الكريم في لغته الأم، والذي لم يخف حتى الآن من المساجد والمراكز والمدارس والجامعات في العالم الإسلامي، وفي كل مكان من أنحاء المعمورة؛ ومع ذلك فقد نشأ خلاف حاد بين علماء الإسلام في البلدان الإسلامية المختلفة حول جواز الترجمة وشروطها كما كان الحال في الماضي؛ فقد أصدر الأزهر فتوى في ذلك أباح فيها ترجمة القرآن وبين في فتواه معنى الترجمة المقصودة وشروطها المطلوبة وهدفها المنشود.

ولا نستطيع في هذا المقام المحدود أن نتبع كلام العلماء في هذا الموضوع بالتفصيل ولكن من المفيد أن نذكر أنه في عام ١٩٣٢ بدأ بعض الأتراك (بضغط من زعماء التحديث) يجربون الصلاة باللغة التركية، ويقرءون القرآن بهذه اللغة، وقد أحدثت هذه المحاولة المغرضة جدلا واسعا، وحادًا في أوساط المسلمين في البلدان الإسلامية المختلفة؛ وقد ادعى أنصار التحديد والتغريب في تركيا أن الأتراك لا يفهمون القرآن بالعربية لذا

وجب أن يصلوا بالتركية، وقرروا بمكرٍ عملَ ترجمةٍ تركيةٍ للقرآن لا تضم معها الأصل العربي. ورد المحافظون على ذلك من جانب آخر بأنه لا مانع من ترجمة القرآن لكنهم منعوا الصلاة بالنص المترجم، وقالوا إن الترجمة تخل بالأصل وتذهب بجماله.

والصلاة بالقرآن المترجم، بدعة سيئة بلا شك، لما تؤدي إليه من هجر القرآن المنزل واتباع ترجمة لا يمكن، مهما اجتهد المترجمون، أن تقترب من النص القرآني العربي، فضلاً عن إمكان إخراجها بالفاظ وأشكال وتراكيب معجزة تستوعبه.

وبنى المؤيدون للصلاة بالترجمة رأيهم هذا على رأي أبي حنيفة، الذي أباح فيه الصلاة على هذا النحو؛ مع أن الإمام أبا حنيفة لو صح عنه النقل، فقد قصر الإباحة على الحالات التي يعجز فيها المسلم عن أداء الصلاة بالعربية، وحددها بمدة؛ واشترط إلى جانب ذلك أن يجتهد المرء في تعلم القرآن باللغة العربية، وأن يبذل الجهد والوسع في ذلك.

نقل الأمير شكيب أرسلان في "حاضر العالم الإسلامي"، عن ابن خلكان أن السلطان محمود بن سبكتكين جمع مجموعة من العلماء، وطلب إلى كل واحد منهم أن يصلي على مذهب صاحبه، وأن يقارنوا بين مذهب الشافعي وأبي حنيفة، فتقدم القفال المروزي بصلاة الشافعي فأحسن فيها على مذهبه، ثم توضأ وصلى بصلاة الحنيفة، وتساهل في الطهارة، وقرأ آية من القرآن بالفارسية، ثم قال هذه صلاة أبي حنيفة، فطلب السلطان كُتُبَ أبي حنيفة، فأحضرت؛ فقرأ منها ما يتعلق بالصلاة فوجده موافقاً لما فعله القفال^(١).

ونرى أن هذه الحكاية موضوعة أساساً بغرض تدعيم القول بجواز الصلاة بالفارسية من خلال رأي أبي حنيفة، وإظهار أن السلطان نفسه لم يوافق على هذا، مما يدل على شيوع الجدل حول موضوع الترجمة بين علماء المسلمين.

وقد طعن ناقل هذه الحكاية في ابن خلكان ووصفه بالتعصب للشافعي على أبي حنيفة^(٢). هذا مع أن الشافعي كان يُكبر الإمام أبا حنيفة ويدب عنه.

وقد تضمنت فتوى الشيخ المراغي شيخ الأزهر الأسبق، فتوى شمس الأئمة السرخسي؛ وأصل هذه المسألة أن المصلي إذا قرأ في صلاته بالفارسية جاز عند أبي حنيفة

(١) حاضر العالم الإسلامي ١/ ٢٠٦.

(٢) المصدر نفسه.

رحمه الله ولكنه يكره عند الصاحبين، فقد نقل عنهما أنه لا يجوز للشخص أن يصلى بالترجمة إذا كان يحسن العربية، وإذا كان لا يحسنها فإنه لا يجوز له. قال أبو يوسف ومحمد رحمهما الله: "القرآن معجز، والإعجاز في النظم والمعنى، فإذا قدر أن يقرأ في الصلاة بالعربية فلا يتأتى له ذلك، وإذا عجز عن النظم، أتى بما يقدر عليه، وهو في هذا، يكون حاله كحال من عجز في الركوع أو السجود، فيصلى بالإيماء".

ونقل الشيخ عن "شرح الكنز" للزيلعي قوله: "وأما القراءة بالفارسية فجائزة في قول أبي حنيفة". وقال أبو يوسف ومحمد "لا يجوز (له أن يصلى بغير العربية) إذا كان يحسن العربية، لأن القرآن اسم لمنظوم عربي". وللإمام أبي حنيفة على ما جاء بالفتوى أن قول الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ ﴿صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ ﴿(الأعلى: ١٨-١٩)﴾، وصحف إبراهيم كانت بالسريانية، وصحف موسى كانت بالعبرانية، فدل على كون ذلك قرآنًا.

ويقول: "ويجوز (له أن يصلى بغير العربية) بأي لسان كان، وهو الصحيح، لأن (الوحي) المنزل وهو المعنى عنده، لا يختلف باختلاف اللغات؛ نقول نعم، نزل وحي بالسريانية وبالعبرانية وبغيرها من لسان أمم الأنبياء لكننا لا نسلم بأن الموحى به هو المعاني فقط، وأن المعاني لا تختلف باختلاف اللغات، لأن ذلك يوحى بأن ألفاظ الوحي من فعل الأنبياء أو تأليفهم، والمعلوم الاعتقادي أن القرآن بألفاظه ومعانيه من الله تعالى، وأن كل ما في القرآن، وحي منزل، وقد وقع الإعجاز والتحدى بالألفاظ والمعاني معاً، والقول بأن المعاني لا تختلف باختلاف اللغات، قول واسع يحتاج إلى تقييد وتضييق، إذ يمكن أن تختلف المعاني باختلاف الألفاظ التي تحملها والأساليب التي تعبر عنها، واللغات كالناس، طبقات ودرجات؛ وقد أوردنا فيما سبق أن الإمام أبا حنيفة قد رجع عن قوله في جواز الصلاة بالترجمة. والكلام في هذا الموضوع يطول.

اختلف علماء المسلمين بين مؤيد ومعارض، وبين متشدد ومتساهل، مما أحر دخول المسلمين مجال ترجمة القرآن على الرغم من خبرتهم التاريخية في الترجمة إلا أن هذا التأخير كان لصالح القرآن نفسه ولصالح اللغة العربية، التي أقبلت الأمم الداخلة في الإسلام على تعلمها وحفظ كتابها والوقوف على علومها المتنوعة؛ وعرفنا كذلك أن الفقهاء

وعلماء الأمة قد اختلفوا حول موضوع ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى؛ ثم استقر الرأي أخيراً على جواز ترجمة المعاني أو بعضها، لتكون عوناً للمسلمين من غير العرب على فهم دينهم وكتابهم، وحتى يحال بينهم وبين مطالعة الترجمات الخاطئة والمغرضة التي يقوم بها المستشرقون والمنصرون، وغيرهم ممن هو على شاكلتهم في المنهج والقصد، أقر ذلك الأزهر الشريف وهيئة كبار العلماء؛ كما يتبين من فتوى فضيلة شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد مصطفى المراغي التي تضمنتها رسالته إلى على ماهر باشا رئيس وزراء مصر آنذاك، والمؤرخة في ٢٣ محرم ١٣٥٥هـ - ١٥ إبريل ١٩٣٦م، والتي جاء في آخرها "...لذلك أقترح أن يقرر مجلس الوزراء ترجمة معاني القرآن الكريم ترجمة رسمية على أن تقوم بذلك مشيخة الأزهر بمساعدة وزارة المعارف. وأن يقرر مجلس الوزراء الاعتماد اللازم لذلك المشروع الجليل ...". وقد تم فعلاً تشكيل لجنة لذلك كما نتبينه من تصريح الأمير محمد على الوصي على عرش مصر في ذلك الحين لجريدة الأهرام في ٢٤ محرم ١٣٥٥هـ - ١٦ إبريل ١٩٣٦^(١).

ولكننا نقول إن العلماء، المحمودة آثارهم، قد اختلفوا في شأن الترجمة، والمراجع لأقوالهم يمكن أن يخرج بنتيجة مهمة؛ وهي أن الذين قالوا بجواز الترجمة، وضعوا لها الشروط اللازمة واحتاطوا لها، وجعلوها من باب الضرورات التي تباح في ظروف معينة، وأوقات خاصة، وإن هؤلاء الذين منعوا من الترجمة منعاً باتاً كانوا حريصين على سلامة النص القرآني من التحريف، وعن تدخّل الإنسان في لفظه أو عبارته، بأى شكل من الأشكال، ولأى غرض من الأغراض؛ وهذا المنع يكون واجب، إذا كان المترجم غير مسلم لا يراعي حرمة القرآن، ولا يفهم سر العربية؛ ويضاف إلى هذه الأسباب أن الترجمات قد تفتح الأبواب لصرف الناس عن حفظ القرآن ودراسته باللغة التي اختارها الله تعالى؛ ومن المسلم به بين الخيرة في الترجمة، أنه لا توجد ترجمة أليّة يمكن أن تعكس الأصل كما تنعكس الصورة في المرآة، ومن هنا كان اختلاف الترجمات، وكانت حاجة المترجمين إلى الهوامش، التي يوضحون فيها ما غمض عليهم أو صعب عليهم ترجمته؛ ولذلك نجد بعض المترجمين يعللون لاختيارهم للفظه دون أخرى ... وهكذا.

(١) انظر : د. محمد صالح البنداق . المستشرقون وترجمة القرآن الكريم ص ٨٣ - ٨٤ .

والقول الذى نراه فاصلاً في موضوع الترجمة، هو أن ترجمة القرآن خطراً لا بد منه؛ وذلك لأننا حتى الآن، لا نجد ترجمة صحيحة أو خالية من الأخطاء والمخالفات؛ بل إننا لا نجد ترجمة لهذا الكتاب المعجز تصل في البلاغة حتى إلى بلاغة الكتب الأدبية في اللغة المترجم إليها، على سبيل المثال فإن ابن اللغة الإنجليزية أو القارئ المجيد لها، قد يجد متعة أكثر وراحة أوفر في قراءة أحد نصوص مسرحيات شكسبير أو قصائد ت. إس اليوت وروث أو غيرها، من قراءة ترجمة يوسف على، أو ترجمة آربرى للقرآن؛ هذا مع أن القرآن في لغته العربية أبلغ وأرقى وأدق وأعمق من كتب الأدباء الموهوبين من البشر؛ وليس يوجد كتاب في العربية يفضلُه مسلم ألبتة على قراءة القرآن.

أضف إلى ذلك أنه لا توجد ضوابط محددة لترجمة القرآن الكريم؛ وهذا ليس من النادر فقد اطلعنا على ترجمات قدمها مسلمون، تنطوى على أخطاء كثيرة تسيء إلى القرآن؛ وربما لم يكن هذا غرضهم، ولكنهم مع ذلك ملومون؛ لأن القرآن لا يُخدم بمجرد النوايا الصالحة، أو الدعاوى العريضة؛ فقد يتعرض للترجمة من ليس لها بكفاءة؛ مما قد يسهل إدخال التحريف في الترجمة وهذا يُفسد المجال لترويجها بين الأمم الأخرى التي يُرجى اعتناقها للإسلام، فتكون الترجمة إذن صارفة عن الإسلام بدل أن تكون داعية إليه محبة فيه.

وفي عصرنا الحالي اتسعت ترجمات القرآن في اللغات المختلفة؛ وبمراجعة سريعة لهذه الترجمات لاحظنا أن بعضها يضع صوراً غير لائقة على الغلاف، مما يتنافى مع روح القرآن ويصادم تعاليمه التي تحرم الرسوم والتصاویر؛ وبعض هذه الترجمات يضع اسم محمد ﷺ مع الترجمة، كأن يكتب قرآن محمد مثلاً، مما يُوحى أن محمداً هو مؤلف هذا الكتاب؛ وبعض المترجمين يكتب مقدمات إضافية عن القرآن يضمنها كل سمومه ويُشربها كل أحقادها، يصور للقارئ أنه بصدد قراءة كتاب مؤلفه بشر، هذا الكتاب متناقض وغير موثق، كتاب ملفق منتحل من اليهودية والنصرانية ومصادر أخرى، وأن تعاليمه وحشية همجية تنافي العمران وتضاد المدنية؛ وبعض المترجمين يلفق في مقدمة ترجمته الحانقة، الأكاذيب على رسول الله ﷺ؛ كما فعل اليهودى العراقى داود مثلاً، وغيره؛ إذ قدم هذا المترجم الأخير ثبناً تاريخياً يصور من خلاله محمداً بأحط صفات الوحشية، وبالعداء

الدموى لليهود؛ وللأسف فإن هذه الترجمة قد طبعت ووزعت بالآلاف ولا زالت تطبع وتوزع، وتقوم على نشرها دار بنجون من كبريات دور النشر في بريطانيا وفي العالم؛ ناهيك بما في هذه الترجمة، وقريناتها من أخطاء ومغالطات واعتساف وإجحاف.

وهذه ترجمة ريجنس بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٣) الذي كان عضواً في المجمع الفرنسي الأعلى بباريس والمجمع العلمي بدمشق، وأستاذاً في معهد الدراسات المغربية في الرباط؛ ترجم بلاشير القرآن إلى الفرنسية، ونشره في ثلاثة أجزاء في الأعوام من ١٩٤٧ إلى ١٩٥٢، وفي هذه الترجمة فعل بلاشير ما لم يستطع أحد أن يفعله بالنسبة للنص العربي إذ دس آية الغرائق المزعومة ضمن آيات سورة النجم، وهذه خيانة علمية، كفيفة وحدها أن تسقط اسمه من ديوان الكتاب الباحثين. كيف اعتبر بلاشير هذه العبارات قرآناً؛ وقد ذكرنا أن نص عبارة آية الغرائق قد ورد بعدة صيغ، ولا ندري كيف سوغ هذا المستشرق لنفسه أن يتخير منها صيغة واحدة بعينها ويهمل الصيغ الأخرى. أما كان يكفى بلاشير عجزه في فهم أسرار اللغة العربية واللغة القرآنية بالذات، وقصوره البين عن فهم دقائق التعبير القرآني ونقله ولو بصورة تقريبية إلى اللغة الفرنسية حتى يضيف إليه من وحي عناده؛ لكنه أثر عَرَض الحياة الدنيا على عرض الحقائق العليا، والالتزام بالمنهج العلمي الصحيح.

وفي الطبعة الأولى للترجمة الفرنسية التزم بلاشير بالترتيب الزمني للصور والآيات، الذي أخذه عن سلفه من المستشرقين كما أشرنا إليه، لكنه لما لم يلق قبولاً من الباحثين، عاد بلاشير فتبني الترتيب الأصلي للمصحف في طبعة أخرى لترجمته كانت أوسع انتشاراً من الأولى. ظهرت الترجمة الأخيرة في جزأين، في عام (١٩٤٩ و ١٩٥٠)، وفي ١٢٣٩ صفحة من حيث الحجم^(١)؛ في المدخل أو الترجمة دس بلاشير الكثير من الأساطير حول القرآن إنه بالطبع ينطلق من مقولة استشراقية خاطئة، هي بشرية القرآن؛ ثم إنه يزعم أن النبي ﷺ لم يكن حريصاً على كتابة القرآن عندما كان ينزل عليه؛ والسبب في ذلك عند المستشرق المحلل، أن خوفه ﷺ كان شديداً عند نزول القرآن عليه لأول مرة مما جعل من الصعب عليه كتابة القرآن، هذا أولاً، وأما ثانياً: فلأن المسلمين كانوا في صراع دائم مع

(١) عبد الرحمن بدوي . موسوعة المستشرقين وانظر : نذير حمدان . مستشرقون ١٥١ .

يهود المدينة الذين كانوا يسيطرون على وسائل الكتابة، والنتيجة العبقريّة التي ينتهي إليها بلاشير، ويطير بها فرحاً ونجحاً هي أن القرآن لم يُكتب بأكمله في عهد الرسول مما تسبب في ضياع أجزاء منه، وهذه الأجزاء لم تستطع صدور الحُفَاط أن تحميها من الضياع كذلك.

وراح بلاشير يعلل لدعواه هذه بأن محمداً ﷺ لم يهتم بتسجيل القرآن وقت نزوله، فقدم عدة افتراضات لا وجود لها، إلا في أم رأسه هو؛ منها أن العربي بطبيعته لا يفكر إلا في اللحظة الحاضرة ولا يهتم بالمستقبل أبداً، وأنه يترك الأمور هكذا تجري على عواهنها دون تدخل منه أو اعتراض. من الواضح إذاً أن بلاشير يقوم بمحاولة يائسة لتقرير نتيجة غير معقولة بالمرة.

ولكى نوضح للقارئ عجيب أمر بلاشير أكثر وأكثر، نقول إن خوف محمد ﷺ عندما واجه جبريل عليه السلام لأول مرة لم يمنعه من حفظ ما سمعه منه، ولا من استعادته وإلقائه كما هو على زوجته الطاهرة خديجة رضي الله تعالى عنها، لقد كان القرآن يكتب في مكة كما كان يكتب في المدينة، وكان المسلمون يتسابقون إلى حفظه ومذاكرته أينما كانوا وحيثما كانوا؛ كما ذكرناه في موضعه .

ولو تكلمنا من طريق العلم الذي يحاوله ويخطئه بلاشير وأترابه، لقلنا إن خوف محمد ﷺ وجلال الخبرة التي كان يمر بها عند تلقى الوحي، ووضوح الأمر له، بأن ما كان يتلقاه هو كلام الله تعالى، كَفِيلٌ وحده بحثّه على كتابة ما كان يسمعه من جبريل والاحتفاظ به، لا الخوف من تسجيله كما توهم بلاشير. أما زعم المترجم الفرنسي بأن اليهود كانوا يحتكرون أدوات الكتابة مما عاق دون كتابة القرآن، فكلام لا يتناسب مع طبيعة أهل ذلك العصر وظروفه أبداً؛ ولا مع البيئة والاجتماع الذي يتكلم بلاشير عنهما كذلك، كيف يحتكر اليهود أدوات الكتابة؟ وأي دليل تاريخي على وجود هذا الاحتكار؟ هذا مع ضرورة استحضار هذه الحقيقة في الذهن؛ وهي أن أدوات الكتابة كانت بسيطة لا تعدو أن تكون لحاف النخيل، وجذوعه، والحجارة المستدقة، وجريد النخل، بالله عليك أيها القارئ من يستطيع احتكار هذه الأشياء، يهوداً كانوا أو غير يهود.

إن وجود هذا العدد من كُتّاب الوحي حول الرسول ﷺ يكذب دعوى بلاشير التي لا أساس لها، ولا يستسيغها عقل سليم. أما زعمه بأن العرب لا يهتمون بالمستقبل فهو من باب البث الاستعماري من قبيل الحرب الباردة؛ إنه يحاول بعد أن خنقته الأدلة، أن يؤصل دعوى أرباب نعمته من المستعمرين في الخط من العقلية العربية، واللغة العربية، فيعود بدعوى الإتكالية والقدرية إلى نبي المسلمين نفسه صلوات الله وسلامه عليه وهو سيد العاملين ومُشَيّد أرقى حضارة في العالمين.

ونقول في سياق الرد عليه أيضًا، إذا كان العرب لا يهتمون بالعمل للمستقبل، ويتركون الأمور تسير هكذا على القدر، فمن هم الذين، يا تُرى، قد حفظوا القرآن، وحافظوا عليه، وكتبوه، وجمعوه، وبثوه في الآفاق، وعلموه الناس؟ ومن هم هؤلاء الذين فتحوا الممالك، وأقاموا المدائن، وأسسوا دور العلم والعبادة، وعبدوا الطرق، وبنوا المستشفيات، وأنشأوا الجامعات والأساطيل، ونشروا العلوم والمعارف، وأقاموا الحضارة وأرسوا قواعدها على الإيمان بالله الواحد، وعلى القرآن الزاخر بالقيم والأخلاق، وتركوا هذه الذخائر من المخطوطات التي تغطي كل مجالات العلوم والمعارف؛ وتلك المساجد والقصور في مشارق الأرض ومغاربها، خير شاهد على فضلهم وتفوقهم وسبقهم؟

لقد تعلم المسلمون وتكذبوا وتحضروا، بينما كانت أوربا لا تزال تضرب في بيداء الجهالة والوحشية والبربرية بجران. هذا ما يقرره المنصفون من الأوروبيين أنفسهم. وإن الحضارة التي نَعِم بها بلاشير وثأه على المسلمين بمعطياتها لم تكن لتبرز إلى الوجود لولا ظهور أمة التوحيد بتعاليم نبي الرحمة. إن محمد ﷺ كان يحسب لكل شيء حسابه، ويضع كل شيء في موضعه الصحيح، وإن الإسلام بحملته إنما جاء لتعديل الحاضر الوبيء، وتهئية المستقبل الصالح للأمة المؤمنة ديناً ودنياً لإنقاذ البشرية كلها.

إن أخطاء المترجمين الغربيين ومقدماتهم وتعليقاتهم على هذه الترجمات إنما هي تجسيد حي لموقفهم المنحاز ضد القرآن ورسول الله ﷺ، فَهْمٌ إما، جهلاً وإما تحريفاً، يترجمون العبارة القرآنية واللفظ القرآني بألفاظ وعبارات تنحط بالعبارة عن رتبها البلاغية الإعجازية وتنزل بها إلى مستوى بشري عادي، أو قريباً منه، من حيث الأسلوب والمعنى.

فعلى سبيل المثال ترجم بعضهم قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ (العصر: ١) هكذا (by the afternoon)، بما يجعل القَسَمَ الإلهي بفترة زمنية محدودة من فترات النهار؛ وهو غير المقصود من كلمة العصر التي تستغرق الزمن كله أو الفترة العظيمة منه، وترجموا آية ﴿أَقْرَأْ﴾ هكذا (recite) وتجنّبوا كلمة (read)، وذلك لأن الكلمة الأولى تعني اقرأ من شيء معد من قبل وهو مما يتسق مع دعواهم في بشرية القرآن واستلاله من مصادر بشرية أقدم منه.

وترجم أحدهم ﴿فُرُوجَهُمْ﴾ (النور: ٣٠)، ﴿فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١)، بما يعنى "أجزاءهم أو أجزاء أجسامهن الخاصة".

وترجم ماكس هاننج لفظة الإبل في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾، بالسحاب؛ وترجموا ألفاظاً وعباراتٍ مثل قوله: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ (النبأ: ١٠) - وهما من بلاغات القرآن العالية-، ترجموها ترجمة حرفية تذهب ببلاغة القرآن. كما ترجم جورج سيل كلمة ﴿بَغِيًّا﴾ (مریم: ٢٠) بكلمة (harlot) وهى أقبح كلمة فى اللغة الإنجليزية فى هذا السياق ، وكان من الأفضل أن تستعمل (unchaste)، وهى التى استعملها آربرى، ويوسف على فى ترجمتهما، ولعله مما سهل على سِيل (Sale) استخدام هذه اللفظة النابية وجودها فى كتب العهد القديم والجديد^(١).

نتناول هنا أسباب إباحة بعض ما تحتمله عبارات القرآن إلى اللغات الأخرى. وردت رسالة من مسلمي جزائر جاوا (أكبر جزر إندونيسيا) إلى الشيخ محمد نصيف العالم المكي؛ تقول ما نقله ملخصاً السيد محمد فريد وجدى: "إن التعليم الشائع بين سكان تلك البلاد يقوم باللغات الإفريقية، وفى مدارس لا تعلم اللغة العربية، ولذلك يقرأ المسلمون وأولادهم فى تلك المدارس القرآن الكريم فى تراجم قام بها مترجمون غير موثوق بأمانتهم، بل إن بعض هذه التراجم كان لها أثر فى إفساد عقائدهم، لأن بعض القائمين بها كانوا من المنصرين، أو من أتباع مذهب الأحمديّة (القاديانية) فى الهند، والذين يقرءون القرآن الكريم

(١) انظر ترجمة سيل ص ٢٠٩.

في هذه التراجيح لا يعرفون ذلك، ويعتقدون أن هذا هو القرآن الصحيح". ثم يمضي كاتب الرسالة فيقول: "إنه لما وقف على خطورة مثل هذه الترجمات بدأ يوعى الناس ضدها، وينهاهم عن قراءتها، ثم طالب بعمل ترجمة آمنة، يُقرأها علماء المسلمين مع إلحاق تفسيرات وتعليقات توضيحية بها، تبين صعوبة ترجمة القرآن واستحالة الإحاطة بمعانيه (كلها) على أى لغة إنسانية أخرى غير العربية"، وقال صاحب الرسالة أيضاً: "إن مثل هذه الترجمة تفيد في بيان الإسلام وآداب القرآن وأحكامه وفي إبلاغ الدعوة المحمدية إليهم بلغتهم"^(١)، وفعلاً لم يستطع المبشرون أن يحرفوا النص العربي للقرآن، لكنهم استطاعوا أن يحرفوا في معانيه عند الترجمة.

وقد قلنا في بحث آخر لنا إن الترجمة أو الترجمات الأوربية للقرآن والمقدمات التي كتبت عليها مسئولة إلى حد كبير عن غرس جرثومة العداء الديني والثقافي للعرب وللمسلمين في نفوس الأوربيين، وهي في تقديرنا أيضاً مصدر من مصادر الإفراز المظلم للعقلية الأوربية فيما يتصل بموقفهم من الإسلام والقرآن، ومثل هذه الترجمات قد شكلت القاعدة التي انطلق منها الاستشراق والتنصير وهي سبب من الأسباب التي وطأت الطريق للخارجين على الإسلام من القاديانية والبهائية وجرأتهم على أن يحرفوا في معاني القرآن لتلائم معتقداتهم الباطلة. ولهذا وقف علماؤنا ضد الترجمة على أى نحو كانت.

وينبغي أن يكون واضحاً أنه لو بدأت الترجمة مبكرة للقرآن لأضر ذلك بالقرآن ضرراً شديداً، ولصرف الناس عن تعلمه وفتح الطريق أمام الملحدّين للطعن فيه وتجريف كلمه، ولأضر ذلك باللغة العربية أيما ضرراً؛ وعلى الرغم من هذه المخاطر كلها نقول ونكرر إن الترجمة خطر لا بد منه، وبخاصة في صد هذه الهجمات العلمانية الشرسة، ومواجهة الصراع اللغوي والحضاري والثقافي والديني الحديث بتقنياته وآلياته المعقدة والتي تسيطر على عالمنا المعاصر، لا بد أن تكون لدينا ترجمات صحيحة لمعاني القرآن فشعوب العالم اليوم يدرس بعضها، ويتحسس بعضها أخبار بعض بصورة أوسع؛ وربما ألدع وأفجع من ذى قبل، وليس من المعقول ولا من المقبول شرعاً أن نضع القرآن في سياج أو جراب، وليس من السهل علينا أيضاً منع أحد من ترجمته. فالحاجة إذن ماسة إلى الترجمة؛

(١) محمد فريد وجدى . الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن ص ١٠ .

والترجمة الآمنة للقرآن تدرس الآن في أقسام اللغة العربية بالجامعات الأوروبية والأمريكية؛ واليوم وقد اتسع نطاق الترجمات بكل أنواعها في العالم كله؛ فإنه ينبغي علينا كمسلمين أن نقدم الترجمة الأفضل، وأن نتابع التراجم المختلفة للكتاب العزيز ما أمكن، وننبه على أخطائها ومخالفاتها للنص إن وجدت، أو بالأحرى إن تُعمِّدت؛ وأن ننبه كذلك على أن القرآن نفسه غير قابل للترجمة للأسباب التي قد بينها، وأن ما في أيدي الناس من تراجم إنما هي نوع من التفسير أو التقريب لبعض معانيه بلغة أجنبية، وهذه الترجمات لا يطلق عليها قرآن بأي حال من الأحوال، اللهم إلا على سبيل المجاز فقط، وإلا فالقرآن لا يمكن أن يكون غير عربي لأن الله يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ (طه: ١١٣)، ﴿يَلْسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: ١٩٥) فقد قيّد الله تعالى القرآن بأنه عربي فنفي عنه بالتالي أن يكون أعجميا، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُضِّلَتْ ءَايَاتُهُ ؕ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ (فصلت: ٤٤)؛ وإن القرآن يمثل قيمة للغة العربية في كل العصور، ولا توجد لغة أخرى كان يمكن أن تتحمله أو تجود بمثله.

الفصل الثاني

الترجمات المختلفة للقرآن الكريم

تُرجم القرآن إلى كل اللغات الآسيوية والأوروبية وإلى بعض اللغات واللهجات الإفريقية، ويدَّعي البعض أن أول ترجمة للقرآن إلى اللغة الفارسية قام بها سلمان الفارسي، وهذا زعم لا أساس له إذ لم يكن للصحابي الجليل أن يُقدّم على ترجمة القرآن كله، دون مشورة الصحابة وهو يَعرف أن مجرد جمعه وضبط حرفه، على عهد الصحابين الجليلين أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما كان موضع أخذ وردّ وقبول ومعارضة بين الصحابة؛ وقد ذكرنا سابقاً أن سلمان رضي الله عنه قد سئل أن يترجم الفاتحة فقط، ليستعين بها بعض الفرس على الصلاة، ومع ذلك فإن الشك يحوط بهذه الرواية، وإننا لنعجب أن يطلب منه تفسير الفاتحة ليصلى بها المسلمون من الفرس، ثم يتطوع هو فيترجم القرآن كله، دون ضرورة ملزمة أو حاجة ملحة؛ ولو أن سلمان كان قد فعل ذلك لبعض الفرس، وهم أهل عصبية، لعضوا على هذه الترجمة بالنواجذ إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث ألبتة؛ ولو سن سلمان ذلك لقلده صحابة آخرون فترجموا لإخوانهم في اللغة، ولكننا وجدنا بالتالي ترجمات سريانية وعبرية ولايتينية وإغريقية، وهيروغليفية، وهكذا... إنه لا يوجد أي دليل على ذلك وما قلناه عن الترجمة الفارسية المزعومة يصدق أيضاً على الترجمة البربرية التي ذكر كاتب المقال أنها تمت في عام ١٢٧هـ/ ٧٤٤ - ٧٤٥م؛ والترجمة السنديّة التي وضع لها تاريخ هو ٢٧٠هـ / ٨٨٣ - ٨٨٤م؛ وهما كالترجمة الفارسية المزعومة غير موجودتين ولا دليل عليهما.

توجد بعض الترجمات التي وصلت إلينا باللغة الفارسية، وأقدم هذه الترجمات هي ترجمة تفسير الطبري (ت: ٣١٠هـ / ٩٢٣م) والتي ترجمها صاحبها لأبي صالح منصور بن نوح الساماني، حاكم ترانسوكسانيا وخراسان (٣٦٥ - ٣٦٦هـ / ٩٦١ - ٩٧٦م)، وتاريخ هذه الترجمة غير معروف بالتحديد، ولكن من المقدمة يستفاد أن أبا صالح قد جمع العلماء وسألهم رأيهم في مشروعية ترجمة القرآن إلى الفارسية، وجاء رأيهم بإمكان الترجمة، بشرط أن يجتمع لها العلماء الأكفيا. ونزيد نحن على هذا الشرط، أنهم يجب أن

يكونوا من المسلمین بأسرار اللغتين وأن يكون عملهم جماعياً.

وقد ذكر ستوزي أنه توجد عدة مخطوطات لهذه الترجمة أقدمها مخطوط "رامبور"،
والمؤرخ في (٦٠٠هـ/ ١٢٠٣-١٢٠٤). وقيل إن ترجمة فارسية يرجع تاريخها إلى عام
٣١١هـ.

وتوجد ترجمة فارسية أخرى للقرآن بخط روماني وفي تاريخ أبعد من هذا التاريخ
كثيراً. ظهرت بعض ترجمات، أخرى للقرآن وتفسيره، كتبها ونسخها شخص يسمى
محمد بن أبي الفتح عام ٦٢٨-١٢٣١م؛ وهذه المخطوطة محفوظة بلمبرج، وقد اطلع عليها
(E.G. Brown) براون.

وسجل المستشرق ستوزي المذكور ثمان وأربعين ترجمة للقرآن والتفسير، وفي
ملحق خاص قدم المستشرق نفسه عناوين أصلية وفرعية لأربع وسبعين ترجمة، وثمانية
مجموعات مختارة لتفسيرات متنوعة، مجهولة المصدر؛ كما أشار أيضاً إلى عدة ترجمات
فارسية وهندية لا تحمل أسماء أصحابها ويقول مولانا محمد علي القادياني أن الشيخ
ساعدي ترجم القرآن إلى الفارسية؛ وتقول بعض المصادر بوجود ترجمة فارسية للقرآن
الكریم تمت من خلال ترجمة مختصرة لتفسير ابن جرير الطبري حوالي عام ٣١١هـ، في
عهد الملك أبي صالح منصور بن نوح بن نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني؛ غير أن هذا
التفسير لم يعثر عليه إلى الآن. كما توجد نسخة لترجمة بالتركية الشرقية تمت في عام
٧٣٤هـ في متحف الآثار التركية الإسلامية باستنبول^(١).

كانت ترجمة تفسير الطبري إلى الفارسية هي مصدر الترجمة الأولى للقرآن إلى اللغة
التركية، وقد ادعى توجان أن الترجمتين كانتا متعاصرتين، ولكن عنان يؤرخ للترجمة
التركية بالنصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي؛ ويقال إنه
توجد سبعين ترجمة باللغة التركية بدأت تخرج للنور على الأقل في القرن الرابع الهجري،
الحادي عشر الميلادي، واستمرت هذه الترجمات سالمة حتى وصلت إلينا في مئات من
المخطوطات، تحتفظ بها مكتبات تركيا والتي كتبت بعدة لغات طورانية، شرقية وغربية
وغيرها.

(١) حسن المعاييرجي. الهيئة العالمية للقرآن الكريم/ الدوحة ١٩٩١ ص ٢٠.

يقول الفيكونت دو طرازي في دراسته المهمة عن القرآن إنه اطلع على ترجمة سريانية للقرآن كاملة؛ ويتوقع طرازي أن الذي ترجم هذه النسخة القديمة هو باسيل مطران الرها، من أعلام عصره في الأدب والبلاغة؛ ويقول إن هذه المخطوطة النادرة قد أفلتت من الضياع أثناء النكبة الخطيرة التي حلت بمدينة الرها في عام ١١٤٥م يوم اكتسحها زنكتي ملك الموصل (٥٤٢-٥٩١هـ)^(١).

وإذا كنا قد تكلمنا عن الترجمات الكاملة للقرآن في اللغات المختلفة، فإنه ينبغي هنا أن نشير إلى وجود ترجمات لبعض آيات من القرآن قام بها مترجمون غير مسلمين وبخاصة من القساوسة السريان؛ حيث تضم مكتبة مانشستر البريطانية، والمتحف البريطاني بلندن مجموعة من المخطوطات باللغة السريانية يرجع تاريخها إلى عهد هشام بن عبد الملك^(٢). وفي كتب المحاورات والجدل الدين توجد كذلك بعض الآيات التي ترجمت ترجمة خاطئة، فعلى سبيل المثال محاورة البطريرك تيمثو السرياني مع الخليفة العباسي المهدي^(٣).

كما أن المطالع لكتاب "علم الكلام الإسلامي والمسيحي" لمؤلفه سويتمان (بالإنجليزية) يجد فيه بلا شك أمثلة كثيرة من هذه الأخطاء المتعمدة في أغلب الأحوال. وقد انتشرت الترجمات العديدة الآن بكل اللغات، بل وبالعديد من اللهجات؛ والواجب على أهل العلم والولاية أن يتابعوا هذه الترجمات، ويقرعوا بعناية، ليقرأوا الصالح منها حتى يقفوا لخصوم القرآن بالمرصاد حفاظاً على قدسية هذا الكتاب الكريم.

الترجمات الأوروبية

انبرى المبشرون والمستشرقون بتوجيه كنسي لترجمة القرآن، وكان الغرض من ترجمته في الأصل هو تحريفه وتشويه معانيه، وتقبيحه في أعين عوامهم، خوفاً من أن يتأثروا بالإسلام الذي كان ينتشر بسرعة فائقة في أوساط أهل الأديان الأخرى وبخاصة النصارى منهم.

(١) وانظر: مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق مجلد ٩ السنة ٣٦٣هـ - ١٩٤٤م الصفحات ٤١٦/ ٤٨٨ والدكتور / محمد صالح البنداق . المستشرقون وترجمة القرآن بيروت . دار الآفاق ١٤٠٣ - ١٩٨٣م ص ٩٧ ، ٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ٩٧ .

(٣) انظر : رسالتنا للدكتوراه " النصرانية من وجهة نظر الإسلام " بالإنجليزية باب التثليث .

وكان من الواضح تمامًا لخصوم الإسلام في القلم والحديث أن القرآن هو قلب الوجود الإسلامي، وسر تفوقه وتميزه على الأديان الأخرى، وأنه لا يمكن القضاء على الإسلام والمسلمين ما لم يتم القضاء على القرآن.

اتجهت أنظار المستشرقين والمستغربين من ثم صوب القرآن، يدرسونه، ويترجمونه من لغته الأصلية، أو من الترجمة اللاتينية فيما بعد، إلى سائر اللغات الأوروبية واللغات الأجنبية الأخرى.

لذلك خرجت أول ترجمة للقرآن من دير كلوني بجنوب فرنسا، بتوجيه رئيس الدير الراهب بطرس المبجل وإشرافه، وكان ذلك سنة ١١٤٣ ميلادية، قام بالترجمة راهب إنجليزي اسمه روبرت كيتون الرتيبي، بالتعاون مع الراهب الألماني هرمان الدالماتي، وشخص مسلم مجهول اسمه محمد، اشترك مع هذه اللجنة بمساعدتها في فهم النص العربي^(١) خوفاً على جماهير النصرانية من أن تتأثر بالقرآن وتتحول إلى الإسلام بدلاً من أن تعاديه، أو على الأقل تتحير وتشكك في دينها.

ولقد ظلت هذه الترجمة بالفعل حبيسة الدير حتى عام ١٥٤٣، وظلت كذلك قرابة الخمسمائة عام، حتى نشرها ثيودور بيلياندر في مدينة بال بسويسرا. كانت هذه الترجمة سيئة للغاية لم يلتزم فيها المترجم الأصول العلمية للترجمة أو الأمانة والدقة في النقل هذا بالإضافة إلى سوء فهمه للغة العربية وجهله بعلوم القرآن ومتطلبات تفسيره؛ إذ الترجمة فرع عن التفسير، وليس يقل عن ذلك في الأهمية سوء نية المترجم ومصادرته على المطلوب، وليس أدل على سوء نيته وقصده من هذا الكلام الذي كتبه هو بنفسه في ذكر أسباب عمل هذه الترجمة يقول: "لقد كشفت بيدي قانون المدعو محمداً، ويسرت فهمه، وضممته إلى كنوز اللغة الرومانية لمعرفة أسس هذا القانون، حتى تتجلى أنوار الرب (المسيح) على البشرية؛ ويعرف الناس حجر الأساس يسوع". وكتب في الشكر والثناء على بطرس المحترم صاحب مشروع الترجمة: "لقد رأيت كنيسة سحلوني في بطرسها ما رآه السيد المسيح في رفيقه بطرس، ويجب أن يشكر (أي بطرس) لتعريض مبادئ الإسلام للضوء بعد ما سمح الدارسون في الكنيسة لهذا الكفر أن يتسع ويتضخم وينتشر لمدة

(١) دائرة المعارف وعبد الرحمن بدوي . موسوعة المستشرقين ص ٦٨ ، ٦٩ .

خمسمائة وسبعة وثلاثين عاما. وقد وضحت في ترجمتي، في أي مستنقع آسن يعشعش مذهب السراسين (أي المسلمين) متمثلا في عمل جندي المشاة يشق الطريق لغيره. لقد قشعت الدخان الذي أطلقه محمد، لعلك تطفئه بنفحاتك (يا بطرس الكلوني).^(١)

توالى الترجمات الأوروبية للقرآن بعد ذلك، وظهرت العشرات منها في أوروبا، وكانت هذه الترجمات بالطبع مشوشة ومشوهة، وكان غرضها جميعا هو الإساءة إلى الإسلام. وكما هو متوقع، فإن هذه الترجمات السيئة قد قامت بدور كبير في زيادة حدة العداء بين جماهير النصارى وبين المسلمين والإسلام، ولقد أفرخت بالفعل أدبا أوربيا أو بالأحرى صليبيّا معاديا للإسلام، كان هو الذي شكل العقلية الأوروبية المتعصبة، التي لا تزال حتى اليوم، ترى في الإسلام عدوا متربصا، وترى في المسلمين خطرا زاحفا، وشرّا يتحتم اقتلعه. وكان من جراء هذا الفهم العشوائي والعدائي للإسلام، أن طالعنا بعض الأوروبيين. تمثل هذه المقولات العشوائية "صراع الحضارات"، "نهاية التاريخ"، "الزحف الأخضر" وأمثال هذه المقولات التي تزيد عالمنا المعاصر تمزقا وتوترًا.

ذكر جيبون أن ترجمة سافاري، ومقدمته (١٧٥٨ - ١٧٨٨) قد اعتمدتا على ترجمتي جورج سيل ومارأكسي، وذلك لأنه لم يكن يجيد فهم العربية على الرغم من إقامته في مصر مدة طويلة وإلمامه باللهجة المصرية أثناء إقامته.

أما جورج سيل (١٧٣٦ - ١٦٩٧) فيعتبر أول إنجليزي دارس للغة العربية ومترجم للقرآن من غير رجال الدين، على غير العادة، فقد كان أبوه تاجرا، لا صلة له بالتنصير؛ وكان جورج سيل نفسه يشتغل بالحاماة، ومن المفيد أن نعرف أن سيل تعلم اللغة العربية كهواية لا غير، حتى وصل فيها إلى درجة عالية من الإتقان، هكذا زعموا؛ هذا الإتقان للغة العربية جعل رجال الدين يستعينون به على ترجمة العهد الجديد الذي سبق أن ترجمه لهم مسيحي سرياني. وهذا في حد ذاته يدل على عدم صلاحية الترجمة السريانية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإنه يبين بوضوح عدم وجود ترجمة عربية للعهد الجديد، حتى هذا التاريخ المشار إليه، وهذا في حد ذاته يُكذّب دعوى اقتباس محمد ﷺ أو انتحاله من كتب النصارى.

(١) حسن المعايرجي. الهيئة العالمية للقرآن الكريم ٤٤، ٤٥

يُعتبر عام (١٧٣٤) في تقدير كُتّاب الغرب، بداية لمعرفة جديدة وأكيدة بالإسلام. ولقد مثلت ترجمة جورج سيل القاعدة العريضة للترجمات والبحوث اللاحقة، في مجال الدراسات الإسلامية باللغات الأوروبية حتى القرن التاسع عشر. زعم سيل أنه إلى جانب معرفته باللغة العربية قد اعتمد على بعض كتب التفسير الإسلامية العربية، وعلى ترجمة القس الإيطالي لودوفيكو مارأكسي التي نشرت في بادو عام ١٦٩٨؛ وقبل أن نلقى بعض الضوء على ترجمة مارأكسي ينبغي أن نوضح أن سيل لم يعترف بفضل الأخير عليه كما ينبغي، وأنه قد تبين من مجموعة المخطوطات العربية والتركية والفارسية التي ضمتها مكتبته الخاصة والتي انتقلت فيما بعد إلى مكتبة بودلي بأكسفورد، ليس فيها أيا من هذه التفاسير الإسلامية العربية، التي أشار إليها المترجم، اللهم إلا تفسير البيضاوي الذي يشير إليه سيل كثيراً في تعليقاته على بعض آيات القرآن. كتب القسيس الإيطالي مقدمة شغبية حانقة ضد الإسلام نشرها مع الترجمة المشار إليها، والتي سبق أن نشرها باللغة اللاتينية مع النص العربي في روما سنة ١٦٩١م. كان غرض القسيس الإيطالي هو هدم الإسلام، بحسب تخيله، عن طريق هذه الترجمة، والهجوم غير العلمي على الإسلام، الذي أحقه بمقدمته من أجل أن يصل إلى غرضه المحموم في تشويه الإسلام. عكف مارأكسي على دراسة العربية والمصادر الإسلامية أربعين عاماً من عمره^(١). قد يكون في هذا الكلام مبالغة ولكنه على أى حال يدل بوضوح على مدى العداء الذي كان يكنه رجال الكنيسة الكاثوليكية للإسلام^(٢).

في هذه القرينة لا يفوتنا أن ننبه على نقطة مهمة، وهي أن اهتمام رجال الدين المسيحي بدراسة الإسلام قد سبق، بلا شك، اهتمامهم بدراسة أى دين آخر، وذلك لأنهم رأوا في الإسلام خطراً على ديانتهم، وعلى شعوبهم، لم يروه في أي ديانة أخرى، كما رأوا أنه يتغلغل في نفوس معتنقيه، لا يفرق بين ما هو دنيوى وما هو ديني، إنه ليس دين جوانع أو صوامع أو معابد، بل هو دين يشمل الحياة كلها؛ لذلك فقد جندوا كل طاقاتهم وحشدوا كل إمكاناتهم للإطاحة بنفوذ هذا الدين. أو على الأقل إضعافه في نفوس

(١)

(٢) انظر : عبد الرحمن بدوي . موسوعة المستشرقين والمصادر التي ذيل بها المؤلف كلامه عن سيل ص ٢٥١ .

المسلمين، وتشويهه لدى جماهيرهم النصرانية، حفاظا على كتابهم المقدس، وللحفاظ أيضا على نزعة التسامي التي تزكيتها الكنيسة في نفوس أتباعها.

لم يدرس الغرب الإسلام من منطلق علمي؛ بل من منطلق نقدي وهجومي، لهذا السبب لم تتحسن نظرهم بالنسبة للمسلمين على الرغم من القرون المديدة التي استولوا فيها على مصادر الإسلام ودرسوها وكتبوا فيها المصنفات العديدة؛ وكمثال على ذلك فإنه في الفترة ما بين ١٨١٠ - ١٨٨٥م قد نُشر ما يربو على الألف صفحة من الكتابات التي تدور حول الإسلام أو تتعلق بالعرب بشكل عام^(١)؛ وهذا الكم من الكتابات لم يساعد الغرب على أن يعدل موقفه من الإسلام والمسلمين.

الترجمات الإيطالية

كانت ترجمة "أندريا أريفا بيني" للقرآن إلى اللغة الإيطالية، هي أول ترجمة إلى اللغات الأوروبية الحديثة. وقد ظهرت هذه الترجمة في فينيسيا عام ١٥٤٧م.

وعلى الرغم من ادعاء المترجم الإيطالي بأنه اعتمد في ترجمته على الأصل العربي فإن الدراسات أثبتت أنه لم يعتمد إلا على ترجمة سلفه كيتون المشار إليها سابقاً ، وأن ترجمته لم تخرج عن كونها صياغة مختلفة بعض الشيء لترجمة الأخير. بعد هذه الترجمة توالى ترجمات إيطالية أخرى ليس من غرضنا تتبعها هنا.

الترجمات الألمانية

وعلى أي حال فقد كانت هذه الترجمة الإيطالية هي النص الذي اعتمد عليه المنصر الألماني شولومون إسكويير في ترجمته للقرآن إلى اللغة الألمانية؛ ومن هذه الترجمة الألمانية أخذت الترجمة الهولندية التي ظهرت في عام ١٦٤١م.

وقد ظهرت ترجمة ألمانية أخرى اعتمد فيها مترجمها، على ترجمة رينيكس اللاتينية؛ والتي ظهرت عام ١٧٢١م. وكانت هذه هي الترجمة اللاتينية الثانية بعد الأولى التي أشرنا إليها. وهناك ترجمات ألمانية أخرى جاءت تباعاً، ليس هنا محل عرضها أو مناقشتها.

(١) انظر : فيكتور شوفان بيبيلوجرافيا الكتب العربية أو الكتب التي تتصل بالعرب في أوروبا المسيحية بين سنتي ١٨١٠ - ١٨٨٥م المجلدات ٩ - ١٢ . ليندج ١٩٠٧ - ١٩٠٩م .

الترجمات الفرنسية

أما بالنسبة لفرنسا واللغة الفرنسية، فقد ظهرت أول ترجمة فرنسية للقرآن على يد أندري ديورير^١ وقد طبعت هذه الترجمة عدة مرات في الفترة ما بين ١٦٤٧ - ١٧٧٥م؛ وقد تضمنت كل طبعة من طبعات هذه الترجمة ما أسماه المترجم "مختصر حول ديانة الأتراك" يعنى الإسلام. فالمترجم يجعل الإسلام ديناً للأتراك وحدهم وكأن الأتراك هم صانعو هذا الدين، أو كأن لهم إسلاماً خاصاً يختلف عن إسلام باقى الشعوب الإسلامية، بالإضافة إلى هذا، فإن التعبير "ديانة الأتراك" يوحي بالتعصب الصليبي السياسي ضد الإسلام والمسلمين. وما قلناه بالنسبة للترجمات السابقة، ينطبق أيضاً على الترجمة إلى هذه اللغة، فالأمر فيها لم يتوقف عنده ترجمة واحدة؛ بل تعداه إلى العديد من الترجمات التي توالى تباعاً.

الترجمات الإنجليزية

لقد دفعت الترجمة الفرنسية بأول ترجمة للقرآن إلى الإنجليزية الحديثة إلى الظهور على يد إلكسندر روس^٢، وترجمات أخرى هولندية، وألمانية، وروسية كذلك، وتتسم هذه الترجمة بالمبالغة والتلاعب بالنص وتحريف معناه^(١). اتسع نطاق ترجمة معاني القرآن الكريم في الغرب حتى أصبحنا نجد في اللغة الواحدة عشرات الترجمات، والملاحظ أن هذه الترجمات يقوم بها أفراد لا هيئات عكس ما هو عليه الحال بالنسبة للكتاب المقدس؛ تصطبغ كل ترجمة بأفكار صاحبها ومعتقداته، أو بالأحرى هدفه الذى دفع به إلى هذا الميدان؛ وهذه الترجمات كلها تنطلق من نقطة واحدة وتسعى لهدف واحد، إذ يتفق جميع المترجمين غير المسلمين جميعاً على بشرية القرآن، وبالتالي تعدد مصادره. أما بالنسبة للترجمات التي تحمل أسماء إسلامية فإنها تتنوع بين الفكر الطائفي، والمنحرف، وبين الجهل بأسرار اللغة العربية، وبالعلوم الشرعية، وعلوم القرآن.

(1) See N. Daniel ISLAM And The West. The Making of An Image. Edenburgh 1960 See. Index S. V. Ketton.

من هذه الترجمات، ترجمة عبد الله يوسف على، وهو من مسلمي طائفة البهرة بالهند، حفظ القرآن صغيراً، وتعلم اللغة العربية، والإنجليزية، وآدابها، ومهر فيها؛ وكانت صلته بالتعليم العلماني في مرحلة مبكرة من حياته؛ وقد كان هو نفسه ينادي بتعميم التعليم العلماني بين المسلمين، وباحتذاء مثل الدول الغربية في ذلك؛ صرح بذلك في خطبة ألقاها في غرفة الصالة البيضاء، ونشرت له هذا التصريح مجلة التايمز البريطانية، في عددها الصادر ٢٤ يناير ١٩٠٧م.

هذه الترجمة على الرغم من شيوعها، وعلى الرغم من قيام مجمع الملك فهد بإجراء بعض التنقيحات عليها، فإنها لا تخلو من الأخطاء والأفكار الطائفية؛ ومن الأفكار التي تأثر صاحبها فيها بعلم الكلام المسيحي؛ كما أنها في الوقت نفسه تشتمل على بعض الأخطاء المطبعية.

ومن أمثلة هذه الأخطاء التي تشتمل عليها ترجمة عبد الله يوسف علي من النوعين السابقين:

****** إصراره على تفسير آيات الجنة والنار تفسيراً رمزياً، وعلى تفسير النعيم الأخرى في الجنة بأنه نعيم روحاني لا حسي جسدي، وهذا هو مذهب الباطنية الإسماعيلية، ومذهب إخوان الصفا.

****** تفسيره للمعجزة بالمعنى الرمزي لا بالمعنى الذي تكلم عنه القرآن، وأجمع عليه المسلمون.

****** توسعه في معنى الإيمان بحيث لا يتطلب الإيمان بمحمد ﷺ أو هكذا يمكن أن يفهم من سياق ترجمته وتعليقاته.

****** ترجمته كلمة "الغيب" في القرآن بما يعدها عن مقصود الله، متأثراً في هذا بالعقائد النصرانية والمعتقدات الباطنية، وذلك عند ترجمته لقوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (الأنعام: ٥٩) (with Him are the keys of the Unseen)، و"الغيب" ما غاب عن حاسة الإنسان وعقله ولا طريق إلى معرفته إلا بخبر الأنبياء، لا بالعلوم والتجارب، ولا بالآيات، ولا بالأجهزة، وهو ما لا تعبر عنه كلمة Unseen المأخوذة نصاً من الأمانة النصرانية.

****** وهو يترجم كلمة "جنة" المذكورة في القرآن: "Garden" التي تعني حديقة، مجرد حديقة في بيت.

****** ومن الأخطاء المطبعية ما جاء في مقدمة المترجم "يوسف علي" لسورة الحجر:

"This is the last of the six suras of A. L. M series"

هذه هي السورة الأخيرة في سلسلة السور الست المفتحة بـ "الم" والصواب "الر"؛ وقد فات المترجم أيضا أن يشير إلى ما خالفت فيه سورة الرعد في هذه السلسلة؛ إذ أُنْهِت مفتحة بـ "المر".

وفي تعليق على آية سورة السجدة رقم ١٢ كتبت كلمة (foundation) خطأً هكذا (founation) (التعليق رقم ٦٤٢).

هذه أمثلة قليلة قدمناها هنا؛ وقد قدمنا أمثلة أخرى في بحث لنا عن "ترجمة النص الديني" نحن بصدد نشره بإذن الله تعالى. وأحيل القارئ إلى رسالة الدكتوراة التي أعدها تلميذنا الباحث الدكتور عبد الجليل حسن علي سالم الديب إلى كلية أصول الدين والدعوة الإسلامية، بطنطا (١٤٢٠هـ/١٩٩٨)، بإشرافنا، وعنوان الرسالة "ترجمة عبد الله يوسف علي - دراسة نقدية" وهي أول رسالة علمية في هذا الباب فيما نعلم.

وترجمة محمد أسد هي ترجمة جيدة؛ ولكنها أقرب إلى موضوع الكتابة عن القرآن منها إلى الترجمة، كما أن المترجم يحرص دائما على تفسير السمعيات، والغيبات تفسيراً حسياً تبعده عن المقصود من هذه الآيات والذي اتفقت عليه الأمة.

وترجمة مولانا محمد علي الأحدي اللاهوري الصادرة في عام ١٩١٧م بالانجلترا؛ والتي استطاعت للأسف أن تتسرب إلى مصر؛ فإنها لا تعدو أن تكون تفسيراً قاديانياً للقرآن الكريم؛ وتروجها للمعتقدات القاديانية الخارجة عن نطاق الإسلام، جملة وتفصيلاً، من هذه المعتقدات المرفوضة:

١- القول بنسخ القرآن.

٢- إبطال عقيدة حتم النبوة بمحمد ﷺ؛ والقول بنبوة، بل بإلهية الكافر غلام أحمد- رأس الفرقة الخارجة.

٣- تمجيد الترجمة القيم الغربية، وتكاد تحل العلم المادي محل الدين.

٤- تفسير الألفاظ والجميل القرآنية بنفس الطريقة التي يفسر بها اليهود والنصارى

كتبهم.

وقد قالت مشيخة الأزهر كلمتها في هذه الترجمة؛ وقررت اللجنة التي شكلها مجمع البحوث لفحص هذه الترجمة، أنها ترجمة يقصد بها تحريف القرآن، وتضليل المسلمين، والدعوة إلى بدعة جديدة مخالفة لإجماع المسلمين، كبدعة الأحمدية القاديانية، التي ادعى زعيمها غلام أحمد القادياني استمرار الوحي، وأنه هو المسيح المنتظر، وأنه نسخ بعض أحكام القرآن (يعني الجهاد، ومقاومة الاستعمار)؛ وقد وصفت مجلة المنار فرقة القاديانية، بأنها: "فرقة مسيحية الإسلام" كتبت ذلك المجلة في عام ١٩٢٥ على أثر رفض الأزهر لهذه الترجمة الطائفية.

وجهود القاديانيين وأمورهم لا تزال توجه ضد القرآن، فهم قد نشروا وينشرون العديد من ترجمات المناوئة للقرآن في أمريكا وفي الدول الأوروبية، وفي إفريقيا، وآسيا؛ ويكفى أن نقول إن أول ترجمة للقرآن باللغة الدنمركية، وهي الترجمة الرائجة في الدانمارك هي ترجمة قاديانية أنجزها عبد السلام صادق مادسن دنمركي الأصل، اعتنق الإسلام على الطريقة القاديانية؛ صدرت الترجمة في كوبنهاجن عام ١٩٦٦، ١٩٦٧ بعنوان (Keranen)، في ثلاثة أجزاء من القطع الصغير؛ وتقع في ١٢٦٨ صفحة؛ وأعيد طبعها في عام ١٩٨٠ بمقدمة لرئيس البعثة الإسلامية الأحمدية الاسكندنافية؛ ومما يؤسف له أن هذه الترجمة الطائفية، قد أعيد طباعتها للمرة الثالثة بعد تسع سنوات في عام ١٩٨٩م في مجلد واحد. وقد طبعت هذه المرة بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس الديانة القاديانية، الهالكة؛ الذي احتفل به القاديانيون بمدينة تورنتو في كندا؛ وفي هذا الحفل أقيم معرض لترجمات القرآن. ضم هذا المعرض ٥٢ ترجمة باللغات المختلفة. وقد ترجم القاديانيون القرآن إلى اللغة الألبانية، وهم الآن ينشطون مسلمي البلقان، محاولين بكل الطرق أن يصلوا إلى الحكم في ألبانيا، لإقامة دولة قاديانية بها وهم لا يزالون يعملون على تحقيقها. وقد تنبه علماء إفريقيا لخطورة القاديانية على الإسلام؛ فقد قام الرئيس عيدي أمين بجمع الترجمات القاديانية وحرقها جميعاً.^(١)

وقد أشرنا إلى ترجمة الكافر رشاد خليفة البهائي التي حشاها بالأفكار البهائية الإلحادية التي تصطدم بلا شك مع مبادئ الإسلام الحنيف. ويقال مثل هذا بالنسبة للترجمة

(١) حسن المعايير جي. الهيئة العامة للقرآن ص ٩٢

القاديانية الأثيمة لهذا الكتاب العزيز التي نشرها المدعو الشيخ مبارك أحمدى فى نيروبي فى عامي ١٩٥٣، ١٩٧١م. أتبعَت هذه الترجمة بترجمة قاديانية أخرى، ولكن بلغة اللوجندا، لغة مسلمي جنوبي وشرقي أوغندا.

وفى هذه القرينة نلفت النظر إلى الشاعر الإنجليزي السير ريتشارد لورتن، الذى حاول أن ينظم القرآن شعراً (١٨٢١-١٨٩٠)؛ فقد نشرت مجلة إدنبرة عام ١٨٦٦م، محاولته لنقل معاني القرآن شعراً^(١)، وعلى الرغم من جمال اللغة الشعرية التي استخدمها الشاعر الإنجليزي فى تفسير سورة الضحى، فإن القرآن لا يمكن أن يُنظم وقد نفى عن نفسه أن يكون شعراً، وعن مُبلّغه أن يكون شاعراً؛ فأوصاف الشعر منفية عن القرآن، وليس فى القرآن شعر أصلاً. وأما ما زعمه بعض المتجربين من وجود شعر فى القرآن فباطل؛ لأنه لو كان القرآن شعراً، لسهل على العرب محاكاته والإتيان بمثله، فقد كان فى الشعر مجال تنافسهم، ومعقد فخارهم وسجل مآثرهم. أما إذا وجدت بعض العبارات القرآنية الموزونة بالاتفاق فليس يعنى هذا أن فى القرآن شعراً، إذ أن مثل هذه العبارات القليلة الموزونة لم تكتب على منوال الشعر، ولم تشد البتة عن منهج الوحي من حيث اللغة والأسلوب والموضوع، ومن حيث التوجه والغاية، ثم إن وجود بعض التفعيلات فى كتاب كبير بحجم القرآن لا يميز تسميته بالشعر أبداً^(٢).

وفى هذه القرينة نشير إلى ترجمة القرآن ترجمة شعرية كاملة للقرآن وهى بين أيدينا الآن نفحصها وهى للأستاذ فضل الله نكاين وهو إيراني الأصل ولد فى طهران عام ١٩٣٨؛ كان يعمل محاضراً بجامعة كمبردج وعمل كذلك فى محطة B.B.C البريطانية؛ وعنوان الترجمة The Quran وهى أول ترجمة شعرية كاملة للقرآن The first Poetic Translation؛ والترجمة من منشورات دار دوللى والأنباء بشيكاغو لعام ٢٠٠٠، ومما جاء فى تقرير الترجمة أنها سوف تكشف سر تأثير القرآن على عقول المسلمين وقلوبهم، السر أو الأسرار التى جعلت الطفل المسلم الصغير يحفظ القرآن ويقرؤه كله من ذاكرته، لا يسقط منه كلمة أو حرف، إن هذه الترجمة إضافة حقيقية للأدب العالمى، وهى إضافة لها

(١) انظر : ترجمته لسورة الضحى على سبيل المثال فى د. محمد صالح البنداق المستشرقون وترجمة القرآن . ص ١٢٩ .

(٢) انظر: الباقلاقي (أبو بكر بن الطيب ت ٤٠٣هـ) إعجاز القرآن تحقيق محمد شريف سكر. بيروت دار إحياء العلوم ص ٨٩-٩٣.

مغزاها للوعي الديني على مستوى المعمورة، وهى رائعة الألفية الثالثة، وتقع هذه الترجمة فى ١٠٨٤ صفحة من القطع الكبير، وهى لا تشتمل على النص العربى كترجمة عبد الله يوسف على ويكتال وغيرهما.

وفى تقديمه للترجمة أشار المترجم إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧)، ثم أتبعها بهذه الشواهد التى اقتبسها من أقوال المترجمين للقرآن، على سبيل المثال بيكتال "السيمفونية" "المعروفة" النجىة التى تخاطب الروح والتى يحرك فيها كل نغم فيها قلب الإنسان، ويسيل دموعه ويوصله إلى حد الانجذاب أو الحب المضنى، إن القرآن لا يمكن أن يترجم؛ هذا اعتقاد سلف العلماء من المسلمين، وهى نفسها وجهة نظر المترجم (يعنى نفسه).^(١)

ويقول آربرى: "إن بلاغة القرآن، وإيقاعه فى اللغة التى كتب بها القرآن (اللغة العربية) لها مميزات الخاصة؛ إنها قوية للغاية ومحركة للمشاعر والخواطر لأعلى درجة، هذه الدرجة تجعل أى ترجمة، والتى هى عادة محكومة بطبائع الأشياء ككل عمل إنسانى، تبدو كنسخة هزيلة للروعة المشعة، وللجمال المتألق والنفاذ، للأصل العربى للقرآن؛ إن القرآن ليس نثراً ولا شعراً فى طبيعته لكنه مزيج فذ من الاثنين.^(٢)

ويقول جونز فى تقديمه لترجمة روديل (لندن - ١٩٩٤): "كثير من روعة الأصل يفقد فى الترجمة، وحقاً ما يعتقد المسلمون من أن القرآن لا يترجم" "القرآن هو أقدم؛ وإلى حد كبير هو أول الأعمال العربية الممتازة، وهو الأثر الأدبى الفائق فى مجاله لكل الحدود".^(٣) ونرى من اللازم أن نلفت النظر إلى أن القرآن ليس من الأعمال العربية؛ بل هو وحي نزل باللغة العربية، وليس هو بالكتاب الذى يصنف بين الكتب العربية، إنه نخط وحده، ومثل فريد لا يكرر.

ثم يشير الكاتب إلى بعض الكُتّاب الغربيين الذين حكموا على القرآن من خلال الترجمات فقط، على سبيل المثال المؤرخ والفيلسوف الإنجليزى توماس

(١) انظر النص الإنجليزى (من مقدمة بيكتال ط ١٩٥٧).

(٢) من مقدمة أربى لترجمته ط ١٩٦٢.

(٣) داود من مقدمة ترجمته (لندن ١٩٧٤).

كارلايل (١٨٨١-١٧٩٥م) الذى وصف القرآن بأنه كتاب معقد وممل ومليء بالتكرار والحشو. وقد سبقت الإشارة إلى كلام كارليل فى هذا الكتاب.

ثم يستشهد فضل الله لكاين بكلام إرفنج (منشورات أمانا. فيرمونت ١٩٨٥) والذى يؤيد به بطريقة غير مباشرة إقدامه على هذه الترجمة الشعرية للقرآن. يقول إرفنج فى التعليق على كلام عبد الله يوسف على "إنني أتمنى أن يتهياً مترجم يستطيع أن يوفى لهذه العبارات المحكمة والرائعة حقها كما هى فى الأصل". يقول إرفنج "إن الترجمات التى لا تنفخ روح الجلال والجمال فى قلوب المستمعين (ليست بترجمات) فإن روحاً شعرية ربما تأتى لنا فيما بعد الصياغة النبيلة والجديدة التى نحن فى حاجة إليها".

ثم يعود فضل الله إلى بيكنثال فيثبت له نصاً آخر يتحدث عن الإعجاز اللغوي والبلاغي فى القرآن مركزاً على القوة الأدبية الفذة للقرآن والتى يفوق قوة الشعر والنثر المعروفين (صفحات 1X- X1)..

بعد هذا ذكر المترجم أنه أنفق عشر سنوات فى ترجمته وأنه حاول ألا يخرج بأي شكل عن المعنى القرآني؛ وكضمان لهذا الهدف فإنه أكثر من الرجوع إلى المصادر العربية والفارسية وبالذات فى تفسير القرآن؛ وأنه اجتهد قدر طاقته ألا يدع لأي تفسير طائفي أن يتسرب إلى ترجمته، إنه استوحى الكتاب الكريم وحده أولاً وأخيراً.

المترجم يستحق منا كلمة شكر وتقدير على الجهد المضنى الذى بذله فى إعداد هذه الترجمة، وعلى تغلبه على عقيدته الشيعية واستلهاهم القرآن وحده فى فهم القرآن ونقل ما استطاع فهمه من كلماته إلى اللغة الانجليزية، ومما للمترجم علينا من حق أيضاً أن نشكره على رجوعه إلى المصادر التفسيرية باللغة العربية واللغة الفارسية، ومما لاحظناه أن المترجم يبدى التوقير المأمور به شرعاً عند الإشارة إلى رسول الله ﷺ.

أما كون المترجم قد بلغ الغاية المرضية أم لا فهذا شيء آخر يقال بعد دراسة معمقة، ومراجعة منصفة تستوجب وقتاً أطول ومساحة أوسع، ونحن نتعهد بذلك فى عمل خاص. ولكننا فى الوقت نفسه نعرض الرأى فيما قرأناه من أمثلة.

(١) إن عبارة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (البقرة: ٦) ترجمها "those who have been rejectors" بلفظة "كفروا" ترجمت بلفظة "rejectors" والتي معناها معترضين وكلمة معترضين عامة ليس لها ما يقيدھا في النص الإنجليزي أعنى معترضين على ماذا؟

(٢) وعبارة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: ٧) ترجمها هكذا:

"Atornment grave is to be theirs!"

والتي تعني إذا أعيد ترجمتها إلى العربية "لهم مقبرة عذاب أو عذاب القبر لهم". فالترجمة قد خصصت وفي القبر أما العذاب العظيم نفسه فهو في الآخرة وهذا ما يفهم من الآية. (انظر تفسير ابن عطية ص ١٥٨).

الآية ٢٨ من سورة مريم (يا أخت هارون) أسقط منها عبارة (يا أخت هارون)، واستبدالها بالمقصود منها "you lady virtuous" ومعناها (أيتها الصالحة أو الفاضلة)، وقد اجتهد المترجم في هذا الاختيار دون أي قصد سيئ؛ فانه أشار في الهامش إلى أن العرب قد هجروا مثل هذا التعبير (يا أخ العرب، يا أخت فلان... إلخ) بل إنه قد هُجِرَ أيضا في لغات العالم؛ وأشار إلى نقد المستشرقين للقرآن وزعمهم بأن رسول الله ﷺ (باعتباره عندهم هو كاتب القرآن) قد خلط بين المريمين، مريم أم المسيح، ومريم أخت هارون وموسى، وذكر أن مريم أم المسيح واليزابيث أم يحيى، كلتاها من السلالة المارونية؛ وهذا ما أراد القرآن أن يثبت، وعلى الرغم من هذا فقد كان من الأفضل دينياً ومنهجياً أن يلتزم المترجم بلفظ القرآن مع بقاء الهامش التوضيحي الذي أثبتته لأن عبارة (يا أخت هارون) لم تمحّر ولن تمحّر في القرآن ألبتة، وإن تمحّرت في الاستعمال العربي اليومي. وهي كلمة تبرز المعنى الذي اضطر المترجم إلى التنبيه عليه في الهامش بأجلى مما قاله.

ملحوظة أخرى ينبغي أن ننبه عليها وهي ترجمته للفظه ﴿الْمَهْدِ﴾ في قوله

تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (البقرة: ٢٥٨) بلفظة (crib) التي تعني في المقام الأول "مزود، معلق، كوخ صغير، زريبة للحيوان" ثم "سرير طفل"، وهو غير ما يثيره لفظه ﴿الْمَهْدِ﴾ في القرآن، وكلمة "المزود" هي المذكورة في (إنجيل لوقا

٢: ١٢) والكلمة ترجمتها في (New International Version) بكلمة "manger"

وهكذا ترجمتها نسخة ICNOX (١٩٦١).

والأقرب إلى لفظ القرآن وإلى البيئة القرآنية للحدث ككل، أن تترجم بكلمة cradle مهد. ومع هذا فلا ضير على اختيار المترجم إذا اختار اللفظ المفضل وترك الفاضل.

ومن مقتضيات الإنصاف أن نقول إن الكاتب قد التزم بالمعاني القرآنية تماماً فيما يخص المسيح عليه السلام وأوضح تماماً أن التوحيد هو دين الأنبياء جميعاً، وتعليقاً على آية ٣٤ وما بعدها يؤكد سلامة عقيدته ومحبه للقرآن. (انظر: ص ٤٨٠).

من اللغات غير الإسلامية التي ترجم إليها القرآن، اللغة السريانية، كما أشرنا من قبل، وينبغي أن نبه هنا على أن الترجمة السريانية ناقصة، ولا توجد معلومات مؤكدة عن وجود ترجمة سريانية كاملة. تضم مكتبة مانسستر ومكتبة جامعة هارفارد نسخاً من هذه الترجمات نقلت معاني القرآن إلى اللغة العبرية؛ حيث توجد مخطوطات لترجمات عبرية بجامعة أكسفورد، وكامبردج؛ وفي مكتبة الكونغرس الأمريكية. وقد أخذت أول ترجمتين عبريتين عن الترجمة الإيطالية التي قام بها أريفايني، وأخذت الترجمة الثالثة عن الترجمة الهولندية التي اضطلع بها جليز ميكر. وقد سبقت كل هذه الترجمات تلك الترجمة العبرية التي قام بها هرمان ريكن دروف، في مدينة ليبزج عام ١٨٥٧م.

الترجمات الروسية

يبدو أن أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الروسية ترجع إلى عصر بطرس الأكبر، حيث ظهرت هذه الترجمة في عام ١٧١٦م؛ ذكر ذلك المستشرق الروسي أغناطيوس كرتشكوفسكي في مقدمة ترجمته الروسية للقرآن، التي ظهرت في عام ١٨٨٣-١٩٥١؛ وكانت هذه الترجمة سيئة لأنها لم تعتمد على اللغة العربية، بل على ترجمة فرنسية رديئة أخرجها دوريه عام ١٦٤٧؛ وكانت بعنوان: (Al-Koran Mogomet) (قرآن محمد)؛ وقام بالترجمة الروسية المشار إليها بطرس فاسليفيتس بوسينييكوف، أستاذ بجامعة بادو، وظهرت ترجمات روسية أخرى منها ترجمة أكاديمية العلوم بلينجراد عام ١٩١٤؛ وترجمة فيروفكين في عام ١٧٣٢-١٧٩٥م، وقد صورت الترجمة الإمبراطورة كاترين الثانية في عام ١٧٩٠م؛ وترجمة إلكسندر ألكس كالميكوف، وقد اعتمد في ترجمتها على ترجمة جورج سيل.

هذه الترجمات نسجت كلها على منوال ترجمات أخرى غير الروسية؛ ولذلك لم تأت هذه الترجمات مصقولة وأمينة في نقل المعاني القرآنية، والروح القرآني؛ ولكنها، على أي حال، وبغض النظر عن الدوافع من ورائها، قد ساهمت في تعريف الكاتب والقارئ الروسي - غير المسلم - بالإسلام.

أما أول ترجمة روسية عن اللغة العربية مباشرة، فتحمل اسم الجنرال العسكري بوغوسلافسكي (١٨٢٦ - ١٨٩٣) وقد ظلت هذه الترجمة مخطوطة، لأن الكنيسة قد منعت طبعتها.

وفي عام ١٩٠٥ صدرت في موسكو ترجمة جزئية لإحناز كراتشكوفسكي؛ وفي عام ١٩٦٣ ظهرت ترجمة أخرى للمترجم نفسه، اعتمد فيها على طبعة المستشرق الألماني فلوجل للقرآن الكريم، وتبني ترقيم فلوجل للآيات. وهناك ترجمات روسية أخرى بأقلام مترجمين مسلمين. وبعد سقوط الشيوعية بدأت تظهر بعض الترجمات الأخرى للقرآن الكريم.

الترجمات الأوردية والجنوب شرق آسيوية

ترجمت معاني القرآن إلى اللغة الأوردية في الهند وباكستان، وأقدم ترجمة معروفة لنا هي تلك التي قام بها شاه عبد القادر، وشاه رفيع الدين، عمّا العلامة والواعظ الشهير محمد إسماعيل شهيد؛ ويضم كتالوج المتحف البريطاني الهندوستاني عددًا غير محدود من أمثال هذه الترجمات، وتضم هذه المجموعة الضخمة من الترجمات بعض ترجمات قام بها نصاري معاونون للاستعمار البريطاني، بالطبع، فقد كتب المنصرون ترجماتهم بحروف رومانية.

وقد أصدر أخيرا مجمع الملك فهد ترجمة أوردية جيدة للقرآن الكريم، وذلك ضمن جهوده العظيمة في خدمة القرآن الكريم والدعوة الإسلامية.

ترجم القرآن كذلك إلى لغات هندوآرية أخرى، وإلى لغات درافيرية؛ فهناك نسخ باللغة الأسامية Assamese، والبنجابية، وقد نشرت مجلة العالم الإسلامي التنصيرية سنة ١٩١٥ (بالمجلد الخامس ص ٢٥٤، ٢٥٥) أمثلةً من ترجمة المنصر جولدساك (١٩٠٨). ومن هذه الترجمات ما جاء بالجزرانية، والهندي، والكشميري، والمراثي، والأوريا،

والبنجابي، والسنسكريتي، والسندي^(١).

وفي بلدان جنوب شرق آسيا ظهرت ترجمات لمعاني القرآن الكريم باللغات القومية، واللغات المحلية؛ فقد ترجم القرآن إلى اللغة الإندونيسية، وبعض لغات هذا البلد المسلم الشاسع، المحلية، مثل سندنيس، وحافانيس مكاسارس، وبوجنيز.

كما ترجم القرآن كذلك إلى الملايو، ولغات آسيوية أخرى كثيرة^(٢)؛ على سبيل المثال فقد ظهرت ترجمات لبعض أجزاء القرآن إلى اللغة الصينية، وربما رجعت أقدم ترجمة صينية إلى سنة ١٨٠٠م. وقد جند رجل الأعمال الياباني سالوما، الذي اعتنق الإسلام، نفسه لهذا الغرض، وشجع عمل ترجمة صينية للقرآن، وكان ذلك حوالى عام ١٩٢٥؛ ولا زالت الترجمات تتتابع.

أما الترجمة اليابانية فقد قام بها توشهكو أروتسو، وصدرت هذه الترجمة في عدة طبعات في الخمسينات والستينات والسبعينات من القرن العشرين.

والمسلمون في اليابان يعدون بالآلاف، ولهم مساجدهم القليلة، وأماكن تجمعهم. والإسلام في حاجة ماسة إلى مزيد العناية في اليابان. وشعب اليابان طيب وألوف.

ترجمات معاني القرآن باللغات الإفريقية

أشار ويلش إلى ثلاث ترجمات للقرآن باللغة السواحيلية؛ أولى هذه الترجمات الثلاث، ترجمة جوذفرى ديل، الذى كان له نشاط تنصيرى واسع في وسط إفريقيا، وقد نشرت هذه الترجمة هيئة Spck في لندن عام ١٩٢٣م، وهذه الهيئة متخصصة في نشر المسيحية، عقيدة وتراثاً.

تضم ترجمة ديل أكثر من سبعمئة تعليق تفسيري للمترجم، أو لزميله ج. برونفيلر، وهذه الترجمة لا بد وأن تكون تنصيرية، في لُحمتها، وسداها؛ فقد كان المنصرون يضعون هذه الترجمات كأشراك خداعية لاصطياد عوام المسلمين، حيث يطلعونهم أولاً على الموضوعات التي يتفق فيها القرآن مع بعض الأناجيل بصفة عامة، ثم يقولون لهم على سبيل الاستدراج، هذا هو كتابكم قد اعترف بكتابنا وأخذ منه، فالواجب عليكم إذن الإيمان

(١) المصدر السابق ص ٤٣٠

(٢) انظر : المصدر نفسه و د. صالح البنداق ، المستشرقون ص ١٨٤ - ١٨٨ .

بكتبنا هذه؛ فإذا ما سلّم لهم المخاطب في هذا، انتقلوا به إلى مرحلة أخرى من الخطة، حتى يشككوه، فإذا ما تشكك سهل عليهم انتزاعه من الإسلام وهكذا، ومما يتصل بهذه النقطة ويوضحها أكثر أن نشير إلى طبعة المجمع المعين ببريطانيا لنشر الكتب المقدسة في داخل إنجلترا وفي خارجها، حيث نشروا هذه النسخة العربية بأسلوب حاكوا فيه طريقة القرآن الكريم لاجتذاب المسلمين الهنود للنصرانية (المطبعة الهندية ١٨١٦م)؛ وقد أشرنا سلفاً إلى الترجمة الأحمدية التي نشرها الشيخ مبارك في نيروبي في عام ١٩٧١، ١٩٥٣. وقد نشر أرنست دامان تعليقاً على الترجمة السواحيلية الأحمدية في ثلاث وخمسين صفحة في مجلة المستشرقين الألمان ZDMG^(١).

وقدم العالم السني، الشافعي المذهب، عبد الله صالح الفارسي، ترجمته للقرآن في زانزيبار في الفترة ما بين (١٩٥٦-١٩٦١م) في مجلد واحد في بانجلور (١٩٤٩)؛ والمؤسسة الإسلامية في نيروبي عام ١٩٥٦م.

وتوجد كذلك ترجمات لمعان القرآن بلغات إفريقية أخرى، نذكر منها إجمالاً، اللغات الحبشية، والصومالية، الأمهرية، برنو، عمبرا، هسنوسة، فلانا، ديولا، زولو، ساراكولا، سواحيلي، سونرائي، سوسية، كريثول، كونوكولي، لوغاندي، ملغاش، ولوف، يروبا^(٢).

هذا بالإضافة إلى الترجمات التي ظهرت في لغات أوروبية واستهدفت الأفارقة المسلمين، على وجه التحديد؛ يضاف إلى ذلك الترجمات القاديانية، سواء باللغة الإنجليزية أم باللغات الإفريقية؛ فقد ترجم القاديانيون القرآن، ونشروه مع النص العربي في ثلاثين لغة إفريقية؛ هذا إلى جانب التفاسير الأخرى للقرآن بهذه اللغات، والتي تَرَبُّوا على المائة، بحسب التقدير الذي توصل إليه الدكتور المعايذجي من خلال المصادر التي اطلع عليها^(٣).

وفي خاتمة الكلام عن الترجمات نقول إن الترجمة إلى اللغات الأوروبية بدأت برجال الدين المسيحي، وكانت في الأصل لأغراض تنصيرية خالصة، ثم تطورت بتطور

(١) المجلدين ٨٤ و ٨٥ لعام ١٩٣٠ - ١٩٣١ ص ١٥، ٦٨. ونماق كامل. الفهرست العام لمجلة جمعية الإستشراق الألمانية (ZDMG) ص ١٠٤.

(٢) انظر: دائرة المعارف الإسلامية موضوع البحث ص ٤٣٠ - ٤٣١ وصالح البنداق. المستشرقون وترجمة القرآن، ١٨٨ : ١٨٤.

(٣) الهيئة العامة للقرآن ص ٩٩ : ١٠١.

وسائل الاتصال بين المسلمين والنصارى، وبعد اكتشاف الكثير من المصادر الإسلامية، وانتشار العلم والتنوير بين الأوروبيين، فأصبحت خليطاً من العلم والدعاية التنصيرية معاً؛ ومهما يكن الأمر، فإن الترجمات ما هي إلا عوامل مساعدة على فهم بعض معاني القرآن الكريم وذلك بقدر ما أوتي المترجم من علم، ومن موهبة وخبرة وفقه باللغتين اللتين يتعامل معهما لا كلها؛ ولكنها لا تغني ألبتة عن قراءة القرآن العربي المعجز في لغته، والتي لا يمكن ترجمة معانيه كاملة إلى أى لغة من اللغات؛ بل إنه لا يمكنه كتابة مثله في اللغة العربية نفسها.

وقد مرّ بنا أن القرآن هو الكتاب الوحيد من بين الكتب المقدسة، الذى ظل يُقرأ بلغته الأصلية في كل مكان نزل فيه؛ وهذا في حد ذاته يضيف إلى معجزة القرآن بُعداً آخر، كما أنه يحمل دليلاً زائداً على إلهية مصدر القرآن، وعالمية دعوته؛ وموافقة للفطرة الإنسانية.

وفي خاتمة كلامنا عن الترجمات نقول إن الشعوب الإفريقية المسلمة لم تكن في حاجة إلى ترجمة القرآن لصلتها المباشرة وحبها الأكيد له، فقد حفظ الأفارقة القرآن في لغته العربية، وأحبوا العربية وتعلموها حباً في القرآن، وفي النبي ﷺ، وكذلك فعلت كل الشعوب الإسلامية.

والسبب في ظهور الترجمات الإفريقية التي ترجع بدايةً إلى القرن الماضي هو الاستعمار الذى كان يحاصر اللغة العربية، ومحاولته الدعوب لعزل الأفارقة عن اللغة العربية، وعن القرآن. لقد فرض الاستعمار لغته على شعوب القارة؛ وبالتالي عمل المنصرون وأعوانهم على تقديم ترجمات مشوهة تسيء إلى الإسلام، وتصرف الناس عنه؛ وجميع الترجمات الإفريقية للقرآن والتي واكبت الاستعمار والتنصير في إفريقيا تشبه تلك الترجمات القديمة التي قام بها رجال الكنيسة بغرض الهجوم على الإسلام، وتغيير شعوبهم منه؛ وكل هذه الترجمات تحمل الطابع المسيحي.

نضيف إلى ذلك أن ترجمات القرآن الكريم التي ظهرت في إفريقيا لم تقتصر على اللغات المحلية؛ بل كان منها ما هو باللغة الإنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والبرتغالية، والأمريكانية (لغة البيض الذين استوطنوا جنوب إفريقيا).

الخاتمة

خلاصة القول في آراء المستشرقين ومواقفهم من القرآن

في هذا الموضوع نجمل ما قد فصلناه في ثانيا هذا الكتاب من استعراضٍ لآراء المستشرقين وطعوتهم ضد القرآن الكريم منذ صدور أول ترجمة له في الغرب، وحتى ظهور الكتابات والدراسات المختلفة المعنية بالقرآن الكريم من قبل المستشرقين، وبخاصة ما ورد في دائرة المعارف الإسلامية باللغة الإنجليزية الصادرة عن دار بريل للنشر بليدن في ١٩١٣ - ١٩٣٨م، والطبعة الجديدة الصادرة عن الدار نفسها بالاشتراك مع دار لوزاك للنشر بلندن عام ١٩٦٠م، وكذلك المصادر التي اعتمدت عليها سواءً بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد أضفنا في هذه الخاتمة ما رأيناه مناسباً لسياق الموضوع أو متصلاً به مما لم نكن قد أوردناه في أي من أبواب هذا الكتاب أو فصوله.

استخدم المستشرقون الأوائل على وجه العموم خطةً عملية في تناولهم للإسلام تهدف إلى تشويه صورته والتشكيك في مصداقيته، فاستهدفوا أولاً القرآن الكريم باعتباره قاعدة الإسلام الكبرى الذي اجتمع عليه العرب وأحبوه ودانوا الله بحبه، وعكفوا على تلاوته وحفظه وتدبره، ولأنه الكتاب الذي أحبه العرب ممن دخلوا في الإسلام وتعلموا لغة القرآن ومهروا فيها وصاروا أئمة في علوم القرآن وأعلاماً في العلوم الإنسانية.

اتجه المستشرقون أولاً إلى ترجمة القرآن الكريم بهدف تحريف كلمه، وتصحيف معانيه بحيث تخدم أغراضهم في الخط من الإسلام، ولهذا استخدموا هذه الترجمات بطرق مغرضة للوصول إلى أهداف محددة، وملتوية بعيدة عن النص في لغته وفحواه.

من هذه الطرق:

- انتقاد الأحاديث النبوية الصحيحة.
- اعتمادهم على الكثير من مادة أدب السيرة النبوية والمغازي غير الصحيحة.
- اعتمادهم على الأحاديث الضعيفة، والحكايات التاريخية الملفة، والروايات المتعارضة في ظاهرها دون بذل أي جهد للتوفيق بينها في إطار الروايات الصحيحة والمسلمات الإسلامية، ونحو ذلك.
- وقد قادهم أو ساعدتهم هذه الخطة المسبقة إلى تقرير نتائج غير صحيحة علمياً، وأحياناً كثيرة، غير مقبولة عقلياً؛ وليس لها أدنى ارتباط بمقدماتها، فرعموا على سبيل المثال

أن القرآن كتاب بشرى، ألّفه النبي ﷺ لذلك جاءت ترجماتهم الأولى للقرآن تحمل هذا العنوان "قرآن محمد"؛ وفي سبيل تحقيق هذا الغرض وإبرازه، راحوا يتكبدون كل طريق على غير هدى، ليثبتوا أن محمداً قد استعار من الكتب اليهودية والنصرانية عند كتابة القرآن؛ وقاسوا القرآن خطأ على كتب العهد القديم والعهد الجديد، والتي جمعت من هنا وهناك، في أحقاب زمنية جد متباعدة، كما أكدّه النقاد الغربيون أنفسهم بالنسبة للكتاب المقدس؛ والذي سبق إليه علماء مسلمون كبار في دراسة الأديان المقارنة من أمثال النوبختي، والجاحظ، وابن حزم الأندلسي، والقرطبي، وحجة الإسلام الغزالي، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وابن القيم والقرافي وغيرهم.

ناهيك بالإساءات البالغة التي وجهها هؤلاء الغربيون لرسول الله ﷺ؛ إذ انتقدوا حياته الخاصة والعامة، وزماه رجال الكنيسة المتعصبون بأدوائهم؛ فزعموا أنه كان شهوانياً، ومغرمًا بالنساء، ومزواجاً؛ وزعموا كذلك أنه ﷺ كان مصاباً بمرض الصرع، والهلوسة، والوهم، والهستيريا ... إلخ؛ وأنه ألّف بنفسه الآيات القرآنية التي رأى فيها راحته النفسية، وسلواه الروحية وتحقيق طموحاته في الحياة، وزعموا كذلك أنه ﷺ كان سييء الطبع قاسى القلب، يغدر ويفجر بأصحابه، وغير ذلك من الأوصاف التي تُكذِّبها حياته ﷺ وسيرته، وشهادة معاصريه، ومنهم أعداؤه.

وهذه الأكاذيب ما كان ينبغي أن تُحاك حول رجلٍ قد بلغ القمة بفضائله، وتجرده في كل أعماله وأقواله ﷺ وبجبه للإنسانية، وفتح أعين الناس على العدل والحق والخير، وغير وجه التاريخ، وعدّل مسيرته؛ ووالله لو لم يكن هذا الرجل نبياً أو رسولاً لكان أجدر بنا أن نُجلّه ونتبعه، ونؤثره، ونقدمه على كل عظيم. فما بالك وأدلة السمع، والفؤاد، والعقل، والتاريخ، والسيرة، والآثار الحية الباقية على الدهور قد تضافرت جميعاً على صدق نبوته، وثبوت عصمته، وصحة رسالته، وسمو أخلاقه ﷺ.

كل هذه الأكاذيب حاكوها بقصد الطعن في النبي، كُتبِلغ للقرآن، وحتى لا يكون محمد ﷺ أهلاً للثقة، ولا جديراً بالرسالة. ولذلك لما لم تفلح أكاذيبهم، ولما لم يتوصلوا إلى أغراضهم بالألسنة والأقلام، شهروا السيوف، وحملوا الصليبان ضد المسلمين، وزحفوا عليهم في ديارهم، من كل حذب في أوروبا ينسلون، يقاتلونهم ويحتلون أرضهم ويعبثون بمقدساتهم.

بل لقد كان الاستشراق والتنصير بمثابة الحرب الباردة ضد المسلمين، وكان من المستشرقين من عمل مع قوات الاحتلال البريطاني، وتجسس لحسابهم كالمستشرق " بالمر" (١٨٤٠-١٨٨٢)، ومما ينبغي ذكره أن بالمر ترجم قصائد البهاء زهير؛ ثم ترجم القرآن فيما بعد إلى اللغة الإنجليزية، ونشرت ترجمته للقرآن ضمن سلسلة كتب الشرق المقدسة التي كان "ماكس ميلر" يتولى إصدارها. عمل هذا المستشرق جاسوساً للاستعمار البريطاني في المنطقة العربية، وبالأخص في صحراء سيناء، ليؤلب زعماء القبائل هناك ضد أحمد باشا عراقي، ويجمعهم على نصرة بريطانيا ضد ألمانيا، وقد كان مصيره القتل؛ ومما ينبغي ذكره أيضاً أنه كان من هؤلاء المستشرقين الكبار أعضاء في مجامع لغوية وعلمية، عربية وإسلامية، وكذلك كان منهم أساتذة في جامعات مصرية وعربية أخرى، ينشرون أفكارهم المعادية للإسلام بين المسلمين، تحت ستار البحث العلمي؛ ومن هؤلاء، المستشرق الألماني الكبير فنسنك (١٨٨٢-١٩٣٩م) الذي طُرد من مجمع اللغة العربية بمصر بسبب كتابه: "العقيدة الإسلامية نشأتها وتطورها" والذي ردّ فيه الإسلام إلى أصول شرقية، وجاهلية. ومما هو جدير بالذكر أن فنسنك من المشاركين في إعداد المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي^(١)، ولكن هذا العمل العملاق يستحق عليه الشكر هو وكل من ساهم معه في سبيل إخراجه.

وعلى القائمة يوجد اسم المستشرق الإنجليزي "جب" (١٨٩٥-١٩٧١م) الذي حاك كثيراً من الافتراءات والترهات حول القرآن الكريم، إذ قد ادعى أنه من صنعة محمد، جرياً على الأصولية العدائية للمستشرقين، هذا هو ما ينضح به كتاب (Muhammadanism) الحمديّة (يعني، الإسلام)؛ والمستشرق الألماني فيشر (١٨٦٥-١٩٤٩م) طرد من عضوية المجمع اللغوي سنة ١٩٤٥م؛ لأنه كتب رسالة بعنوان "آية مقحمة في القرآن"، كما ادعى أن الاسم "محمد"، كان يستعمل بين البيزنطيين قبل الإسلام؛ وليس أقل غرابة ولا أبعد في المبالغة من زعمه أن سكان مكة، والمدينة، وأجزاء من الأماكن المحيطة بهما، قد تخلّوا عن استعمال الإعراب في زمن النبي ﷺ وبعده. هذه المقولة المزعومة تخفي وراءها غرضاً آخر غير مجرد الدراسة، وهو الطعن في القرآن كما تبين للقارئ في مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

(١) انظر: نذير حمدان. مستشرقون . السعودية. مكتبة الصديق ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م. ص ٢١٦.

ومن البارزين في مجال الحراية ضد القرآن المستشرق الفرنسي بلاشير (١٩٠٠ - ١٩٧٠م) الذى اقتفى آثار سلفيه، فلوجل، ونولدكه، في طريقة ترتيب القرآن حسب النزول؛ يزعم بلاشير أن فقرة "الغرائق" المزعومة من صميم القرآن، وأن القرآن قد تعرضت أجزاء منه للضياع سواء المحفوظ منها في الذواكر، أم المسطور منها في الدفاتر. ولسنا ندرى على أي أساس بنى بلاشير زعمه في ضياع أجزاء من القرآن. وعلى أي أساس ساغ له هذا القول. ويردد بلاشير دعوى المستشرق اليهودى أبراهام جيحر وغيره، بأن القرآن مأخوذ من مصادر يهودية ونصرانية، مشيرين بالذات إلى إنجيل الصبوة الذى لا يعترفون به ضمن الأناجيل المعتمدة كنسياً؛ وذلك لمجرد وجود بعض النقاط المتشابهة بينه وبين القرآن^(١)؛ وهذا زيف وحيف، أتى لمحمد بهذا الإنجيل، وغيره من الأناجيل، التى لم تكن قد نقلت إلى العربية، بل لم تكن في متناول أيدي عامة النصارى أنفسهم.

يلحق هؤلاء ألفريد جيوم الذى حصل على عضوية الجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩٤٨م، والجمع العراقى سنة ١٩٤٩م. فقد قامت دراسات جيوم كلها على أساس بشرية القرآن وانتحال محمد مادة القرآن من اليهودية والنصرانية؛ وأخطر ما كتب هذا المستشرق كتابيه "حياة محمد" (أكسفورد: ١٩٥٦م)، و"الإسلام" سنة ١٩٥٤م.

وأغرب دعوى قال بما جيوم هى زعمه بأن "الإسلام ابن وقته"، يعنى أن محمداً صلوات الله عليه وسلامه، لم يُبعث إلا لعرب زمانه، وليس لكل العرب في كل زمان ومكان؛ وفحوى هذا الكلام أن الإسلام غير قابل للتطبيق بعد وفاة محمد ﷺ؛ وأن دين الإسلام إنما أسسه محمد ﷺ لمواجهة مشكلات وأمور محلية خاصة، خضعت لظروف معينة، انتهت بوفاته ﷺ. والبديل عن الإسلام في غاية ما ينتهى إليه كلام جيوم هو ضرورة تخلى المسلمين عن الإسلام، وطرح الانتماء إليه وتبنى النموذج الغربى، في الديانة والحضارة. لم يعبأ المستشرق جيوم بالآيات الكثيرة والمتنوعة ولا بالأحاديث الكثيرة والواضحة كذلك في تقرير عالمية الإسلام وشمول دعوته لكل أفراد النوع ومناحى الحياة لكل العقول ولكل البيئات. ونقول بأبلغ صيغ التأكيد إن القرآن لا تتسع له المجتمعات الضيقة المحاصرة، ولا الشعوب المتقاعسة المكبلية بأسباب الجهل والكسل والجمود واليأس.

والمستشرق الفرنسى جون بيرك عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة أيضاً، ممن اعتنق

(١) المصدر نفسه ص ٢١٨، ٢٣٢.

عقيدة سلفه من المستشرقين، والمنصرين في القول ببشرية المصدر القرآني. وقد وجهت الدكتورة زينب عبد العزيز حملةً ضده، وأفلحت في تنبيه الأزهر، وأعلام الفكر في مصر إلى موقفه من كتاب الله تعالى.

أما الكاتب الأمريكي ولُفسونُ صاحب كتاب "فلسفة علم الكلام"، فيزعم أن القرآن متناقض وبخاصة في مسألة "القضاء والقدر"، وهو بهذا لم يتهم القرآن بالتناقض، وإنما لنفسه اتهم بسوء الفهم والتعجل في إصدار الأحكام، وأكد التهمة على نفسه في ذلك. ليس في القرآن تناقض، ولا عوج، وإنما فيه معالجة حكيمة لجوانب النفس البشرية والحياة الإنسانية، وذلك في إطار القدرة والعناية الإلهيتين؛ والتدبير الرباني، ولقد ساءني كثيراً أن ولُفسون قد ترجم الآية الثانية من سورة الحديد: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ هكذا (He, Maketh alive and killeth)، فترجم كلمة "وَيُمِيتُ" بكلمة (Killeth) أى يقتل^(١)؛ وهذا بعيد جداً عن المعنى المراد، ومصادم لوضع اللفظ في قرينة الآية، ومجموعة الآيات المجاورة كذلك. والترجمة الصحيحة لكلمة "وَيُمِيتُ" على النحو التالي:

"He (Allah) makes or causes to die".

وإذا نظرنا إلى ترجمة إدوارد بالمر Edward Palmer (١٨٤٠ - ١٨٨٢) الإنجليزي، وجدناها تلتزم بالحرف أكثر مما تلتزم بالمعنى، ولاحظنا أيضاً أن المترجم قد ضل في شعاب القرآن الكريم؛ وأنه قد جمع إلى عدم الإيمان بالإسلام عدم الإمام بأسرار اللغة العربية؛ فاجتمعت فيه السوأتان معاً، سوءة عدم الاعتقاد، وسوءة عدم الفهم الصحيح.

يقول بالمر عن أسلوب القرآن ولغته: "إن لغته نبيلة وقوية، لكنها ليست أنيقة ولا متأقصة أدبياً، ولا بد أنها قد أثارت دهشة سامعي محمد (ﷺ) وإعجابهم من ناحية الطريقة التي أدخلت في أذهانهم حقائق عظيمة عبر محمد (ﷺ) عنها بلغة الحياة اليومية؛ وليس في الأسلوب القرآني، ولا في الألفاظ شيء عتيق، وليس في كلام القرآن جمال، ولا خيالات لطيفة، ولا محسنات شعرية بدیعة؛ لم يكن النبي يتكلم بفصاحة؛ بل بلغة خشنة، شديدة ومعتادة؛ والتحسين الخطابي الوحيد الذي سمح محمدٌ لنفسه به، هو أنه جعل

(1) Harry Auslryn Wolfson. The Philosophy of the Kalam CUSA, Harvard University Press, 1976 p. 600 and M, Ablaylah. The Persuit of Virtue London 1990 p. 99.

فواصله (أى القرآن)، وكلماته ذوات إيقاع متفاوت الوزن. وجعل معظم عباراته مسجوعة- وهذا أمر كان، ولا يزال طبيعياً، عند كل خطيب عربى، وهو نتيجة ضرورية لتكوين اللغة العربية؛ يرمى المترجم من خلال هذا الزعم أن القرآن غير خارق وغير معجز، وإنما هو من جنس كلام العرب، وبالتالي من مقدوراتهم الأدبية.

وهو بهذا ينفى عن القرآن أهم صفاته، وهى البلاغة العالية والبيان السامى؛ ويقطع كأسلافه بأن القرآن من عمل محمد ﷺ ومن تصميمه. ويعتبر هذا المستشرق أن الفواصل والأسجاع القرآنية "نتيجة ضرورية لتكوين اللغة العربية"، وقد تكلمنا عن الفواصل، والأسجاع فى قرينة لغة القرآن؛ ولكننا نلفت النظر هنا إلى ادعاء بالمر بأن الأسجاع من ضرورات اللغة، هذا إطلاق متعسف، وتَحَكُّمٌ بالباطل.

السجع طريقة من طرق التعبير وليس ضرورة من ضرورات اللغة ألبتة؛ والفرق بين الطريقة والضرورة كبير، كما ذكرنا من قبل. أضف إلى ذلك أن النبى ﷺ لم يكتب القرآن، ولم يختار هو ألفاظه وتراكيبه؛ وإنما تلقاه بحملته من جبريل، الذى تلقاه بحملته عن الله تبارك وتعالى. والفرق بين القرآن وبين حديثه ﷺ، كالفرق بين لغة البشر ولغة القرآن الذى هو كلام الله رب العالمين.

ولكى نعرف مدى غلو هذا المستشرق فى طعنه فى القرآن يبقى أن ندقق النظر فى عبارته الفجة، وهو يقرر طريقته فى الترجمة قائلاً: "لقد ترجمت كل جملة بالقدر من الحرفية، الذى يسمح به الاختلاف بين اللغتين (العربية والإنجليزية)، وترجمته كلمة بكلمة كلما كان ذلك ممكناً. ولكنه عندما يكون التعبير خشناً أو مبتدلاً فى العربية لم أتردد فى نقله، بلغة إنجليزية مماثلة، حتى لو كان النقل الحرفي يصدم القارئ"^(١).

القرآن ليس فيه تعبير خشن أو مبتدل ألبتة، وإنما المبتدل كلام بالمر، ودعاواه الفارغة، وشدة تحامله على القرآن، وتحمله لنقاد الإسلام. هذا غييض من فيض يمكن أن يقال حول ترجمة بالمر، ومقدمته على هذه الترجمة.

والآن نلقى بعض الضوء على ترجمة آرثر جون أربرى (مستشرق إنجليزي ١٩٠٥ - ١٩٦٩) وهو أديب ذواقة واسع الاطلاع. عُنِيَ أربرى بترجمة القرآن الكريم، فأصدر فى أوائل الخمسينيات ترجمة لمختارات من آيات القرآن، صدرها بمقدمة طويلة،

(١) مقدمة ترجمة بالمر والنقل عن عبد الرحمن بدوى . موسوعة المستشرقين ص ٤٤ - ٤٥ .

وكان عنوان هذه المختارات "القرآن المقدس" The Holy Koran، نشرت في المجلد التاسع من سلسلة "الكلاسيكيات الأخلاقية والدينية للشرق والغرب"؛ التي كان يشرف هو عليها منذ عام (١٩٥٠). وفي (١٩٥٥م) أصدر المستشرق نفسه ترجمة كاملة لمعان القرآن في مجلدين؛ ثم في مجلد واحد بالقطع الصغير، عنوانه هو (The Koran Interpreted) القرآن مفسراً أو ترجمة تفسيرية للقرآن^(١).

لم يراع المترجم حرفية تسلسل الآيات، ولا بنائها اللغوي وإنما راعى اختيار أحسن الأساليب في اللغة الإنجليزية ملائمة للتعبير القرآنية؛ ولذلك جاءت ترجمته في ثوب لغوي آتق، وبيان أنصع وأمتع من ترجمات غيره، وإن كان لنا على ترجمته كلام نقوله في غير هذا الموضوع، في بحث خاص عن ترجمة النص الديني دراسة مقارنة. وفي الجملة فإن ترجمة آبري لا تخلو من أخطاء، ومخالفات.

وسوف ندخر الكلام هنا عن ترجمة رودويل Rodwell الإنجليزية للسبب نفسه، ونكتفي بمجرد الإشارة إليها هنا، ولا يفوتنا ونحن نستعرض أهم ترجمات القرآن ومقدمات المستشرقين ودراساتهم حوله، أن ننوه بجهود المستشرق الألماني "فلوجل" (G. L. FLUGEL) (١٨٧٠ - ١٨٠٢) في وضع معجم مفهرس لألفاظ القرآن، والذي أفاد منه بلا شك الباحثون جميعاً في الشرق والغرب وإن كنا لا نوافق فلوجل في طبعته للقرآن (الطبعة الأولى ١٨٣٤، والطبعة الثانية ١٨٤٢م) والتي خالف في ترقيمها المصحف العثماني، كما ذكرناه سابقاً.

وليس يجمل بنا أن نتجاوز التنويه بموقف الفيلسوف الإنجليزي "توماس كارليل" كأحد المعتدلين من عباقرة الغرب، الذي عبّر في كتابه "البطولة وعبادة الأبطال" ترجمة محمد السباعي، عن سخطه من اتهام بني قومه للنبي محمد ﷺ بالكذب والخداع؛ ويعتبر هذا الفيلسوف محمداً ﷺ بطلاً صادقاً، ومؤسساً لأمة كبيرة وعظيمة، يقول: "لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغى إلى ما يدعيه المدعون من أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً خداعٌ مزور، وأن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة، فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنا عشر قرناً (أكثر من أربعة عشر قرناً

(١) انظر: بدوي . موسوعة المستشرقين ص ٧ - ٨ .

الآن) لنحو مائتي مليون (بزيادة بليون نسمة الآن) من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذى خلقنا، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين فائتة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة؟! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأي أبداً ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الزواج، ويصادفان منهم هذا التصديق والقبول، فما الناس إلا حمقى ومجانين، وما الحياة إلا سخف وعبث وضلال، كان الأولى بها ألا تُخلق، هل رأيتم قط معشر الناس أن رجلاً يستطيع أن يوجد ديناً وينشره؟ عجب والله!! إن الرجل الكاذب لا يقدر أن يبنى بيتاً من الطوب... وعلى ذلك فلسنا نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً يتذرّع بالحيل والوسائل إلى بغيته أو يطمح إلى درجة ملك، أو غير ذلك من الحقائق والصغائر، وما الرسالة التى أداها إلا حقاً صريحاً، وما كانت كلمته إلا صوتاً صادقاً صادراً من العالم المجهول؛ كلا! ما محمدٌ بالكاذب ولا بالملفق، وإنما هو قطعة من الحياة قد تفتطرها قلب الطبيعة، فإذا هو شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله..."

ولتوماس كارلايل كلام كثير صادق فى وصف النبي ﷺ فى بلاغه عن الله تعالى، وفى نفسه كإنسان عظيم، ورسول كريم؛ إلا أن كارلايل قد خائنته عبقريته فجعلته يخطئ خطأ ذريعاً يقاس حجمه بحجمه كفيلسوف عظيم، وذلك عندما حكم على كتاب لا يفهمه، ولا اتصال له به فى لغته الأصلية- أعنى القرآن الكريم- بعدم البلاغة، وبالتشويش فى الفكرة والموضوع، وبالتكرار الممل، وغير ذلك مما يتنافى مع مطلق حسن الألفاظ والمعانى القرآنية؛ هذا مع أن القرآن الكريم كان هو خلق النبي ﷺ، وكان هو أساس دعوته ودولته، وكان هو المنهج الذى سار عليه ﷺ فى حياته وألزم بالسير عليه أمته من بعده.

ولقد خانت كارلايل عبقريته وشجاعته الأدبية مرة أخرى عندما أعلن بصراحة مكشوفة، وكأنه يعتذر إلى بنى قومه عن بعض الإنصاف الذى أولاه محمداً ﷺ، بأنه إنما صرح بقوله هذا لأنه "لم يعد هناك خوف من أن يصير أحد من النصارى محمدياً" (يعنى مسلماً). وكلامه هذا يذكرنا مع الفارق بموقف الكنيسة من أول ترجمة للقرآن، إذ لم تسمح بنشرها خوفاً من أن تؤثر على جماهير النصارى.

إنه على الرغم من وضوح عقيدتنا، وسمو قيمنا، وعالمية دعوتنا، وقيامها على أسس راسخة، من الإيمان بالله وبجميع الرسل والأنبياء، وبوحدة الجنس البشري، وعلى الرحمة والتواصى بالحق والخير، والعدل وبالتعاون على البر والتقوى، فإن تأثير الاستشراق والحركات التنصيرية قد وصلت سمومها وجراثيمها إلى نقطة الخطورة في جسم الأمة وعقلية بعض أبنائها سواء بطريقة مباشرة أم بطريقة غير مباشرة.

لقد أحدثت الآراء الاستشراقية بعض الخلل في بنائنا الاجتماعي، وهزة في كيانات الانتمائي والتواصل، حتى إنه يمكن أن نرجع الكثير من أسباب الخلاف بين مثقفينا وبين بعض فئات مجتمعتنا إلى هذه الأسلحة الجرثومية التي تصدر إلى بلاد المسلمين، وتصب في عقول أبنائنا هذه السموم الفتاكة الموجهة إلينا المغلفة تغليفاً جيداً، والمزودة بنشرات من المعلومات المضللة، التي قد يحملها سماسرة منا أذكياء، يروجون لها ويستمتتون في الدعوة إليها والدفاع عنها.

يقول الشيخ أبو الحسن الندوى في كتابه "الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية: "المستشرقون وعلماء الغرب الذين كرسوا حياتهم على دراسة العلوم الإسلامية ويملكون إعجاب الأوساط العلمية في الشرق والغرب وإجلالها وتقديرها، ويقام لآرائهم ونظرياتهم في البحوث الإسلامية في الشرق وزن كبير، أثاروا في قلوب قادة العالم الإسلامي اليوم وزعمائه - ممن تثقفوا في مراكز الغرب الثقافية الكبرى، أو درسوا الإسلام بلغات الغرب - شبهات حول الإسلام والمصادر الإسلامية، وأحدثوا في نفوسهم يأساً من مستقبل الإسلام، ومقتاً على حاضره وسوء ظن بماضيه، كما أن لهم إسهاماً كبيراً في الحث على نكرة "إصلاح الديانة" و"إصلاح القانون الإسلامي"، والمستشرقون يركزون كل جهودهم ومساعيهم على تعرف مواضع الضعف وتمثيلها في صورة مهولة مروعة، وإنهم ينظرون إليها عن طريق الآلة المكبرة، ويعرضونها كذلك للقراء حتى يروا الذرة جبلاً، والنقطة بحراً، والفسيلة نخلة، وقد ظهرت حداقهم، وبان ذكاؤهم في تشويه صورة الإسلام".

"وقليل من هؤلاء المستشرقين يدسون في كتاباتهم مقداراً خاصاً من "السم"، ويختربون في ذلك، فلا يزيد على النسبة المميتة لديهم حتى لا يستوحش القارئ، ولا يثير ذلك فيه الحذر، ولا يضعف ثقته بنزاهة المؤلف، إن كتابات هؤلاء أشد خطراً على القارئ من كتابات المؤلفين الذين يكشفون بالعداء، ويشحنون كتبهم بالكذب والافتراء،

ويصعب على رجل متوسط في عقليته أن يخرج منها، أو ينتهي من قراءتها دون الخضوع لها. ولسنا الآن بصدد استعراض وإيضاح تحريفاتهم وأخطائهم الفنية ودجلهم وتليبهم، فإنه لا شك موضوع علمي مهم، وخدمة دينية عظيمة تحتاج إلى مجمع علمي عظيم^(١).

اطلعنا من خلال هذا الكتاب أيضاً على ما أثاره مستشرقون متحيزون، من أمثال شخت وبرتون حول الأحاديث، وكيف أنهم اتهموا الفقهاء بالوضع والتلفيق للأحاديث النبوية، بغية تأييد أفكارهم والانتصار لآرائهم واتجاهاتهم، وجَهِل أو تَجَاهَل هؤلاء المستشرقون ما أسسه المسلمون من علم الرجال، وعلم الجرح والتعديل، وعلم الرواية والدراية، وكذلك جهلوا الضوابط والمعايير الصارمة التي وضعها المحدثون، وتشددوا في تطبيقها على الأحاديث بحيث ميزوا الصحيح منها، من الضعيف، والثابت عن النبي ﷺ، من الموضوع، مما هو مفصل في كتب مصطلح الحديث وعلومه.

ولقد حلّى لبرتون ورفقائه في المهنة، أن يشككوا في روايات جمع القرآن وبخاصة ما اتصل منها بزيد بن ثابت، الذي ائتمنه الصحابة على عملية جمع القرآن، لمؤهلات توفرت له، وثقة تحققت فيه من قبل كبار الصحابة، الذين تعاقبوا على الخلافة الراشدة. يقولون إن الفقهاء قد وُلِدُوا أحاديث ليؤيدوا بها مذهبهم في جمع القرآن، وصحة أقوالهم في النسخ والنسوخ، هذا مع أن القرآن كان مجموعاً في الصدور والسطور على عهد النبي ﷺ، كما برهننا عليه في هذا الكتاب، بما لا يدع مجالاً للشك. لقد وجد المستشرقون والمنصرون مرتعاً خصباً لخيالهم، في اختلاف مصاحف الصحابة رضوان الله عليهم، مع أن هذه الاختلافات يسيرة، ومرجعها كلها في الأغلب إلى رسول الله ﷺ، وإلى الوحي الذي جاء به جبريل عليه السلام. ومع هذا فقد استقر رأي الصحابة جميعاً، بما فيهم أصحاب هذه المصاحف، على المصحف الذي جُمِعَ بأمر عثمان رضي الله عنه، وفق العرضة الأخيرة للقرآن الكريم.

ولقد بقيت مصاحف الصحابة مدة طويلة بأعيانها، ثم بقيت محتوياتها في كتب القراءات، وكتب علوم القرآن وفي التفاسير، مما يكذب دعوى الغالية والزنادقة، في أن عثمان قد أحرق المصاحف، أو أحدث أمراً في كتاب الله تعالى. لقد بنى هؤلاء النقاد أحكامهم المتعسفة على روايات ضعيفة ساقطة، وأقوال طائفية لا يقام لها وزن عند

(١) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية ص ١٧٦، ١٧٩ الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م الكويت.

المنصفين، ولا يَعتَدُ بها باحث نزيه. شكك المستشرقون في القراءات القرآنية واعتبروها أدلة على تحريف القرآن، وفي سبيل ذلك وَلَوْ ظهروهم للأحاديث الكثيرة، التي تقرر أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وذلك تيسيراً على الأمة، وتسهيلاً على أصحاب اللهجات المختلفة أن يحفظوا القرآن، إذ القرآن لم يكن كتاباً خاصاً بطبقة معينة، ولا لمرحلة عمرية محددة، ولم يكن مخصصاً كذلك للدراسة والبحث فحسب، وإنما كان ولا يزال كتاب دينٍ ودنيا معاً؛ يقرؤه الكبير والصغير، والأمي والمتعلم، والرجل والمرأة، والبدوي والحضري، والعربي والعجمي، وهكذا؛ منذ نزوله وإلى قيام الساعة، وبعد أن استقر القرآن، وأُعْزِيت عنه الألسنة بسهولة ويسر، جمع في مصحف إمام، حسب العرضة الأخيرة، والتي هي بأيدي الناس اليوم، في الشرق والغرب.

تناول المستشرقون الحروف المقطعة في القرآن، وانتهوا من دراستهم لها على أنها كانت رموزاً على أسماء أصحاب المصاحف، لكنها اعتبرت بطريق الخطأ قرآناً، ثم أضيفت فيما بعد إلى المصحف، وقدموا في ذلك تبريرات غير معقولة أُلْبَتَتْ؛ هذا مع العلم بأن أسماء الصحابة التي اقترحوها، لا تطابق أبداً أيّاً من هذه الحروف المقطعة التي زعموا أنها رموزاً عليهم. وأبعد من هذه الدعوى في الإفك، ما زعمه بعض الغربيين من أن المسلمين قد أضافوا فعل الأمر "قل" ليوهمو أن المتحدث هو الله، والمتحدث إليه هو محمد ﷺ؛ وبهذا يتوصلون إلى القول بأن القرآن كلام الله تعالى، وليس كلام محمد ﷺ.

لقد درسنا هذه الحروف وبيّنا أنها جزء من القرآن وسر من أسرارها التي استأثر الله تعالى بعلمها، لغاية يعلمها. إن القرآن مثل الكون يحتوي على أشياء، قد نراها ونحسها، ولكننا لا نقف على دقيق سرها أو حقيقة أمرها، وليس كل ما يُجهَل يُنكر.

درس المستشرقون أسماء القرآن ولغته ليصلوا منها إلى الطعن في أصالته، وفي إعجازه البياني كما أوضحناه فيما سبق، ودرسوا كذلك القصص، والأمثال، والأقسام في القرآن، ليعززوا نتائجهم المسبقة وأحكامهم المُعدّة سلفاً، بأن القرآن من وضع محمد ﷺ، وأنه منتحل من النصرانية واليهودية، وبعض القصص القديمة التي تلقاها محمد ﷺ شفاهاً، ونسج منها هذا القرآن الذي عزاه فيما بعد إلى الله ﷻ، وهذا إفكٌ افتروه، وأعانهم عليه عصابة من أبناء أمتنا المتحيرين، من الذين شكك بعضهم في مصادر الشعر الجاهلي، وجعل القرآن مرآةً لتبنيه محمد ﷺ، واعتبر أحدهم القصص في القرآن فناً أدبياً كأي فن

من الفنون، وأن محمداً ﷺ فنان؛ والأدهى من ذلك ما نادى به أحدهم بمعاملة القرآن نقدياً كنص أدبي مثل سائر النصوص، وقبول تفكيكه وتحليله بغرض دراسته.

إن مثل هؤلاء الكتاب والمستغربين يعتبرون حَمَّالين لآراء الغير لا باحثين، مروجين لا مؤصلين، مستوردين لا مبتكرين؛ والعجيب أن أمثال هؤلاء الكتاب يعتبرون أنفسهم مجددين لا مقلدين، وتلك لعمرى ثلاثة الأثافي.

لقد استهوت المعايير النقدية الغربية، نقادنا الحيارى، فتلقفوها دون وعي، وراحوا يطبقونها بعمه على القرآن الكريم، متجاهلين هُم وأئمتهم من المستشرقين اختلاف الظروف والأحوال والاهتمامات بين القرآن ومجموع كتب العهدين القديم والجديد. ولأن هذه المعايير قد قادت أصحابها إلى الشك في كتبهم وعقائدهم، فلا بد أن تقود دراساتهم أيضاً إلى الشك في القرآن والسنة.

وختاماً فإن هذا الدراسة التي يشتمل عليها هذا الكتاب إنما أبتغي بها وجه الله تعالى، ورضاه في الدنيا والآخرة؛ وإني لأرجو أن أكون قد وفيت الموضوع حقه من العرض والتحليل والموضوعية في إبداء الرأي، والتوصل إلى النتائج المترتبة على الدراسة؛ ولقد بذلت جهداً عظيماً، وقمت بمحاولة ربما تكون جديدة كل الجدة في دراسة آراء المستشرقين على اختلاف مذاهبهم فيما يخص القرآن الكريم، ابتداءً من العصر الجاهلي للاستشراق وحتى وقتنا الحاضر؛ كما أرجو أن يكون هذا الكتاب قد حقق غرض كاتبه من إظهار الحق وتعرية الباطل؛ وفي التنبيه على خطورة ما يُصَدَّرُ إلينا من أفكار، وآراء، باسم البحث العلمي، والتفكير المستنير، وفي التحذير كذلك من خطورة الإهمال في التصدي لمثل هذه الحملات المنظمة والواضحة في الخطأ والغاية.

والله ولي التوفيق، وهو نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع العربية

- ١ - ابن أبي طالب : (حموش بن محمد مختار القيسى القيرواني القرطبي ت: ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م)
 - التبصرة في القراءات السبع - تحقيق محمد غوث الندوى. الهند- الدار السلفية.
- ٢ - ابن أبي داود: (الحافظ أبو بكر بن عبد الله سليمان بن الأشعث السجستاني ت: ٣١٦هـ)
 - كتاب المصاحف - تحقيق د. آرثر جفرى مصر . المطبعة الرحمانية ط ١/١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م.
- ٣ - ابن أبي حاتم الرازى : (أحمد بن حمدان ت: ٢٢٠هـ)
 - كتاب الزينة في الألفاظ الإسلامية - تحقيق حسين بن فيض الهمداني اليعبرى الحرازى القاهرة، مطبعة الرسالة ١٩٥٨م.
- ٤ - آرثر جفرى : (محقق)، مقدمتان في علوم القرآن
 - مقدمة كتاب المباني- لمؤلف مجهول، ومقدمة تفسير ابن عطية)، القاهرة. وبغداد. الخانجي والمثنى ١٩٥٤م.
- ٥ - إسماعيل حقى :
 - روح البيان - بيروت - دار إحياء التراث العربى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٦ - ابن الأنبارى : (محمود بن القاسم المقرئ، النحوى، الحنبلى ت: ٣٢٨هـ).
- ٧ البرهان فورى : (علاء الدين على المتقى بن حسان الدين الهندى ت: ٩٧٥هـ)
 - كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال - تحقيق الشيخ بكرى حياتى والشيخ صفوة السقا - مؤسسة الرسالة ١٤٠٥هـ / ١٩٩٥م.
- ٨ - ابن تيمية : (أحمد بن عبد الحليم ت: ٧٢٨هـ)
 - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم - تحقيق محمد حامد الفقى، القاهرة. السنن المحمدية ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م.
 - رسائل وفتاوى. تحقيق محمد رشيد رضا ومحمد البلتاجى القاهرة - مكتبة وهبة ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.
 - الفتاوى الكبرى- بيروت . دار المعرفة .

- ٩ - الثعالبي : (عبد الرحمن بن محمد)
 - تفسير الثعالبي الموسوم بالجواهر في تفسير القرآن - بيروت الأعلمی بدون تاريخ.
- ١٠ - الجاحظ : (عمرو بن بحر)
 - البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة.
- ١١ - الجواليقي : إمام الخليفة المقتفى (ت: ٥٤٠هـ)
 - المغرب في الكلام الأعجمي.
- ١٢ - ابن الجوزي : (أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن ت : ٦٦٨هـ)
 - عجائب علوم القرآن - تحقيق دكتور عبد الفتاح عاشور - الزهراء للإعلام العربي ط - ١٤٠٧هـ / ١٩٨٦م.
- فنون الأفيان في علوم القرآن - تحقيق حسن ضياء الدين عتر - دار البشائر الإسلامية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٧م.
- ١٣ - ابن جنى : (أبو الفتح عثمان)
 - الخصائص - تحقيق محمد على النجار ط / ٣ . القاهرة . الهيئة العامة للكتاب. ١٤٤٦هـ / ١٩٨٦م
- ١٤ - الحاكم النيسابوري (محمد بن هبة الله ت: ٤٠٥هـ).
 - كتاب المستدرک - حيدر آباد. دائرة المعارف النظامية ١٣٣٤هـ.
- ١٥ - ابن حجر العسقلاني : (محمد بن علي ت: ٨٥٢هـ)
 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري - القاهرة. المطبعة الكبرى ١٣٠١هـ / ١٨٨٣م.
- الإصابة في تمييز الصحابة - ط / ١ مطبعة السعادة بمصر.
- ١٦ - ابن حزم الأندلسي: (علي بن أحمد ت : ٤٥٦هـ)
 - الفصل في الملل والنحل - القاهرة ط. صبيح.
- ١٧ - ابن حيان: (محمد بن يوسف ت: ٧٤٥هـ)
 - التفسير الكبير - المسمى بالبحر المحيط - القاهرة ، السعادة ١٣٢٩ .
- ١٨ - الإمام الأكبر الشيخ الخضر حسين:
 - بلاغة القرآن - القاهرة ١٣٩١هـ.

- ابن خلدون - المقدمة - تحقيق على عبد الواحد وافي . القاهرة - دار تحضة مصر -
الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

١٩ - الخليل بن أحمد :

- رسالة في الحروف (ضمن ثلاثة كتب في الحروف له ولابن السكيت والرازي) -
تحقيق دكتور رمضان عبد التواب، القاهرة- الرياض، الخانجي والرفاعي ١٤٠٢هـ /
١٩٨٢م.

٢٠ - الخياط:

- كتاب الانتصار . بيروت

٢١ - الداني : (أبو عمرو عثمان بن سعيد ت: ٤٤٤هـ)

- المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار - تحقيق محمد أحمد همان، دمشق. دار
الفكر ٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

٢٢ - الراغب الأصفهاني :

- مفردات ألفاظ القرآن - بدون تاريخ . دار الفكر ١٣٩٢هـ .

٢٣ - الرازي : انظر : الخليل بن أحمد .

٢٤ - الشيخ رضی الدين بن الحسن الأشترا بادی النحوی : (ت: ٦٨٦هـ)

- شرح شافية ابن الحاجب مع شرح شواهد لعبد القادر البغدادي صاحب خزنة
الأدب، تحقيق محمد نور الحسن ومحمد الزفراف ومحمد محيي الدين عبد الحميد،
بيروت. دار الفكر العربي ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

٢٥ - الرماني : (على بن عيسى عبد الله أبو الحسن)

- (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن - تحقيق خلف الله محمد وزغلول سلام ،
القاهرة . (دار المعارف ١٣٨٧هـ / ١٩٦٨م) .

٢٦ - الزجاج : (إبراهيم بن السري بن سهيل أبو إسحق ٣١١هـ)

- إعراب القرآن - تحقيق إبراهيم الإياري ، القاهرة . المؤسسة المصرية العامة
١٩٦٣م، ١٩٦٥م.

- معاني القرآن - بيروت عالم الكتب ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

٢٧ - الزركشى:

- البرهان فى علوم القرآن - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة .

٢٨ - الزمخشري: (محمود بن عمر ت: ٥٣٨هـ)

- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل - القاهرة. الحلى ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م.

٢٩ - ابن السكيت:

- (انظر الخليل بن أحمد).

٣٠ - ابن سعد:

- الطبقات الكبرى. دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .

٣١ - السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت: ٩١١هـ)

- الإتيقان فى علوم القرآن السيوطى - القاهرة. الحلى ١٩٥١م.

- الدر المنثور فى التفسير بالمأثور - بيروت . دار الفكر ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

- لباب النقول فى أسباب النزول- بيروت دار إحياء العلوم ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

- مباحث فى علوم القرآن - ط٢ دمشق ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

٣٢- الطبرى : (على أبو الفضل بن الحسن)

- مجمع البيان فى تفسير القرآن - تحقيق السيد هاشم المحلاتى والسيد فضل الله.

٣٣ - الطباطبائى: بيروت. دار المعرفة ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م .

٣٤ - طه الراوى : (الخليل بن أحمد)

- مقال بمجلة الرسالة السنة ١١ ص ٥٥٠ .

٣٥ - عبد الرحمن بدوى :

- موسوعة المستشرقين - بيروت دار العلم للملايين ١٩٨٤م .

- تاريخ الإلحاد فى الإسلام - القاهرة ، مكتبة النهضة ١٩٤٥م .

٣٦ - عبد الرحمن العباسى :

- معاهد التنصيص - القاهرة بولاق ١٢٧٤هـ .

٣٧ - أبو عبد الله الزنجاني :

- تاريخ القرآن - القاهرة . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ٩٥٤هـ/ ١٩٣٥م.

- ٣٨ - عبد الله سلوم السامرائي :
- الغالية في الحضارة الإسلامية - العراق . دار واسط للنشر بدون تاريخ .
- ٣٩ - عبد الصبور شاهين :
- القراءة القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث - القاهرة ، الخانجي ١٩٦٦ م .
- ٤٠ - عبد العال سالم مكرم :
- القرآن وأثره في الدراسات النحوية - القاهرة ، دار المعارف ١٩٦٨ م .
- ٤١ - عبد العظيم الزرقاني :
- مناهل العرفان في علوم القرآن - القاهرة . الحلبي ١٣٦٢هـ / ١٩٤٣ م .
- ٤٢ - أبو عبد الله المحاسبي :
- العقل وفهم القرآن - تحقيق حسين القوتللي، بيروت . دار الكندي ، ودار الفكر ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- ٤٣ - د. عبده الراجحي :
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية - القاهرة - دار المعارف ١٩٦٩ م .
- ٤٤ - ابن عطية :
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز - تحقيق شليق الرهالي الفاروق وغيره، قطر - دار إحياء التراث ١٩٧٧ م .
- ٤٥ - الغزالي : (الإمام، حجة الإسلام محمد بن محمد ت : ٥٥٥هـ)
- المنقذ من الضلال - تحقيق عبد الحليم محمود . القاهرة . دار المعارف .
- ٤٦ - الفخر الرازي : (محمد بن عمر ت : ٦٠٦هـ) .
- تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب - بيروت . دار الفكر للنشر ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥ م .
- ٤٧ - أبو الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري : بيروت . الأعلمي ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢ م .
- ٤٨ - قاسم السمرائي :
- الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية - الرياض، دار الرفاعي للنشر ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣ م .
- ٤٩ - القاضي عبد الجبار بن أحمد المعتزلي :
- تنزيه القرآن عن المطاعن - بيروت - دار النهضة الحديثة (بدون تاريخ) .

- ٥٠ - ابن قتيبة : (أبو محمد بن عبد الله ت : ٢٧٦هـ)
عيون الأخبار - بيروت . دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .
- ٥١ - ابن قتيبة :
- تأويل مشكل القرآن - تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة ، دار التراث ، ١٣٩٣ / ١٩٧٣م .
- ٥٢ - القرطبي : (محمد بن أحمد ت : ٦٧١هـ)
- الجامع لأحكام القرآن - القاهرة - دار العلم ١٩٨٦م ، ١٩٨٧م .
- ٥٣ - ابن كثير : تفسير القرآن العظيم - المختصر - تحقيق محمد علي الصابوني . بيروت .
دار القرآن الكريم . ١٤٠٢هـ / ١٩٨١م .
- ٥٤ - الكرمانى :
- مختصر تفسير صحيح البخارى بشرح الكرمانى - بيروت دار إحياء التراث العربى
١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٥٥ - ابن كمونة : (سعد بن منصور القرن السابع المحجرى)
- تنقيح الأبحاث فى الملل الثلاث - نشرة برلمان ، جامعة كاليفورنيا ١٩٦٧م .
- ٥٦ - لوثر بو ستودار :
- حاضر العالم الإسلامى - ترجمة عجاج نويهض مع تعليقات لأمير البيان شكيب
أرسلان .
- ٥٧ - مصطفى صادق الرافعى :
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية - القاهرة . دار الكتاب العربى ١٩٢٦م .
- ٥٨ - أبو جعفر النحاس :
- الناسخ والمنسوخ - القاهرة . الأنوار المحمدية .
- ٥٩ - ابن النديم :
- الفهرست - مصر المطبعة الرحمانية ١٣٤٨هـ .
- ٦٠ - نذير حمدان :
- مستشرقون . سياسيون . جامعيون . مجتمعيون .
- لطائف مكتبة الصديق ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

- تدريب الراوى فى شرح تقريب الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف - القاهرة - دار التراث (١٩٧٢م)

٦١ - الواحدى : (أبو الحسن على بن أحمد ت : ٤٨٧هـ)

- أسباب نزول القرآن - تحقيق السيد أحمد صقر ، دار القبة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

٦٢ - محمد محمد أبو ليلة :

- محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء فى الرد على الكاتب اليهودى الفرنسى الماركسى ماكسيم رودنسون - القاهرة . دار النشر للجامعات . ط / ١ - ١٩٩٩م

٦٣ - محمد خلف الله أحمد :

- الفن القصصى فى القرآن - القاهرة الأنجلو ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م ، تصنيف : ٢١١ ، ٩٦ م . أ . ف . م / ١٩٠٠٧ .

- الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة (مجموعة بحوث مقدمة إلى برنستون للثقافة الإسلامية) القاهرة . مكتبة النهضة المصرية .

٦٤ - محمد مصطفى الشاطر :

- القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد - مطبعة حجازى ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م .

٦٥ - الدكتور مصطفى زيد :

- النسخ فى القرآن - دار الفكر ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .

٦٦ - محمد فريد وجدى :

- الأدلة العلمية على جواز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية ملحق بالجزء الثانى من مجلة الأزهر سنة ١٣٥٥هـ .

٦٧ - مجد الدين الفيروزآبادى (ت ٨١٠هـ) :

- أسماء القرآن من بصائر ذى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق محمد على النجار ، بيروت . المكتبة العلمية .

المصادر الأجنبية

Keneth, Cragg:

- The mind of the Quran. London /1973.

H. Gatje:

- Koran and Koran exegesis, Zurich 1971 Eng. Translation,
- The Quran and its Exegesis tr. and ed. A. T. Welch, London and Berkeley 1970.

A Jeffery:

- Materials for the History of the Quran Leiden 1937.
- The Foreign vocabulary of the Quran. Baroda 1938.
- The mystic Letters of the Koran in Mw xiv (1924 - 247 - 60).

J. E. Merril,

- Dr. Bell's critical analyses of the Quran in MW, xxxvii (1947). 134 - 48.

-
enlarged, By M. Watt. Edinburgh 1970.

Patricia Cron and Michael Kook.

- Hagarism. The making of the Islamic World. Cambridge University Press 1977.

Berton

- The Collection of the Quran

M. Abu-laylah

- In pursuit of Virtue London 1990.
- Christianity from the Islamic point of View. Unpublished Doctoral Thesis (Exeter 1984).
- Faith, Reason and Spirit; Cairo, Al-Falah, 1998.
- The Qur'an and the Gospels, Cairo, Al-Falah, 1997.

M. Abu-laylah and Norshif Rif'at

- Al. Baha'iyya (under Print).

Dr. Norshif Rif'at

- Ibn Hazm on Jews and Judaism. England Exeter University - 1988.

Bernard Lewis

- Islam & the West; Oxford University Press 1993.

Gerhard Endress

- An Introduction to Islam.
- Trinto English by Carole Hellen. Brand 1988.

Mingana

- A (Trans.) the Apology of Timothy the Patriarch Before the caliph Al-Mahdi, (Cambridge, Heffer & Sons ltd 1928)
- The Transmission of the Quran, Wood Brook Studies, Cambridge 1928 Vol2.

Wolfsan harry Austryn:

- The Philosophy of the Kalam, Harvard Uni. Press 1976.

B. Lewis ET. Al., (ed.)

- The Encyclopaedia of Islam (Leiden, E.J. Brill London, Luzac and Co., 1971).
- Encyclopaedia Judaica, Presented by: I. B. Black, (Jerusalem, Keter publishing House, 1971).
- James Hastings (ed.) The Encyclopaedia of Religion and Ethics (Edinburgh, T. t. Clark, 1908).
- Raym and E. Brown, ET. Al., (ed.) The Jerame Biblical Commentary (London, Geoffrey Cliapman, 1986).

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	شكر وتقدير
٧	مقدمة
١٩	الخطبة والمنهج
٢٣	الباب الأول ... القرآن .. الأصل والمترادفات
٢٥	الفصل الأول .. الاشتقاق والاستعمال القرآني
٥١	الفصل الثاني .. المترادفات في القرآن
٩١	الباب الثاني ... محمد ﷺ والقرآن
٩٣	الفصل الأول .. القرآن بين الوحي والتجربة البشرية
١٠٣	الفصل الثاني .. القرآن ودعوى الانتحال من كتب اليهود والنصارى
١٤١	الباب الثالث ... تاريخ القرآن بعد سنة ٦٣٢م
١٤٣	تمهيد
١٤٥	الفصل الأول .. جمع القرآن
١٧١	الفصل الثاني .. القراءات المتنوعة ومصاحف الصحابة
١٨٥	الفصل الثالث .. كتابة "المصحف الإمام" واعتماد القراءات
١٩١	الباب الرابع ... بنية القرآن
١٩٣	تمهيد
١٩٩	الفصل الأول .. السور وأسمائها
٢٠٥	الفصل الثاني .. الآيات
٢٠٧	الفصل الثالث .. البسملة
٢٢٥	الفصل الرابع .. الحروف المقطعة
٢٣٣	الفصل الخامس .. عناية المسلمين بالحروف المقطعة
٢٣٧	الباب الخامس ... الحوادث والمناسبات التاريخية في النص القرآني
٢٣٩	تمهيد
٢٤١	الفصل الأول .. الإشارات التاريخية في القرآن

٢٤٣	الفصل الثاني .. التأريخ الإسلامي المعتمد للقرآني
٢٤٧	الفصل الثالث .. التأريخ الغربي الحديث لسور القرآن وآياته
٢٥٥	الباب السادس ... لغة القرآن وأسلوبه
٢٥٧	الفصل الأول .. لغة القرآن
٢٧٣	الفصل الثاني .. الألفاظ الأعجمية في القرآن
٢٨٥	الفصل الثالث .. الأسجاع والفواصل المتكررة في القرآن
٢٩٧	الفصل الرابع .. الشكل التخطيطي للقرآن والقصص التي يتضمنها
٣٠٣	الباب السابع ... الأشكال الأدبية والموضوعات الرئيسة للقرآن
٣٠٥	تمهيد
٣١٣	الفصل الأول .. صيغ القسم في القرآن
٣١٧	الفصل الثاني .. آيات الإعجاز العلمي في القرآن
٣٢٣	الفصل الثالث .. آيات الأمر بصيغة "قل"
٣٢٥	الفصل الرابع .. الأمثال في القرآن
٣٣٥	الفصل الخامس .. آيات الأحكام في القرآن
٣٣٧	الفصل السادس .. آيات العبادات والشعائر
٣٤١	الفصل السابع .. موضوعات قرآنية أخرى
٣٤٥	الباب الثامن ... القرآن في حياة المسلمين وفكرهم
٣٥٧	الباب التاسع ... ترجمة القرآن
٣٥٩	الفصل الأول .. رأي علماء السلف في الترجمة
٣٨١	الفصل الثاني .. الترجمات المختلفة للقرآن الكريم
٤٠١	الخاتمة ... خلاصة القول في آراء المستشرقين ومواقفهم من القرآن
٤١٣	المصادر والمراجع العربية
٤٢١	المصادر الأجنبية